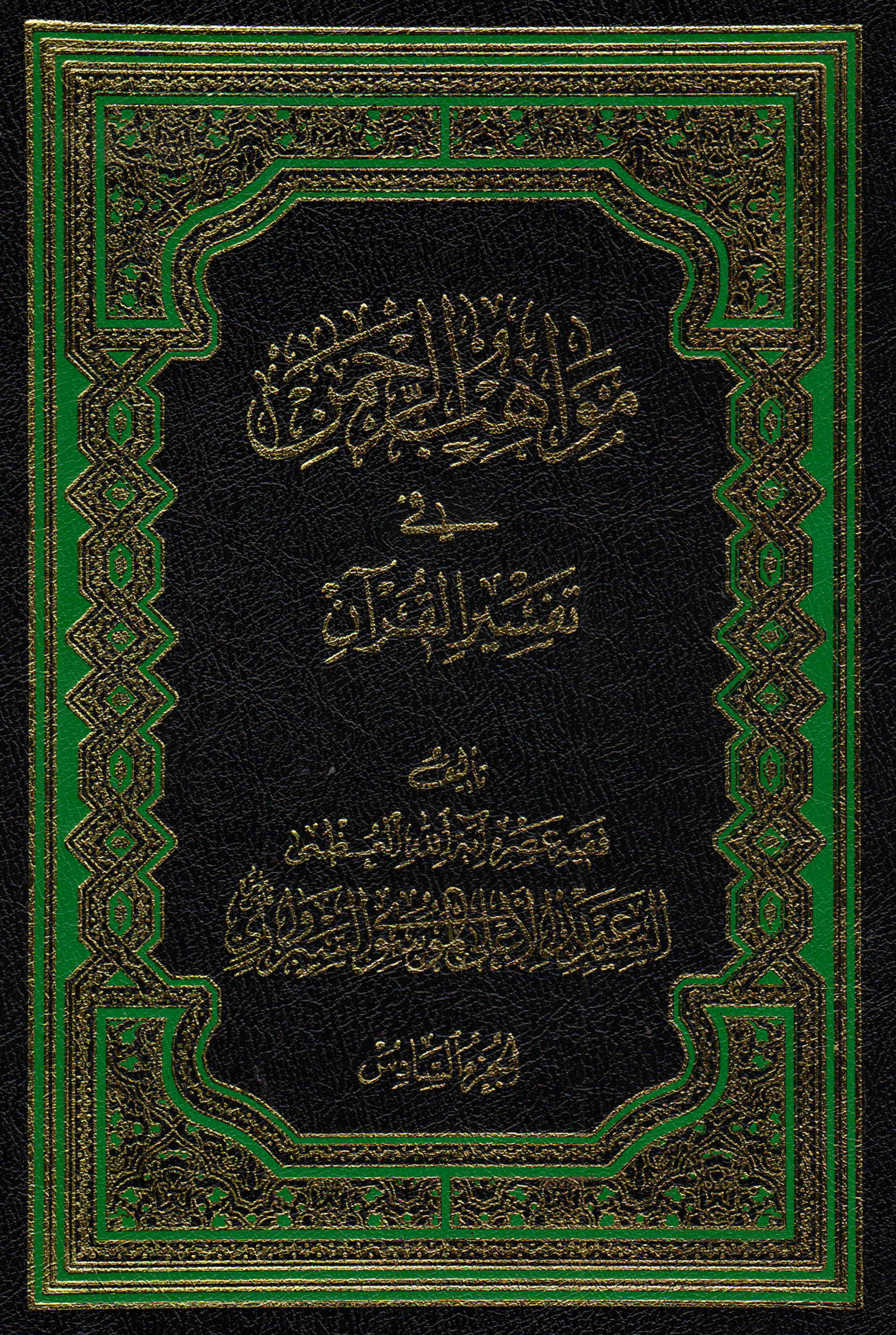

مواهب الرحمن
في
تفسير القرآن
تأليف
فقيه عصره آية الله العظمى
السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري
الجزء السادس



تأليف

فقيه عصره آية الله العظمى

السيد عبد الأعلى الموسوي السبزواري قدس سره

الجزء السادس

سرشناسه	:	سبزواری، عبدالاعلی، ۱۲۸۸؟ - ۱۳۷۲.
عنوان و نام پدیدآور	:	مواهب‌الرحمن فی تفسیرالقرآن/ تالیف عبدالاعلی الموسوی‌السبزواری.
مشخصات نشر	:	قم: دارالتفسیر،۲۰۰۷م. -= ۱۴۲۸ق. -= ۱۳۸۶ -
مشخصات ظاهری	:	۱۲ج.
شابک	:	دوره: 978-964-535-051-0
یادداشت	:	عربی.
یادداشت	:	ج.۶(چاپ دوم : ۱۳۸۶)
یادداشت	:	ج. ۱۲ (چاپ دوم: ۱۴۲۸ق. = ۲۰۰۷م. = ۱۳۸۵).
یادداشت	:	ج. ۱ الی ۱۴ (چاپ سوم: ۱۳۸۹) (فیبا).
مندرجات	:	ج. ۱. فاتحه- البقره.- ج. ۲- ۴. بقره.- ج. ۵ و ۶. آل عمران.- ج. ۷. آل عمران- نساء.- ج. ۸ و ۹. نساء.- ج. ۱۰. نساء- مائده.- ج. ۱۱ و ۱۲. مائده.- ج. ۱۳ و ۱۴. انعام
موضوع	:	تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴
رده بندی کنگره	:	۱۳۸۶ ۸م۲۳س/BP۹۸
رده بندی دیویی	:	۲۹۷/۱۷۹
شماره کتابشناسی ملی	:	۱۰۵۳۵۷۱

منشورات دارالتفسير

قم - خيابان معلم - ميدان روح ا... - تلفن :۷۷۴۴۲۱۲

مواهب الرّحمن في تفسير القرآن ج/٦

آية الله العظمى السيّد عبد الأعلى الموسوي السبزواري

□ الطبعة الخامسة: ١٤٣١ هـ = ٢٠١٠ م

□ المطبعة: نگين

□ الكميّة: ٢٠٠٠دورة (١-١٤)

□ رقم الايداع الدّولي للدورة ISBN Vols: 978-964-535-051-0

□ رقم الايداع الدّولي للجزء السادس ISBN Vol 6: 978-964-535-057-2

٢ـ يوزع هذا الكتاب:

العراق ـ النجف الأشرف، سوق الحويش، مكتبة المهذّب، الجوّال ٠٧٨٠١٥٤١٥٢٣

ايران ـ قم، شارع معلم، ميدان روح‌الله، انتشارات دارالتفسير، تليفون ٧٧٤١٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الآية: ٢٢٨ ـ ٢٢٩

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾﴾.

بعدما سرد عزّوجلّ جملة من قصص عيسى عليه السلام، وذكر أنّ مولده وإن كان على غرابة لكنّه كان أمراً عادياً بالنسبة إلى قدرة الخالق ومشيئته، كما في خلق آدم عليه السلام ومنحه النبوّة والكتاب، وأقام الحجّة عليه بما لا يدع مجالاً إلى الشكّ والارتياب بأنّ عيسى عبدالله، فلا مبرِّر لتأليهه وعبادته.

ما ذكر سبحانه وتعالى حقّ لا يرتاب فيه أحد، لأنّه بيان إلهي اشتمل على برهان قويم يقبله العقل السليم ويسطع نوره على كلّ القلوب، فيدفع عنها الزيغ والضلال، ويستشعر السامع برد العلم واليقين في قلبه، فكانت تلك البيانات الإلهية قد أوجدت عند السامعين قوّة الاحتجاج مع كلّ خصم، بما لا يدع مجالاً للارتياب.

أمر سبحانه وتعالى في هذه الآيات الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وغيره ممّن حصلت له قوّة الاحتجاج، والكلمة الحاسمة الفاصلة بين الحقّ والباطل، وأحسّ ببرَد اليقين في قلبه بالمباهلة ـ في دفع عناد المعاندين وإزهاق الدعاوى الباطلة غير

المنصفة ـ قطعاً للمعاذير ، وحسماً لكلّ إصرار على الغيّ والضلال ، وأرشدهم إلى كيفيّة الاحتجاج ، ووعدهم النصر والغلبة بإذنه عزّوجلّ .

والمباهلة من الأنبياء إظهار لاتّصال نفوسهم القدسية بروح القدس ، وبيان لتأييداته تعالى لهم ، وإرشاد الى انفعال عالم الشهادة وتأثّره بعالم الغيب .

والمباهلة لا تصدر إلّا من النفوس الملكوتيّة ، ولذا كان لها التأثير الكبير على النفوس غير الكاملة وانفعالها بها ، كما انفعلت نفوس النصارى من نفس الرسول صلى الله عليه وآله ، فتنازلوا عنها بعد قبولها لما استشعرت أنفسهم الخوف ، وأحجمت عنها وطلبت الموادعة والمعاهدة ، خوفاً من اللعنة وما يلحقهم من الوزر والوبال ، كما نصحهم رهبانهم في ذلك الحين .

***

التفسير

قوله تعالى : ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ﴾ .

تفريع على ما تقدّم من بيان الحق في عيسى عليه السلام ، والضمير في «فيه» يرجع إمّا إلى عيسى عليه السلام الذى بيّن سبحانه وتعالى الأمر فيه بياناً شافياً بما لا يدع فيه الشكّ والارتياب ، وقد اشتمل على البراهين الساطعة والحجج القويمة . أو إلى «الحقّ» المذكور في الآية السابقة ، الذى هو أقرب لفظاً ، ويكون عبارة اُخرى عن بيان أصل قصّة عيسى عليه السلام .

والمحاجّة : تبادل الاحتجاج ، وهى تستعمل في الحقّ وغيره ، كما حصلت في المقام من النصارى في عيسى بن مريم عليه السلام ، زاعمين أنّه إله أو ابن الله ، باعتبار أنّه ولد من غير أب ، كما حكى الله تعالى عنهم في مواضع متعدّدة من القرآن الكريم ، قال عزّوجلّ :

﴿وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ﴾[1].

وقال تعالى : ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾[2].

وقال تعالى : ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾[3].

قوله تعالى : ﴿مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾.

تطييب لنفس الرسول ﷺ بأنّه على العلم المطابق للمواقع والحقّ اليقين، ووعد منه عزّوجلّ بأنّه ناصره، وأنّه لا يخذله في المواطن، وإرشاد الى أنّ ما عنده من العلم هو الحقّ الذي لا ارتياب فيه، ويقبله العقل السليم، فلا ينبغي التردّد في المحاجّة والمجادلة على الحقّ.

والمراد من العلم، الأعمّ الحاصل من البرهان عن طريق الحسّ، أو عن طريق العقل، أو الوحي الإلهي، فإنّ الجميع يتّفق على أنّ المخلوق الممكن المربوب لا يمكن أن يكون إلهاً وربّاً، وأنّ الله واحد لا شريك له، وأنّه لم يلد ولم يولد.

قوله تعالى : ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾.

تعال : فعل أمر يدلّ على طلب الإقبال من مكان مرتفع، ثمّ استعمل في مطلق طلب المجيء توسّعاً، أي اقبلوا بثباتٍ وعزيمة.

والخطاب للرسول ﷺ بالمحاجّة لقطع كلّ عذرٍ، ودفعاً لكلّ ضلالة، وحسماً لكلّ فساد. والتباهل الى الله عزّوجلّ لمعرفة المحقّ من المبطل، وهو أمر لابدّ منه لحفظ الحقّ عن الضياع، وإتماماً للحجّة على العباد، وصوناً للمؤمن ومقامه في

---

١ . سورة التوبة : الآية ٣٠.

٢ . سورة المائدة : الآية ٧٢.

٣ . سورة المائدة : الآية ١١٦.

الحياة، وإلحاق الخزي والعار والهلاك للمبطل ومَن هو على الغيّ والضلال.

والمخاطب في «ندع» هو المتكلّم مع الطرف الآخر ممّن يراد المحاجة معه، وهو في المقام النصارى، أي يدعو كلّ منّا ومنكم أبناءه، ونساءه ونفسه.

والمباهلة وإن كانت بين الرسول الكريم ﷺ وبين النصارى، ولكن عممّت ليشمل مَن ذكر في الآية الشريفة من الأبناء والنساء والأنفس، لأُمور كثيرة أهمّها:

أوّلاً: أنّ للاجتماع خصوصيّة في الظفر على المطلوب والنيل بالمحبوب، ليست هي في غيره، وأنّ دعاء الجمع أقرب إلى الاستجابة، ولذا أمرنا الله تعالى في غالب الآيات المباركة الى الجمع في الدُّعاء، قال تعالى: **﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَآءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾**[1]، وفي السنّة الشريفة الشيء الكثير، قال ﷺ: «يد الله مع الجماعة».

وثانياً: الإعلام بأنّ الحقّ إظهاره أعظم من كلّ ما يرتبط بالإنسان، وأنّه لا غاية أشرف منه، وإنّ كلّ شيء هو دونه، سواء كان النفس والشرف والأهل.

فالآية الشريفة ترشد الانسان الى أنّه لابدّ أن يكون سعيه ومقصده هو إحقاق الحقّ وإظهاره، وأن لا يثبطه في ذلك الأهل والعشيرة والشرف، بل يفدي كلّ ذلك دونه.

وثالثاً: بيان أنّ مورد المباهلة من الأُمور النوعية والاجتماعية، فلابدّ من الاجتماع فيه لإتمام الحجّة وإيضاح المحجّة.

ورابعاً: اعتماد الداعي والإعلام بأنّه على الحقّ، وأنّه يقدّم الأبناء والنساء والأنفس للمباهلة. ويخاطر بهم في العذاب ويشركهم في الدُّعاء على الكاذبين، لينقطع دابرهم، ويبطل مزاعم المبطلين ويظهر إبطالهم.

---

١ . سورة الأعراف: الآية ١٨٠.

وخامساً: الإعلام بأنّ الداعي مطمئن باستجابة الدُّعـاء وصـدق دعـواه، ويقدّم مَن هو أقرب الناس إليه ويذبّ عنهم في الشدائد والأهوال ويظهر الشفقة عليهم والمحبّة بهم ويتحمّل الصعاب دونهم، ومع ذلك فهو يخاطر بهم في شمول العذاب لهم، وليس ذلك إلّا لكون الداعي على يقين باستجابة دعائه.

وسادساً: الإشارة الى أنـّهم على عظيم من الشرف والكمال، وأنـّهم أقرب الناس الى الرسول العظيمﷺ، وأنّ دعاءهم لا يردّ، ولهم منزلة عظيمة عـند الله تبارك وتعالى، ولذا أمر سبحانه وتعالى بإشراكهم في الدُّعاء والمباهلة معهم.

وسابعاً: الإعلام بأن المباهلة وإن كانت محاجّة بين طرفين، إلّا أنـّه لابدّ أن تكون بإشراف من الله تعالى على الجميع، ولا يعقل أن تكون الرعاية الإلهية لكلّ فرد في هذا الأمر العظيم، وتشمل كلّ مَن لا يكون مرضيّاً لديه عزّوجلّ.

والمراد من الأبناء هم أولاد الرسولﷺ الذكور، المنحصرون في الحسن والحسين عليهما السلام حين نزول الآية الشريفة.

والآية المباركة ليست في مقام تكثير الأفراد في الأبناء والنساء والأنفس، وأنـّه لابدّ من تحقّق ذلك الجمع خارجاً كما هو الشائع بين الناس، بل هي ظاهرة في مقابلة الجمع بالجمع، سواء كان كلّ جمعٍ مشتملاً على الكثرة أم لا، مع أنـّه من مجرّد الانشاء والأمر بالمباهلة، وهما لا يستلزمان كون المصداق الخارجي أيضاً متحقّقاً في الجمع والكثرة، بل المقصود هو الحكم والانشاء والأمر فقط، سواء كان مصداقه واحداً أم متعدّداً، ومثل هذا كثير في استعمالات القرآنية وغيرها:

قال تعالى: ﴿**وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ**﴾[1].

وقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ**﴾[2].

---

١ . سورة البقرة: الآية ٢١٩.

٢ . سورة آل عمران: الآية: ١٧٣.

وبعبارة أُخرى: مصداق النزول والتنزيل لا يكون مقيّداً لأصل الحكم، وهذا ظاهر.

يُضاف الى ذلك أنّ إتيان لفظ الجمع من الأدب المحاوري الذي يلاحظه القرآن الكريم، وهو دائر في المحاورات الفصيحة.

قوله تعالى: **﴿وَنِسَآءَنَا وَنِسَآئَكُمْ﴾**.

النساء: جمعٌ لا واحد له من لفظه، ومفرده المرأة، ولفظ النساء يشمل المرأة التي تنسب الى الشخص بسبب أو نسب، كالزوجة والأمّ والأُخت والبنت، وقد ورد استعماله في جميع تلك الموارد في القرآن الكريم:

قال تعالى: **﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾**[١].

وقال تعالى: **﴿فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾**[٢]، والمراد بهنّ الأخوات.

وقال تعالى: **﴿وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَٰلِدَانِ﴾**[٣]، والمراد بهنّ البنات.

والمتيقّن منهن في المباهلة فاطمة الزهراء عليها السلام بالإجماع ونصوص متواترة، كما سيأتي نقلها.

قوله تعالى: **﴿وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾**.

الأنفس: جمع النفس، وهي تُطلق **تارةً** ويُراد بها الروح، قال تعالى: **﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ﴾**[٤].

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٢٣.

٢ – سورة النساء: الآية ١١.

٣. سورة النساء: الآية ٧.

٤. سورة الانعام: الآية ٩٣.

وأُخرى : يُراد بها الذات والشخص، وهو المراد بها في المقام، وتقدّم في قوله تعالى: **﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ﴾**[1] بعض الكلام.

والمقصود بها نفس الرسول ﷺ القائم بالدعوة إلى الله تعالى، ومَن هو بمنزلته في العلم والعمل والقضاء بالحقّ، وهو منحصر في علي عليه السلام نصوصاً وإجماعاً.

وقيل : إنّه لا يمكن دخول الرسول ﷺ في الآية الشريفة، لأنّ الداعي لابدّ أن يكون غير المدعو، ولا يصحّ دعوة الشخص نفسه.

ويرد عليه : أنّه لم يقم دليل على بطلان دعوة الشخص نفسه، بل الأمر يدور مدار الغرض الصحيح، وقد ورد في الفصيح ذلك، يقال: آليت على نفسي أن لا أفعل كذا، و نحو ذلك ممّا هو كثير، مضافاً إلى أنّ دخول النبيّ ﷺ الذي له مقام الجمع في الجمع و بمنزلة الكلّ ينفي أصل هذا الإشكال.

على أنّ دخول الرسول ﷺ إنّما هو لأجل إثبات منزلة علي عليه السلام، والإعلام بأنّ وجوده عليه السلام بمنزلة وجوده ﷺ في العلم والعمل والخصال الحميدة.

وفي إتيان النساء والأنفس جمعاً، ما تقدّم ذكره من أنّ المراد هو وقوع هذا الجمع مقابل الجمع، سواء تعدّدت الأفراد أم لا.

قوله تعالى: **﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾**.

مادة (**بهل**) تدلّ على شدّة الاجتهاد والاسترسال في الأمر المطلوب، قال لبيد:

في قروم سادة من قومه   نظر الدهر إليهم فابتهل

أي فاجتهد في إهلاكهم. وقد استعمل في الاجتهاد في الدُّعاء، سواء كان

---

١ . سورة آل عمران: الآية ٢٨.

لعناً أم غيره، و(نبتهل) افتعال بمعنى المفاعلة، أي يدعو بعضنا على بعض، ويختصّ هذا الدُّعاء في المقام باللعنة بقرينة ما يأتي.

قوله تعالى: ﴿فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾.

بيان للابتهال. والمراد من اللعنة النكال والعذاب مطلقاً، ومنه البُعد عن رحمته تعالى وتوفيقاته، كما أنّ المراد بالكاذبين همّ الذين كذبوا وافتعلوا الباطل في شأن عيسى عليه السلام، فيكون اللّام للعهد، أي الكاذبين من أحد طرفي المباهلة الواقعة بين الرسول صلى الله عليه وآله وبين النصارى.

ويستفاد من ذلك أنّ أحد الطرفين كان كاذباً والآخر كان صادقاً، وقد ذكرنا أنّ الآية الشريفة تجعل هذا الجمع مقابل الجمع، فتكون الأفراد في كلّ طرف شركاء في الدعوى، فلو كان أحد الجمعين كاذباً كان الأفراد يشتركون فيه، ويلزمه اشتراك الأفراد في الجمع الآخر في الصدق، وفي ذلك فضل عظيم لمَن اشترك في دعوة الرسول صلى الله عليه وآله.

وفي إتيان الكاذبين جمعاً الدلالة على أنّ في كلّ طرف أفراداً متّصفين بالدعوى، سواء كانت صادقة أم كاذبة، وهذا بخلاف ما ذكرنا في الأبناء والنساء والأنفس، حيث إنه لا يعتبر تعدّداً في كلّ عنوان، إذ المنساق هو جعل هذا الجمع مقابل الجمع، سواء تعدّدت الأفراد أم لا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ﴾.

إشارة إلى ما قصّة الله تعالى في أمر عيسى عليه السلام من ولادته إلى حين رفعه من عالم الأرض، والقصص جمع القصّة، وهي مجموعة من المعاني يتابع بعضها بعضاً، من يقصّ فلان أثره، أي يتبع أثره، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ

قُصِّيهِ﴾[١]، وقال تعالى : **﴿فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً﴾**[٢].

وفي تأكيد الجملة بإنّ واللام وضمير المنفصل دلالة على أنّ هذا هو الحقّ فقط، دون غيره ممّا تدّعيه النصارى في عيسى بن مريم عليه السلام ، الذي هو خلاف الحقّ ، وتطييبٌ لنفس رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإعلامه بأنّه على الحقّ واليقين ، وتشجيعه على المباهلة والمحاجّة مع المبطلين .

قوله تعالى : **﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلاَّ اللهُ﴾** .

حصر الأُلوهية في الله تبارك و تعالى ، وإبطال لما ادّعاه النصارى من التثليث والحلول في عيسى بن مريم عليهما السلام ، والجملة كالنتيجة للآيات الشريفة المتقدّمة .

قوله تعالى : **﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** .

تطييب لنفس رسول الله صلى الله عليه وآله بأنّه عزّوجلّ ناصره ، وأنّه لا يخذله في نصرة الحقّ ، فهو الذى لا يعجزه شيء ، الحكيم في أفعاله وتقديره وتدبيره في خلقه ، فليس أحد يضاهيه في عزّته وحكمته ، ولا يساويه في أُلوهيّته ، وجميع ما سواه مخلوق ومربوب له ، فما قاله الخصماء أوهام باطلة .

والجملة تفيد قصر الأُلوهية في الله عزّوجلّ ، وتنفي ما سواه ممّا يدّعيه المشركون ، فالآيتان تفيدان القصر والحصر ، وإنّ أحدهما تفيد توحيد الذات وتنفي الشرك في العبودية وفي مقام الذات ، والثانية تفيد توحيد الأفعال ، وتنفي التشريك في الفعل .

---

١ . سورة القصص : الآية ١١.

٢ . سورة الكهف : الآية ٦٤.

قوله تعالى : ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ .

أي : فإن تولّوا عن إظهار الحقّ والاعتقاد به ، فإن الله تعالى عليم بفسادهم ويقضى بالحقّ ، وهو الذي يجزيهم جزاء التولّي عن الحقّ .

ولمّا كانت المباهلة طريقاً لإظهار الحقّ وإبطال الباطل ، فيكون التولّي عنها تولّياً عن الحقّ وإظهاره ، و إعراضاً عن السعادة ، ويكون البقاء على أهوائهم الباطلة وأفكارهم المزيفة فساداً ، والله عليم بأنّهم مفسدون لا يريدون إلّا الفساد والشقاء ، ولا فساد أعظم من البقاء على الباطل وترويجه، وإفساد عقائد الناس وإضلالهم، والاعراض عن التوحيد والحقّ ، وليس ذلك إلّا إفساداً للفطرة وجلب الشقاء للناس ، وإنّ الله تعالى عليم يجزيهم جزاءهم الذي يستحقّونه .

ويستفاد من قوله تعالى : ﴿عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ أنّ الله تبارك وتعالى عليمٌ بأنّهم يعرضون عن المباهلة ، لأنّ الفساد استولى عليهم فلا يذعنون للحقّ ، وقد تحقّق ذلك منهم وصدق ما أخبره الله تعالى .

***

بحوث المقام

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على اُمور :

الأوّل : يدلّ قوله تعالى : ﴿**فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ**﴾ أنّ ما اُوحي إلى الرسول الكريم ﷺ هو العلم المطابق للواقع الذي يلزم قبوله ، وأنّ غيره من مجرّد الظنّ وهو لا يُغني من الحقّ شيئاً .

ويستفاد منه أيضاً إنّ ما مع الرسول الكريم يشتمل على البرهان الساطع الذى لا يشكّ فيه أحد ، ولعلّ ارتداع النصارى عن المباهلة لأجل اقتناعهم بذلك .

الثاني : يدلّ قوله تعالى : ﴿**مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ**﴾ أنّ الذي جاء مع الرسول ﷺ هو الحقّ المطابق للعقل السليم الذي يتقبّله كل فرد ، فلا فرق حينئذٍ بين أن يكون مع الرسول أو مع غيره .

وبعبارة اُخرى : أنّ المورد لا يكون مورد تعبّد شرعي مختصّ به ، فإنّ ما أنزل الله تعالى عليه هو من الأحكام المستقلّة العقلية التي يقبله الطبع المستقيم فيكون مع كلّ أحد ، وأنّ الرسول الكريم هو واسطة الفيض .

الثالث : ذكرنا أنّ إتيان هيئة الجمع في قوله تعالى : ﴿أبناءنا ـ ونساءنا ـ وأنفسنا﴾ ، لا تدلّ على لزوم تعدّد الأفراد في كلّ عنوان من العناوين الوارده في الآية الشريفة ، بل المقصود هو جعل هذا الجمع مقابل ذلك الجمع ، وأنّ القضية ليست من قبيل القضايا الخارجية التي يطلب فيها وجود الأفراد وتعدّدها ، بل هي من قبيل القضايا الحقيقية ، سواء تعدّدت الأفراد أم لا . وقد ذكرنا الوجه في إدراج الأبناء والنساء مع شخص الرسول الأمين ﷺ ، مع أنّ المباهلة إنّما كانت بينه وبين

النصارىٰ.

الرابع: يدلّ قوله تعالى: ﴿**فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**﴾ على أنّ اللعنة موجودة ومقرّرة وأمرٌ مفروغ عنه، لأنّ بها يمتاز الحقّ عن الباطل، ولذا كانت دعوة طلبها غير مردودة، فالتعبير بـ(نجعل) كان أدلّ على المطلوب من غيره.

الخامس: تدلّ آية المباهلة على الفضل العظيم والمنزلة الكبرى، والمنقبة العظمى لأهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله من وجوه عديدة:

منها: اختصاصهم باسم النفس والنساء والأبناء للرسول الكريم صلى الله عليه وآله دون سائر الأُمّة، رجالاً ونساءً وأبناءً.

ومنها: دلالة الآية الشريفة على أنّ مع رسول الله صلى الله عليه وآله شركاء معه في الدعوة والدُّعاء والصدق، مقابل الطرف الآخر الذين وصفوا بالكذب، كما عرفت في تفسير.

ومنها: أنّ الدعوى لما كانت مختصّة بالرسول الكريم صلى الله عليه وآله وقائمة به، وقد عرّض نفسه الأقدس للبلاء واللعن والطرد والعذاب على تقدير الكذب، ولا يتعدّى إلى غيره لو لم يكن معه شخص، ولكن إتيانه صلى الله عليه وآله بمن كان معه يدلّ على أنّهم في المنزلة كنفسه الشريفة، وانحصار مَن هو قائم بدعواه من الأبناء والنساء والأنفس بمَن أتى بهم، وغير ذلك من الوجوه المستفادة من لحن الآية الشريفة وسياقها الدالّين على فضل أهل البيت ومنزلتهم.

ونوقش في استدلال على ذلك ومنزلتهم.

الأوّل: أنّ إحضار الرسول صلى الله عليه وآله بمن أحضرهم إنّما كان على سبيل الأُنموذج، لأنّ جميع الأُمّة ـ من غير اختصاص بأحد ـ تعتقد بأنّ الله واحد لا شريك له، وإنّ عيسى بن مريم عليه السلام عبده ورسوله، في مقابل النصارى الذين يعتقدون خلاف ذلك. فكانت المقابلة بين دعويين بلا فرق بين رجال كلّ طرف وأبنائهم ونسائهم

فإنّ الجميع في ذلك سواء ، فلا يكون لمَن أحضره الرسول ﷺ فضل على غيره .

وفيه . . . أوّلاً : أنّ الأمر لو كان كذلك لكان في إحضار رجل واحد أو امرأة واحدة أو غيرهما الكفاية ، ولم يحتج إلى إحضار رجل وامرأة وابنين إلّا لأنّ فيهم سرّاً إلهيّاً لم يكن في غيرهم .

وثانياً : أنّ الدعوة في عيسى بن مريم كانت قائمة بالرسول الكريم ﷺ كما يستفاد من الآيات السابقة ، وأمّا سائر الأُمّة الذين اتّبعوه فلم يكن للنصارى الذين وفدوا على رسول الله ﷺ بهم ارتباط ونسبة ، فيكون إتيان رسول الله ﷺ لأهل بيته ليس إلّا أنّهم كانوا مشتركين في الدعوة والدُّعاء .

الثاني : أنّ الآية المباركة لا تدلّ على أكثر من أنّ إتيان رسول الله ﷺ لأهل بيته في المباهلة كان لأجل وثوقه بالسلامة والعافية واستجابة دعائه ، وأمّا أنّهم كانوا شركاء في الدعودة وغيرها فهي بمعزل عن ذلك .

وفيه : أنّ الآية الشريفة بمجموعها ـ كما عرفت ـ تدلّ على أنّ كلّ طرف من طرفي الدعوة في المباهلة شركاء في الدعوة ، وهي أمّا صادقة أو كاذبة ، ولذا أحجمت صاحبة الدعوة الكاذبة عن المباهلة لما علمت صدق الطرف الآخر .

الثالث : أنّ الأمر لو كان كذلك ـ وكانت الآية المباركة تدلّ على فضلهم وكرامتهم ـ لاشتركوا مع الرسول في النبوّة ، لأنّ الدعوة التي كانت مختصّة به إنّما كانت كذلك لأنّ الله أوحى إليه .

وفيه : أنّ الاشتراك في الدعوة لا يستلزم اشتراكهم في النبوّة ، فإنّها غير الدعوة ، بل هي من شؤونها ولوازمها .

الرابع : أنّ الآية الشريفة تأمر الرسول ﷺ أن يدعو المحاجّين والمجادلين في عيسى من أهل الكتاب إلى الاجتماع رجالاً ونساءً وأطفالاً ، ويجمع هو المؤمنين رجالاً ونساءً وأطفالاً ، ويبتهلوا إلى الله تعالى بأن يلعن الكاذب ، ولا

تدلّ الآية الشريفة على اجتماع الفريقين في مكان واحد ، بحيث يشتمل على النساء والأولاد والأنفس ، مع أنّ الآية المباركة نزلت في النصارى ولم يكن معهم نساؤهم ولا أولادهم .

وفيه : أنّ ما ذكر خلاف ظاهر الآية الشريفة ، فإنّها تدلّ على دعوة رسول الله صلى الله عليه وآله إلى اجتماع المتخاصمين والمجادلين من الفريقين إلى المباهلة مع الأولاد والنساء والأنفس ، فكأنّه قد جمع أهل بيته مع وفد النصارى الموجودين حين الابتهال ، وأمّا أنّ النصارى لم يكن معهم الأولاد والنساء فهذا مطلب آخر . وقد ذكرنا أنّ المفهوم من الآية المباركة شيء والمصداق شيء ، والخلط بينهما أوجب الالتباس .

السادس : ذكرنا أنّ الآيات الشريفة والاستعمال الفصيح يدلّان على صحّة استعمال النساء في البنات ، ولكن استبعد بعض المفسّرين ذلك وذكر في معرض كلامه : «إنّ كلمة نساءنا لا يقولها العربي ويريد بها بنته ، لا سيما إذا كان له أزواج ولا يفهم هذا من لغتهم» .

والمناقشة في ما ذكره واضحة بعد الإحاطة بما ذكرناه في تفسير الآية الشريفة، والشواهد القرآنية والشعر العربي الفصيح ، تدلّان على صحّة استعمال الكلمة في البنات ، ولم يستشكل أحد من فرسان البلاغة والفصاحة على القرآن الكريم في استعماله هذا ، لاسيما إذا كان قصد المتكلّم الاحتشام من التصريح بابنته ، مع أنّ الروايات الكثيرة المتواترة التي تدلّ على أنّ المراد من النساء ابنته صلى الله عليه وآله فاطمة الزهراء عليها السلام كافية في ردّه . وأحسب أنّ الأمر أوضح من أن يخفى ، إلّا أن يُراد عدم صحّة استعمال الجمع في الواحد .

ولكنّه مردود بما ذكرناه من أنّ الآية المباركة تدلّ على استعمال الجمع ، مقابل الجمع من دون نظر إلى الأفراد. والاشتباه إنّما حصل من خلط المفهوم بالمصداق.

السابع : إنّما ذكر سبحانه وتعالى النساء مع أنّ بناء القرآن على الكناية عنهن والتحفّظ عليهن مهما أمكن ، لأُمور :

منها : الإعلام باشتراك النساء في أُمور الدِّين أُصولاً وفروعاً ، إلّا ما خرج بالدليل .

ومنها : الاهتمام بالدين والاعتناء بشريعة سيِّد المرسلين صلى الله عليه وآله .

ومنها : جعلهن في سياق المتدينين بتعلّمهن الأعمال الصالحة وتلبّسهن بالمعارف الحقّة . و غير ذلك من المصالح .

الثامن : إنّما أخّر سبحانه وتعالى **﴿أنفسنا﴾** وذكرها بعد تفدية الأبناء والنساء ، لبيان أهمّية المباهلة والتفدية لله جلّت عظمته ، لإثبات الحقّ وإظهاره بتفدية جميع العلائق حتى علاقة الأهل .

التاسع : أنّ كلمة **﴿أنفسنا﴾** تدلّ على شمولها لعلي بن أبي طالب عليه السلام تنزيلاً له منزلة نفس رسول الله صلى الله عليه وآله ، لا لأجل أنّ الداعي لابدّ أن يكون غير المدعو كما ذكره بعض المفسّرين ، بل لأنّ وجود علي عليه السلام في الأثر والمزايا والفضيلة والصفات بمنزلة وجود رسول الله صلى الله عليه وآله ، لاسيما إذا كان التنزيل بأمر من الله تعالى ، ولم يوجد أحد غير علي عليه السلام يكون واحداً لتلك المزايا التي تؤهِّله لهذه المنحة الإلهية ويكون كنفس رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولا يمكن أن يكون أحد نفس شخص آخر إلّا إذا كان مشتملاً على مزايا كبيرة ، يكون ثانياً في مزاياه، أو الوجود المكرّر له في الخصال ونحوها .

ويستفاد من الآية المباركة المنزلة الجليلة والمنقبة العظمى لعلي بن أبي طالب عليه السلام ، وهذا ما يستفاد من سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله بالنسبة إلى عليّ عليه السلام في مواطن كثيرة تكون مبنية لمعنى **﴿أنفسنا﴾** في هذه الآية المباركة ، ومع ذلك فقد أُشكل على دلالة الآية الشريفة بوجوه :

الأوّل: أنّ المراد بالأنفس في الآية المباركة مَن يتّصل بالقرابة والقوميّة، واستشهد لذلك بقوله تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ﴾(٣).

وفيه: أنّ اطلاق الأنفس باعتبار رابطة القرابة والقوميّة صحيح ولا بأس به، ولكن هذا الاستعمال في الآية الشريفة بعيد، فإن جعل الأنفس مقابل الأقرباء مثل النساء والأبناء لا يراد منها إلّا المعنى الحقيقي الواقعي والادّعائي التنزيلي، ونظير ذلك في القرآن كثير، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾(٤)، وقال تعالى: ﴿قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾(٥).

الثاني: أنّ المراد من النفس القريب، وقد عبّر عن علي عليه السلام بالنفس لما كان له عليه السلام اتّصال بالنبي صلى الله عليه وآله في النسب والمصاهرة واتّحاد في الدِّين.

وفيه: أنّ التنظير لو كان في القرابة فقط لما كان في علي عليه السلام خصوصيّة، فإنّ العبّاس عمّ الرسول وأولاده وبني هاشم كانوا من قرابته صلى الله عليه وآله ومن المسلمين والمهاجرين.

مع إنّا ذكرنا أنّه ليس المراد من هذه الكلمة علي عليه السلام، بل المراد أنّه بمنزلة الرسول صلى الله عليه وآله، ولذا لم يأت في مقام الامتثال غير علي عليه السلام، وأنّه المصداق الوحيد لأنفسنا، فلعل الاشتباه نشأ من الخلط بين المفهوم والمصداق.

---

١. سورة البقرة: الآية ٥٤.

٢. سورة البقرة: الآية ٨٤.

٣. سورة البقرة: الآية ٨٥.

٤. سورة الشورى: الآية ٤٥.

٥. سورة التحريم: الآية ٦.

الثالث : أنّه لو كانت الآية الشريفة دالّة على المساواة بين علي عليه السلام وبين النبيّ صلى الله عليه وآله، لزم كون علي عليه السلام نبيّاً. وأنّه أفضل من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام.

وفيه : أنّه لا ملازمة بين كون علي عليه السلام نفس الرسول صلى الله عليه وآله وبين مشاركته في النبوّة، وقد تقدّم ما يتعلّق بذلك، وأمّا أفضلية علي عليه السلام من الأنبياء والمرسلين فهي ثابتة مستفادة من قوله تعالى : ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾[1]، وأدلّة أُخرى تقدّم بعضها ويأتي بعضها الآخر.

العاشر : الآية الشريفة تدلّ على صحّة نبوّة رسول الله صلى الله عليه وآله، بل هي من أجلاها، وقد اعترف الخصم بها بإبائهم عن المباهلة لمّا دعاهم رسول الله صلى الله عليه وآله إليها، وأحجموا عنها ورضوا بالجزية.

الحادي عشر : يدلّ قوله تعالى : ﴿**إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ**﴾، على الحدّ الفاصل في كلّ من دعوى الأُلوهية ودعوى الشرك أو الحلول، فإنّه قصر الأُلوهية في الله عزّوجلّ المستجمع لجميع صفات الكمال والجلال، وقد وردت هذه الجملة الشريفة في نفي التثليث في قوله تعالى : ﴿**وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ**﴾[2]، وفي قوله تعالى : ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ**﴾[3]، ويحمل على المعنى الأعمّ من نفي الشرك في الذات أو المعبودية أو الصفات، حملاً لظاهر اللفظ على إطلاقه، وحينئذٍ لا فرق بين أن يكون القصر قصر افراد أو غيره.

الثاني عشر : يدلّ قوله تعالى : ﴿**الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ على وجه انحصار الأُلوهية فيه عزّوجلّ، ولعله في خلق عيسى عليه السلام من غير أب، فهو الحكيم المتقن في صنعه

---

١ . سورة البقرة : الآية ١٢٤.

٢ . سورة النساء : الآية ١٧١.

٣ . سورة المائدة : الآية ٧٣.

العليم بما فعله، العزيز الذي لا يمنعه أحد ولا يغلبه، فهو الإله الذي لا نظير له وليس كمثله شيء.

الثالث عشر: يدلّ قوله تعالى: ﴿**فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ**﴾ على أنّ كلّ مَن امتنع عن قبول الحقّ فهو من المفسدين، والله تعالى عليم بحالهم ويجزيهم في الحال والمآل.

***

بحث روائي:

اتّفقت الروايات المتواترة على أنّ آية المباهلة نزلت في وفد نصارى نجران، الذين هم من أشرافهم، وفيهم السيّد والعاقب على رسول الله صلى الله عليه وآله في المدينة المنورة في السنة التاسعة أو العاشرة من الهجرة، ومع رسول الله صلى الله عليه وآله أهل بيته، وهم علي وفاطمة والحسن والحسين (عليهم الصلاة والسلام)، وقد روي خبر المباهلة عن أكثر من خمسين طريقاً من الصحابة مذكورة في كتب أحاديث الجمهور وغيرهم.

ففي «تفسير القمّي»، عن الصادق عليه السلام:

«أنّ نصارى نجران لمّا وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وكان سيّدهم الأهتم، والعاقب، والسيّد... إلى أن قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وآله، فباهلوني، فإن كنت صادقاً أُنزلت اللعنة عليكم، وإن كنت كاذباً أُنزلت عليَّ. فقالوا: أنصفت، فتواعدوا للمباهلة، فلمّا رجعوا إلى منازلهم، قال: رؤساؤهم السيّد والأهتم: إن باهلنا بقومه باهلناه، فإنّه ليس نبيّاً، وإن باهلنا بأهل بيته خاصّة، لم نباهله فإنّه لا يقدم إلى أهل بيته إلّا وهو صادق، فلمّا أصبحوا جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ومعه أمير المؤمنين عليه السلام وفاطمة والحسن والحسين عليهما السلام، فقال النصارى: مَن هؤلاء؟ فقيل لهم: هذا ابن عمّه ووصيّه وختنه علي بن أبي طالب، وهذه ابنته فاطمة وهذان ابناه الحسن

والحسين ، فتفرّقوا ، فقالوا لرسول اللّه صلى الله عليه وآله : نعطيك الرِّضا فاعفنا من المباهلة ، فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وآله على الجزية وانصرفوا» .

أقول : دلالة هذا الحديث على فضل أهل البيت ممّا لا ينكر .

وفي «تفسير العياشي» ، بإسناده عن حريز ، عن أبي عبدالله عليه السلام قال :

«إنّ أميرالمؤمنين عليه السلام سُئل عن فضائله فذكر بعضها ، ثمّ قالوا له : زدنا ، فقال : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أتاه حَبران من أحبار النصارى من أهل نجران ، فتكلّما في أمر عيسى عليه السلام ، فأنزل الله هذه الآية : **﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾** ، فدخل رسول الله صلى الله عليه وآله فأخذ بيد علي والحسن والحسين وفاطمة عليهم السلام ، ثمّ خرج ورفع كفّه إلى السماء وفرّج بين أصابعه ودعاهم إلى المباهلة .

قال : وقال أبو جعفر عليه السلام ، وكذلك المباهلة ، يشبك يده في يده يرفعهما إلى السماء، فلمّا رآه الحبران قال أحدهما لصاحبه : واللّه ، لئن كان نبيّاً لنهلكن ، وإن كان غير نبيّ كفانا قومه ، فكفّا وانصرفا» .

أقول : تقدّم في بحث الدُّعاء أنـّه على أقسام منها التبهل ، كما ورد في هذه الرواية .

وفي «العيون» ، بإسناده إلى موسى بن جعفر عليهما السلام في حديث له مع الرشيد ، قال له الرشيد :

«كيف قلتم إنّا ذرّية النبي صلى الله عليه وآله والنبيّ لم يعقب ، وإنّما العقب للذكر لا للأُنثى ، وأنتم ولد البنت ولا يكون له عقب ؟

فقلت له : اسأله بحقّ القرابة والقبر ومَن فيه إلّا ما أعفاني عن هذه المسألة .

فقال : تخبرني بحجّتكم فيه يا ولد علي ، وأنت ياموسى يعسوبهم وإمام زمانهم ، كذا أُنهي إليّ ، ولست أعفيك في كلّ ما أسألك عنه، حتّى تأتيني فيه بحجّة

من كتاب اللّه ، وأنتم تدّعون معشر ولد علي على أنّه لا يسقط عنكم منه شيء ، لا ألف ولا واو إلّا تأويله عندكم ، واحتججتم بقوله عزّوجلّ : ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ، وقد استغنيتم عن رأي العلماء وقياسهم .

فقلت : تأذن لي في الجواب ؟

فقال : هات ، قلت : أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم ، بسم اللّه الرحمن الرحيم ، ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ﴾[1] مَن أبو عيسى يا أمير المؤمنين ؟

فقال : ليس له أبٌ ، فقلت : إنّما ألحقه بذراري الأنبياء من طريق مريم ، وكذلك ألحقنا اللّه تعالى بذراري النبيّ من اُمّنا فاطمة ، أزيدك يا أمير المؤمنين ؟ قل : هات ، قلت : قول اللّه عزّوجلّ : ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ . ولم يدّع أحد أنّه أدخل النبيّ صلى الله عليه وآله تحت الكساء عند المباهلة مع النصارى إلّا علي بن أبي طالب وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ،فكان تأويل قوله أبناءنا الحسن والحسين، ونساءنا فاطمة وأنفسنا علي بن أبي طالب».

أقول : تقدّم ما يتعلّق بهذه الرواية في التفسير .

وفي سؤالات المأمون عن الرضا عليه السلام قال المأمون :

«ما الدليل على خلافة جدّك علي بن أبي طالب ؟ قال عليه السلام : آية أنفسنا ، قال : لولا نساءنا ، قال : لولا أبناءنا» .

أقول : هذا إشكال وجواب بالمعارضة، فإنّ قوله عليه السلام : «آية أنفسنا» ، يعني جعل نفس علي عليه السلام بمنزلة نفسه صلى الله عليه وآله ، وقول المأمون : «لولا نسائنا» ، فإنّها صريحة

---

١ . سورة الأنعام: الآية ٨٤ ـ ٨٥.

في الاختلاف، فتكون كذلك أنفسنا، فأجاب عليه السلام: «لولا أبناءنا» فنزّل أبناء علي منزلة أبناء نفسه صلى الله عليه وآله، وهكذا يكون في علي عليه السلام.

وأخرج حديث المباهلة الشيخ المفيد في «اختصاصه» بإسناده عن محمّد بن الزبرقاني، عن موسى بن جعفر عليه السلام، ورواه أيضاً محمّد بن المنكدر، عن أبيه، عن جدّه.

وأخرجه الشيخ في «أماليه» بإسناده عن عامر بن سعد عن أبيه، وبإسناده عن عبدالرحمن بن كثير، عن الصادق عليه السلام، وبإسناده عن ربيعة بن ناجد، عن علي عليه السلام، ورواه عن أبي ذر: أنّ عليّاً احتجّ بذلك يوم الشورىٰ.

ورواه العياشي في «تفسيره» عن محمّد بن سعيد الاردني، عن موسى بن الرضا، عن أخيه عليه السلام، ورواه أيضاً عن أبي جعفر الأحول عن الصادق عليه السلام، ورواه أيضاً عن المنذر عن علي عليه السلام، ورواه أيضاً بإسناده عن عامر بن سعد.

ورواه في «روضة الواعظين» و«اعلام الورى» و«الخرائج»، والفرات في «تفسيره» معنعناً عن أبي جعفر عليه السلام وأبي رافع، والشعبي وعلي عليه السلام وشهر بن حوشب.

أمّا عن طريق الجمهور فقد روى مسلم في «صحيحه»، عن عامر بن سعد بن أبي وقّاص، عن أبيه قال:

«أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً، فقال: ما يمنعك أن تسبّ أبا تراب؟

قال: أمّا ما ذكرت ثلاثاً قالهن رسول اللّه صلى الله عليه وآله فلن أسبه، لأن يكون لي واحدة منهنّ أحبُّ إليَّ من حُمُر النَّعم، سمعت رسول اللّه صلى الله عليه وآله يقول: أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا أنـّه لا نبيّ بعدي؟ وسمعته يقول يوم خبير: لأُعطين الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبّه اللّـه ورسوله، قال: فتطاولنا لها، فقال: ادعوا لي عليّاً، فأُتي به أرمد العين فبصق في عينيه ودفع الراية

إليه، ففتح اللّٰه على يده. ولمّا نزلت هذه الآية: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾ دعا رسول اللّٰه ﷺ عليّاً وفاطمة وحسناً وحسيناً، فقال: اللّٰهُمَّ هؤلاء أهل بيتي».

وروى مثله الترمذي، والحاكم، وابن المنذر، والبيهقي عن سعد أيضاً والحمويني في «فرائد السمطين»، وأبو المؤيّد الموفّق بن أحمد في كتاب «فضائل علي».

أقول: أمثال هذه الروايات عن طرقهم كثيرة.

وفي «حلية الأولياء» لأبي نعيم باسناده عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه، قال: «لمّا نزلت هذه الآية دعا رسول اللّٰه ﷺ عليّاً وفاطمة وحسناً وحسيناً، فقال: اللّٰهُمَّ هؤلاء أهل بيتي».

أقول: تُبيِّن هذه الرواية معنى آية المباهلة.

وفي «تفسير الثعلبي»، عن مجاهد والكلبي:

«أنّ رسول اللّٰه ﷺ لمّا دعاهم إلى المباهلة قالوا: نرجع وننظر، فلمّا تخالوا للعاقب ـ وكان ذا رأيهم ـ قالوا: يا عبد المسيح ماترى؟ فقال: واللّٰه لقد عرفتم يا معشر النصارى أنّ محمّداً نبيٌّ مُرسل، ولقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم، واللّٰه ما باهل قوم نبيّاً قطّ فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم، ولئن فعلتم لتهلكن، فإن أبيتم إلّا الف دينكم والإقامة على ما أنتم عليه، فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم، فأتوا رسول اللّٰه ﷺ وقد غدا محتضناً بالحسين آخذاً بيد الحسن، وفاطمة تمشي خلفه، وعليّ خلفها وهو يقول: إذا أنا دعوت فأمِّنوا.

فقال أسقف نجران: يا معشر النصارى، إنِّي لأرى وجوهاً لو سألوا اللّٰه أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة.

فقالوا : يا أبا القاسم ، رأينا أن لا نباهلك، وأن نقرّك على دينك، ونثبت على ديننا .

قال : فإذا أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم ، فأبوا ، قال : فأنّي أُناجزكم ، فقالوا : ما لنا بحرب العرب من طاقة، ولكن نصالحك على أن لا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردّنا عن ديننا ، على أن نؤدّي إليك كلّ عام ألفي حُلّة : ألفٍ في صفر وألف في رجب، وثلاثين درعاً من حديد ، فصالحهم على ذلك .

وقال ﷺ : والذي نفسي بيده إنّ الهلاك قد تدلّى على أهل نجران ، ولو لاعنوا لمسخوا قِرَدةً وخنازير، ولاضطرم عليهم الوادي ناراً، ولاستأصل اللّه نجران وأهله حتّى الطير على رؤوس الشجر ، ولما حال الحول على النصارى كلّهم حتّى يهلكوا» .

وروى قريباً منه في «المغازي» عن أبي اسحاق ، والمالكي في «الفصول المهمّة» ، والحَمَوي عن ابن جريح .

أقول : إنّ صفر في السنة العربية القديمة كان يشمل فترة من الزمن تتضمّن شهرين ، أحدهما المحرم ، وكان يسمّى بالصفر الأوّل أيضاً .

وفي «حُلية الأولياء» لأبي نعيم بإسناده عن الشعبي ، عن جابر، قال :

«قدم رسول اللّه ﷺ العاقب والطيّب فدعاهما إلى الإسلام ، فقالا : أسلمنا يا محمّد ، فقال : كذبتما إن شئتما أخبرتكما ما يمنعكما من الإسلام ، فقالا : فهات إلينا ، قال : حبّ الصليب وشرب الخمر ، وأكل لحم الخنزير ، قال جابر : فدعاهما إلى المباهلة ، فواعداه إلى أن يأتياه بالغداة ، فغدا رسول اللّه ﷺ وأخذ بيد علي والحسن والحسين وفاطمة فأُرسل إليهما فأبيا أن يُجيباه وأقرّا له .

فقال رسول اللّه ﷺ : والذي بعثني بالحقّ لو فعلا لأمطر عليهم الوادي ناراً.

فقال جابر : فيهم نزلت ﴿نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ﴾ ، قال جابر : ﴿أَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾ رسول اللّٰه وعلي ، و﴿أَبْنَآءَنَا﴾ الحسن والحسين ، و﴿نِسَآءَنَا﴾ فاطمة .

ورواه ابن المغازلي في «مناقبه» عن الشعبي عن جابر ، والحمويني في «فرائد السمطين» عن جابر أيضاً ، ورواه المالكي في «الفصول المهمّة» مرسلاً عنه وعن أبي داود الطيالسي عن شعبة الشعبي مرسلاً أيضاً . وفي «الدر المنثور» عن الحاكم وصحّحه ، وعن ابن مردويه وأبي نعيم في «الدلائل» عن جابر .

وفي «الدر المنثور» : أخرج البيهقي في «الدلائل» من طريق سلمة بن عبد يشوع ، عن أبيه ، عن جده :

«أنّ رسول اللّٰه ﷺ كتب إلى أهل نجران قبل أن ينزل عليه طسم سليمان : بسم اللّٰه إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، أمّا بعد فإنّي أدعوكم إلى عبادة اللّٰه من عبادة العباد ، وأدعوكم إلى ولاية اللّٰه من ولاية العباد ، فإن أبيتم فالجزية ، وإن أبيتم فقد آذنتكم بالحرب والسلام .

فلمّا قرأ الأسقف الكتاب فظع به وذعر ذعراً شديداً ، فبعث إلى رجل من أهل نجران يُقال له : شرحبيل بن وداعة فدفع إليه كتاب النبيّ ﷺ فقرأه ، فقال له الأسقف : ما رأيك ؟ فقال شرحبيل : قد علمت ما وعد اللّٰه إبراهيم في ذرّية إسماعيل من النبوّة ، فما يؤمن أن يكون هذا الرجل ، ليس لي في النبوّة رأي ، ولو كان رأي من أمر الدُّنيا أشرت عليك فيه أو جهدت لك ، فبعث الأسقف إلى واحد بعد واحد من أهل نجران فكلّمهم ، قالوا مثل قول شرحبيل ، فاجتمع رأيهم على أن يبعثوا شرحبيل بن وداعة وعبداللّٰه بن شرحبيل وجبار بن فيض فيأتونهم بخبر رسول اللّٰه ﷺ ، فانطلق الوفد حتّى أتوا رسول اللّٰه ﷺ فسألهم وسألوه فلم تزل به وبهم المسألة حتّى قالوا له : ما تقول في عيسى بن مريم ؟ فقال رسول اللّٰه ﷺ : ما عندي فيه شيء يومي هذا ، فأقيموا حتّى أخبركم بما يقال في عيسى صبح الغد ،

فأنزل اللّٰه تعالى هذه الآية ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ـ إلى قوله تعالى ـ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾، فأبوا أن يقرّوا بذلك، فلمّا أصبح رسول اللّٰه الغد بعدما أخبرهم الخبر أقبل مشتملاً على الحسن والحسين في خميلة له وفاطمة تمشي خلف ظهره للملاعنة، وله يومئذ عدّة نسوة.

فقال شرحبيل لصاحبه: إنّي أرى امرأً مقبلاً إن كان هذا الرجل نبيّاً مرسلاً فلاعناه لا يبقى على وجه الأرض منّا شعر ولا ظفر إلّا هلك، فقالا له: أنت وذلك، فتلقّى شرحبيل رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله فقال: إنّي رأيت خيراً من ملاعنتك، قال: وما هو؟ قال: حكمك اليوم إلى الليل وليلتك إلى الصباح فمهما حكمت فينا فهو جائز، فرجع رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله ولم يلاعنهم وصالحهم على الجزية».

أقول: الحديث لم يتعرّض لذكر علي عليه السلام، لأجل الاكتفاء بذكر الأبناء والزوجة عن ذكر الزوج، أو لأجل معلومية كونه فيهم.

والذي يتحصّل ممّا تقدّم أنّ المستفاد من جميع الروايات التي رواها الجمهور والخاصّة أنّ القدر المشترك بينها هو أنّ رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله دعا عليّاً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام ليباهل بهم نصارى نجران، وهذا القدر هو المتواتر بينهم، إلّا أنّ بعض المفسّرين ناقش في تلك الروايات، فقال:

«إنّها متّفقة على أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله اختار للمباهلة عليّاً وفاطمة وولديهما، ويحملون كلمة ﴿نِسَآءَنَا﴾ على فاطمة، وكلمة ﴿أَنفُسَنَا﴾ علىٰ عليّ فقط، ومصادر هذه الروايات الشيعة، ومقصدهم منها معروف، وقد اجتهدوا في ترويجها ما استطاعوا حتّى راجت على كثير من أهل السنة».

ثمّ ذكر بعض الإيرادات، وقد ذكرنا جملة منها وأجبنا عنها.

وأنت بعدما ذكرنا شطراً من الروايات التي نقلت عن طرق الجمهور يتّضح لك فساد ما ذكره، فإنّها بلغت مبلغاً لا يمكن إنكارها، وقد ذكرها بعض أرباب

الصحاح كمسلم والترمذي في صحيحيهما، وبعض أهل التأريخ كالطبري وأبو الفداء وابن كثير، وجمع غفير من المفسّرين وأهل الحديث، وقد نقلوا جميعاً تلك الأحاديث عن الصحابة أمثال سعد بن أبي وقاص، وجابر بن عبدالله، وعبدالله بن عبّاس، وعلياء اليشكري، وجدّ سلمة وغيرهم من الصحابة، وكثير من التابعين أمثال الشعبي، والحسن، والسدي، والكلبي، ومقاتل، وابن صالح، فهل هؤلاء كانوا من الشيعة وأرادوا ترويج مذهبهم ؟!! أو إنّهم دسّوها في كتب السنّة، وهل هذه التهمة كانت مختصّة بهذه الأحاديث أو تسري في كثير من السنّة ؟!! إذن لا يبقى اعتماد عليها فتبطل ولا تكون حجّة، ولا يبقى للدِّين أساس، وهذا ما لا يرتضيه أحد.

***

بحث كلامي:

ذكرنا أنّ المباهلة نوع من الدُّعاء والابتهال والتضرّع والتبتّل إلى الله تعالى لإثبات حقّ علم به، وهي عادة جارية بين الناس في جميع الملل والأقوام ممّن يعتقد بوجود عالم الغيب وراء هذا العالم المادّي، فتكون نظير صلاة الاستسقاء أو الاستخارة ونحوهما.

والمستفاد من الآيات الشريفة وما ورد في شأنها من السنّة المقدّسة أنّها تتقوّم بأمرين:

الأوّل: ثبوت حقّ علم بأنّه حقّ قد سبق الإعلام به بالحجّة والبيان، وبعد اليأس عن الفائدة فيهما يرجع بالدُّعاء واللعان واللجوء إلى الأمر الغيبي الذي يعترف به الخصمان، وهذا يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ﴾ أي في الحقّ المعلوم.

الثاني: وجود الرابط بين عالم الغيب وعالم المادّة أمّا في شخص الرسول أو

مَن يقوم مقامه علماً وعملاً، أو حالة الانكسار والخضوع والتضرّع التي تكون رابطة حالية، فإذا تحقّق هذان الأمران تجوز المباهلة لاثبات الحقّ بالتماس من عالم الغيب، فلا تختصّ المباهلة بمورد خاص، وقد ورد في السنّة الشريفة ما يدلّ على التعميم، ففي الكافي عن أبي مسترق عن الصادق عليه السلام :

«قلت له : إنّا نكلّم الناس فنحتجّ عليهم بقول اللّه عزّوجلّ : **﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾** فيقولون نزلت في أمراء السرايا، فنحتجّ عليهم بقوله عزّوجلّ : **﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾**، فيقولون في المؤمنين، ونحتجّ عليهم بقول اللّه عزّوجلّ : **﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾** فيقولون : نزلت في قربى المسلمين، قال : فلم أدع شيئاً ممّا حضرني ذكره من هذا وشبهه إلّا ذكرته.

فقال عليه السلام لي : إذا كان كذلك فادعهم إلى المباهلة، قلت : كيف اصنع ؟ قال عليه السلام : اصلح نفسك ثلاثاً، وأظنّه أنّه قال : وصم واغتسل وابرز إلى الجبّانة فاشبك أصابعك من يدك اليمنى في أصابعه ثمّ انصفه وابدء بنفسك، وقل : اللَّهُمَّ ربّ السماوات السبع وربّ الأرضين السبع عالم الغيب والشهادة الرحمان الرحيم إن كان أبو مسترق جحد حقّاً وادّعى باطلاً فأنزل عليه حسباناً من السماء أو عذاباً أليماً، ثمّ ردّ الدعوة عليه، فقل : وإن كان فلان جَحَد حقّاً أو ادّعى باطلاً فأنزل عليه حسباناً من السماء أو عذاباً أليماً، ثمّ قال عليه السلام لي : فإنّك لا تلبث أن ترى ذلك فيه ـ الحديث ـ».

وقريب منه غيره.

وفي «الدر المنثور»، عن علياء بن أحمر اليشكري، قال :

«لمّا نزلت هذه الآية **﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ﴾** أرسل رسول اللّه صلى الله عليه وآله إلى علي وفاطمة وابنيهما

الحسن والحسين، ودعا اليهود ليلاعنهم، فقال شاب من اليهود: ويحكم، أليس عهدتم بالأمس إخوانكم الذين مسخوا قردة وخنازير؟ لا تلاعنوا، فانتهوا».

وهذه الرواية تدلّ على تعدّد المباهلة.

وللمباهلة آداب خاصّة مذكورة في أبواب الدُّعاء، ولا ريب في تقوّمها بمن يقوم به الاحتجاج وإظهار الحقّ، وهو في المقام نفس رسول الله ﷺ. وحيث إنّها تدلّ على الملاعنة والهلاك، يكون إحضار مَن يريده صاحب الحقّ أولى في الاحتجاج وأثبت للمدعى وأقطع لدعوى الخصم، ولأنّ الاجتماع في الدُّعاء والتأمين عليه مرغوب إليه كثيراً في السنّة المقدّسة.

***

بحث عرفاني:

مظاهر تجلّيات الحقّ جلّ جلاله في عالم الشهادة لا حدَّ لها ولا حصر، عميت عين لا تراها، وخسرت صفقة عبد ليس له فيها نصيب، ومن أعظم تجلِّياته عزّوجلّ استجابة دعوات المحرومين وإغاثة الملهوفين، والتنفيس عن كربات المكروبين.

ومنها: المباهلة التي يتحقّق فيها الارتباط بين عالم الغيب وعالم الشهادة، بل إنّها من أشدّ أنحاء الارتباط وأشرفها، لا يمكن تحديده بحدّ ولا توصيفه بوصف، بل لا يعقل الإحاطة به لأحد إلّا لعلام الغيوب والمطلّع على السرّ المحجوب، وهي الكرامات الصادرة من الأولياء والمعجزات المتحققّة من الأنبياء، لاسيما إذا لاحظنا ذلك بعد قوله تعالى: **﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾**[1].

وتتجلّى عظمة المباهلة أنّها لإقامة الحقّ ودحض الباطل وإبقاء الشريعة

---

١ . سورة الأنفال: الآية ١٧.

الختمية والنور المحمّدي ، وفيها يتّحد الداعي والمدعو ، فإنّ اللّه هو الذي باهل الكفّار .

والمباهلة وإن كانت في الظاهر فيها العذاب للكفّار ، ولكنّها في الواقع تكون لحفظ النظام وإبقاء سلسلة الأسباب والمسبّبات بين الأنام .

وفي المباهلة الأحمدية تجلّت العنايات الخاصّة من الحضرة الأحدية ، وقد جمعت في هذه المباهلة أنوار كلها واسطة الفيض ، ظهرت فيهم عظمة الباري وعنايته ، وفيها قابل الحقّ المحض مع الباطل كذلك .

وفدّى رسول اللّه ﷺ نفسه الشريفة وأهل بيته فيها دون إقامة الحقّ وإظهاره وإماتة الباطل ، ولم يتعرّض للمال ، لأنّه لا شيء أغلى من النفس ولا قيمة له في مقابل تفديتها ، مع أنّ المفدّى أجلّ وأكرم من أن يفدي بشيء آخر لا قيمة له ، بل يعدّ من متاع الغرور . وتكون هذه المباهلة تعليماً لكلّ مرشد قام بين الناس داعياً للحقّ وناصراً له ، فلابدّ من خلوص النيّة وصفاء السريرة ليستعدّ بذلك لتجلّي اللّه جلّ جلاله ، وفي الحديث : «اتّقوا دعوة المظلوم فإنّها تخرق الحُجُب السبع» .

***

الآية ٦٤ ـ ٦٨

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتْ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلَا نَصْرَانِيّاً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾.

بعدما بيّن سبحانه وتعالى الحقّ في عيسى بن مريم، وأنّه عبدالله ورسوله إلى بني إسرائيل، وأنّ مولده ـ على غرابته وتفرّده ـ أمر عادي بالنسبة إلى قدرة الخالق ومشيئته. ونفى عنه الأُلوهية وأقام الحجّة تلو الحجّة على جميع ذلك، وأمرهم بالإيمان والإعراض عن كلّ ما يخالف ذلك، فانتهى بأمره تعالى لنبيّه بطلب المباهلة مع المنكرين الجاحدين.

أمر سبحانه وتعالى في هذه الآيات الشريفة نبيّه إلى دعوة أُخرى لأهل الكتاب عامّة لاسيما النصارى منهم، وهي الدعوة إلى التوحيد وتأمرهم بالاتحاد ونبذ النفاق والتعرّض لردّ المسلمين عن هذه العقيدة والكلمة الفاصلة الحقّة.

ودعاهم إلى الحقّ الذي يجب اتّباعه بمقتضى الفطرة، وهو الذي اجتمعت عليه جميع الكتب السماوية والرسالات الإلهيه، وهو عبادة الإله الواحد ونبذ الشرك، والإعراض عن الاحتجاج العقيم المفضي إلى الاختلاف والتفرقة، فالنداء يقرّب النفوس المستعدّة إلى أقصى الكمالات الإنسانية، ويهديها إلى الألطاف الربوبية.

ثمّ بيّن تعالى كلمة الفصل في إبراهيم الذي يعتقد به جميع الأديان السماوية، واعترفت الأُمم بالولاية له على دينها، والإمام المفترض طاعته، وقد بيّن القرآن الكريم أنّ أقرب الناس إليه هو الرسول الكريم ومَن يتّبعه في العلم والعمل، وأنّ جميعهم تحت ولايته عزّوجلّ ورعايته.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾.

الخطاب صدر عن حقيقة العقل المجرّد، وقرّره وحي السماء من ذروة العرش الأمجد إلى الرسول الكريم خاتم الأنبياء، لأنّه واسطة الفيض وأنّه جامع الشمل، ومجمع كلّ فضل وفضيلة، والأحرى لغيره اتّباعه في ما يدعو إليه.

و(تعال) اسم فعل ومعناه هلّم، كما مرّ في الآيات السابقة.

والكلمة في المقام كناية عن الاجتماع والاتّحاد في العمل، بمقتضى مدلول الكلمة ومعناها والإذعان بها، ونظير ذلك شائع في الألسنة يقال: اتّفقت كلمة القوم على كذا. أي اتّحدوا واجتمعوا على أمر.

وسواء: يأتي أمّا مصدراً بمعنى متساوية، أو بمعنى الوصف أي العدل والتساوى. والنظام الأحسن في الدارين يتقوّم بالسواء والاستواء في الحقّ وبالحقّ، وبهما تفتح أبواب البركات بأنواع الخيرات، ويتجلّى حينئذٍ حقيقة

الوحدانية المطلقة في العابد والمعبود ، فلا معبود غير اللّٰه ولا إله سواه ، وتضمحل الكثرة والكلمات ويبقى النور الواحد المطلق في جميع الأقوال والأفعال والمعتقدات. والمراد من الكلمة هنا الكلمة المساوية بيننا وبينكم في الاعتقاد والعمل .

وكيف كان ، فأمّا أن يكون المراد من الكلمة هي كلمة التوحيد التي اتّفقت الكتب الإلهية ـ القرآن والانجيل والتوراة ـ على الدعوة إليها ، فيكون قوله تعالى : **﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ـ الآية ـ﴾** تفسيراً لهذه الكلمة المتّفق عليها بما يزيل كلّ غموض وإبهام ، ويكون لازمه هو الإعراض عمّا في أيديهم من الشرك والتثليث والاتّحاد والحلول وجميع ما لعبت به أهواؤهم من التفسير غير المرضي للكلمة .

وأمّا أن يكون المراد بها معنى الكلمة والاعتقاد الحقّ والعمل بمعناها ، فيكون توصيفها بالسواء من باب الوصف بحال المتعلّق ، لأنّ الدعوة إنّما تكون إلى معنى الكلمة لا نفسها ، ويدلّ عليه قوله تعالى : **﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾** ، فإنّ الإسلام هو التوحيد العملي وترك عبادة غير اللّٰه تعالى عملاً .

ولكن الذي يهون الخطب أنّ القرآن لا يدعو إلى التوحيد القولي والاعتقاد وحده من دون أن يتمّ ذلك بالعمل ، كما أنّه لم يأمر به إلّا باعتبار كونه طريقاً إلى العمل وموجباً إلى الخضوع والتسليم لأمر اللّٰه تعالى ، قال عزّوجلّ : **﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾**[1] ، وقد ذكرنا في تفسير هذه الآية الشريفة أنّ الدِّين الذي يكون منهاجاً للإنسان في الحياة الدُّنيا هو التسليم للّٰه والخضوع له والعمل الصالح ، وحينئذٍ لا فرق بين إرجاع السواء إلى نفس الكلمة فتكون توصيفاً لنفسها ، أو إرجاعه إلى معنى الكلمة فيكون التوصيف توصيفاً بحال المتعلّق .

---

١ . سورة آل عمران : الآية ١٩ .

وعلى أي تقدير، ففي الآية المباركة روعة الأُسلوب وتتضمّن من النكات البلاغية ولطائف العنايات ما لا يخفى.

والآية تدعو الضمير الإنساني وتخاطبه بخطاب رقيق لطيف، وتدعوه إلى الرجوع إلى الفطرة والعمل بمقتضاها ونبذ الفرقة والاختلاف، وتطلب منه أن لا يصدّه عن هذا الهدف السامي اختلاف الأهواء وتشعّب الفرق.

قوله تعالى: ﴿**بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ**﴾.

أي: نكون نحن وأنتم متساويين في الكلمة، وحيث إنّ التساوي من الأُمور الإضافية المتقوّمة بين الطرفين، عبّر سبحانه وتعالى بقوله: ﴿**بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ**﴾ لنبذ التفرقة والاختلاف.

قوله تعالى: ﴿**أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ**﴾.

بيان للكلمة السواء التي هي الحدّ الفاصل لكلّ ما يقال في معنى الكلمة، التي تلاعبت به أهواء المظلّين وزيغ المفسدين المبطلين. وهو الذي اتّفقت عليه جميع الكتب الإلهية.

والجملة تدعو إلى نبذ عبادة غير الله تعالى، وأن لا يخضع العبد لغيره عزّوجلّ، ويلازمه انحصار العبادة فيه عزّوجلّ.

كما أنّها تشتمل على الحكم وعلّته، فإنّها تقرّر أنَّ الإلٰه الذي تنحصر العبادة فيه لابدّ أن يكون مستجمعاً لجميع صفات الكمال ومنشأً لكلّ كمال في غيره، وهو ينحصر في الله تعالى، فالواجب عبادته والخضوع لديه وتسليم الأمر غيره، لا الخضوع إلى غيره الذي هو قرين الحاجة والفقر بذاته. وهذا هو الأمر الفطري الذي يدعوا اليه الأنبياء وجميع المرسلين، وقد أكّد ذلك القرآن في عدّة آيات، وقد ذكرنا ما يتعلّق به في تفسير قوله تعالى: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ**

اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمْ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[١].

فالآية الشريفة ـ مضافاً إلى أنها تدلّ على حصر الألوهية فيه عزّوجلّ ـ تشير إلى ما تقدّم من الأمر الفطري الذي كان هو غرض الأنبياء في بعثهم، ولذلك كانت عقيدة التوحيد تحريراً للبشرية كلها، وقد اتّفق عليها هدف الأنبياء كلّهم.

قوله تعالى: **﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً﴾**.

النكرة في سياق النفي تدلّ على العموم، أي نبذ كلّ أنواع الشرك في الألوهية، والعبودية، والخلق، والفعل، بل كلّ ما ينسب إليه في الألوهية، فتدلّ على نفي التثليث، والاتّحاد، والحلول، فلا يقال لشيء مطلقاً إنّه إله.

والجملة تفيد التأكيد لما تضمّنته الآية السابقة، ونفي الشرك الحاصل من الاعتقاد بغير اللّٰه تعالى، لأنّ الجملة الأُولى تفيد نفي الشرك في العبادة، وهذا غير كافي في قطع الشرك الحاصل من اعتقاد النبوّة والإيمان بالرسل والنبيّين وتوهّم الحلول والتثليث ونحو ذلك.

كما أنّها تدلّ على الخلوص في العبادة والاعتقاد، فإنّ الاعتقاد بعبادة اللّٰه تعالى لا يصيِّر العبادة خالصة ما لم يطرح كلّ رأي واعتقاد فيه شائبة الشرك، ويؤكّد ذلك النهي عن اتّخاذ الأرباب من دون اللّٰه كما في الآية التالية.

قوله تعالى: **﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ﴾**.

والآية المباركة في مقام بيان السبب في النهي عن اتّخاذ الشريك للّٰه تعالى.

---

١. سورة البقرة: الآية ٢١٣.

وهي تفيد التوحيد الفعلي، لأنّ اللّه تعالى هو الربّ، يفعل ما يشاء بحكمته ويحكم ما يريد بعدله لا مبدِّل لحكمه، وأنّ العالم وجميع ما فيه مخلوق له عزّوجلّ ومربوب له، لا يمكن أن يخضع إلّا لواحد له من الكمال والجلال ما لا يوجد لغيره. فالربوبية من خصائص الأُلوهية، والشرك لا يجامعها بوجه من الوجوه.

فالآية الشريفة تنفي إطاعة الإنسان لمثله في التشريع والتصرّفات من دون معارضة، فإنّ ذلك من اتّخاذ الرب من دون اللّه، لا يقدم عليه مَن يعترف بالربوبية للّه تعالى ويسلّم أمره اليه عزّوجلّ. وهي عامّة تشمل أنحاء الاتخاذ. كما تشمل البعض جميع أنواعه وأقسامه بأيّ عنوان كان من الاعتبارات الموهومة في الربوبية أو الإطاعة في الأحكام والتشريع والتصرّف في الأبدان من دون معارضة وانعكاس، ويشير إلى بعض ذلك قوله تعالى في موضع آخر: **﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾**[1].

وهو يختصّ بالإطاعة في معصية اللّه تعالى وتشريع الأحكام والتسلّط على الأبدان والأموال والأعراض.

وفي التعبير بالبعض إشارة إلى أنّهم من أفراد البشر ومن جنسنا، وأنّ الفقر والحاجة يلازمانه، فلا ينبغي إطاعتهم من دون اللّه المستجمع لجميع صفات الكمال، ومَن هو مربوب في ذاته كيف يكون ربّاً لمثله ؟! والخطاب عقلي قرّره اللّه تعالى.

كما أنّ في قوله تعالى: **﴿مِن دُونِ اللّهِ﴾** إعلاماً بأنّ كلّ ما يتوهّمه الإنسان في

---

١ . سورة التوبة: الآية ٣١.

ذلك هو في مرتبة نازلة وموهومة ، لا حقيقة لها ولا يمكن أن تجتمع مع الاعتراف بالربوبية للّٰه تعالى .

ومن ذلك يعرف أنّ الخطاب يصلح أن يكون لليهود والنصارى والمشركين ، وإن كان للنصارى الحظ الأوفر من هذه الموهومات ، والكلّ منهيّ عنه .

والآية الشريفة تبيّن حقيقة من الحقائق الاجتماعية ، وهي أنّ أفراد الإنسان أبعاض متساوية في جميع شؤون الحياة ، وأنّهم في الغرائز الإنسانية والطبيعية النوعيّة على حدّ سواء ، وأنّ كلّ ما يوجب الخروج عن هذه الحقيقة باطل في نظر الإسلام إلّا ما فضّل اللّٰه تعالى به بعضهم على بعض ، وفي غير ذلك منهي عنه ، لأنّه تغيير لناموس الفطرة وهدم لكيان الإنسانية وضياع للهدف السامي الذي خلق لأجله الإنسان ، وهو التعاون في سبيل نيل الكمال والتزود من الفضائل والأخلاق الحسنة ، وأنّ الشعور بالتساوي يستدعي الحياة الهنيئة والترابط الوثيق بين أفراد المجتمع والتعاون الأكيد بينهم ، وبه تنحل كثير من المشكلات وتزول الصعاب ، وهذا ما تؤكّده آيات كثيرة في القرآن الكريم .

قوله تعالى : **﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾** .

أي : فإن أعرضوا عن الحقّ وما تدعو إليه الفطرة المستقيمة في التوحيد ، وما اتّفقت عليه الكتب والرسل ، فقد لزمتهم الحجّة ، والحقّ أوضح من أن تقام عليه الحجّة ، وإنّما كان إعراضهم عناداً ولجاجاً **﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾**[1] ، ولذا أمر سبحانه وتعالى نبيّه والمؤمنين بإظهار إيمانهم وأنّهم على الدّين الحقّ المرضي عند اللّٰه تعالى وهو الإسلام ، الذي هو ملازم للتوحيد

---

١ . سورة النمل : الآية ١٤ .

في العبادة والفعل.

والشهادة منهم بأنّهم مسلمون، إنّما تكون في قولهم وعملهم في التوحيد، فتكون تثبيتاً لمقامهم واعترافاً منهم بالحقّ.

وفي الآية الشريفة تعريض لهم بأنّهم على غير الحقّ، وأنّ المسلمين لا يبالون بأباطيل غيرهم مهما كلّفهم الأمر.

قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾.

خطاب لليهود والنصارى معاً. والجملة مقول القول في الآية السابقة، وهذه الآيات التي تليها مسوقة لبيان الدِّين الحقّ والدعوة إلى الإسلام الذي له جذور من حين إبراهيم الخليل عليه السلام.

والمحاجّة في إبراهيم من أهل الكتاب هي ادعاء أهل كلّ دين أنّه كان منهم وعلى دينهم، وتعصّب كلّ طائفة على ذلك، فزعمت اليهود أنّه كان يهودياً، والنصارى أنّه كان نصرانياً، وقد وقع بسبب ذلك النزاع بينهم، وأكذبهم اللّه تعالى في عدّة مواضع من القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾.

احتجاج على أهل الكتاب بأنّ التوراة والإنجيل نزلتا بعد إبراهيم، فلا ريب أنّ اليهودية والنصرانية إنّما حدثتا بعد نزولهما. وفي إتيان نزول التوراة والإنجيل في الاحتجاج لبيان أنّه لو كان إبراهيم عليه السلام من إحدى الطائفتين لكان كتاب كلّ طائفة يشير إلى ذلك، وهذا لم يتحقّق، فلا يمكن أن يكون إبراهيم منهم.

---

١. سورة البقرة: الآية ١٤٠.

قوله تعالى : ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ .

أي : أفلا تعقلون دحوض دعواكم وبطلانها ، وأنّ المتقدّم لا يكون تابعاً للمتأخّر ، والتعبير بذلك إنّما هو لبيان أنّ الأمر يكفي فيه أدنى تنبيه .

وفي الآية الشريفة تجهيل لهم وإعلام لهم بأنّ الحقّ في إبراهيم عليه السلام ، وأنّه كان على الدِّين الحنيف مسلماً للّٰه عزّوجلّ ، كما نبّه عليه عزّوجلّ في الآيات اللاحقة .

قوله تعالى : ﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ .

تثبيت لتكذيبهم وإظهار لجهلهم ، وإنّما أتى سبحانه باسم الإشارة أمّا للتحقير والتنقيص ، أو لبيان أنّ الخطاب والتوبيخ إنّما يكون إليكم وفي أنفسكم دون أسلافكم ، أو لأنّ المحاجّة كانت بينهم وفي أنفسهم ، لا بينهم وبين المسلمين ، وإلّا كان المسلمون طرفاً في المحاجّة الباطلة .

والمعنى : أنّكم حاججتم وتنازعتم في أُمور معلومة البطلان لديكم بالوجدان ، منها : ما حكاه عزّوجلّ آنفاً عنهم ، وهو محاجّتهم في كون إبراهيم عليه السلام يهودياً أو نصرانياً ، مع علمهم بأنّه على الدِّين الحقّ ، وأنّ المتقدّم لا يكون تابعاً للمتأخّر ، بل هو منبعث عن الأول ، وقد غالوا في هذه الأُمور وتشبّثوا بحجج هي أوهن من بيت العنكبوت .

ومنها : أنّهم كانوا يتنازعون في عيسى عليه السلام ، فكانت النصارى تحاجّ اليهود في بعثه أو نبوّته أو أنّه اللّٰه أو ابنه أو ثالث ثلاثة ، وكانت اليهود تحاج النصارى فيه فتبطل نبوّته وأُلوهيّته ، والجميع يعلمون بأنّه مخلوق من مريم ورسول أرسله اللّٰه تعالى إلى بني إسرائيل .

قوله تعالى : ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ .

الاستفهام توبيخي يعني: فلِمَ تتنازعون وتحاجّون في أُمور لا تعلمون بها وتغالطون فيها، والواجب عليكم اتّباع الوحي المبين ومتابعة سيِّد المرسلين.

وقد اختلف المفسّرون في تعيين الذي لهم به علم، وجمهورهم أنّه أمر إبراهيم المتنازع في كونه يهودياً أو نصرانياً، إلّا أنّ ذلك أمر واضح لا يجهله أحد منهم، ويعلمون أنّ إبراهيم عليه السلام كان متقدِّماً عليهم ولا يمكن أن يكون تابعاً للمتأخِّر ـ كما ذكرنا ـ ولذا عقّب سبحانه وتعالى بعد تكذيبهم في ذلك بقوله: ﴿**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾، الدال على تقبيحهم في هذا الأمر المعلوم.

وذكر بعض المفسّرين أنّ المراد من عدم علمهم بأمر إبراهيم هو عدم علمهم بأنّ دين اللّٰه واحد وهو الإسلام، وأنّ اليهودية والنصرانية والإسلام شعب من ذلك الدِّين الحقّ، وأنّها تتدرّج في سلم الكمال، واليهود والنصارى جهلت أنّ إبراهيم هو المؤسِّس لهذا الدِّين الحقّ، والأصل لا ينسب إلى فرعه، بل الأمر بالعكس.

وفيه: أنّ ما ذكره يرجع إلى ما تقدّم الذي عرفت المناقشة فيه، مع أنّ كون إبراهيم عليه السلام هو المؤسِّس للدِّين أمر مسلّم عند الجميع، بل هو معروف عند الأديان الثلاثة، إلّا أنّ النزاع يرجع إلى أنّ اليهود تدّعي أنّ الدِّين الحقّ هو اليهودية فقط، وأنّ إبراهيم يهودي، والنصارى تدّعي أنّ الدِّين الحقّ هو النصرانية، وأنّ إبراهيم هو الذي أسّسها. فالنزاع بينهم في تعيين الدِّين الذي أسّسه إبراهيم، لا في كونه المؤسِّس للدِّين الحقّ وأنّه لا يجهله أحد منهم.

والحقّ أن يُقال: إنّ ما كان يجهله اليهود والنصارى هو ادّعاء اليهود الأُلوهية في بعض أنبيائهم، كما زعموا في عزير ابن اللّٰه، وادّعاء النصارى في عيسى ابن اللّٰه، أو هو الإله، أو التثليث، وقد جهلوا جميعاً أنّ المخلوق المربوب لا يمكن أن يكون إلهاً، وأنّ اللّٰه تعالى هو الإله الواحد الأحد.

مع أنّ الآية الشريفة تدلّ على أمر أبعد من ذلك، وهو أنّ التشبّث بأُمور

معلومة لا تجعل المستحيلات أُموراً ممكنة بالمغالطة، فجميع ما زعموه مغالطة بين الحقّ الواقعي والوهم الاعتقادي، وهم بمعزل عن الواقع مع تشبّثهم بهذه الأوهام.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

تأكيد لنفي العلم عنهم، أي واللّٰه يعلم الحقّ وأهله وما أنتم عليه من تلبيس الحقّ بالباطل ومغالطتكم فيه وأنتم لا تعلمون شيئاً، ولستم بأهل لأن يعلّمكم اللّٰه تعالى شيئاً، لجحودكم وضلالكم.

والآية الشريفة دليل على أنّ كلّ علم ما لم ينته إلى العلوم التي أودعها اللّٰه تعالى في الفطرة، أو ما أوحاه إلى أنبيائه لم يكن منتجاً، بل لا يكون إلّا من المغالطات والأوهام كما أثبته أكابر الفلاسفة.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلَا نَصْرَانِيّاً﴾.

بيان للبرهان المقرّر سابقاً في شأن إبراهيمعليه السلام، وأنّ التوراة والإنجيل نزلتا بعده، وتنزيه من اللّٰه تعالى له من كل افتراء عليه، فلم يكن يهودياً ولا نصرانياً كما كانت تدّعيه كلّ فرقه منهما، لأنّه لا يقول بأمر يمسّ بجلال اللّٰه تعالى وعظمته ولا يحدّ قدرته عزّوجلّ، ولا ينسب إليه ما يليق به كما تقوله اليهود، ولا يقول بالتثليث والبشر كما عليه النصارى المبتعدين عن التوحيد الخالص الذي هو دين إبراهيمعليه السلام، فالأمر هنا أمر عقائد لا أمر نسب وصلة.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

مادّة (حنف) تدلّ على الميل إلى الحقّ، وحيث إنّ الحقّ فيه تعالى فيكون الميل إلى التوحيد حينئذٍ، ويلازمه نفي كلّ ما هو خلاف الحقّ والتوحيد من الشرك والضلال، فكانت عقيدة إبراهيمعليه السلام مائلة عن الشرك ومتمحضة في

التوحيد الخالص الذي ينفي كلّ شرك وضلال كما عليه محمّد ﷺ.

ويقابلها مادّة (جنف) الدالّة على الميل إلى الباطل. وقد كان عرب الجاهلية يدعون أنفسهم بالحنفاء، لأنّهم تبعوا إبراهيم في بعض شرايعه، كالختان والحجّ. وكان أهل الكتاب يسمّونهم بالحنفيّة الوثنية.

والمراد بالإسلام في المقام هو التسليم للّه تعالى والإنقياد لطاعته والخضوع لربوبيّته، وليس المراد من الإسلام الدّين الذي جاء به محمّد بن عبداللّه ﷺ، فإنّه حادث بعد إبراهيم بعدّة قرون وتابع له، لقوله تعالى: ﴿**وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً**﴾[1]، وقد تقدّم في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ**﴾[2] بعض الكلام.

وقد وصف اللّه سبحانه وتعالى إبراهيم عليه السلام بأوصاف ثلاثة، كلّ واحد منها يدلّ على بطلان ما تدّعيه اليهود والنصارى والوثنية المشركة، ففي توصيفه بكونه حنيفاً لأجل كونه تاركاً لكلّ العقائد الزائفة ومائلاً إلى التوحيد الحقّ كما تقدّم، وفي توصيفه بكونه مسلماً لبيان أنّه منقاد للحقّ وداخل في طاعة اللّه تعالى، مخلص له خاضع لوجهه الكريم، وفي توصيفه بكونه لم يكن من المشركين للإعلام بأنّه لم يكن من عبدة الأصنام ولا من الحنفية الوثنية، كما كانت عليه عرب الجاهلية، وفيه التعريض بأنّهم مشركون، فتكون الجملة تأكيداً لما تضمّنه الكلام السابق، كما أنّ فيه التنبيه على أنّ الحنفية المصطلحة بين عبدة الأوثان لم تكن مرادة، بل المراد هي الحنفية الحقّة التي جاء بها إبراهيم.

ويستفاد من الآية الشريفة أنّ إبراهيم عليه السلام الذي اتّفق على إجلاله وإكرامه جميع الأديان، إنّما هو المرضي للّه تعالى والمستسلم لأمره، لم يكن على ملّة

---

١. سورة النساء: الآية ١٢٥.

٢. سورة آل عمران: الآية ١٩.

أحد منهم، وبهذا الاعتبار صار موضع احترام وإجلال جميع الأديان، بل يعتبر أصلها ومؤسّسها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾.

أولى: أفعل التفضيل من وليه يليه وليّاً، وهو بمعنى أقرب. أي أقرب الناس إلى إبراهيم في الدخول في ولايته مَن كان متّبعاً له، فإذا كانت نسبة بين أحد وبين هذا النبيّ العظيم المبجل، فإنما هي نسبة المتابعة له في حقّ وموافقته في الدِّين الذي جاء به، ومَن استحقّ هذه الأولوية من المتقدّمين مَن أجاب دعوته واهتدى بهديه واتبعه على الحنيفيّة وأسلافه من الأنبياء السابقين والموحّدين الصالحين.

وفي الآية المباركة التعريض لأهل الكتاب بأنهم لم يتبعوه، فليسوا أولى بإبراهيم عليه السلام، فكيف يكون منهم ؟!

قوله تعالى: ﴿وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ﴾.

أي: ومن المتأخِّرين هذا النبيّ والمؤمنين به فإنّ دينه على الحقّ، وأنّه من أكبر الداعين إلى الحنيفية التي دعى إليها إبراهيم عليه السلام، بل أنّ دينهما واحد.

وفي إفراد النبيّ والمؤمنين به عن الذين اتّبعوه، تجليل لهذا النبيّ العظيم وصون له من أن يطلق عليه الاتباع. هذا إذا جعلنا قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا النَّبِيُّ﴾ جملة معطوفة على الضمير المفعول.

وقيل: الجملة معطوفة على الموصول قبله، فيكون من عطف الخاص على العام.

وقيل: إنّه معطوف على إبراهيم، فتكون الجملة مجرورة. والمعنى أنّ الأولى الناس بإبراهيم وهذا النبيّ للذين اتبعوه.

واعترض عليه أنّه ينبغي أن يثني ضمير ﴿اتَّبَعُوهُ﴾.

ولكن أُجيب: بأنّه نظير قوله تعالى: ﴿وَاللّٰهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾[١].

والحقّ أنّ الاعتراض ساقط، لأنّ الضمير المنصوب في قوله تعالى: ﴿اتَّبَعُوهُ﴾ يرجع إلى خصوص إبراهيم عليه السلام، وكون نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله مقصوداً أيضاً في واقع المراد، لا يوجب تثنية الضمير في ظاهر اللفظ، مضافاً إلى أنّه يلزم الفصل بين العامل والمعمول بأجنبي.

فالصحيح ما ذكرناه، وهو الموافق لأدب القرآن في خاتم الأنبياء والمرسلين، مثل قوله تعالى: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾[٢]، ولم يقل عزّوجلّ فبهم اقتده.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

أي: مَن دخل في ولاية إبراهيم عليه السلام دخل في ولاية اللّٰه تعالى، واللّٰه ولي المؤمنين ينصرهم بالحسنى ويصلح شؤونهم دون غيرهم من الكافرين المشركين.

وفيه إيماء إلى أنّ أهل الكتاب خارجون عن ولايته سبحانه وتعالى، وإن ادّعوا الإيمان باللّٰه جلّت عظمته.

***

---

١. سورة التوبة: الآية ٦٢.

٢. سورة الانعام: الآية ٩٠.

بحوث المقام

بحث أدبي:

كلمة سواء في قوله تعالى: **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾** تأتي مصدراً، وتأتي بمعنى الوصف، أي متساوي الطرفين والعدل، وتقرأ ممدودة إذا فتح السين، ومقصورةً إذا كسر السين أو ضم. وهي نعت للكلمة مستوية أو متساوية، فتكون مجرورة ويمكن أن تكون منصوبة على المصدر.

و**﴿لِمَ﴾** في قوله تعالى: **﴿لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ﴾**، أصله (لما) حذفت الألف فرقاً بين الاستفهام والخبر.

و**﴿هَآ﴾** في قوله تعالى: **﴿هَآ أَنتُمْ هَٰؤُلَآءِ﴾** حرف تنبيه، أطرد دخوله على المبتدأ إذا كان خبره اسم الإشارة، و**﴿أَنتُمْ هَٰؤُلَآءِ﴾** قيل: مبتدأ وخبر على أن يكون هؤلاء بمعنى الذين وما بعده صلة له.

وقيل: أنتم مبتدأ وهؤلاء منادى حذف منه حرف النداء، وجملة **﴿حَاجَجْتُمْ﴾** خبر.

***

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على أُمور:

الأوّل: يدلّ قوله تعالى: **﴿كَلِمَةٍ سَوَآءٍ﴾** على أنّ الكلمة من أساسيّات كتب أهل الكتاب، وأوّليات العقل، وأنـّها من البديهيات، فتدلّ بالملازمة على أنـّها من الأُمور التي يجب العمل بها عقلاً وشرعاً.

الثاني: أنّ قوله تعالى: **﴿أَلَّاَ نَعْبُدَ إِلَّاَ اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً﴾**، بيان

للكلمة السواء ـ كما عرفت ـ ويبيّن علّة الحكم بالرجوع إلى الكلمة السواء، وهي كون اللّه معبوداً واحداً لا شريك له في ذلك، فلابدّ من الاجتماع على عبادته وأن لا يتّخذ دونه معبود آخر، ولا يجوز لأحد أن يخضع إلّا لواحد له من الكمال والعظمة والكبرياء ما لا يوجد في غيره، وأن وحدة النظام في العالم تقتضي أن يكون المعبود واحداً كما أنّ خالقه واحد.

الثالث: يدلّ قول تعالى: ﴿**وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً**﴾ على نفي الولاية لأحد على أحد، إلّا ما يمنحها اللّه تعالى لعبد من عباده، وإن افراد الإنسان أبعاض من حقيقة واحدة.

كما أنّ الآية الشريفة تدلّ على نفي ربوبية غير اللّه تعالى، وأن لا رب سواه، وأنّ الربوبية الحقيقية من خصائص الأُلوهية.

الرابع: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ**﴾، أنّ الاحتجاج المنتج لابدّ أن يكون عن علم صحيح مطابق للواقع.

الخامس: يدلّ قوله تعالى: ﴿**أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾، على أنّ الأوهام الباطلة والمغالطات توجب عزل الفكر عن الواقع وبُعد الإنسان عن الحقّ.

السادس: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾، أنّ المناط في كلّ دين وملّة هو الخضوع والطاعة للّه تعالى ونبذ الشرك بكلّ أنحائه، وبهذا الاعتبار لم يكن إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً، لكونهما مشتملين على الشرك.

السابع: إنّما قال سبحانه وتعالى: ﴿**وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ**﴾، ولم يقل: (واللّه وليّهم)، إيماءً إلى أنّ الإيمان هو العلة في ولايته تعالى لعباده المؤمنين، للقاعدة المعروفة بين الأُدباء: أنّ تعليق الحكم على الوصف يشعر بالعلية.

الثامن: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**هَا أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ**

﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾، الفرق والاختلاف بين الواقع والاعتقاد، وأنهما أمران قد يتطابقان وقد يختلفان، ومن ذلك جاء الاختلاف والتنازع في العلوم والمعارف الإنسانية، وأساس المغالطات على هذا الاختلاف، وهو يدور مدار قلّة التأمّل والتفكّر وكثرتهما. ولذا ورد في القرآن الكريم والسنّة المقدّسة الترغيب الكبير إلى التفكّر والتعقّل، ولعلّ من أسرار ذلك رفع التنازع والاختلاف بين الناس، ولو وفق فرد لتمييز الاعتقاد الصحيح المطابق للواقع عن غيره لارتفع النزاع وقلّ التشاجر والتناحر بين الأنام، لكن الخلاف والاختلاف غريزة لا يمكن رفعها، ولا دفعها.

***

بحث روائي:

روى محمّد بن الحسن الشيباني، عن جعفر بن محمّد عليه السلام في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ الآية﴾، قال عليه السلام: «إنّ الكلمة السواء هاهنا هي شهادة أن لا إله إلّا اللّٰه، وأنّ محمّداً رسول اللّٰه، وأنّ عيسى عبد اللّٰه وأنّه مخلوق كآدم».

أقول: يستفاد من الحديث أنّ الكلمة السواء هي الدعوة إلى التوحيد، ونبذ الشرك، فتكون الدعوة عامّة بالنسبة إلى أهل الكتاب وغيرهم، وفي كلّ وقت.

وفي «الدر المنثور» في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ ـ الآية ـ﴾: أخرج ابن جرير عن السُدّي: دعا رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله وفد نجران، فقال: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ ـ الآية ـ﴾.

وفي «صحيح البخاري»، عن ابن عبّاس، عن أبي سفيان في حديث يذكر فيه كتاب رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله إلى هرقل عظيم الروم، قال أبو سفيان: ثمّ دعا ـ يعني هرقل ـ بكتاب رسول اللّٰه صلى الله عليه وآله فقرأه، فإذا فيه: بسم اللّٰه الرحمن الرحيم من محمّد

رسول اللّه إلى هرقل عظيم الروم، سلام على مَن اتبع الهدى، أمّا بعد فإنّي أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم، وأسلم يؤتك اللّه أجرك مرّتين، فإن تولّيت فإنّ عليك إثم الاريسيين، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلّا اللّه... واشهدوا بأنّا مسلمون ـ الحديث ـ».

ورواه مسلم في «صحيحه» أيضاً، ورواه السيوطي في «الدر المنثور» عن النسائي، وعبد الرزاق، وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس.

وفي بعض الروايات: أنّ كتاب رسول اللّه ﷺ إلى المقوقس ـ عظيم القبط ـ يشتمل أيضاً على قوله تعالى: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ**﴾.

وفي «الدر المنثور»: أخرج الطبراني عن ابن عبّاس: أنّ كتاب رسول اللّه إلى الكفّار ﴿**تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُم** ـ الآية ـ﴾.

أقول: البحث في هذه الأحاديث من جهتين: ـ

الأولى: أنّ كتب رسول اللّه ﷺ المشتملة على قوله تعالى: ﴿**تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ**﴾ إلى مَن ذكر في الروايات كعظماء الروم، والقبط، وفارس ليس من جهة الاختصاص بهم، بل هي دعوة التوحيد ونبذ الشرك، فيشمل كلّ مَن لم يكن على التوحيد حتّى المشركين. كما أنّها ـ بحسب معنى الدعوة إلى التوحيد ـ لا تختصّ بزمان دون زمان، فإنّ الدعوة عامّة وأبدية.

الجهة الثانية: اتّفق أرباب التواريخ أنّ إرسال رسول اللّه ﷺ الرسل والكتب إلى الملوك والرؤساء كان في السنة السادسة من الهجرة، ويلزم ذلك أنّ هذه الآية الشريفة ـ ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ**﴾ ـ نزلت في تلك السنة أو قريباً منها، لأنّ الكتب كانت مشتملة على هذه الآية الشريفة.

ولكن، اختلف أهل التأريخ في وفد نصارى نجران:

فمنهم مَن قال: إنّهم وفدوا على رسول اللّه ﷺ في السنة العاشرة من

الهجرة.

ومنهم مَن قال: بأنّهم وفدوا سنة تسع من الهجرة.

ويلزم من ذلك الاختلاف في وقت نزول الآية الشريفة.

ويمكن القول بأنّ الاعتبار يشهد بأنّ رسول الله ﷺ قد كتب إلى النصارى نجران أيضاً في السنة التي كتب إلى الملوك والرؤساء، لأنّهم كانوا أقرب إليه من غيرهم. فيكون ما ذكره المفسّرون في شأن هذه الآية الشريفة من باب الجريان والتطبيق ويمكن أن تكون الوفود متعدّدة، فتارةً وفدوا في سنة ست، وأُخرى في سنة تسع أو عشر من الهجرة.

بقي شيء، وهو أنّ البيهقي نقل في «الدلائل»:

«أنّ رسول الله ﷺ كتب إلى أهل نجران قبل أن ينزل عليه طس سليمان: بسم الله إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، من محمّد رسول الله إلى أسقف نجران إن أسلمتم فإنّي أحمدُ إليكم الله إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، أمّا بعد فإنّي أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد وإلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتم فقد آذنتكم بالحرب والسلام ـ الحديث ـ».

وأُشكل عليه **أوّلاً**: بأنّ الكتاب لم يتصدّر ببسم الله الرحمٰن الرحيم بخلاف سائر كتبه ﷺ.

ويمكن الجواب عنه: بأنّه ربما يكون الكتاب إلى نجران متعدّداً، أو إنّما فعل ذلك رسول الله ﷺ لأجل التودّد والمجاراة معهم.

وثانياً: أنّ سورة النمل مكّية نزلت قبل هجرة النبيّ، وكيف يجتمع مع قصّة نجران.

وفيه: بأنّ النزول له مراتب والمراد به في المقام قبل ظهورها بين الناس وانتشارة، أو كان الكتاب إليهم قبل هجرته ﷺ، لقرب دار نجران منه.

وثالثاً: أنّه يشتمل على أُمور لا يمكن توجيهها، كحديث الجزية والإيذان بالحرب وغير ذلك.

وفيه: أنّ ذلك كان في مرحلة الانشاء بداعي الترهيب دون الفعلية.

وفي «تفسير العياشي»، عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: **﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلَا نَصْرَانِيّاً﴾** ـ الآية قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: لا يهودياً يصلِّي إلى المغرب، ولا نصرانياً يصلِّي إلى المشرق، لكن كان حنيفاً مسلماً على دين محمّد صلى الله عليه وآله».

أقول: المراد من قوله عليه السلام: (لا يصلّي إلى المغرب.. ولا يصلّي إلى المشرق). هو لزومه حدّ الوسط وعدم الانحراف عنه، ويلزم ذلك انحراف الطائفتين عن الحقّ.

وأمّا قوله عليه السلام: (كان إبراهيم على دين محمّد). أي ما يتّخذه محمّد صلى الله عليه وآله ديناً لأُمّته، وهو عبارة أُخرى عن الدِّين الذي أُوحاه اللّٰه تعالى إلى إبراهيم، وأمر تعالى محمّداً أن يتّبعه، فيصحّ أن يُقال: إنّ إبراهيم على دين محمّد صلى الله عليه وآله، حيث إنّه شارح لملّة إبراهيم، كما يصحّ أن يقال: إنّ محمّداً على دين إبراهيم، أي أنّ أُصول دين محمّد متّخذة من ملّة إبراهيم.

وفي «الكافي»، عن الصادق عليه السلام: «خالصاً مخلصاً ليس فيه شيء من عبادة الأوثان».

أقول: هذا هو معنى الوسط الذي قلناه، وأنّه لم يكن منحرفاً عنه ولو بشيء يسير، وأنّ دين غيره لا يخلو عن الشرك.

وفي «المحاسن»: عن عبداللّٰه بن سليمان الصيرفي في قوله تعالى: **﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾**ـ الآية ـ قال: «سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: أنتم واللّٰه على دين إبراهيم ومنهاجه، وأنتم أولى الناس به».

أقول: وردت في مضمون ذلك عدّة روايات. والمراد بكونهم على دين إبراهيم لأنّهم يبيّنون حقيقة دين إبراهيم علماً وعملاً، فلا محالة يكون أولى الناس به مَن يكون تابعاً لمن يشرح ملّة إبراهيم قولاً وعملاً.

وفي «الكافي» و«تفسير العياشي»، عن الصادق عليه السلام: «هم الأئمّة ومَن اتّبعهم».

أقول: تقدّم ما يتعلّق بذلك.

وفي «المجمع»: في قوله تعالى أيضاً: قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«إنّ أولى الناس بالأنبياء أعملهم بما جاءوا به، ثمّ تلا هذه الآية. وقال: إنّ وليّ محمّد مَن أطاع اللّه وإن بعُدت لحمته، وإنّ عدوّ محمّد مَن عصى اللّه وإن قرُبت لحمته».

وروى الزمخشري في «ربيع الأبرار» عن عليّ عليه السلام قريباً منه.

أقول: الروايات بهذا المضمون كثيرة جدّاً، وهي موافقة للقواعد العقلية التي تحكم بأنّ المتابعة إنّما تتحقّق في العمل بما يبيّنه المتبوع لا بمجرّد القول فقط، وهذا الحديث يكون شارحاً لجملة من الأخبار الواردة في المقام.

***

بحث تأريخي:

روى أهل السير والتواريخ حديث هجرة أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله إلى الحبشة، وما لقوه من المتاعب والمصائب وما جرى بينهم وبين النجاشي، وهذه الهجرة كانت أوّل احتكاك بين المسلمين وبين غيرهم، وقد أظهرت ثبات المسلمين، وسموّ أخلاقهم، وعلوّ حجّتهم، وستبقى هذه الهجرة الميمونة رمزاً للفداء والتضحية، ولابدّ للمسلمين أن يجعلوا هذه الهجرة محط أنظارهم، ويستفيدوا منها في تنظيم مجتمعهم والاحتكاك مع غيرهم، ونحن ننقل هذه القصّة لما تتضمّن

من الفوائد الجليلة ولتكون نوراً يهتدي به المسلمون في جهادهم وكفاحهم وبلائهم.

وليست هي من سبب النزول في هذه الآيات المباركة المتقدِّمة، وإن ذكرها المفسّرون في المقام.

فقد روى الواقدي في «أسباب النزول»، والخازن في تفسيره، وغيرهما عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عبّاس، ورواه محمّد بن إسحاق عن ابن شهاب:

«قال: لما هاجر جعفر بن أبي طالب وأُناس من أصحاب النبيّ ﷺ إلى أرض الحبشة، واستقرّت بهم الدار، وهاجر النبيّ ﷺ إلى المدينة، وكان من أمر بدر ما كان، اجتمعت قريش في دار الندوة، وقالوا: إنّ لنا في الذين عند النجاشي من أصحاب محمّد ثاراً ممّن قتل منكم ببدر فاجمعوا مالاً واهدوه إلى النجاشي لعلّه يدفع إليكم مَن عنده من قومكم، ولينتدب إليه رجلان من ذوي رأيكم. فبعثوا عمرو بن العاص، وعمارة بن أبي مُعَيط ومعهم الهدايا ـ الإدم وغيره ـ فركبا البحر حتّى أتيا الحبشة، فلمّا دخلا على النجاشي سجدا له وسلّما عليه، وقالا له: إنّ قومنا لك ناصحون شاكرون، ولأصحابك محبّون، وأنّهم بعثونا إليك لنحذّر هؤلاء الذين قدموا عليك لأنّهم قوم رجل كذّاب، خرج يزعم أنّه رسول اللّه، ولم يتابعه أحد منّا إلّا السفهاء، وإنّا كنّا قد ضيّقنا عليهم الأمر، والجأناهم إلى شعب بأرضنا لا يدخل عليهم أحد، فقتلهم الجوع والعطش، فلمّا اشتدّ عليه الأمر بعث إليك ابن عمّه ليفسد عليك دينك وملكك ورعيّتك، فاحذرهم وادفعهم إلينا لنكفيكم.

قال: وآية ذلك أنّهم إذا دخلوا عليك لا يسجدون لك، ولا يحيّونك بالتحيّة التي يُحييك بها الناس، رغبةً عن دينك وسنّتك.

قال : فدعاهم النجاشي ، فلمّا حضروا صاح جعفر بالباب : يستأذن عليك حزب اللّٰه تعالى ، فقال النجاشي : مروا هذا الصائح فليعد كلامه ، ففعل جعفر ، فقال النجاشي : نعم ، فليدخلوا بأمان اللّٰه وذمّته ، فنظر عمرو إلى صاحبه ، فقال : ألا تسمع كيف يرطنون بحزب اللّٰه وما أجابهم به الملك ؟ فأساءهما ذلك .

ثمّ دخلوا عليه فلم يسجدوا له ، فقال عمرو بن العاص : ألا ترى أنّهم يستكبرون أن يسجدوا لك ؟ فقال لهم النجاشي : ما منعكم أن تسجدوا لي وتحيّوني بالتحية التي يحييني بها مَن أتاني من الآفاق ؟ قالوا : نسجد للّٰه الذي خلقك وملّكك ، وإنّما كانت تلك التحية لنا ونحن نعبد الأوثان ، فبعث اللّٰه فينا نبيّاً صادقاً ، فأمرنا بالتحية التي رضيها اللّٰه وهي السلام ، تحية أهل الجنّة ، فعرف النجاشي أنّ ذلك حقّ ، وأنّه في التوراة والإنجيل ، قال : أيُّكم الهاتف : يستأذن عليك حزب اللّٰه ؟ قال جعفر : أنا ، قال : إنّك ملك من ملوك الأرض من أهل الكتاب ، ولا يصلح عندك كثرة الكلام ، ولا الظلم ، وإنّما أُجيب عن أصحابي ، فمر هذين الرجلين فليتكلّم أحدهما ، ولينصت الآخر فتسمع محاورتنا ، فقال عمرو لجعفر : تكلّم .

فقال جعفر للنجاشي : سلْ هذين الرجلين ، أعبيدٌ نحن أم أحرار ؟ فإن كنّا عبيداً قد أبقنا من أربابنا فردّنا عليهم . فقال النجاشي : أعبيدٌ هم أم أحرار ؟ فقال : بل أحرار كرام ، فقال النجاشي : نجوا من العبودية ، فقال جعفر : سلهما ، هل أرقنا دماً بغير حقّ فيقتصّ منّا ، فقال عمرو : لا ولا قطرة ، قال جعفر : سلهما هل أخذنا أموال الناس بغير حقّ فعلينا قضاؤها ؟ قال النجاشي : إن كان قنطاراً فعليَّ قضاؤها ، فقال عمرو : لا ولا قيراط ، فقال النجاشي : فما تطلبون منهم ؟ قال : كنّا وإيّاهم على دين واحد ، على دين آبائنا فتركوا ذلك ، واتّبعوا غيره ، فبعثنا قومنا لتدفعهم إلينا . فقال النجاشي : ما هذا الذي كنتم عليه ، والدِّين الذي اتّبعوه ؟ فقال

جعفر: أمّا الدِّين الذي كنّا عليه فهو دين الشيطان، كنّا نكفر بالله ونعبد الحجارة، وأمّا الذي تحوّلنا إليه فهو دين الله الإسلام، جاءنا به من عند الله رسولٌ بكتاب مثل كتاب ابن مريم موافقاً له، فقال النجاشي: يا جعفر تكلّمت بأمر عظيم.

ثمّ أمر النجاشي بضرب الناقوس فضرب، واجتمع إليه كلّ قسيس وراهب، فلمّا اجتمعوا عنده، قال النجاشي: أنشدكم بالله الذي أنزل الإنجيل على عيسى، هل تجدون بين عيسى وبين يوم القيامة نبيّناً مرسلاً؟ قالوا: اللَّهُمَّ نعم قد بشّرنا. فقال: مَن آمن به فقد آمن بي، ومَن كفر به فقد كفر بي، فقال النجاشي لجعفر: ماذا يقول لكم هذا الرجل؟ وما يأمركم به، وما ينهاكم عنه؟ فقال: يقرأ علينا كتاب الله ويأمرنا بالمعروف، وينهانا عن المنكر، ويأمرنا بحسن الجوار، وصلة الرحم، وبرّ اليتيم، يأمرنا أن نعبد الله وحده لا شريك له، فقال له: اقرأ عليَّ ممّا يقرأ عليكم، فقرأ عليه سورة العنكبوت، والروم، ففاضت عينا النجاشي وأصحابه من الدمع، وقالوا: زدنا من هذا الحديث الطيّب، فقرأ عليهم سورة الكهف، فأراد عمرو أن يغضب النجاشي فقال: إنّهم يشتمون عيسىٰ وأُمّه، فقال النجاشي: فما تقولون في عيسى وأُمّه؟ فقرأ عليهم سورة مريم، فلمّا أتى على ذكر مريم وعيسى رفع النجاشي من سواكه قدر ما يقذي العين، وقال: والله ما زاد المسيح على ما تقولون هذا.

ثمّ أقبل على جعفر وأصحابه فقال: اذهبوا فأنتم سيوم بأرضي ـ يقول: آمنون ـ مَن سبّكم وآذاكم غرم. ثمّ قال: ابشروا، ولا تخافوا فلا دهورة اليوم على حزب إبراهيم. فقال عمرو: يا نجاشي، ومَن حزب إبراهيم؟ قال: هؤلاء الرهط، وصاحبهم الذي جاؤوا من عنده، ومَن اتّبعهم، فأنكر ذلك المشركون وادعوا دين إبراهيم.

ثمّ ردّ النجاشي على عمرو وصاحبه المال الذي حملوه، وقال: إنّما

هديّتكم إليّ رشوة فاقبضوها ، فإنّ اللّٰه ملّكني ولم يأخذ منّي رشوة ، قال جعفر : فانصرفنا فكنّا في خير جوار ، وأنزل اللّٰه عزّوجلّ في ذلك على رسول اللّٰه ﷺ في خصومتهم في إبراهيم وهو في المدينة : **﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾** ».

هذا هو حديث الهجرة الذي رواه الفريقان بطرق مختلفة ، ولابدّ من التأمّل فيه والاستفادة منه في تكوين المجتمع الإسلامي ، وفيه الدروس القيّمة في كفاح المسلمين وبلائهم .

***

الآية ٦٩ ـ ٧٤

﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

بعد أن دعا عزّوجلّ أهل الكتاب إلى الإسلام الذي كان عليه إبراهيم وسائر الأنبياء العظام، وسجّل عليهم افتراءهم على إبراهيم بأنّه يهودي أو نصراني، وردّ عليهم حججهم في ذلك، يبين سبحانه في هذه الآيات حالهم بالنسبة إلى الحقّ والمؤمنين به من الكذب والافتراء والإضلال، وما يضمرونه في أنفسهم من العداوة بالنسبة إلى الرذيلة وجهدهم في غواية المؤمنين وإضلالهم والكيد بهم بكلّ وسيلة. وقد أمر اللّٰه تعالى المؤمنين بالثبات ومتابعة هدى اللّٰه، ووعدهم الحسنى والرحمة والفضل العظيم.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾.

الودّ هو المحبّة، ويأتي بمعنى التمنّي أيضاً إذا كان المحب مشتغلاً بمقدّمات ما يحبّه، فيكون الودّ حينئذٍ أخصّ من التمنّي، وجملة ﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ تفسير له.

وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى. والطائفة الجماعة، والمراد بها أهل الرأي والجاه من الرؤساء والأحبار والقسيسين، فيكون ﴿من﴾ للجنس حينئذٍ.

وإضلال الكفّار للمؤمنين هو صدّهم عن الوصول إلى الكمال اللائق بهم بالغواية، والتشكيك في الدِّين، وإلقاء الشبهات وكلّ ما يوجب التزلزل في عقيدة المؤمنين، والخروج عن ثباتهم، وردَّهم إلى الكفر.

والآية تثبت الضلالة لهم، وحرصهم على الإضلال والغواية.

وإنّما ذكر سبحانه كلمة ﴿لو﴾، إشارةً إلى أن ودّهم ومحبّتهم في إضلال المؤمنين لا تجاوز نيّاتهم الفاسدة، ولا يتحقّق في الخارج.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾.

لأنّ حبّهم لإضلال المؤمنين، وصدّهم عن الوصول إلى الكمال اللائق بهم لا يتحقّق إلّا بعد ضلالتهم وإعراضهم عن الحقّ، وبُعدهم عن الكمال الذي أعدّه اللّه تعالى لهم. وصرف أنفسهم عن كسب الأخلاق الفاضلة، والفضائل الإنسانية التي من أهمّها حبّ الخير والميل إلى الحقّ، والتحبّب إلى أهله، وأنّ حرمانهم عن جميع ذلك والاشتغال بالإضلال والتوجّه إلى الغواية صرف للنفس عن نيل الكمال والسعادة والهداية، وهم لا يشعرون بذلك إذ أنّ قصدهم وهمّهم هو صدّ المؤمنين عن الإيمان والحقّ، وقد استولى هذا الشرّ على نفوسهم فأوجب حرمانهم عن أهمّ الفضائل ومكارم الأخلاق.

وممّا ذكرناه يعرف وجه الحصر في الآية الشريفة .

ونفي الشعور عنهم مبالغة في ذمهم ، وحرمانهم عن الحقيقة الإنسانية ، التي بها ميّز اللّٰه تعالى الإنسان عن غيره .

قوله تعالى : **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾** .

الاستفاهم إنكارى توبيخي ، والمراد بآيات اللّٰه الكمالات الإنسانية والمعارف الحقّة الآلهية ، والحقائق التي أُنزلت في الكتب السماوية ، مثل نبوّة نبيّنا الأعظم ﷺ ، والبشرى به ، وأنّ عيسى عبد اللّٰه ورسوله ، وأنّ إبراهيم لم يكن يهودياً ولا نصرانياً ، وأنّ اللّٰه واحد أحد لا شريك له وهو قادر على كلّ شيء ، وغنيٌّ عن العالمين ، وغير ذلك من الحقائق التي قامت الدلائل الواضحة ، والبراهين القويمة عليها ، وأنّ إنكارها والكفر بها بعد العلم بها يكون كفر حجود ومكابرة للحقّ ، وهما من أعظم أنحاء الكفر ، وشناعته أكبر .

والكفر بآيات اللّٰه غير الكفر باللّٰه تعالى ، الذي يكون منشوؤه الالتزام بالشرك ونفي التوحيد ، والأوّل اصطلاح قرآني يستعمل مع أهل الكتاب ، لأنّهم لا ينكرون اللّٰه تعالى .

وإن كان الكفر بآيات اللّٰه ، وأحكامه المقدّسة ، والمعارف الإلهيّة يستلزم الكفر به وعدم الإيمان به واليوم الآخر ، ويدلّ عليه قوله تعالى : **﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾**[1] ، فإنّه يدلّ على أنّ الكفر بأحكام اللّٰه تعالى ، وما جاء به الرسول الكريم وعدم الإيمان بها يستلزم الكفر باللّٰه واليوم الآخر .

ولكن الكفر قد يكون صريحاً معلوماً للكافر ، وقد يكون بالملازمة الخفية

---

١ . سورة التوبة : الآية ٢٩ .

عليه بحيث لا يشعر به .

قوله تعالى : ﴿وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ .

مبالغة في قبح كفرهم ، وتشنيع لفعلهم ، لأنّ الكفر مع شهادة الآيات البيّنات على الوحدانية والرسالة ، لا يكون إلّا عن جحود وفساد السريرة .

والشهادة من الشهود بمعنى الحضور ، سواء كان بالحسّ أم بالوجدان .

والتعبير به لبيان أنّ علمهم إنّما هو من المشاهدة والحسّ .

قوله تعالى : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ .

مادّة (**لبس**) تدلّ على الستر والتغطية ، وسمّي اللباس لباساً ، لأنّه يستر البدن ويغطيه . ولبس الحقّ بالباطل ستره وتغطيته بالباطل ، بإلقاء الشبهات عليه وتمويهه وخلطه بالباطل .

والمراد بالحقّ الحقائق الواقعية ، والكمالات الانسانية والمعارف الإلهية ، منها البشارة بنبوّة النبيّ ﷺ ونزول القرآن عليه ، وغير ذلك ممّا أنزله اللّٰه تعالى على الأنبياء السابقين وأخبروا به أُممهم .

والاستفاهم إنكاري ، وفيه من التوبيخ لهم والتشنيع بهم ما لا يخفى .

قوله تعالى : ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ﴾ .

كتمان الحقّ إمّا أن يكون بستره وعدم إظهاره ، أو بتحريف الكتاب وجعله قراطيس يبدون شيئاً منها ويخفون الكثير ، أو بتمويه الحقّ بالتأويلات الباطلة والأوهام الفاسدة ، والآراء المزيفة .

وقد بيّن سبحانه في مواضع كثيرة من القرآن الكريم كتمان الحقّ الذي هو من أعظم الكبائر .

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

أي: وأنتم تعلمون الحقّ وتعرفونه إلّا إنّكم تكفرون به وتكتمونه، وفيه من التشنيع عليهم، والتوبيخ لهم ما لا يخفى.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

الطائفة: الجماعة من الناس.

والمراد من أهل الكتاب هنا اليهود الذين عرفوا بالغدر والخيانة لأهل الإيمان.

كما أنّ المراد بوجه النهار أوّله في مقابل آخره، وسمّي وجهاً لأنّه أوّل ما يواجه الإنسان ويبدون له بعد انقضاء الليل.

والآية تدلّ على أن طائفة من اليهود هي الآمرة لطائفة أُخرى منها، بالإيمان أوّل النهار والكفر آخره، مخادعة للمؤمنين أو كيداً بهم، ومحاولة لإضلالهم عن الحقّ، وبعث الشكّ والارتياب في نفوسهم والتشكيك في دينهم، وهذا من أهمّ الأعمال العدوانية التي مارستها اليهود ضدّ المسلمين، وله الأثر الكبير في النفوس، ويعتبر من أعظم الحروب النفسية مع المسلمين أبان الدعوة الإسلامية.

وفي التعبير بـ﴿عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ إشارة إلى ذلك، فإنّ قصدهم كان إضلال المؤمنين وحرمانهم من الثبات والاستقامة في الدّين، وإعلان هذه الحرب معهم دون نفس القرآن والإسلام، فإنّ لهم بالنسبة إليهما شأناً آخر، أمّا الكتمان أو التمويه والخلط، ونحو ذلك ممّا حكى الله تعالى عنهم آنفاً.

واختلف المفسّرون في متعلّق الظرف في قوله تعالى: ﴿وَجْهَ النَّهَارِ...

آخِرَهُ﴾. فالمشهود أنّ وجه النهار متعلّق بجملة: ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ﴾. وآخره متعلّق بـ﴿وَاكْفُرُوا﴾. أي خادعوا المؤمنين بهذا النحو من الخديعة، وهي الإيمان الصوري بالقرآن والرسالة أوّل النهار، والالتحاق بالمؤمنين في هذا الوقت، ثمّ إظهار الكفر والارتداد آخره، إيماءً إلى أنّ القرآن والإسلام عاريان عن الصدق والحقيقة، وأنّ ما ورد من البشارات في كتبهم لا تنطبق على هذا الدِّين الجديد ورسوله الكريم، وإيهاماً للمؤمنين بأن أهل الكتاب ـ العالمين بهذا الدِّين ـ لم يتحقّق لهم صدق الرسول، وحقّانية الدِّين، ولم يكن هو ذلك المبشر به، فيرتاب المؤمنون في دينهم.

وقيل: إنّ الظرف متعلّق بـ﴿أنزل﴾. أي آمنوا بالوحي النازل على رسوله الكريم أوّل النهار الذي يوافق أهل الكتاب، واكفروا بالوحي النازل عليه ﷺ آخر النهار الذي يخالف ما هم عليه، فيكون الإيمان والكفر متعلّقين بشيء خاص، وهو الوحي الموافق والمخالف. وحينئذٍ يكون من وضع الظرف موضع المظروف. وأُيدّ ذلك ببعض الروايات.

وقيل: إنّ ذلك كان في شأن القبلة لمّا حوّلت الى الكعبة، حيث ثقل ذلك على اليهود، فأمر أشرافها جماعةً منها بالصلاة الى القبلة الجديدة، والإيمان بهذا التكليف الجديد أوّل النهار، والكفر آخره لعلّ المؤمنين يرجعون عنه.

والحقّ أن يُقال: إنّ الآية لا غموض فيها ولا إجمال، وهي تثبت هذه المكيدة لليهود التي صدرت عنهم مرات عديدة وبأساليب مختلفة، وقد ذكرنا أنّها من الحرب النفسية التي شنّتها ضد المسلمين، وهي عامّة تشمل جميع ما ذكر، فلا وجه للتخصيص بشيء من ذلك.

ويحتمل أن يكون المراد من الآية الشريفة هو المعنى الكنائي، أي المكر والخديعة بهذا النحو مع المسلمين، فحينئذٍ لا يلاحظ المعنى المطابقي بل يكون

من إحدى صغريات المعنى الكنائي، كما هو معروف في علم الأدب. وحينئذٍ لا وجه لما ذكره المفسّرون في الاختلاف في المتعلّق.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾.

غواية أُخرى لأهل الكتاب وسبيل آخر من سبل إضلالهم، والجملة من أقوالهم التي أرادوا بها الكيد بالمسلمين.

والإيمان يتعدّى بالباء ـ وهو كثير ـ وقد يتعدّى باللام فيفيد التصديق، والثقة، والركون، قال تعالى: ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[1]، فيكون تصديقاً خاصّاً لا يكون في مطلق الإيمان، ويكون المراد من النهي هو عدم التصديق والركون إلى المؤمنين.

والمعنى: وقالت طائفة من أهل الكتاب ـ وهم اليهود على ما عرفت ـ لطائفة أُخرى منهم: لا تثقوا بغيركم فتظهروا أحاديثكم لأحد منهم وتلقون إليه السرّ الذي أودعه الله فيكم، فيكون النهى نهياً عن إفشاء ما عندكم من الحقّ، وقد أخبرهم الله تعالى بظهور النبيّ ﷺ، وجعل معجزته فيه، وظهور الشواهد الكثيرة على صدقه.

وإنّما نهوهم عن ذلك لما ذكره عزّوجلّ في ما يأتي، وهو لئلا يكون للمسلمين مثل ما عندهم من الحقّ، أو تكون لهم الحجّة.

وهذا هو كتمان الحقّ الذي عرفت به اليهود، وإنّما قالوا ذلك تعصّباً منهم في حصر الحقّ في أنفسهم، وحسداً منهم بأنّهم أولى بالحقّ من غيرهم، وكيداً بالمؤمنين.

وحينئذٍ فلا يختصّ هذا المكر باليهود فقط، فكل مَن تعصّب لنفسه وغلبت

---

١. سورة البراءة: الآية ٦١.

عليه العصبية، يُخفي الحقّ ولا يُظهره لأحد من غير ملّته، فتشمله الآية الكريمة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾.

جملة اعتراضية بين أقوال الكائدين، جيء بها للتأكيد على عدم إضرار كيدهم بمَن لطف به اللّه تعالى، ولتثبيت إيمان المؤمنين، والتعجيل في تقريعهم، والاهتمام ببيان فساد ما ذهبوا إليه، وتسفيهاً لآرائهم، والآية جواب عن جميع ما قالوه في الكيد بالمؤمنين وغوايتهم.

ونظير هذه الآية ما تقدّم في سورة البقرة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾[1]، إلّا إنّ الفرق بينهما أنّ المقام من القضايا الحقيقية الكلّية المنطبقة على جميع الموارد، وهناك من قبيل القضايا الخارجية باعتبار تغيير القبلة، وأنّه كان من اللّه تعالى، كما أنّ القبلة السابقة كانت كذلك، وفي المقام يكون باعتبار أصل الدِّين أُصولاً وفروعاً، فيكون معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾[2].

والمعنى: أنّ الهدى الذي هو الغرض الأصلي من التشريعات السماوية وغاية سعي كلّ مؤمن، إنّما هو هدى اللّه تعالى فقط، الذي يحتاج إليه المؤمنون في جميع أُمورهم، دون ما اعتقده غيرهم، والعقل حينئذٍ يحكم باتّباع هدى اللّه، والإعراض عن غيره، فلا يضرّ بعد ذلك كتمان أهل الكتاب الحقّ أو إظهاره.

قوله تعالى: ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ﴾.

عود إلى مقالتهم، وبيان للسبب في نهيهم عن التصديق بغيرهم وافشاء السرّ، أي لا تؤمنوا إلّا لمن تبع دينكم كراهة أو يؤتى أحد من غيركم مثل ما

---

١. سورة البقرة: الآية ١٢٠.

٢. سورة آل عمران: الآية ١٩.

أُوتيتم من الحقّ فيعرفه فلا تنفع غواياتهم ومكائدهم، وهذا يكون بحسب زعمهم الفاسد، وهو السبب في كتمانهم للحقّ أيضاً.

وقيل: إنّ هذه الجملة متعلّقة بالجملة السابقة التي أمر اللّٰه تعالى فيها رسول بأن يقول لأهل الكتاب: **﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾**. ويكون قوله تعالى: **﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ﴾**، تأكيداً لما أمر اللّٰه به أوّلاً، فلا يكون في البين فصل بكلام أجنبي، وتفيد هذه الجملة الإنكار لغيضهم وحسدهم، وتكون جواباً عن خدعهم، ولكن الأوّل هو الأولى.

قوله تعالى: **﴿أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ﴾**.

سبب آخر في كتمان الحقّ، وقد بيّن سبحانه هذا الأمر في موضع آخر، قال تعالى: **﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾**[1].

وربما يكون الأمران متلازمين، فإنّ إيتاء غير اليهود الحقّ يلازمه المحاجّة عند ربهم.

وإنّما قطع سبحانه هذا الأمر عن سابقة (بأو) لبيان استقلال كلّ واحد من هذين الأمرين في مكائدهم وغيضهم. أو يكون الترديد باعتبار اختلاف العوالم، فإنّ الأوّل في دار الدُّنيا، والثاني يكون في عالم الآخرة.

قوله تعالى: **﴿قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾**.

ردّ لما زعموه، وإبطال لحججهم في كتمانهم الحقّ. والفضل عبارة عمّا يؤتى زيادة عن أصل الاستحقاق، وقد يطلق على أصل ما يؤتى ولو لم تكن زيادة.

---

١ . سورة البقرة: الآية ٧٦.

والمراد به المعنى الأعمّ من ذلك، بناءً على ما أثبته جمع من الفلاسفة والمتكلّمين من أنّه لا استحقاق في البين أصلاً، وإنّما يكون مطلق عطائه تبارك وتعالى فضلاً.

ويُراد به في المقام مطلق مواهبه وعطياته، فتشمل أصل النبوّة والرسالة، وتفضيل بعض النبيّين على بعض، وما منحه اللّٰه تعالى لنبيّه الكريم ﷺ وأُمّته. فيكون مثل هذه الآية ردّاً على كلّ مَن زعم أنّ أفعاله وحركاته وسعيه مؤثّرة في إزالة الحقّ عن مقره، أو تخصيصه لنفسه، فإن الفضل بيد اللّٰه يؤتيه مَن يشاء من عباده وفق الحكمة المتعالية، لاسيما في الفضائل المعنوية التي لا يعلم خصوصياتها أحد إلّا اللّٰه تعالى الذي بيده الملك يمنحه مَن يشاء من عباده.

وما فضّله اللّٰه تعالى اليهود ببعض النعم، ومنحهم الملك والنبوّة، قال تعالى: **﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾**[1]. لا يستلزم اختصاصهم بالفضل وحرمان غيرهم منه، فإنّ الملك والفضل بيد اللّٰه يعطيه من يشاء مَن خلقه، ويمنعه عمّن يشاء.

قوله تعالى: **﴿وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾**.

برهان قويم على بطلان مقالاتهم وحججهم في كتمان الحقّ. أي واللّٰه واسع في فضله ورحمته لا يحدّهما شيء، إلّا أن يكون التحديد في الموضوع والمفضّل عليه، عليم بخصوصيات فضله، واستعداد الموضوع وقابليّته، وهذا من القواعد العقلية المسلّمة المعروفة، من أنّ الإضافات لابدّ أن تكون بقدر القابليات، واللّٰه تعالى عليم بتلك القابليات لا يجهلها. والآية تدلّ على أنّ الفضل غير محدود بشيء، فلا يوصف بالقلّة مطلقاً، فلا يلزم من اعطائه لأحد إنزوائه

---

١. سورة البقرة: الآية ٤٧.

ومنعه من آخر، أو يحتاج إلى التماس مرجّح لقلّته وعدم وفائه للمجموع، بل الحدّ إنّما يكون من ناحية الموضوع والمفضّل عليه، فتستفيض الموضوعات بقدر الاستعدادات وهو عليم بها.

فتكون الآية ردّاً على أقوالهم وأفعالهم الفاسدة من تخصيص النعمة والفضل لأنفسهم حسداً وبغياً، كما أنّ الآية الشريفة ردّ واضح لمقالة اليهود التي حكاها عزّوجلّ عنهم: **﴿وَقَالَتْ الْيَهُودُ يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾**[1].

قوله تعالى: **﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَآءُ﴾**.

لمّا أثبت سبحانه أنّ الفضل بيده يؤتيه مَن يشاء، واسع في إيتاء الفضل، عليم بمواضعه، ذكر هنا أنّه لم يمنعه أحد من ذلك، ولا شيء يصرفه عن الرحمة بعباده، فله أن يتصرّف في ملكه بأي نحو أراد، فيختصّ برحمته مَن يشاء منهم لعلمه بأهليّته لها، ولكن ليس كلّ أحد من عباده يستحق الفضل منه عزّوجلّ، فتكون الرحمة تحت إرادته ومشيته.

وإنّما عدل سبحانه عن الفضل، وذكر الرحمة هنا، لبيان أنّ الأوّل من شعب رحمته، وأوسعيّتها من الفضل، لقوله تعالى: **﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾**[2]، ويمكن أن تكون الرحمة استحقاقية، بخلاف الفضل فإنّه ليس كذلك مطلقاً.

وإنّما أطلق سبحانه الرحمة لتشمل كلّ ما يكون دخيلاً في سعادة الإنسان دنياً وآخرة، أو هما معاً.

قوله تعالى: **﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾**.

---

١. سورة المائدة: الآية ٦٤.

٢. سورة الأعراف: الآية ١٥٦.

تعليل لجميع ما تقدّم ، فإنّ عظمته الفضل تستلزم أن يكون واسعاً يشمل كلّ جهات الفضل ، وكلّ مَن يريده عزّوجلّ وتتعلّق به مشيته ويعلم بأهليّته لهذه المنحة الربانية ، فيختصّ برحمته مَن يشاء من عباده ، ويعطيه ما هو اللائق بحاله . والفضل هنا يشمل الرحمة أيضاً .

***

بحوث المقام

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على شدّة الصراع بين الحقّ والباطل، وكيد أهل الكتاب في إطفاء نور اللّٰه تعالى وستر الحقّ، وقد توسّلوا بجميع ما احتملوا تأثيره في إضلال المؤمنين وغوايتهم، وقد ذكر سبحانه و تعالى في هذه الآيات أُصول مكرهم، وبيّنها في مواضع أُخرى من القرآن الكريم، ويمكن تصنيفها إلى ثلاثة أقسام:

الأوّل: كيدهم بالنسبة إلى أصل الإيمان والحقّ، ويدلّ عليه قوله تعالى: **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾**، وقوله تعالى: **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾**. وهما يدلّان على أنّ كتمان الحقّ وتلبيسه بالباطل والكفر بآيات اللّٰه هي من عادتهم، وقد بيّن سبحانه في مواضع متعدّده من القرآن الكريم سبل هذه المكيدة والخديعة.

الثاني: خديعتهم بالنسبة إلى أهل الإيمان والمؤمنين، ويدلّ عليه قوله تعالى: **﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾**، وقوله تعالى: **﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ﴾**. وذكرنا أنّ هذه الخديعة من أهمّ ما أرادوا بها التأثير على نفسيّة المؤمنين وتذليلها، والشكّ في إيمانهم.

الثالث: مكرهم بالنسبة إلى الرسول الكريم ﷺ، ويدلّ عليه قوله تعالى: **﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾**، ويدلّ عليه أيضاً قوله تعالى: **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾** أيضاً، فقد كذّبوا الآيات الباهرات التي دلّت

على صدق رسول الله ﷺ، وما عرفوه من الدلائل على نبوّته ورسالته وصدق دعواه التي وردت في كتبهم.

وقد واجه المسلمون إبّان الدعوة الإسلامية هذه المكائد والخدع من الكافرين، وعانوا منها أشدّ المعاناة ولا يزالون كذلك، إلّا أنّه تعالى أظهر كيدهم وخدعهم، وأمر المسلمين بالصبر والاستقامة والالتفاف حول الرسول الكريم واتّباعه، وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ كمال العناية بالمؤمنين، وفيه إيماء إلى أنّهم على هداية الله تعالى، وأمرهم بالتمسّك بها والاستقامة عليها.

***

بحث روائي:

في «تفسير القمي»: عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿**وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا...**﴾ قال: «إنّ رسول الله ﷺ لمّا قدم المدينة، وهو يصلّي نحو بيت المقدس أعجب ذلك القوم، فلمّا صرفه الله عن بيت المقدس الى بيت الله الحرام وجدت اليهود من ذلك، وكان صرف القبلة صلاة الظهر، فقالوا: صلّى محمّد الغداة واستقبل قبلتنا فآمنوا بالذي أُنزل على محمّد وجه النهار واكفروا آخره، يعنون القبلة حين استقبل رسول الله المسجد الحرام».

أقول: يصحّ أن تحمل هذه الرواية على بيان بعض مصاديق عاداتهم لا الاختصاص، وأنّ مورد النزول لا يكون مخصّصاً للحكم كما هو المعروف.

وفي «أسباب النزول» للواحدي في قوله تعالى: ﴿**وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا...**﴾: قال الحسن والسدى: تواطأ اثنا عشر حبراً من يهود خيبر - وقرى عُرينة - وقال بعضهم لبعض: ادخلوا في دين محمّد أوّل النهار باللسان دون الاعتقاد، واكفروا به آخر النهار وقولوا: إنا نظرنا في كتبنا، وشاورنا علماءنا فوجدنا محمّداً ليس بذلك وظهر لنا كذبه، وبطلان دينه، فإذا فعلتم ذلك شكّ

أصحابه في دينهم وقالوا: إنّهم أهل الكتاب وهم أعلم به منّا، فيرجعون عن دينهم إلى دينكم، فأنزل اللّه تعالى هذه الآية، وأخبر به نبيه محمّداً ﷺ والمؤمنين».

أقول: تقدّم ما يتعلّق بذلك آنفاً.

***

الآية ٧٥ ـ ٧٨

﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٥ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ۝٧٦ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٧ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٨﴾.

بعد أن بيَّن سبحانه وتعالى بعض أحوال أهل الكتاب بما يثبت غرورهم وتكبّرهم على الحقّ، وأظهر أخلاقهم الفاسدة وشرح معايبهم، ذكر هنا مظهراً من مظاهر غرورهم وهو نقض العهد وخيانة الأمانة، فإنّ بعض أهل الكتاب أباحوا لأنفسهم استحلال أموال المسلمين اغتراراً منهم بالعصبية الحمقاء، وقالوا بأن اللّه تعالى خصّهم بالكرامة، وحباهم بالنعمة حيث جعل فيهم النبوّة والملك، وأنّ غيرهم لا حظّ لهم منها ونسبوهم إلى الأُميّة، وكان من آثار هذا الاعتقاد الفاسد أنّهم استحلّوا نقض العهد مع غيرهم، وأباحوا لأنفسهم سلب حقوق الناس، ونهب أموالهم، والخيانة معهم، وأرادوا من ذلك حصر المؤمنين والضغط عليهم بالحرب الاقتصادية عليهم، ولكنّهم احتفظوا لأنفسهم بهذه الحقوق، وحظروا نقض العهود

في ما بينهم، وقد أوعدهم سبحانه وتعالى سوء الخاتمة، وأشدّ العذاب والحرمان عن رحمته عزّوجلّ جزاء كذبهم وافترائهم على اللّٰه تعالى.

***

التفسير

قوله تعالى: (وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ).

تأمنه من الإيتمان. والقنطار هو المال الكثير المعبّر عنه في الروايات بملء مسك ثور، والكثرة من الأُمور النسبية تختلف باختلاف الأعصار والأمصار، ولعلّ اختلاف العلماء في معناه ناشئ من ذلك، وتقدّم بعض الكلام فيه في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ﴾[1].

والدينار لفظ أعجمي، وياؤه بدل عن نون، وأصله دنّار، فأُبدل أوّل النونين ياءً لوقوعه بعد كسرة، وجمعه دنانير، وهو مثقال شرعي من الذهب المسكوك ويساوي ٤،٢٥ غرام من الذهب وزناً في هذه الأعصار. والمراد من القنطار والدينار في المقام المعنى الكنائي وهو المال الكثير، والقليل.

والمعنى: أنّ من أهل الكتاب مَن لا يخون في الأمانة ولو كانت كثيرة ومنهم مَن يخونها وإن كانت قليلة.

والآية تبيّن العادة التي جرت عليها الطائفتان من أهل الكتاب، فلا تختصّ بمورد خاص وأفراد معينين.

والترديد باعتبار اختلاف أهل الكتاب في حفظ الأمانة ورعاية العهد، وأنّهم على طرفي نقيض، فإنّ بعض أهل الكتاب يحفظ الأمانات ويراعي العهود مطلقاً، بلا فرق بين أن تكون الأمانة من أهل ملّتهم، أو تكون من غيرهم، وسواء

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٤.

كانت حقيرة أم خطيرة، ومنهم على نقيض ذلك لا يحفظ العهد، ولا يؤدّي الأمانة إن أؤتمن عليها مطلقاً.

وإنّما قطع سبحانه هذه الآية عن الآيات السابقة، ووضع الظاهر موضع المضمر، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَابِ﴾ دون ﴿ومنهم﴾، لبيان أنّ هذه الطائفة التي تحفظ الأمانات غير الطائفة السابقة التي تخادع المؤمنين وتكيدهم بقولها ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ﴾، وأنّ الطائفة الخائنة هي تلك الطائفة المغرورة، وهي اليهود ـ على ما عرفت سابقاً ـ التي تزعم أنّ اللّٰه تعالى فضّلهم على سائر خلقه، وأن لا سبيل عليها من غيرها من سائر الملل والنحل، فيجوز لليهودي أكل أموال المسلمين، ونقض كلّ عهد إلهي وإنساني معه، بل لا حقوق ولا حرمة له، ونسبوا ذلك إلى كتبهم المقدّسة، وهذا هو التحريف الذي عرفت به اليهود، وهم يعلمون أنّ الكتاب لا يحكم بذلك، وإنّما أمرهم أحبارهم ورهبانهم بها بعد تزويج النزعة العصبية بين اليهود والمغالاة في أنّهم شعب اللّٰه المختار، فاستولى عليهم روح البغي والفساد غروراً.

قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِماً﴾.

استثناء من عموم الأوقات أو الأحوال. ودمت بضم الدال من دام يدوم، كقام يقوم. وقرئ بكسر الدال من دام يدام، كخاف يخاف. ويراد من هذه الجملة المعنى المجازي، وهو الكناية عن شدّة الالحاح في التقاضي والوفاء، فإنّ قيام المطالب على رأس المديون، وملازمته له فيه المبالغة في الاقتضاء والمطالبة.

والمعنى: أنّه لا يؤدّي الأمانة التي ائتمنته إيّاها إلّا إذا ألجأته إلى ذلك بالمطالبة والاقتضاء.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾.

الأُمّي مَن لا يقرأ ولا يكتب.

قيل: المراد من الأُميين في المقام العرب، باعتبار أنّ الغالب منهم لا يقرؤون ولا يكتبون.

وقيل: يحتمل أن يكون المراد منهم أتباع الرسول الأُمّي ﷺ.

وقيل: المراد منهم من عدى بني إسرائيل، فإنّهم ينسبونهم إلى الأُمّة أو الأُمم.

وكيف كان، فإنّ هذه التسمية التي وردت في القرآن أصلها ما ورد في كتب اليهود من تسمية غير بني إسرائيل بالأممي، وهي من الألقاب التي أرادوا بها تحقير غيرهم، والحطّ من كرامتهم، باعتبار أنّهم بمنزلة البهائم غير مؤهّلين للمخاطبة، وأنّهم لا حرمة لهم، يباح سرقة أموالهم، والخديعة معهم، والكذب عليهم، وهتك أعراضهم، وهدر كرامتهم وحرمانهم من جميع الأحكام الاجتماعية والعقلية. وقد أعرض سبحانه وتعالى عن ما ورد في كتبهم إبطالاً له، وأوجز سبحانه جميع تلك الجرائم والموبقات في كلمة واحدة، وهي: **﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾**.

واسم الاشارة (ذلك) يرجع إلى ما هو المدلول عليه في الآية السابقة، وهو عدم أداء الأمانة والخيانة فيها. وهذه هي حال الطائفة التي ذكرها عزّوجلّ في قوله تعالى: **﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾**. فيكون ذكر الطائفة الأُخرى الحافظة للعهود، والمؤدّية للأمانات لبيان اغترار الطائفة الأُولى، وبُعدهم عن الحقيقة، وهم يعلمون أنّ الله تعالى لا يأمر بالفحشاء والمنكر، ولا يرضى بأفعالهم القبيحة.

وضمير الجمع في **﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾** راجع إلى أفراد هذه الطائفة الخؤونة، وكذلك الضمائر في الآية الكريمة اللاحقة.

قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ .

دليل على أنّهم كانوا ينسبون أقوالهم وأفعالهم الى اللّٰه تعالى ، وقد ذكرنا آنفاً أنّهم كانوا يدّعون أنّ ذلك في كتابهم ، ويجعلونها من شريعة السماء . وقد أبطل سبحانه دعواهم ، وأثبت أنّ الكذب من عادتهم . وهم يعلمون أنّ ذلك تشريع باطل ، وافتراء على اللّٰه عزّوجلّ ، وهو لا يأمر بالفحشاء والمنكر ، بل إنّ كتبهم المقدّسة تأمرهم بالصدق في أقوالهم وأفعالهم ، وتنهاهم عن الخيانة ، والغدر والكذب ، مضافاً إلى أنّ جميع ذلك من الأحكام العقلية التي استقل العقل بحسنها ، ويلزمهم الشرع بإتيانها .

قوله تعالى : ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ﴾ .

ردّ على مزاعمهم ، وتكذيب لدعواهم ، وإثبات لما أراده اللّٰه تعالى من خلقه ، وهو الحقّ .

وأوفى من الإيفاء وهو العطاء والبذل تامّاً من غير زيادة ولا نقيصة . ووفاء العهد هو حفظه ، ومراعاته والعمل به . وقد استعملت هذه المادّة في القرآن الكريم بهيئات مختلفة ، فقد ورد فيه : وفى ، وأوفِ ، واوفوا ، والموفون .

والعهد عبارة عن الالتزام بشيء فيجب الوفاء به عقلاً وشرعاً ، بلا فرق فيه بين عهود اللّٰه تعالى مع خلقه ، أو عهود بعضهم مع بعض ، كما لا فرق بين العهود الخاصّة بين بني إسرائيل ، والعهود العامّة بين جميع الناس . والمراد بالعهود في المقام ما عاهده اللّٰه تعالى على عباده بواسطة أنبيائه من الإيمان به ، وعبادته ، والتصديق برسله والعمل بما أنزله عزّوجلّ مكارم الأخلاق وغيرها .

وعلى هذا ، لا فرق بين رجوع الضمير في (عهده) إلى (من) المتقدّمة ، أو اللّٰه في قوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱلْكَذِبَ﴾ ، إذ العهود الواقعة بين الناس من عهد

اللّٰه تعالى، يجب الوفاء بها شرعاً ويحرم نقضها، والغدر بها.

والمراد من (اتّقى) ملازمة تلك العهود ومراعاتها عملاً وإظهارها خارجاً، وترك الخيانة فيها والغدر بها.

والمعنى: أنّكم ـ يا أهل الكتاب ـ أخطأتم في دعواكم، بل السبيل ثابت عليكم في جميع ما نفيتم عنه السبيل، وأنّ مَن أوفى بعهده، واتّقى اللّٰه تعالى في دينه، ولم يغدر ولم يخن في عهوده ولم يخالفه، فإنّ اللّٰه يحبّ المتّقين.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

قضيّة عقلية مشتملة على المعلول وعلّته، وهي تبيّن أنّ مَن أوفى بعهد اللّٰه تعالى، واتّقاه عزّوجلّ بالطاعة والانقياد له، وعدم مخالفته في أمر من الأُمور يكون من المتّقين، واللّٰه يحبّ المتّقين.

ومحبّة اللّٰه تعالى هي غاية الكمالات الانسانية، بل لا يتصوّر فوقها كمال، وهي السعادة القصوى التي تعمرّ بها الدُّنيا، وتصلح الآخرة وهي الكرامة الربانية التي لا يمكن أن ينالها إلّا مَن جاهد فيه حق جهاده، وقد قرّر سبحانه أنّها تحصل بالوفاء بعهده تعالى، والتقوى في الدِّين التي هي الحصن الذي يمنع التعرّض لسخطه تعالى وغضبه، والوقوع في محارمه ومخالفته. ولا يمكن أن يحظى بمحبّته كلّ مدّعٍ ومحتال.

وإنّما ذكر سبحانه المتقين لبيان أنّ العلّة للمحبّة هي التقوى. كما أنّ فيه التعرّض لأهل الكتاب بأنّهم ليسوا على التقوى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً﴾.

بعدما ذكر سبحانه أنّ محبّة اللّٰه تعالى تختصّ بمَن أوفى بعهده مع اللّٰه تعالى، واتقاه في دينه. بيّن تعالى في هذه الآية أهل الغدر والخيانة، وأنّهم لا

كرامة لهم حتّى يستحقّوا محبّة اللّٰه ، وذكر جزاءهم والعلّة في استحقاقهم له ، وهم الذين حرموا أنفسهم من المحبّة الإلهية جزاءً لأفعالهم القبيحة ، وهي الغدر ونقض عهد اللّٰه عزّوجلّ ، وترك التقوى .

والمراد بالثمن القليل متاع الدُّنيا ، فإنّ الدُّنيا وما فيها بالنسبة إلى محبّة اللّٰه وكرامته والإيمان به قليل ، كقلّة ما هو فانٍ بالنسبة إلى ما هو أبدي دائم ، وإن كان زمان الفاني طويلاً جداً .

والاشتراء هو البيع ، ويراد به مطلق المبادلة ، أي يبدل الإيمان به عزّوجلّ والوفاء بعهده ، والجزاء الأوفى الذي أعدّه اللّٰه تعالى لمَن وفى واتّقى بالثمن القليل وهو متاع الدُّنيا .

قوله تعالى : ﴿**أُوْلَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ**﴾ .

الخلاق النصيب والحظ . وأُولئك إشارة إلى الطائفة الخؤونة بالعهد الناقضة للميثاق . وإنّما أشار إليهم بالبعيد إيماءً لبعدها عن قربه عزّوجلّ بسبب نكث عهد اللّٰه واستبداله بالأغراض الموهومة ، بخلاف الطائفة الأُخرى التي آثرت طاعة اللّٰه عزّوجلّ فوفت بعهده تعالى ، فإنهم مقرّبون بحبّه تعالى لهم ، لأنّهم تقرّبوا إليه عزّوجلّ بالتقوى والوفاء بالعهد ، والمراد بالآخرة الدار الآخرة ويوم المعاد اكتفاء بذكر الوصف عن الموصوف .

أي لا نصيب لهم من نعيمها ، لأنّهم آثروا نعيم الدُّنيا القليل الزائل على الآخرة ونعيمها الدائم الباقي .

قوله تعالى : ﴿**وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ**﴾ .

استهانة بهم ، لتوغّلهم في سخطه تعالى وغضبه عزّوجلّ .

قوله تعالى : ﴿**وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ**﴾ .

نظر عطف ورحمة في يوم القيامة.

وهذان الأمران كناية عن الإعراض عنهم والغضب عليهم والبُعد عنهم، لعدم حبّ الله تعالى لهم، الذي كرّم به عباده الموفين بعهده المتقين في دينه.

وفي تخصيص هذين الأمرين لبيان منتهى الغضب، وعدم الاعتناء في يوم يشتد احتياج الإنسان إلى تكليم الله ونظره إليه، لعظم محنته، وبانتفائهما لا يبقى له أمل ورجاء في رفع الشدائد والأهوال.

قوله تعالى: ﴿**وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾.

التزكية: التنمية، والتطهير والتخليص عن كلّ ما يشينه. أي ولا يدخلهم في عداد الأولياء ليرفع عنهم أوزارهم بالمغفرة والعفو. ولهم عذاب مؤلم. وظاهر السياق أنّ التزكية والعذاب لا يختصّان بالآخرة، بل يعمّان الدُّنيا أيضاً.

قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ**﴾.

مادة (لوي) تدلّ على الفتل، والطي، والاخفاء، والجامع في ذلك كلّه الميل، قال تعالى: ﴿**لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ**﴾[1]. أي أمالوا رؤوسهم والمراد بـ(لّي ألسنتهم) صرف الكلام عن معناه إمّا بالتحريف، أو بالقراءة بلحن خاص. وقد بيّن سبحانه وتعالى ذلك في موضع آخر، قال عزّوجلّ: ﴿**مِنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيّاً بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْناً فِي الدِّينِ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانظُرْنَا لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَقْوَمَ**﴾[2].

ويستفاد من هذه الآية أنّ المراد من الفريق في المقام هم اليهود خاصّة.

---

١. سورة المنافقون: الآية ٥.

٢. سورة النساء: الآية ٤٦.

قوله تعالى: ﴿لِتَحْسَبُوهُ مِنْ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنْ الْكِتَابِ﴾.

الحسبان هو الظنّ أي أنّ اللّي كان لأجل الإيهام عليكم ـ أيُّها المؤمنون ـ بأنّ الكلام يشابه كلام اللّه تعالى وما هو من كلام اللّه.

وإنّما كرّر سبحانه الكتاب لدفع اللّبس، فإنّ الأوّل يُراد به الكتاب المحرّف، والثاني كتاب اللّه المنزل، وكذلك الثالث، وإنّما وضع الظاهر موضع المضمر فيه، لبيان أنّ كتاب اللّه أرفع منزلة من أن يشتمل على المفتريات والأباطيل، وأعظم شأناً من أن يندرس بالتحريف.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

بيان لشدّة غوايتهم، وانغمارهم في الغرور. أي لا يكتفون بالتعريض والإيهام فقط، بل يصرّحون بأنّ ما حرّفوه هو من عند اللّه نازل منه عزّوجلّ.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

تكذيب لدعواهم، ونفي لكون ما لووا ألسنتهم فيه نازلاً من عنده عزّوجلّ.

وإنّما كرّر لفظ الجلالة لبيان عظيم الجرأة على اللّه، المستجمع لجميع صفات الكمال.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

تأكيد لكذبهم وأفترائهم على اللّه. وزيادة في التشنيع عليهم، ولبيان أنّ تحريفهم للكتاب كان عن عمد وإصرار منهم، ولنفي جميع أنواع التحريف وأقسامه، تعريضاً وتلويحاً وتصريحاً، وفيه الإشارة إلى أنّ الكذب من دأبهم وعادتهم.

***

بحوث المقام

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على أُمور :ـ

الأوّل : يدلّ قوله تعالى : ﴿**وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ** ...﴾ على وجود الاختلاف في طوائف أهل الكتاب في الوفاء بالعهد وحفظ الأمانة وأدائها. والسبب في ذلك ما ذكره عزّوجلّ في ذيل الآية الشريفة : ﴿**بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ**﴾، فإنّ الوفاء بعهد اللّٰه والتقوى في دينه يقتضي الأمانة في أموال الناس ونبذ الخيانة فيها، وتختلف درجات الإيمان حسب تفاوت درجات الوفاء بالعهد والتقوى.

فيستفاد من هذه الآيات الشريفة أنّ أداء الأمانة، والوفاء بالعهد إنّما يكونان من أجزاء الإيمان ولا يتحقّق إلّا بهما.

ومن ذلك يظهر أنّ ما ورد في هذه الآيات لا يختصّ بأهل الكتاب، بل ينطبق على المسلمين إذا نقضوا العهد وخانوا الأمانة، ويترتّب على ذلك جميع الآثار الدنيوية والأُخروية، ترتب المقتضى (بالفتح) على المقتضي (بالكسر)، وهذا حكم عقلي غير قابل للتخلّف والاختلاف، وقد وردت أحاديث كثيرة عن المعصومين عليهم السلام تدلّ على ما ذكرناه.

الثاني : يستفاد من قوله تعالى : ﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ**﴾، انحصار جرائم اليهود والموبقات التي ارتكبوها في حقّ أنفسهم وبالنسبة إلى غيرهم، في الغرور الذي هو أُم المفاسد والخبائث الخلقية والدينية، ويتشعّب منه التكبّر على سائر الخلق والظلم بالنسبة إلى العباد، وتحقير الضعيف، وعدم

الاعتناء بالفقير، والكذب على اللّٰه وعلى الناس إلى غير ذلك من المفاسد، وقد كذّبهم اللّٰه تعالى وشنّع عليهم، وأوعدهم العذاب الشديد.

الثالث: إنّما ضرب سبحانه وتعالى المثل بالقنطار والدينار لكثرة اهتمام الناس بالأموال، ولمعلومية الأمانة والخيانة فيها عندهم، وهما مثالان للقلّة والكثرة، وإنّما بدأ بالطائفة الأُولى الأمينة لشرف الأمانة وعظم أمرها.

الرابع: يدلّ قوله تعالى: ﴿**فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ**﴾، على أنّ التقوى في كلّ دين هي الأساس في الالتزام باحكام اللّٰه تعالى والعمل بدينه، وهي السبب لتقرّب العبد إلى اللّٰه عزّوجلّ، والدخول في محبّته. كما أنّها الدرع الحصين الذي يمنع الإنسان عن الوقوع في مخالفة اللّٰه سبحانه والدخول في غضبه، والبُعد عنه.

الخامس: يدلّ قوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً**﴾، على أن كلّ ما يكون بأزاء الأيمان، ويعوض عنه وبعهد اللّٰه يكون قليلاً، كائناً ما كان في الرفعة، والعظمة، والكثرة، بل ولو كانت الدُّنيا وما فيها، لشرف الأيمان وعهد اللّٰه وعظم الجزاء الذي أعدّه اللّٰه تعالى لهما.

السادس: يستفاد من تكرار الوعيد واختلاف أنواعه عظم الذنب وبشاعة الجريمة، فان شدّة العذاب تدلّ على عظم موجبه. وهو يدلّ على التشديد في الوفاء بالعهد وأداء الأمانة، وهو كذلك فإنّ بهما ينتظم النظام الاعتقادي والاجتماعي للإنسان، ويذهابهما يفسد النظام وتكثر الجرائم وتسود الخديعة والابتزاز، ويذهب المعروف بل يصير منكراً، فلا يبقى خلق كريم ولا معيار أخلاقي لتمييز مكارم الأخلاق عن سفاسفها.

ويمكن أن يكون تعدّد الوعيد لأجل تعدّد موجباته التي فصّلها عزّوجلّ في الآيات السابقة، من حبّهم لإضلال المؤمنين، وكفرهم بآيات اللّٰه، وتلبيس الحقّ بالباطل، وكتمان الحقّ ومن خديعتهم بالمؤمنين، وخيانتهم في الأمانات، فتكون

هذه الآية الشريفة كالنتيجة لتلك الآيات السابقة.

***

بحث روائي:

في «تفسير القمّي» في قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ**﴾، قال: فإنّ اليهود قالوا: يحلّ لنا أن نأخذ مال الأُميّين. والأُميّيون الذين ليس معهم كتاب.

أقول: لا بأس بتفسير الأُميّين بذلك، فإنّه تفسير لبعض مصاديق الأُميين، وقد تقدّم في التفسير ما يتعلّق بهذه الكلمة، فراجع.

وفي «مجمع البيان» في قوله تعالى ـ أيضاً ـ عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال:

«كذب أعداء الله ما من شيء كان في الجاهلية ألا وهو تحت قدميّ إلّا الأمانة، فإنّها مؤدّاة الى البر والفاجر».

أقول: هذا الحصر إضافي، وإلّا فإنّ جملة ممّا كان في الجاهلية قرّرتها الشريعة المقدّسة، كما هو المعروف. والحديث في مقام نفي مقالة اليهود ودعاويهم الباطلة، لا في مقام الحصر الحقيقي.

وفي «الكافي» في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ** ـ الآية ـ﴾، عن الباقر عليه السلام قال: «أُنزل في العهد: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾. والخلاق النصيب، فمَن لم يكن له نصيب في الآخرة فبأي شيء يدخل الجنّة».

أقول: ما ورد في الحديث دليل عقلي على عدم دخولهم الجنّة. ويؤيّده قول نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «الدُّنيا مزرعة الآخرة، فمن لم يزرع شيئاً لم يحصد غداً».

وفي «توحيد الصدوق»: عن أميرالمؤمنين (صلوات الله عليه): «في قوله

تعالى : ﴿وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ﴾ ، يعني لا يصيبهم بخير ».

وفي «أمالي» الشيخ بإسناده عن عدي بن عدي، عن أبيه ، قال :

«اختصم أمرؤ القيس ورجل من حضرموت إلى رسول اللّٰه ﷺ في أرض . فقال : ألك بيّنة ؟ قال . لا ، قال : فبيمينه ، قال : إذن واللّٰه يذهب بأرضي . قال ﷺ : إن ذهب بأرضك بيمينه كان ممّن لا ينظر اللّٰه إليه يوم القيامة ولا يزكّيه وله عذاب أليم . قال : ففزع الرجل وردّها إليه» .

وفي «أسباب النزول» للواحدي ، و«الدر المنثور» في الآية الشريفة : قال رسول اللّٰه ﷺ : «مَن حلف على يمين وهو فيها فاجر ليقطع بها مال أمرئ مسلم لقى اللّٰه وهو غضبان ، فقال الاشعث بن قيس : فيّ واللّٰه نزلت ، كان بيني وبين رجل من اليهود أرض فجحدوني ، فقدّمته الى النبيّ ﷺ . فقال : ألك بيّنة ؟ قلت : لا ، فقال لليهودي : أتحلف ؟ فقلت : يا رسول اللّٰه إذن يحلف فيذهب بمالي ، فأنزل اللّٰه عزّوجلّ : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَناً قَلِيلاً ـ الآية ـ﴾» .

أقول : يمكن أن يكون مورد النزول واحداً وهو اليمين الكاذبة ، وما ذكر في شأن النزول المتعارضة يكون من باب التطبيق ، وحينئذٍ يكون كلّ مَن اشترىٰ بعهد من عهود اللّٰه تعالى أي عهدٍ كان ، فقد اشترى بعهد اللّٰه ثمناً قليلاً ، وقد ذكرنا أن جيمع أحكام اللّٰه تعالى عهوده بالنسبة إلى عباده .

***

بحث قرآني:

الآيات الشريفة التي وردت في أحوال أهل الكتاب ـ ذات المقاطع الثلاثة ـ هى من أدق ما ورد في القرآن الكريم في وصف أهل الكتاب في الحال والمآل ، فقد استوفت جميع الجوانب الظاهرة والخفية التي لم يطّلع عليها أحد إلّا اللّٰه تعالى ، وتبيّن ما تطويه ضمائرهم ، وما يختلج في نفوسهم بالنسبة إلى الرسول

والمؤمنين وأصل الايمان، ولا أظنّ أحداً يمكنه ـ مهما بلغ به الأمر ـ أن يصف عدواً بمثل ما وصف به القرآن الكريم أهل الكتاب، فقد ذكر اللّٰه تعالى في هذه الآيات جميع الوسائل والسبل التي تشبّث بها أهل الكتاب في الهدم والتخريب والتشويه، وهي من ملاحم القرآن الكريم التي ظهرت آثارها من حين نزوله وبلغت أعلى مراتبها في هذه الأعصار. وهي تدلّ على أُمور لابدّ من ملاحظتها والبحث حولها، وهي:

الأوّل: أنّ أهل الكتاب من أعداء الإسلام والمسلمين، بل من ألدّ أعدائهم.

الثاني: أنّهم يضمرون في نفوسهم الكيد بالمسلمين وخديعتهم، ولا يدعون فرصة يمكن أن يستفيدوا منها في تحقيق نواياهم.

الثالث: أنّهم يخادعون المؤمنين ويشنون الحرب النفسية عليهم، وهي من أهم السبل في زعزعة الإيمان، وقد عرّفنا القرآن الكريم بهذه الخديعة قبل استعمالها في عصرنا الحاضر بأشد أنواعها ووسائلها، وحذّر المسلمين من آثارها.

الرابع: الحرب الاقتصادية بالاستيلاء على أموال المسلمين ووسائل عيشهم، وجميع ما يمكن أن يتمتّعوا به في حياتهم.

الخامس: إثارة الفتن وتشويه سمعة الرسالة والمؤمنين، وهما الحرب الدعائية التي بلغت أوجها في العصر الحاضر، وبيّن سبحانه وتعالى مخاطر هذه الطريقة، وطرق التحذّر منها.

السادس: وهو من أهم الأُمور التي أكّد عليه سبحانه وتعالى في مواضع متفرّقة من القرآن الكريم، وحذّر المؤمنين منه، وبيّن كذب أهل الكتاب وأوعد عليه أشد العذاب، لعلمه عزّوجلّ بشدّة تأثير هذا الأمر في الناس، وهو هدم الدِّين بالدين، أو التستر به في تحقيق جرائمهم ونواياهم الفاسدة، وهو من أشدّ الوسائل

التي تمسّك بها أهل الكتاب لإظهار الفتن ، وقتل النفوس أو سلب الأموال ، وهتك الأعراض ، ولا يمكن معرفة هذه الطريقة إلّا بالرجوع إلى تعاليم القرآن الكريم ، لشدّة تأثيرها ، ودقّتها وعدم إمكان التمييز بينها وبين الطريق المستقيم .

ولابدّ للمسلمين من الالتفات إلى جميع ما ذكرناه والتحذّر من أهل الكتاب . والرجوع إلى تعاليم الإسلام في التصدّي لخدعهم ومقابلتهم ، فإنّها السبيل الوحيد في ردّ مكائدهم ، ويرشد إلى ذلك قول نبيّنا الأعظم ﷺ : «إذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم ، فعليكم بالقرآن الكريم ـ الحديث ـ» . ويبيِّن طريق التخلّص من هذه الفتن .

***

الآية ٧٩ ـ ٨٠

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾.

الآيات تتعرّض لحال أهل الكتاب بالنسبة إلى الأنبياء وافترائهم عليهم، كما افتروا على اللّٰه تعالى، على ما حكى عزّوجلّ عنهم في ما سلف من الآيات، وقد نسبوا الأُلوهية إلى الأنبياء واتخذوهم أرباباً من دون اللّٰه، وفيها نزّه عزّوجلّ ساحة الأنبياء ممّا قد نسب إليهم، وأثبت أنّهم عباد مربوبون، ولم يدع أحد منهم الربوبية لنفسه، وأقام الحجّة على ذلك، وذكر أنّ كلّ عبد آتاه اللّٰه الكتاب والحكم والنبوّة لا يمكن أن يتعدّى طور العبودية، ولم يخرج عن زي الرقية للّٰه تعالى، فكيف يدّعي الربوبية ويأمر الناس بالعبودية له، والآيات لا تخلو عن الارتباط بالآيات السابقة المتعرّضة لأحوال أهل الكتاب وافترائهم على اللّٰه تعالى والأنبياء، وهي بمجموعها في مقام الاحتجاج والردّ عليهم وإبطال دعاويهم، ولا تخلو هذه الآيات عن التعرّض لحال النصارى في ما يدّعونه في المسيح وتثبت براءته منه.

***

التفسير

قوله تعالى : ﴿**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ**﴾ .

البشر لفظ يرادف الإنسان ، يطلق على الواحد والجمع ، ذكراً وأُنثى ، لأنّه بمنزلة المصدر . وإنّما سُمّي بشراً لظهور بشرته وعدم سترها بشيء ، واللام في (لبشر) للحقّ ، ويدلّ عليه قوله تعالى حكاية عن عيسى : ﴿**وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ**﴾[1] . والمراد به نفي الحقّية التكوينية ، أي لا حقّ تكويناً .

وذكر هذا اللفظ وتعليق الحكم عليه لبيان الدليل والسبب ، أي أنّ البشرية تنافي الأُلوهية ، وأنّها غير ممكنة ذاتاً إلّا بمجرّد الادّعاء الباطل .

وعلى هذا ، تكون جملة : ﴿**مَا كَانَ لِبَشَرٍ**﴾ لنفي الشأن الذي هو أبلغ من نفي الوقوع ، أي ليس من شأن بشر ذلك ولا حقَّ له في أن يدّعي الربوبية ، بل يمتنع تحقّق ذلك ، لأنّه من الجمع بين المتناقضين ، وإن تحقّقت الدعاوي من مثل فرعون ، ونمرود ، لكنها خارجة عن موضوع الآية رأساً ، لأنهما بمعزل عن الكتاب والحكم والنبوّة .

والمراد من الكتاب ما هو المشتمل على المعارف الربوبية ، والأحكام الإلهية ومكارم الأخلاق .

كما أنّ المراد من الحكم هو الولاية على فصل القضاء بين الناس بأمر إلهي .

والمراد من النبوّة تلك الصفة الخاصّة التي يمنحها اللّٰه تعالى مَن يشاء من عباده .

وتصوّر هذه الموضوعات الثلاثة بنفسها يغني عن الاستدلال على امتناع دعوى الأُلوهية ، فالآية الشريفة من القضايا التي قياساتها معها .

---

١ . سورة المائدة : الآية ١١٦ .

وإنّما جمع سبحانه بين هذه الأمور الثلاثة، لبيان أنّ هذه الصفات موجبة للدعوة للّه، والإرشاد إليه. ولأجل الإعلام بأنّ الذي يؤتى هذه الأُمور قد تربّى بتربية إلهية، لا تصدر منه هذه الدعوة الباطلة، ولا يملك ذلك لعلمه ببطلانها، لأنّ الأنبياء هم أرفع شأناً وأجلّ قدراً من أن يدّعي أحد منهم هذه الدعوة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللهِ﴾.

العباد: جمع عبد، ويختصّ استعماله بما إذا نسب إلى اللّه تعالى، يقال: عباد اللّه. ولعلّه لأن العباد من العبادة، دون العبيد الذي هو من العبودية التي لا تمتنع أن تكون لغير اللّه تعالى، يقال: عبيد فلان. ولا يقال: عباده.

والتقييد بقوله ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، لبيان أنّ هذا القول جحد للأُلوهية وإنكار لمقام الربوبية، وتغيير للعبودية الحقّة المنحصرة في اللّه تعالى، وللإعلام بأنّ الشرك في الأُلوهية إنكار لأصلها، لأنّ اللّه تعالى لا يرضى من عباده إلّا الخلوص والإخلاص في عبادته، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا ٱللَّهِ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[1].

والمعنى: لا يحقّ لبشر قد أنعم اللّه عليه بالكتاب والحكم والنبوّة وتربّى بالتربية الإلهية أن يدعو الناس ـ الذين بعث إليهم ـ إلى عبادة نفسه، ويدّعي الأُلوهية لها، فإن ذلك مستحيل لم يقع أبداً، فإن مَن كان كذلك لا يخرج عن زي العبودية للّه تعالى، وأنّه عزّوجلّ لم يمنح الكتاب والحكم والنبوّة لمن يدّعي لنفسه الأُلوهية.

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾.

الرباني: المنسوب إلى الرب، زيد الألف والنون للمبالغة في التفخيم

---

١ . سورة البيّنة: الآية ٥.

والتعظيم، كما يقال: رقباني، لعظيم الرقبة، ولحياني لعظيم اللحية. والمراد به التوغّل والتحنّك في عبادة اللّٰه تعالى، بحيث تعلّق قلبه به عزّوجلّ ولا يخطر بباله غيره، وقد ظهرت آثار العبودية على جميع أقواله وأفعاله ومعارفه لأجل انتسابه إلى رب العالمين، ووضع نفسه تحت إرادته ومشيئته.

والجملة استدراك عن ما ذكر سابقاً، وإثبات لما نفي آنفاً. أي أنّ البشر المنوّه به آنفاً يقول للمبعوث إليهم كونوا ربانيّين متلبّسين بالإيمان باللّٰه، مشتغلين بعبادته ومختصّين به في جميع شؤونكم، ويقتضي ذلك الإعراض عن غيره عزّوجلّ.

قوله تعالى: **﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾**.

الباء للسببية، متعلّق بـ﴿كونوا﴾.

الدراسة: التكرار في القراءة، درس الكتاب أي كرّر قراءته، ودوام على حفظه.

وإنّما كرّر عزّوجلّ ﴿بما كنتم﴾ لبيان أنّ كلّ واحد من التعليم والدراسة، له الاستقلال في الأثر وهو التلبّس بالربانية. كما أنّه يستفاد من إتيان الفعل في «تعلمون وتدرسون» مضارعاً، للدلالة على الاستمرار عليها والمثابرة في ذلك دون مجرّد التلبّس.

أي: كونوا كذلك بسبب مثابرتكم على الاستمرار بتعلّمكم الكتاب وتعليمكم له، ودراستكم لما ورد فيه من المعارف الحقّة والأحكام الإلهية، فإن ذلك يقتضي أن تكونوا على إيمان كامل ومعرفة حقّة والتخلّق بمكارم الأخلاق، والتلبّس بالأعمال الصالحة التي تسوقكم إلى اللّٰه تعالى، فتكونوا أتقياء صلحاء

علماء ربانيين.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً﴾.

الأرباب جمع الرب. والآية عطف على قوله تعالى: ﴿يقول للناس﴾، المنفي بمفاد «ما كان»، فيكون (لا) لتأكيد النفي اهتماماً بالأمر واستعظاماً للشأن.

وفي الآية التعريض لطائفتين، الطائفة التي تتّخذ الملائكة أرباباً، كبعض الصابئة الذين يعبدون الملائكة، وينسبون ذلك إلى دين اللّٰه، وأمّا العرب فقد كانت تعتقد أن الملائكة بنات اللّٰه، وهم وإن لم يسندوا دعواهم إلى دين من الأديان، إلّا أنـّهم كانوا يدّعون أنـّهم على دين إبراهيمعليه السلام.

والطائفة الثانية هي التي اتخذت الأنبياء أرباباً، وهي اليهود التي ادّعت أن عزيراً ابن اللّٰه، على ما حكي عنها عزّوجلّ في القرآن الكريم، ومن النصارى أيضاً من تعظيم عيسىعليه السلام، ويعتبرونه ابن اللّٰه تعالى.

والآية تنفي هذه النسبة وتبطل ما يدعونه، فإن الأنبياء لا يأمرون باتخاذ الملائكة والأنبياء أرباباً، وما كان لبشر آتاه اللّٰه الكتاب والحكم والنبوّة وأرسله لدعوة الناس إلى اللّٰه الواحد الأحد ونبذ الشرك والأنداد، وبعثه لإرشادهم إلى الكمالات ومكارم الاخلاق، أن يأمرهم بالشرك والكفر وأعظم انحاء الفساد، فإن هذا غير ممكن، وهو كفر باللّٰه العظيم.

وتختلف هذه الآية عن سابقتها، في أنّ السابقة تنفي دعوى البشر الأُلوهية والمعبودية لنفسه، لأنّه فرض محال مشتمل على التناقض، كما عرفت، وهنا نفي لأمر خاصّ، وهو اتّخاذ الأرباب بعد فرض كون المخاطب مؤمناً باللّٰه تعالى، فيكون الأمر أمراً بالخروج عن الإيمان إلى الكفر، فتختلف الآيتان مورداً وحكماً، وذلك يوجب الاختلاف في المخاطبين أيضاً.

قوله تعالى : ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ .

الاستفهام للإنكار . والخطاب عام لكلّ مَن آمن باللّٰه تعالى وانقاد له عزّوجلّ ، واستسلم لأمره ، واعترف بدعوة الأنبياء ، فيشمل أهل الكتاب ، وكلّ مَن يدعي الانتساب إلى دين سماوي . والمراد بالإسلام هو دين التوحيد ، والطاعة والانقياد للّٰه عزّوجلّ ، نظير قوله تعالى : ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾[1] .

والمعنى : كيف يأمر الأنبياء باتّخاذ الملائكة والنبيِّين أرباباً ، مع أنّكم تعتقدون باللّٰه الواحد الأحد وتعبدونه ، فإنّ ذلك كفر وضلال ، وهم لا يأمرون بالكفر . والآية تنفي كلّ أنحاء الشرك في العبادة .

وذكر جملة من المفسّرين أن الخطاب للمسلمين الذين اعترفوا بنبوّة نبيّنا الأعظم ﷺ ، فإنهم المسلمون . فيكون أمراً بالكفر بعد الإسلام وأيّدوا ذلك بما ورد من أنّهم قالوا له ﷺ : أفلا نسجد لك ؟ فنزلت هذه الآية .

وفيه : أنّ الإسلام في التنزيل غير ما هو المصطلح بعد النزول . فإنّ المراد به الإذعان بالتوحيد والانقياد بالطاعة ، الذي هو دين الفطرة التي دعا الأنبياء إليها ، وقد تقدّم الكلام فيه مفصّلاً . فراجع آيه ١٩ من هذه السورة .

***

---

١ . سورة آل عمران : الآية ١٩ .

بحوث المقام

بحث أدبي:

المعروف بين المفسّرين أنّ الظرف (لبشر) في قوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ**﴾ خبر مقدم، وجملة ﴿**أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ**﴾ اسم كان مؤخّر. ولكن يمكن أن يجعل ﴿كان﴾ تامّة فلا تحتاج إلى الخبر، أي لا تحقّق لمثل ذلك ويمتنع، فتدلّ الآية على نفي الوقوع بالفحوى. وتكون جملة ﴿**أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ**﴾ لبيان الموضوع، يعني أنّ هذا الموضوع يمتنع تحقّق دعوى الأُلوهيه فيه. فالآية تؤكّد عدم تحقق مثل ذلك بلفظ كان في المقام، ولا محذور في أن تكون الجملة بحسب الظاهر مفيدة لشيء، وهي في الواقع تفيد شيئاً أدق من ذلك.

وإنّما عطف عزّوجلّ الجملة بـ(ثمّ) في قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي**﴾، لتعظيم الأمر، أي أنّ هذا الايتاء العظيم لا يجامع هذا القول أبداً، وإن كان بعد زمان وفي مهلة.

و﴿**لِي**﴾ ظرف متعلّق بمحذوف تقديره كائناً، أي عباداً كائنين لي.

وقوله تعالى: ﴿**مِنْ دُونِ اللهِ**﴾ ظرف متعلّق بـ(عباداً)، لأنّ فيه معنى الفعل، ويحتمل أن يكون صفة ثانية.

و(ما) في قوله تعالى: ﴿**بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ**﴾ مصدرية، وإنّما جعل الخبر مضارعاً في الموردين لبيان الاستمرار على التعليم والدراسة والمثابرة عليهما.

***

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على أُمور :ـ

الأوّل: يشتمل قوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللهِ**﴾، على براهين ثلاثة تدلّ على امتناع دعوى الألوهية من البشر وبطلانها.

أوّلها: أنّ البشر بما له من الأطوار المختلفة، فطوراً هو جنين وآخر يكون طفلاً، ثمّ صغيراً، ثمّ شاباً، ثمّ كهلاً، ثمّ شيخاً إلى غير ذلك من الأطوار. ثمّ في جميع أحواله، وأطواره قرين الفقر والاحتياج، كما أنّه يتدرّج في الكمال، فينشأ وهو جاهل ثمّ يتدرّج في المعرفة، ويطرأ عليه من التبدّلات كالصحّة والمرض، والفقر والغنى والعلم والجهل، والألم والجوع ونحو ذلك، وجميع ذلك ينافي كونه إلهاً واجب الوجود يمتنع أن يطرأ عليه الاختلاف والتبدلات، ويستفاد ذلك من كلمة البشر.

ثانيها: أنّ البشر الذي آتاه اللّٰه الكتاب والحكم والنبوّة، وتربّى بالتربية الإلهية، لا يحقّ له أن يدّعي الأُلوهية ويدعو الناس إلى عبادته، وإن اتّفق لبعض الناس أن يدّعي هذه الدعوى لكنّه ناقص لم يتّصف بما ورد في الآية الشريفة، فإنّه لا يعقل أن يدّعي هذا البشر الموصوف بما ورد في الآية بتلك الدعوى، لأنّه خلف ويناقض الحكمة الإلهية، وهو تعالى الحكيم العليم لا يؤتي الكتاب والحكم والنبوّة لكلّ أحد، فضلاً من أن يدعو العباد إلى عبادته.

ثالثها: أنّ اللّٰه تعالى أخبر في الآية الشريفة بأنّه لم يقع مثل ذلك من البشر الموصوف بما في الآية الكريمة، وهو أصدق القائلين.

الثاني: إنّما قدّم سبحانه الكتاب على غيره لكثرة أهمّيته، فإنّه أصل المعارف الإلهية، والأحكام الربوبية، ومكارم الأخلاق، وأن غيره يرجع إليه، كما أنّ النبوّة تدعو إليه.

ويمكن أن يُراد به الأعلم ممّا كتبه اللّٰه تعالى على عباده من المعارف

الحقّة، فيشمل السنّة المقدّسة أيضاً.

الثالث: إنّما ذكر سبحانه هذه الأُمور الثلاثة لبيان أن مَن اتّصف بها قد فاز بالتربية الإلهية، ونال جميع الكمالات الإنسانية، ولبيان مراتب الأنبياء، فمنهم مَن نال جميع هذه الأُمور، ومنهم مَن نال بعضها على اختلاف مراتبهم، فيدخل فيهم العلماء العالمون بشريعة خاتم الأنبياء، الذين قال فيهم نبيّنا الأعظم ﷺ: «علماء أُمّتي أفضل من أنبياء بني إسرائيل». والآية بمفهومها تدلّ على أنّ كلّ مَن لم يتّصف بمفاد واحد منها ليس له من البشرية حظّ، بل يكون أقرب إلى الحيوانات ذوات الأشعار والأوبار.

الرابع: إنّما عبّر سبحانه بقوله: ﴿أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ﴾، لبيان أنّ هذا الإعطاء قد تمكّن في الفرد الممنوح له هذه النِّعم، وأثّرت فيه، فلا يمكن أن يدّعي الربوبية والأُلوهية، فإنّ التربية الإلهية لا تتخلّف عن مقصدها.

الخامس: إنّما قدّم سبحانه التعليم والتعلم لشرفهما، وأنّ بهما يحظي الإنسان المقامات العالية. كما أنّ الآية الشريفة تشير إلى أن شأن الأنبياء إنّما هو الإرشاد والدعوة إلى الحقّ.

السادس: يستفاد من قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُم﴾ التعريض بالنصارى من أهل الكتاب، باعتبار أنّهم كانوا يدرّسون الكتاب السماوي ويعلّمونه، ولكنّهم حرّفوه وغيّروا ما فيه الأحكام، وإنّما كان الواجب عليهم أن يكونوا ربانيين بالتعليم والدراسة، لا يقولون في عيسى بما ينافي عبوديته، ولا يأتون بما يخالف الأحكام الإلهية. وقد حكى الله تعالى ذلك عنهم في مواضع متفرّقة، وصرّحت بها كتبهم المقدّسة، راجع أناجيل يوحنا: ٣٣ـ٣٦، ومتى: ٢٢: ٤١ـ٤٦، ومرقس: ١٣ـ٣٥ـ٣٨، ولوقا: ٤١ـ٤٥ وغيرها تجد الشيء الكثير، وفي بعض الفقرات: أنّ عيسى أخبرهم أنّه ابنه وكلمته. وقد كذّبهم عزّوجلّ وأبطل دعاويهم وأنذرهم

عليها بأشدّ العذاب ، وذكر أنّ عيسى وغيره من الأنبياء إنّما هم كسائر البشر ، وقد بعثهم عزّوجلّ ليرشدوا الناس إلى الكمال بدعوتهم إلى التوحيد ، ويعلمونهم الكتاب والحكمة ليكونوا ربانيّين حكماء صلحاء ، ليسعدوا في دنياهم وآخرتهم .

السابع : يستفاد من قوله تعالى : ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ﴾ ، أنّ الأنبياء الذين أُوتوا الكتاب والحكم والنبوّة لا يأمرون بأيّ نحو من أنحاء الكفر ، سواء في العبودية ، أم في الخلق ، أم في الحكم . كما أنّهم مبرّأون عنه .

الثامن : يدلّ قوله تعالى : ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ ، على أنّ الكفر لا يمكن اجتماعه مع الإسلام اعتقاداً وعملاً ، فإنّه أعظم رادع عن الكفر .

التاسع : تدلّ الآيات الشريفة على ذمّ العلو والاستعلاء من أي فرد تحقّق ، ولكن يمكن أن يقال إنّ العلو إمّا أن يكون من الحقّ وبالحقّ ، وهو الحاصل من الأنبياء ، والأولياء الذين فضّلهم اللّٰه تعالى على غيرهم . وإمّا أن يكون بالباطل وفي غير الحق ، كاستعلاء الناس بعضهم على بعض لأغراض وهمية خياليّة ، وهذا هو المذموم غاية الذم ولا منشأ له إلّا الغرور والغفلة عن اللّٰه تعالى ، وهو يوجب البُعد عن الواقع والابتعاد عن الحقّ ، وله أسباب عديدة وآثار خطيرة ، وقد عالج الإسلام هذه الرذيلة ، وبين أسبابها وآثارها الخطيرة الفردية والاجتماعية ، الدنيوية والأُخروية . وذكر ما يوجب علاج هذا المرض النفسي ، ومنه ما ورد في المأثور أنّه إذا مدح أحد آخر ينبغي للممدوح أن يقول : (اللهم اجعلني فوق ما يقولون واغفر لي ما لا يعلمون) . والجدير بالإنسان أن يعمل الطاعات ويجتنب عن المعاصي والموبقات ، ليفوز بثناء اللّٰه تعالى ، فإنّه الغاية القصوى ، والسعادة الحقيقية ، ومع وجوده يشكر ومع عدمه يستمدّ العون منه عزّوجلّ .

العاشر : إنّما قال تعالى : ﴿بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ ، لبيان أنّ تعليم الكتاب وتدريسه لابدّ أن يكون عن معرفة وكمال ، حتى يكون

قابلاً لأن يكون ربانياً، فلا يصلح لكلّ أحد تعليم الكتاب الكريم والسنّة الشريفة وتدريسهما، إلّا إذا كان جامعاً لشرائط، منها العمل بما علم، والتخلّق بمكارم الأخلاق، ويدلّ على ذلك جملة من الأحاديث.

وإنّما عبّر سبحانه بـ(تعلّمون) دون غيره. للدلالة على ما ذكرناه، فإنّ التعليم والتدريس لابدّ أن يكونا عن تعلّم وفهم وإخلاص.

***

بحث روائي:

في «تفسير القمّي» في قوله تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ** ـ الآية﴾، أنّ عيسى لم يقل للناس إني خلقتكم فكونوا عباداً لي من دون اللّٰه، ولكن قال لهم: كونوا ربانيّين، أي علماء.

أقول: قد ذكرنا في التفسير أنّ ذلك ممتنع عن الأنبياء، وفي نفس الحديث ما يدلّ عليه أيضاً، فإنّ قوله: «إنّي خلقتكم». الاحتجاج على ذلك، ويمكن أن يستفاد ذلك من نفس الآية الشريفة لما فيها من التعريض بالنصارى.

وفي «العيون»، عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: «لا تعرفوني فوق حقّي، فإن اللّٰه تعالى اتّخذني عبداً قبل أن يتّخذني نبيّاً، ثمّ تلا هذه الآية».

أقول: قد ورد في مضمون ذلك روايات كثيرة، وفي بعضها قال أميرالمؤمنين عليه السلام: «هلك فيَّ إثنان محب غالٍ، ومبغض قالٍ». ويظهر من جميع ذلك أنّ ما يفعله بعض الناس في شأن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله والأئمّة الهُداة عليهم السلام داخل في مضمون هذه الأحاديث.

وفي «تفسير القمّي» في قوله تعالى: ﴿**وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً** ـ الآية ـ﴾، قال: كان قوم يعبدون الملائكة، وقوم من النصارى زعموا أنّ عيسى رب، وأنّ اليهود قالوا: عزير ابن اللّٰه، فقال اللّٰه: ﴿**وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ**

تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً ـ الآية ـ﴾.

أقول : تقدّم ما يتعلّق بذلك في التفسير.

وفي «أسباب النزول» للواحدي في قوله تعالى : ﴿**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي**... الآية). نزلت في نصارى نجران حين عبدوا عيسى. وقوله : (لبشر) يعني عيسى. أن يؤتيه اللّٰه الكتاب، يعني الإنجيل.

أقول : هذا بيان لبعض المصاديق، وإلّا فالآية الشريفة عامّة تشمل جميع الأنبياء.

وفي «الدر المنثور» : عن ابن عبّاس في نفس الآية الشريفة :

«أنّ أبا رافع القرظي حين اجتمعت الأحبار من اليهود، والنصارى من أهل نجران عند رسول اللّٰه ﷺ ودعاهم إلى الإسلام، قال : أتريد يا محمّد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى بن مريم ؟ فقال رجل من أهل نجران نصراني يقال له الرئيس : أو ذاك تريد يامحمّد منّا ؟ فقال رسول اللّٰه ﷺ : معاذ اللّٰه أن نعبد غير اللّٰه، أو نأمر بعبادة غيره ما بذلك بعثني، ولا بذلك أمرني، فأنزل اللّٰه من قولهما : (**مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ**... الآية)».

وفي «أسباب النزول»، عن الحسن قال :

«بلغني أن رجلاً قال : يا رسول اللّٰه نسلّم عليك كما يسلّم بعضنا على بعض، أفلا نسجد لك ؟ قال : لا ينبغي أن يسجد لأحد من دون اللّٰه، ولكن أكرموا نبيّكم واعرفوا الحقّ لأهله، فأنزل اللّٰه هذه الآية».

أقول : إنّ جميع ذلك من المصاديق، والآية عامّة تشمل جميع ما ذكر في أسباب نزول هذه الآية الشريفة.

***

بحث عرفاني:

من المعلوم أنّـه لا كمال أرفع وأجلّ وأعلى من العبودية للّه تعالى، فهي فوق الرسالة والنبوّة، والولاية، بل بها تنال تلك المقامات الرفيعة، والدرجـات العالية ولا غاية لها إلّا جماله وجلاله جلّت عظمته، وبما أنّهما غير متناهيين، فلا يعقل التناهي فيها أيضاً، وكيف يعقل لها حدّ خاص وهي التفاني في مرضاة اللّه تعالى. والعبودية جوهرة لا يعلم كنهها إلّا اللّه سبحانه. ولكن آثارها عظيمة، فهي التي تهيء العبد لنيل الكمالات الواقعية، والسعادة الحقيقية، والعبد يكون مظهراً من مظاهر تجلّي اللّه تعالى، وتظهر آثار العبودية على جميع جوارحه، وأفعاله، وأقواله ولحظاته، فلا يخرج لحظة عن طور العبودية وزيّ الرقّية، ولا يعقل لمثل هذا العبد أن يدعو إلى غير اللّه تعالى ويتّخذ غيره عزّوجلّ رباً، فإنّه خروج عن الفطرة واستبدال الطيب بالخبيث، الذي هو قبيح عقلاً.

والآية الشريفة ترشد الناس إلى نبذ كلّ أنحاء الأنانية، وتدعو إلى العبودية الحقّة، والتوجّه إلى اللّه الواحد الأحد، والإعراض عن كلّ ما يبعد عن ذكر اللّه عزّوجلّ، وتحرضّهم إلى نيل الكمالات بالتعلّم والتعليم ودراسة المعارف الحقّة الإلهية، وتبيّن أن الغرض الأقصى من سعي الإنسان في الدُّنيا أن يكون ربّانياً قد تخلّق بأخلاق اللّه عزّوجلّ وزكّى نفسه بالتخلية عن الرذائل، والتحلية بالفضائل ومكارم الأخلاق، ليستعد بذلك أن يكون معلّماً للمعارف الإلهية، ومرشداً إلهياً، وداعياً إلى الكتاب اللّه تعالى، ولا ينال هذه الدرجة إلّا بتهذيب النفس وتزكيتها، والتخلّق بمكارم الأخلاق، وتعلّم المعارف الحقّة وتعليمها، فلا يليق بهذا المنصب كلّ متطاول ليس له حظ من ذلك، فإن الأغيار لا يمكنهم الوصول والتقرّب إلى دار الحبيب إلّا بعد الجهاد مع النفس والتزين بما يرضي المحبوب. وعلى مرشدي الأُمّة وطلّاب العلم ـ لا سيما علوم الدِّين ـ أن يزكّوا أنفسهم أوّلاً ويتخلّقوا بمكارم الأخلاق، وأن يكونوا داعين إلى اللّه تعالى علماً وعملاً، بل يكونوا داعين إلى اللّه

بعملهم أكثر من دعوتهم إليه بعلمهم، ولا يخرجوا عن زي العبوديد أبداً.

***

بحث فلسفي:

المعبود الحقيقي لا يعقل التعدّد فيه بوجه من الوجوه، لأنّه عبارة عن الكمال المطلق المسلوب عنه جميع النواقص الواقعية والإدراكية، وهو الربوبية العظمى بالنسبة إلى جميع الموجودات، تدبيراً وعلماً وحكمة، فلا يعقل التعدّد في مثل هذه الحقيقة، لأنّ التعدّد فيها نقص، والمفروض انتفاء جميع النواقص عنه. وقد أكّد سبحانه وتعالى وحدته مطلقاً في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ببراهين متعدّدة، وهو أساس نظام الشرائع السماوية، وجميع ما افتعل في التعدّد إنّما حصل من مغالطات الوهم، والآية الشريفة ـ بأُسلوبها الواضح المتين ـ تبيّن امتناع التعدّد في المعبود ببراهين ثلاثة ذكرناها في البحث الدلالي، والمعروف بين الفلاسفة أن بسيط الحقيقة من كلّ حيثيّة وجهة لا يعقل الاثنينية والتغاير فيه، لأنّه خلف لفرض البساطة، لأنّ معنى بساطته من كلّ جهة أنّه مع الكلّ، قال تعالى: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ**﴾[1]، وقال تعالى: ﴿**وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ**﴾[2]، فكلّ فرض اثنينيّة يكون خلافاً للمعية المطلقة، ولا يعني بالمعية الحلول الذي يدّعيه النصارى، ولا وحدة الوجود والموجود التي يذهب إليها بعض المتصوفة، بل المعية القيومية، كما فسّرها علي عليه السلام بقوله: «خارج عن الأشياء لا بالمغايرة والمزايلة، وداخل في الأشياء لا بالممازجة»، فهو الحيّ القيوم بإحاطة قيوميّة على جميع ما سواه، وفي هذا النحو من الإحاطة لا يمكن الحلول والاتّحاد.

***

١ . سورة الحديد: الآية ١٦.

٢ . سورة قٓ: الآية ١٦.

٨١ ـ ٨٥

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴿٨٥﴾﴾.

الآيات الشريفة من جلائل الآيات التي تبيِّن دستور الإنسان ومنهاجه في الدُّنيا ومصيره في الآخرة، وهي عامّة تشمل جميع أفراد الإنسان بما فيهم الأنبياء، وهي بأُسلوبها الخلّاب نفياً وإثباتاً، تقرّر حقيقة من الحقائق، وهي عالم الميثاق وأخذ العهود المؤكّدة من أفراد الإنسان بالإيمان بالله تعالى وتصديق الأنبياء ونصرتهم، ودعوة كلّ نبيّ سابق إلى نبيّ لاحق، وهي تدعو الناس باتّباع الإسلام والانقياد إلى الله تعالى وطاعته، وعدم الخروج عن طور العبودية له عزّوجلّ، وهي تثبت نبوّة نبيّنا الأعظم ﷺ، وتدحض حجج المخالفين، وتقطع

أعذار المعاندين، وتبطل ما ادعاه أهل الكتاب في الأنبياء العظام وإنكار نبوّة خاتم الأنبياء، وترجعهم إلى الفطرة التي تدعوهم إلى الوفاء بالعهد والتسليم للّه تعالى والإيمان بالأنبياء، لاسيما خاتمهم، ونبذ كلّ ما يخالف ذلك العهد المأخوذ منهم.

والآيات لا تخلو عن الارتباط بالآيات السابقة التي تدعو أهل الكتاب إلى الإيمان والتسليم والانقياد، وطرح كلّ مكر وخديعة، والاجتناب عن الكذب والافتراء على الأنبياء، وفي هذه الآيات يأمرهم عزّوجلّ بالجري على الميثاق.

***

التفسير

قوله تعالى: **﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾**.

الآية تقرّر عالماً من العوالم الإلهية، وهو عالم الميثاق الذي أُخذ فيه من الإنسان العهود المؤكّدة بالتسليم للّه والتصديق بالأنبياء ونصرتهم، والعمل بما أُنزل عليهم، وأودعه عزّوجلّ في الفطرة الإنسانية، فهي تدعو إلى اللّه تعالى، كما تخبر عن أنّ هناك ميثاقاً مأخوذاً من أفراد الإنسان يجب الوفاء به بحكم العقل.

وتتجلّى عظمة هذا الميثاق أنّه ذو أطراف عديدة.

فمن ناحية: أنّه بين اللّه تعالى وأنبيائه جملاً.

ومن ناحية أُخرى: أنّه بين أنبيائه العظام بعضهم لبعض، بأن يبشّر كلّ نبيّ سابق لنبيّ لاحق ويدعو الناس إلى الإيمان به ونصرته، كما أنّ كلّ نبيّ لاحق ينوّه بالنبيّ السابق ويدعو إلى الإيمان به، كما قال تعالى: **﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾**[1].

---

١ . سورة البقرة: الآية ٢٨٥.

وثالثة: بينه تعالى وبين الأنبياء جميعاً لسيِّد الأنبياء وخاتمهم، كما في قوله تعالى في ما يأتي: ﴿**لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ**﴾.

ورابعة: بين اللّه تعالى وجميع عباده مطلقاً بالإيمان به، والعمل بما أنـزله على الأنبياء، وجميع هذه المواثيق متلازمة يتقوم بعضها ببعض.

والميثاق الأوّل دليل اعتماد المعاهد (بالفتح) على نفسه، من حـيث إنّـه مبعوث إلهي لا ينطق على الهوى، كما يوجب زيادة اعتماده على مَن يصدر عنه لاتّصاله بالحي القيوم.

وأمّا الثاني: فلأنّ وحدة المعبود الحقيقي بالوحدة الحقّة الحقيقية لابدّ له من وحدة الداعي إليه، والتقدّم والتأخّر الزماني وتعدّد الأفراد لا أثر له في ذلك، لأنّه من لوازم هذا العالم المادي المبني على التكثّر والتعدّد. كما أنّ المرايا المتقابلات لشيء واحد لا يوجب تكثّر ذلك الواحد، وإن تكثّرت المرايا.

وأمّا الثالث: فلأنّ الغاية مقدّمة في العلم وإن كانت متأخّره في الوجـود، خصوصاً في مثل هذا الكمال المطلق الذي هو أصل الكمالات، بـل هـو مـرآة الكمال المطلق الأتمّ الأرفع.

وأمّا الأخير: فلإتمام الحجّة وإيضاح المحجّة، وقطع أعذار النـاس لئـلا يقولوا بأنّـه لو كنّا في غير هذا النحو من الوجود لآمنّا باللّه تعالى، ولإظهار كمال قدرته عزّوجلّ على كافة مراتب الوجود، وجميع العوالم الممكنة، وعالم الميثاق من أظهر عوالمه، وقد تجلّت فيه قدرة اللّه عزّوجلّ ولا يمكن الإحاطة به لغير علّام الغيوب، والمطلع على السرّ المكنون المحجوب، وسيأتي في البحث القرآني تتمّة الكلام.

والميثاق: هو العهد المؤكّد المشدّد، وقد وردت هـذه المـادّة فـي القـرآن الكريم في عدّة مواضع، ولكن تستعمل في الكتاب والسنّة في موضوع خاص،

وهو عالم الميثاق، وقد جمع بعض المحدّثين ـ رفع اللّٰه تعالى شأنهم ـ أحاديث هذا الموضوع الواردة في أبواب متفرّقة في باب واحد، وسمّاه باب الطينة والميثاق.

وقد ذكر المفسّرون في المراد من هذا الميثاق وجوهاً كثيرة لم يقم دليل يصحّ الاعتماد عليه على اعتبارها، بل بعضها خلاف ظاهر الآية الشريفة، وهي قد بيّنت الميثاق العالم المأخوذ من الأنبياء عن أُممهم على ما عرفت تفصيله، ووجه الميثاق، وقرّرته بأُسلوب لطيف لا غموض فيه.

وذكر بعض المفسّرين أنّ المروي عن الصادق عليه السلام أنّ المراد أُمم النبيّين على حذف المضاف، كما ذكر السيوطي وغيره عن سعيد بن جبير، قال:

«قلت لابن عبّاس: إنّ أصحاب عبداللّٰه ـ يعني ابن مسعود ـ يقرأون: وإذ أخذ اللّٰه ميثاق الذين أُوتوا الكتاب، ونحن نقرأ: ميثاق النبيّين.

فقال ابن عبّاس: إنّما أخذ اللّٰه ميثاق النبيّين على قومهم».

والظاهر أنّه من تفسير الآية الشريفة، لا كونه من القرآن، وسيأتي في البحث الروائي ما يتعلّق بذلك أيضاً.

والمراد بأخذه تعالى الميثاق: هو الجعل والإلزام ثمّ قبوله منهم على الإيمان باللّٰه تعالى وتوحيده، والنصرة للنبيّين ودعوتهم إلى خاتم الأنبياء.

وإنّما ذكر سبحانه ميثاق النبيّين أوّلاً، لأن ميثاقهم هو الأصل في كلّ ميثاق. وتشريفاً لهم، وتعظيماً لميثاقهم، ولكونه أشدّ وآكد بالنسبة إلى غيرهم، قال تعالى: **﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقاً غَلِيظاً﴾**[1]، ولورود ذكرهم في الآية الشريفة السابقة.

---

١. سورة الأحزاب: الآية ٧.

قوله تعالى: ﴿لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾.

قرأ الجمهور (لما) بفتح اللام والتخفيف. وقرئ بالكسر. والمعروف أنّ اللام هي الموطئة للقسم، لأنّ الميثاق كالعهد والنذر في دخول اللام على جوابه، نظير قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ﴾[1].

وقيل: (ما) شرطية، كما في قوله تعالى: ﴿لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[2]، وهي في موضع نصب مفعول أوّل لـ(آتيت)، والمفعول الثاني الضمير المخاطب. و(من) بيانية.

وقيل: اللام ابتدائية، و(ما) موصوله، وآتيتكم صلته، والضمير المحذوف يدلّ عليه قوله: من كتاب وحكمة، والموصول في موضع رفع مبتدأ، والخبر «لتؤمنن به» الذي يكون اللام فيه لام القسم.

والحقّ أن يقال: إنّ (ما) موصولة، كما هو المتفاهم العرفي، والجملة تتضمّن معنى الشرط، فيكون فهم الشرطية منها سياقيّاً، لا أن يكون لفظيّاً دلاليّاً بالمطابقة، أو التضمّن، وأمّا الدلالة الالتزامية فقد تكون داخلة في الدلالات السياقية، وسيأتي في البحث الأدبي ما يتعلّق بذلك أيضاً.

والخطاب للنبيّين وأُممهم بقرينة قوله تعالى: ﴿أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾.

والمعنى: كلمّا آتيتكم يا أيّها الناس ـ الأنبياء والأُمم ـ من كتاب يتضمّن التشريعات السماوية، والمعارف الإلهية، والبشارات بنبوّة خاتم الأنبياء والأحكام الإلهية، والدلائل الدالّة على حكمة إرسال الرسل وبعث الأنبياء.

---

١ . سورة التوبة: الآية ٧٥.

٢ . سورة الأعراف: الآية ١٨.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾.

تقرير للميثاق المأخوذ من الأنبياء، واللام في ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾ جواب القسم، والجملتان جواب القسم والشرط معاً إن جعلنا (ما) شرطية، والضمير في الموضعين راجع إلى الرسول، كما هو الظاهر.

وقيل: إنّ الضمير في ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ يرجع إلى ما أُوتوا من كتاب وحكمة، والضمير الثاني راجع إلى الرسول.

ولكن الظاهر ـ كما عرفت ـ هو الأوّل، ويستفاد الثاني من السياق.

والتراخي الزماني المستفاد من إتيان (ثمّ) في الكلام، لبيان الميثاق المأخوذ من النبيّ السابق، وهو الدعوة بالإيمان بالنبي اللاحق ونصرته، كما أنّ كلّ نبيّ لاحق لابدّ له من التنويه بالنبيّ السابق والإيمان به.

والمراد بقوله تعالى: ﴿مَعَكُمْ﴾، هو المعية المعنوية المستكملة للنفوس الإنسانية، لا خصوص المعيّة الجسمانية، فإنّه ﷺ أُرسل بعد فترة من الرسل، وهو خاتمهم.

والآية في مقام بيان حقيقة النبوّات السماوية، وكيفيّة ارتباط بعضها مع بعض، وارتباطها مع الخلق، وتفصيلها أوّلاً ثمّ بيان مجملها بما هو منطوٍ في خاتم رسله، لأن النبوّات السماوية متقوّمة بالبيانات الإلهية، التي هي عبارة عن الكتاب والحِكَم المودعة فيه، وهي تشمل جميع المعارف الضرورية من المبدأ والمعاد، وكلّ ما يحكم به العقل السليم، والفطرة المستقيمة التي قرّرتها الكتب السماوية، وهي الميثاق المأخوذ من الجميع، فالحكمة ترجع إلى الكتاب وهو يرجع إليها، والفرق بينهما بالإجمال والتفصيل، كما أنّ الفرق بين جميع الأنبياء وخاتم النبيّين أيضاً كذلك، لأنّه يبيّن حقيقة ما أُوحي إليهم مع شيء زائد، فلذلك كانت دعواتهم إليه ﷺ، ولأجل ذلك فصّل سبحانه الدعوة إليه بقوله عزّوجلّ: ﴿ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ

﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ﴾ اهتماماً به، وإرشاداً إلى علوّ درجته وسموّ مقامه.

قوله تعالى: **﴿قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾**.

خطاب للمأخوذ منهم الميثاق، والاستفهام تقريري.

والإقرار معروف، وهو الإثبات والإلزام.

والإصر: هو العهد والميثاق، سمّي به، لأنّه إمّا من الإصر وهو الثقل، لأنّ العهد فيه ثقل وتشديد. أو من الإصار، وهو ما يعقد به ويشدّ، لأنّ العهد يشدّ به، وتقدّم في قوله تعالى: **﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾**[1] بعض الكلام..

وإنّما عدل سبحانه عن لفظ العهد إلى هذه الكلمة (إصرى) للإرشاد إلى أن ناقضه محروم من الثواب، وواقع في مأزق العقاب وشدّة العذاب، فيكون مثل هذا العهد قد حبس صاحبه عن التهاون في التزامه، والتسامح فيه.

أي: قال الله تعالى: للنبيّين: أأقررتم بالميثاق المذكور آنفاً،وأخذتم من الأُمم العهد،وبلّغتموه إليهم؟قال النبيّون:أقررنابذلك،وأخذنامن الأُممالعهدوالإصر.

وإنّما ذكر جواب الأنبياء باعتبار أنـّه كان جواباً عمّا أراد عزّوجلّ تقريره منهم ابتداءً، فيتضمّن عهد الأُمم وتقريرهم أيضاً، فاكتفي بالأوّل، هذا ما يستفاد من ظاهر الآية الشريفة.

وقيل: المراد من أخذ العهد هو القبول، واستشهد لذلك بقوله تعالى: **﴿وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾**[2]، بقرينة قوله تعالى في موضع آخر: **﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾**[3]. فيكون قوله: وأخذتم على ذلكم إصري، عطف بيان لقوله: ﴿أأقررتم﴾. وعلى

---

١ . سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

٢ . سورة البقرة: الآية ٤٨.

٣ . سورة البقرة: الآية ١٢٣.

هذا يكون الميثاق مختصّاً بالأنبياء لا يتعدّاهم إلى غيرهم من الأُمم.

لكنّه بعيد عن ظاهر الآية الشريفة. والأخذ هو بمعناه المعروف وهو الاستيفاء، ويبعده أيضاً قوله عزّوجلّ: ﴿قَالَ فَاشْهَدُوا﴾، لظهوره في كون الشهادة على الغير. ولكن يهوّن الخطب أنّ الميثاقين متلازمان، يغني ذكر أحدهما عن الآخر، كما ذكرنا سابقاً.

قوله تعالى: **﴿قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنْ الشَّاهِدِينَ﴾**.

ظاهر السياق أن تكون الشهادة من النبيّين والأمم، أي شهادة الأنبياء على الأُمم بأخذ العهد منهم، وشهادة الأُمم عليهم بالتبليغ والمناصرة لهم، وإقرار منهم بالقبول. وأمّا شهادة خاتم النبيّين، فإنّها تقوم على إمضاء شهادتهم وتقريرها، باعتباره العلّة الغائية للخلق، وأنّ شهادة النبيّين كانت لأجله ﷺ، فكانّ شهادتهم لا تقبل إلّا بشهادته ﷺ.

وقيل: إنّ المراد من الآية شهادة الأنبياء بعضهم لبعض، وهذا وإن كان صحيحاً في نفسه، ولكنّه تخصيص بلا موجب.

وقيل: الخطاب للملائكة، أُمروا بالشهادة على الأنبياء والأُمم، وقد وردت به رواية أيضاً.

وفيه: أنّه خلاف الظاهر.

والحقّ أنّ الشهادة عامّة، وهي من الأنبياء على الأُمم وبالعكس، من قبيل مقابلة الجمع بالجمع.

ثمّ إنّ هذه المحاورة التي وقعت في الآية الشريفة إنّما هي لتأكيد الميثاق وتثبيته، وبيان أهمّيته، وظاهرها الإخبار بوقوعها في ما مضى من الزمان، لا أن يكون من مجرّد التمثيل، ولكنّها مجملة في تعيين زمان هذه المحاورة، فأصل السبق الزماني معلوم، وأمّا تعيينه في أنّه كان في عالم الذرّ الأوّل، أو الثاني، أو

أنّه كان في عالم المثال المعبّر عنه بعالم الأشباح والأظلة، أو أنّه كان في الأعيان الثابتة المسماّة بالثابتات الأزلية ـ بناءً على صحّة هذا القول ـ أو أنّه من قبيل لوازم الماهيات الممكنة مطلقاً ولو في هذا العالم، أو غير ذلك احتمالات، ولا يظهر من الآيات الشريفة، والأدلّة العقلية والنقلية تعيين واحد منها.

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْفَاسِقُونَ﴾.

تأكيد للميثاق المذكور، أي مَن تولّى بعد أخذ الميثاق منه وإقراره به، فلا ريب في فسقه وخروجه عن طاعة اللّه تعالى، بحكم العقل والفطرة، لأنّهما يحكمان بوجوب الوفاء بالعهد. فإن كان تولّيه عن أصل الإيمان بالتوحيد والمعاد، فهو كافر مضافاً إلى فسقه، وإن كان توليه عن العمل بالأحكام، فهو وإن كان فاسقاً، ولكنّه ليس بكافر إن لم يحصل منه ما يوجب الكفر. ولأجل ذلك عبّر سبحانه بالفسق ليشمل الجميع، ولم يبيّن جهته، ولا ما يترتّب على ذلك، للتنبيه على عظمة هذا الموضوع وكثرة أهمّيته.

قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾.

عطف على الآية السابقة، وتفريع على أخذ الميثاق من النبيّين والأُمم، وتوبيخ لمَن أعرض عنه، ويدلّ على أنّ دين اللّه واحد وهو دين الإسلام، فإنّه تعالى بعدما ذكر أخذ الميثاق من جميع أفراد الإنسان، وأثبت أنّهم متّفقون في الدِّين الذي أراده عزّوجلّ منهم، وأخذ الميثاق من النبيِّين على الدعوة إليه. كما أخذ ميثاق كلّ نبيّ بالدعوة إلى النبيّ اللاحق، والتنويه بالنبيّ السابق، وأنّ على جميعهم الدعوة إلى الرسول الكريم خاتم النبيِّين، والتبشير به والتصديق به ونصرته، فإذا تولّى أحد عن هذا الميثاق، ولم يفِ بما عاهد عليه وأقرّ به، فليس هناك دين آخر يعتقد به. كيف وقد خرج عن الطاعة ودين الحقّ. وأعرض عن

الدِّين الحقيقي الذي أمر العباد بالاعتقاد به، وعانده فلا يرجىٰ منه خير، حيث لم يؤمن بدين الإسلام، ولم يعترف بنبوّة الرسول الكريم الذي يسوق الإنسان إلى دين الفطرة، الذي أخذ عليه الميثاق.

والهمزة في (أفغير) للإنكار والتسفية لمَن تولى عن دين اللّٰه ونبذ العهد، ولها التصدير في الكلام، ولذا جاءت قبل حرف العطف بين المعطوف والمعطوف عليه.

قوله تعالى: **﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾**.

جملة حالية مؤكدّة، وهي في مقام الاحتجاج على كون الإسلام دين الفطرة. والإسلام إمّا أن يُراد به التسليم التكويني القهري للّٰه تعالى، فيكون المراد من الطوع مقهورية الممكنات تحت إرادته عزّوجلّ القهّارة، والمراد من الكره قهارية إرادته عزّوجلّ التامّة بالنسبة إليها، فيجتمع في كلّ شيء الطوع والكره معاً، فإنّه من حيث الإضافة إلى ذات المخلوق يكون طوعاً، ومن حيث اضافته إلى الخالق والجاعل يكون كرهاً، ولا محذور فيه، ويكون التعبير بـ(من) المستعمل في ذوي العقول إمّا لأجل الفضل، أو الغلبة، كما يكون الواو في قوله تعالى: **﴿طَوْعاً وَكَرْهاً﴾** لمطلق الجمع.

وإمّا أن يراد من الإسلام التشريعي الاختياري، فيكون المراد من الطوع هو إسلام مَن آمن باللّٰه تعالى، لأنّه وجده أهلاً للعبادة فعبده، ولم يتعلّق غرضه بغيره جلّ جلاله، فوجد الذات ذاتاً لا تليق إلّا العبادة والإيمان بها. والمراد من الكره هو إسلام الذين آمنوا به عزّوجلّ لإغراض زائدة على أهليّة المعبود للعبادة، كدخول الجنّة أو الخوف من النار أو غير ذلك.

وقد اختلف المفسّرون في معنى الآية الشريفة:

فقيل: المراد من الإسلام طوعاً، ما إذا حصل من الدليل والفكر والرويّة،

بخلاف الإسلام كرهاً، وهو ما إذا حصل من السيف والخوف.

وقيل: إنّ المراد بالإسلام طوعاً ما إذا حصل من غير معارضة في النفس، والإسلام كرهاً هو الانقياد مع معارضة النفس والوساوس والتعلّق بالوسائط.

والحقّ ما ذكرناه، ويمكن أن يرجع الأخير إليه بالعناية.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾.

حجّة أُخرى على لزوم الرجوع إلى الدِّين الحقّ والتسليم للّه تعالى والانقياد له، وقبح التولّي عن الميثاق. لأنّ جميع مَن في السماوات والأرض مرجعهم إليه عزّوجلّ، فيجزيهم على معتقداتهم واعمالهم، رجوعاً قهرياً لا دخل للإرادات مطلقاً وإن بلغت ما بلغت فيه، فاللازم هو الرجوع إلى ما بيّنه المعبود الحقيقي، والالتزام بالدِّين الحقّ والرجوع إلى ما أُخذ عليه الميثاق.

ويمكن أن يكون هذا قرينة على أنّ المراد من الكره هذا المعنى في الآية السابقة، فإن مَن كان مرجعه إليه بلا اختيار منه ولا إرادة، كيف يعقل أن يتّخذ إلهاً غير اللّه تعالى الذي ترجع إليه الأُمور، وهو مرجع العباد، فيقبح منه التخلّي عن الميثاق المأخوذ منه، والتولى عن دين الحقّ.

قوله تعالى: ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾.

أمرٌ للرسول الكريم بالجري على الميثاق المأخوذ منه ودعوة منه به، وهو الميثاق الذي أُخذ منه ﷺ بالإيمان باللّه تعالى، والتنويه بالأنبياء السابقين والإيمان بهم، وبالقرآن الكريم المشتمل على جميع المعارف الحقّة، وقد بيّن سبحانه هذا الميثاق بعد أن أشار إليه في الآيات السابقة، وبيّن الميثاق المأخوذ من الأنبياء بالإيمان بالرسول الكريم خاتم النبيّين، والتبشير به والدعوة إلى نصرته.

وإنّما قدّم سبحانه المنزّل عليه ﷺ على المنزل عليهم، إشارة إلى علوّ منزلته، ولأنّه واسطة الفيض، وهو الوجود الجمعي للكل.

وقد عبّر عزّوجلّ في المقام (علينا)، وفي غيره (إلينا)، ولا فرق بينهما، إلّا أنّه إذا لوحظ المنزل من الله عزّوجلّ باعتبار أنّه محيط بالجميع ومستولٍ عليهم، فتكون فيه جهة العلوّ من جميع الجهات، فيصبح التعبير بـ(على) حينئذٍ. وأمّا إذا لوحظ المنزل عليه فيعبّر حينئذٍ (إلينا).

قوله تعالى: **﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾**.

الأسباط جمع السبط، وهم القبائل من أبناء يعقوب الاثني عشر، والإنزال عليهم باعتبار الإنزال على أنبيائهم، بقرينة ذكر الأنبياء المنزل عليهم قبلهم وبعدهم. وهم كثيرون، كداود وسليمان ويونس وغيرهم.

وإنّما خصّ عزّوجلّ هؤلاء بالذكر، باعتبار اعتراف أهل الكتاب بنبوّتهم جميعاً، وقبول ما أُنزل عليهم، والمراد بما أُنزل عليهم: الصحف.

قوله تعالى: **﴿وَمَآ أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾**.

من التوراة والإنجيل وسائر الكرامات الباهرات، وإنّما ذكر النبيّين بعد ذكر آحادهم للتعميم، ليشمل جميع الأنبياء، وقد خصّ موسى وعيسى بالذكر تشريفاً لهما، وتعظيماً لما أُنزل عليهما، ولأن الكلام مع اليهود والنصارىٰ.

وإنّما ذكر سبحانه الربّ لبيان كمال العناية بهم، ولأنّه الربّ الرؤوف بالعباد، نزّل عليهم الكتاب لتكميل النفوس المستعدّة.

قوله تعالى: **﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾**.

تأكيد بالايمان بجميع الأنبياء، فإن الميثاق قد أُخذ منهم بالإيمان بجميعهم من دون تبعيض، وفيه التعريض باليهود والنصارى، الذين يؤمنون ببعض دون بعض؛ تبعاً لأهوائهم الفاسدة، وما تمليه عليهم العصبية البغيضة.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

أي: نحن جميعاً منقادون للّه تعالى، مطيعون له في جميع ما أنزله عزّوجلّ على الأنبياء، وما أراده عزّوجلّ.

وفي التعبير بالإسلام كمال التذلّل والانقياد، أي مستسلمون لكلّ ما هو في الميثاق.

وفيه إشارة إلى أنّ الايمان لا يتم ولا يكمل، إلّا بالاستسلام والانقياد من كلّ جهة.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾.

بعدما بيَّن عزّوجلّ أنَّ الايمان المطلوب هو الإسلام دون غيره، وبه أُخذ الميثاق، وأنّه الجامع لجميع الأديان الإلهية، والكمالات الإنسانية، فيكون الإسلام للّه تعالى هو الجامع بين جميع الأديان السماوية، ذكر هنا أنّ غيره باطل لا أثر له، ولا يهدي الإنسان إلى الكمال المنشود، بل يوجب بطلان الإنسانية ومقامها الرفيع.

وفي التعبير بابتغاء الإشارة إلى أنّ الإنسان وإن اجتهد في ما ابتغاه وارتاض فيه كمال الجهاد والرياضة، لا يقبل منه.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾.

دليل على أنّ الأعمال مع غير الإسلام تكون فاسدة ومفسدة للآخرة، فإنها

هي المحل الأتم لظهور مقام الإنسانية الكاملة . فمَن ذهب من العرفاء وعـظماء الفلاسفة إلى وحدة الوجود والموجود إن كان نظره إلى ذلك فلا بأس ، وتشهد له الأدلّة الكثيرة ، وإلّا فلا يرجع إلى محصل . وهذه الآيـة الشـريفة تشـتمل عـلى الإثبات والنفي بطريق برهاني علمي ، وهو ترتّب المعلول على العلّة التامّة .

***

بحوث المقام

بحث أدبي:

(إذ) في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلنَّبِيِّنَ﴾ منصوب بفعل مقدّر، أي: واذكر إذا أخذ الله... كما في غير هذا المورد.

وقيل: إنّه مقول لقوله تعالى في ما يأتي: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ﴾.

وأورد عليه بعضهم: أنّ خطاب أأقررتم إنّما كان بعد أخذ الميثاق.

ولكن فساده واضح. وقد تقدّم الكلام في نظير هذه الآية، فراجع.

والميثاق كالنذر والقسم في دخول اللام على جوابه، لأنّه يتضمّن العهد الذي يؤخذ من المعاهد (بالكسر) للمعاهد (بالفتح). وهي لتلقّي القسم ونحوه، كما أنّها هي التي يؤتي بها مع الشرط تثبيتاً لدخول الشرط على حيّز القسم، والعهد تقوية لتلقيهما بالجواب.

واللام في قوله تعالى: ﴿لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾ بالفتح والتخفيف على قراءة الجمهور، وقرأ حمزة بالكسر، وقرأ غيره بالفتح والتشديد.

والأوّل هو المتبع. وهي اللام الموطّئة ـ كما ذكرنا ـ وقد اختلف الأُدباء في إعراب هذه الآية الكريمة، بحيث عدوّها من مشكلات القرآن إعراباً.

فقيل: إنّ اللام هي الموطئة للقَسَم و(ما) شرطية، وهي في موضع نصب بـ(آتيت)، والمفعول الثاني ضمير المخاطب، و(من) بيانية كما عرفت في التفسير.

واعترض عليه بأنّ حمل (من) على البيانية شائع بعد الموصولة دون الشرطية، فإنّه يحتاج إلى النقل. ولذا قال بعضهم: إنّها زائدة، وقال آخر: إنّها تبعيضية ذكرت لبيان (ما) الشرطية.

وقيل: إنّ (ما) موصولة، واللام الداخلة عليها هي لام الابتداء، و(ما) مبتدأ والخبر (لتؤمنن به) مع القَسَم المقدّر. أو يكون الخبر (من كتاب وحكمة) والنكرة هنا بمنزلة المعرفة. أو يكون مقدّراً. والهاء محذوف من آتيتكم، تقديره للذي آتيتكُموه من كتاب وحكمة.

وأُورد عليه أوّلاً: بأنّ الميثاق كالقَسَم ممّا يعتني بربطه بالجواب وتلقيه بروابط القسم، وهما ينقضان بلام الابتداء، التي لها الصدارة في الكلام فتقطعه.

ويمكن الجواب عنه: بأنّ مجموع الكلام مرتبط بعضه مع بعض، من دون أن يضرّه لام الابتداء وصدارتها.

وثانياً: إذا جعلنا **(لتؤمنن)** خبراً لقوله تعالى: **﴿لَمَآ ءَاتَيْتُكُم﴾**، وكذا **﴿لَتَنصُرُنَّهُ﴾** فما هي اللام فيهما، فإنّها حينئذٍ لا تصلح أن تكون رابطة لجواب العهد والميثاق، ولا مزحلقة لأنـّها مختصّة بخبر (إن).

والجواب عنه يظهر ممّا سبق.

وثالثاً: أنّ الضمير في (به) إن عاد على المبتدأ ـ كما هو الظاهر ـ كان الميثاق هو إيمانهم بما آتاهم، ولكن المقصود من الآية أخذ الميثاق بالإيمان بالرسول ﷺ ونصرته. وإن عاد على الرسول ـ كالضمير الثاني المنصوب العائد عليه مطلقاً ـ خلت الجملة عن العائد.

وأُجيب عنه: بأنّ الجملة المعطوفة لمّا كانت مشتملة على ما هو بمعنى المبتدأ الموصول استغني عن الضمير، فيكون ضمير (به) راجعاً للرسول، مع ملاحظة (مصدق لما معكم) القائم مقام الضمير العائد على (ما)، فاكتفي بذلك عن الضمير في خبرها، لارتباط الكلام بعضه مع بعض.

وفيه: أنّ التكلّف ظاهر فيه، وقد ذكر في التفسير ما يرتبط بذلك أيضاً.

ورابعاً: أنـّه لو كان الأمر كذلك، يلزم أن يكون الذى آتيتكم من كتاب

وحكمة لتؤمنن به فردا، وجملة: ﴿ثُمَّ جَآئَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ... وَلَتَنصُرُنَّهُ﴾، فرداً آخر.

وفيه: مالا يخفى، مع أنـّه فرض يجلّ القرآن الكريم عن مثله، لأنّه تعقيد للكلام، وإخراج له عن الأُسلوب الفصيح المرغوب فيه، هذا كلّه بناءً على القراءة المعروفة.

وأمّا بناءً على قراءة حمزة، فإنّ (ما) مصدرية، واللام للتعليل متعلّقة بـ(لتؤمنن)، أي لأجل إتياني إيّاكم بعض الكتاب ثمّ مجيء رسول مصدق له.

واعترض عليه: بأنـّه يستلزم إعمال ما بعد لام القسم في ما قبلها.

ويمكن الجواب عنه: بأنـّه لا يضرّ، وبعض العلماء يقول بجواز ذلك.

والحقّ أن يقال: إنّ كلّ ذلك تطويل بلا طائل تحته، بل قد يضرّ بعض تلك الأقوال والاحتمالات بفصاحة القرآن الكريم وبلاغته، مع أنّ فيه من التكلّف والتعسّف ما لا يخفى، ومقتضى المتفاهم العرفي الذي هو الأصل في فهم الآيات الشريفة ـ ما ذكرناه في التفسير من أن كلمة (ما) موصولة، والجملة بتمامها متضمّنة لمعنى الشرط، فيكون فهم الشرطية سياقياً، لا أن يكون دلاليّاً، وما ذكروه في وجه بطلان ذلك كلّه لا يمكن المساعدة عليه، وقد أجبنا عن بعض ذلك.

وقرئ (تبغون) بالتاء الفوقانية، وعليه يكون في قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يَرْجَعُونَ﴾ التفات.

و(طوعاً وكرهاً) في قوله تعالى: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً﴾، مصدران في موضع الحال، أي طائعين وكارهين، والطوع مصدر طاع يطوع، والإطاعة مصدر أطاع يطيع، وهو بمعنى الانقياد.

و(كرها) بفتح الكاف من الكره، بقرينة المقابلة للطوع، نظير قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ﴾[1] أي إكراهاً.

---

١. سورة النساء: الآية ١٩.

وقيل: من الكراهية، أي كارهين.

و(ديناً) في قوله تعالى: **﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً﴾** منصوب على التمييز من غير، وهو مفعول (يبتغ)، **وقيل** ديناً مفعول (يبتغ)، وغير صفة قدمت فصارت حالاً، و هو الأصح.

***

بحث دلالي:

يستفاد من الآيات الشريفة أُمور:

الأوّل: قد أكّد سبحانه وتعالى الميثاق المأخوذ من جميع أفراد الإنسان، لأنّه أصل العهود، وبه تتمّ الوحدة، وعنه ينتزع الكلّ، وهو بمنزلة البذرة والأعمال نتائجها وثمراتها، وقد ذكرنا في التفسير أنواعه، وتستفاد أهمّية هذا الميثاق من المعاهد (بالكسر)، وشهادة الأنبياء، وخاتم النبيّين عليه، فيكون هذا الميثاق أصل الإنسانية الكاملة التي خلق الإنسان لأجلها، والقرآن الكريم وسائر الكتب الإلهية شرح لهذا الميثاق.

الثاني: يستفاد من الآيات الشريفة أن هذا الميثاق يقوم على وحدة الدِّين بين جميع أفراد الإنسان، الأنبياء والأُمم على السواء، لأن مبدأ الممكنات جلّ جلاله واحد بالوحدة البسيطة الحقيقية، والرجوع والمعاد إنّما يكون إلى واحد، لأنّه أتمّ مظهر للعدل، فلابدّ أن يكون الدِّين واحداً، لأنّه أتمّ تجلّ للواحد الحقيقي الظاهر في عبادة واحد، ولا محالة يكون غيره باطلاً محضاً وخسراناً صرفاً، فمَن ذهب من العرفاء وعظماء الفلاسفة إلى وحدة الوجود والموجود في عين الكثرة، إن كان نظره إلى ما قلناه فهو، وإلّا فلا دليل على صحّته.

الثالث: تدلّ الآيات الشريفة على أن حقيقة الميثاق هي الإيمان بالمبدأ والمعاد، والتصديق بالأنبياء وما أُنزل عليهم، والبشارة بخاتم النبيّين، ويصحّ أن

يكون الميثاق مأخوذاً على الكلّيات، لا بالنسبة إلى الجزئيات وإن شملها لا محالة.

الرابع: ذكر بعض المفسّرين أن من اللطائف الواقعة في هذه الآية الشريفة، أنّ الميثاق مأخوذ من النبيّين للرُّسل، على ما يعطيه قوله تعالى: **﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلنَّبِيِّينَ ـ إلى قوله ـ ثُمَّ جَآءَكُمْ﴾**، فيكون الميثاق مأخوذاً من مقام النبوّة لمقام الرسالة من غير عكس، للفرق بين المقامين.

وفيه: أنّ ذلك وإن كان حسناً في نفسه، ولكنّه يستلزم تقديم الفرع على الأصل، وهو خلاف مقام المشهود عليه، لما يستفاد من الآية التلازم بين أخذ الميثاق والشهادة، فالحقّ ما ذكرناه في التفسير.

الخامس: قد ذكر سبحانه وتعالى ما يتعلّق بنقض الميثاق والتولّي عنه، واعتبر الناقض فاسقاً، ولكن لم يذكر هنا ما يتعلّق بالوفاء بالميثاق والتعهّد به، ولعلّه لأجل أنّه لا حدّ لعظمة هذا المقام وجلالته، فأهمله تعالى ليذهب ذهن السامع أيّ مذهب أمكن، ويصحّ أن يقال إن ذكر النبيّ والرسول إشارة إلى رفعة ذلك المقام وعلوّه، وأنّ العمل به والوفاء به يوجب الالتحاق بدرجة الأنبياء والمرسلين.

السادس: يستفاد من قوله تعالى: **﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً ...﴾**، أن الميثاق ليس من العلّة التامّة في شيء، بل هو من المقتضيات المحضة، وإلّا لزمت أُمور كثيرة لا يقول بها أحد، منها بطلان الاختيار، وزوال الثواب والعقاب وغير ذلك.

السابع: يدلّ قوله تعالى: **﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً﴾** على أنّ المنهاج السليم للإنسان هو التسليم للّه تعالى والانقياد له عزّوجلّ، وأنّ دستوره في الحياة هو الطاعة للّه تعالى، والعمل بما أنزله على أنبيائه المرسلين، وفي غير ذلك بطلان

الإنسانية والحطّ من مقامها الرفيع ، ولأجل ذلك كان في الآخرة من الخاسرين ، لأنّ الآخرة المحل الأتمّ لظهور مقام الانسانية الكاملة والخاسرة .

الثامن : يستفاد من قوله تعالى : ﴿طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ ، أنّ جميع مَن في السماوات والأرض لايخرج عن أحد هذين الأمرين ، هما الإسلام طوعاً والإسلام كرهاً ، بل يمكن أن يكون كلا الأمرين في فرد واحد باعتبارين ، وقد ذكرنا أنّ العبادة والتسليم إن كانا للذات و بالذات يكون طوعاً ، وإن كانا لجهات خارجية يكونا كرهاً ، ولكنّه ليس بإكراه ، بلا فرق بين أن يكون الإسلام تكوينيّاً أو تشريعيّاً ، ولا يستفاد من لفظ (أسلم) ـ الدال على المضيّ والتحقّق ـ خصوص التسليم التكويني لأمر اللّه تعالى؛ لأنّ المراد منه تحقّق الاسلام ، أمّا الزمان فهو خارج عن مفهوم اللفظ .

التاسع : الآيات الشريفة تدلّ على صحّة نبوّة نبيّنا الأعظم ﷺ ، بل يستفاد منها أنّ التبشير به من أُصول الدعوات الإلهية و الرسالات السماوية .

العاشر : إنّما قدّم سبحانه الإيمان بما أُنزل علينا على الإيمان بما أُنزل على من قبلنا في قوله تعالى : ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ...﴾ ، مع أنّ الثاني أسبق زماناً ، لأنّ الايمان بما انزل علينا هو غاية الرسالات السماوية ، والغاية متقدِّمة في التعلّم وإن كانت متأخِّرة في الزمان ، مع أنّه الأصل في معرفة السابق علينا ، والطريق لإثباته .

الحادي عشر : من اللطائف الواقعة في هذه الآيات أنّ اللّه تعالى افتتحها بذكر الإيمان واختتمها بالإسلام ، لبيان أنّ الإيمان بدون الأخير لا ثمرة فيه ، وللإعلام بأنّ الإسلام هو الدستور في الحياة ، والمنهج في الدنيا ، وغيره باطل لا ثمرة فيه .

الثاني عشر : إنّما نفى عزّ وجلّ القبول بصيغة المجهول في قوله تعالى : ﴿فلن

يقبل﴾، للإشارة إلى أنّ غير الإسلام لا يفيد في النظامين التكويني والتشريعي، ولعلّ هذا هو السرّ أيضاً في إتيان (لن) في النفي الدالّة على التأبيد فيه.

***

بحث روائي:

في «تفسير القمّي»، في قوله تعالى: **﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾**. قال: فإنّ اللّه ميثاق نبيّه ـ أي محمّد ﷺ ـ على الأنبياء، أن يؤمنوا به وينصروه، ويخبروا أُممهم بخبره.

أقول: وذلك لأنّ محمّداً ﷺ العلّة الغائبة لخلق العالم من النبيّين وغيرهم، وشريعته أكمل الشرايع وأفضلها، فيجب الاهتمام به بأخذ الميثاق من كل النبيِّين على كل الأُمم، وهذه الروايات شارحة لمعنى الميثاق الوارد في الآية الشريفة.

وفي «المجمع»: عن أمير المؤمنين عليه السلام في الآية:

«إن اللّه أخذ الميثاق على الأنبياء قبل نبيّنا، أن يخبروا أُممهم بمبعثه ونعته ويبشّروهم به، ويأمروهم بتصديقه».

وفي «الدرّ المنثور»: أخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب عليه السلام، قال:

«لم يبعث الله نبيّاً ـ آدم فمن بعده ـ إلّا أخذ عليه العهد في محمّد، لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنّه، وأمره بأن يأخذ العهد بذلك على قومه، ثمّ تلا: **﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ـ الآية ـ﴾**».

وفي «المجمع»، و«الجوامع» عن الصادق عليه السلام في الآية ما معناه:

«وإذ أخذ الله ميثاق أُمم النبيِّين، كلّ أُمة بتصديق نبيّها، والعمل بما جاءهم به، فما وفوا به، وتركوا كثيراً من شرائعهم وحرّفوا كثيراً».

أقول: الميثاق من الأمور الإضافية، من النبيِّين على الأمم. ومن الأُمم للنبيِّين على العمل بما جاءوا به، والروايات تشرح بعض جهات الميثاق وتبيِّن

بعض المصاديق ، ولكن الآية شاملة للنبيِّين على الأُمم ، وبالعكس ، وقد تقدّم في التفسير ما يشير الى الرواية الأخيرة أيضاً ، فراجع .

وفي «تفسير العياشي» عن زرارة قال :

«قلت لأبي جعفر عليه السلام : أرأيت حين أخذ الله الميثاق الذر في صلب آدم فعرضهم على نفسه كانت معاينةً منهم له ؟

قال عليه السلام : نعم يا زرارة ، ذرّ بين يديه وأخذ عليهم بذلك الميثاق بالربوبية ولمحمّد صلى الله عليه وآله بالنبوّة ، ثمّ كفلّ لهم بالأرزاق ، وأنساهم رؤيته ، وأثبت في قلوبهم معرفته ، فلابدّ من أن يخرج الله الى الدُّنيا كلّ من أخذ عليه الميثاق ، فمَن جحد ممّا أخذ عليه الميثاق لمحمّد صلى الله عليه وآله لم ينفعه إقراره لربّه بالميثاق ، ومَن لم يجحد ميثاق محمّد نفعه الميثاق لربّه» .

أقول : الرواية تشتمل على جهات من الكلام :

أمّا قوله عليه السلام : «حين أخذ الميثاق الذرّ في صلب آدم» ، فإنّه ظاهر في أنّ الميثاق كان في عالم الذر ، ولكن لا يظهر من الحديث اختصاصه بهذات العالم .

وأمّا قوله عليه السلام : «كانت معاينة منهم له» ، فإنّه ليس المراد المعاينة الحسّية ، بل المراد المعاينة المعنوية، بأن أفاض عزّ وجلّ عليهم ما يدركون به أنّه خالقهم ومبدأهم ومعيدهم .

وأمّا قوله عليه السلام : «ذرّ بين يديه» ، أي بين يدي الله تعالى ، ويحتمل أن يكون المراد بين يدي آدم ، أي قدّامه بحيث إنّه عليه السلام يراهم بوجودهم الجمعي ، كما في بعض الروايات .

وأمّا قوله عليه السلام : «الميثاق بالربوبية ، ولمحمّد صلى الله عليه وآله بالنبوّة» ، فقد تقدّم وجه ذلك ، وأنّ أخذ الميثاق بالنبوّة لمحمّد صلى الله عليه وآله يرجع إلى أخذ الميثاق لجميع النبيِّين ، كما عرفت في التفسير .

وأمّا قوله عليه السلام: «ثمّ كفّل لهم بالأرزاق» فإنّ الرزق أعمّ من المادّي والمعنوي، وكلّ ما يكمل به الإنسان روحاً وجسماً.

وأمّا قوله عليه السلام: «وأنساهم رؤيته»، فإنّه لأجل توارد الصور الجسمانية عليهم، وتوغّلهم في المادّيات، فنسوا ذكر الله تعالى، ويمكن أن يُراد به الإنساء لأنّهم لو كانوا متوجّهين إليه تعالى في كلّ طرفة عين وآن لاختلّ نظامهم الجسماني في الدُّنيا، وفي بعض الآثار: بمعصية إبن آدم عمرت العالم.

وأمّا قوله عليه السلام: «وأثبت في قلوبهم معرفته»، فإنّ المراد به الفطرة التي فطر الناس عليها، وتظهر بعد ارتفاع الحُجب الجسمانية، والأغشية الظلمانية.

وأمّا قوله عليه السلام: «فلابدّ من أن يخرج كلّ مَن أخذ عليه الميثاق»، فلأنّ عهد الله غير قابل للتغيير والتبديل.

ويستفاد من قوله عليه السلام: «فمَن جحد ممّا أُخذ عليه الميثاق لمحمّد صلى الله عليه وآله أنّ الميثاق المأخوذ بالتوحيد، والميثاق المأخوذ بالنبوّة واحد»، لفرض أنّ الثاني شارح ومبيِّن للأوّل.

وفي «تفسير القمّي»: عن ابن مسكان، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال:

«ما بعث الله نبيّاً من ولد آدم هلم جرّا إلّا ويرجع إلى الدُّنيا وينصر أمير المؤمنين عليه السلام، وهو قوله ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾، يعني رسول الله صلى الله عليه وآله. ﴿وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾، يعني أمير المؤمنين عليه السلام، ثمّ قال لهم في الذرّ: ﴿أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾ أي عهدي ﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا﴾ قال الله للملائكة: ﴿فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾».

أقول: وفي سياق ذلك جملة من الأخبار، وهي تدلّ على تحقّق الرجعة، ويأتي شرحها مفصّلاً إن شاء الله تعالى.

ويمكن أن تحمل الرواية على مرتبة من مراتب التأويل، وهو شيء، وظاهر الآية الشريفة شيء آخر، ويدلّ على ما ذكرناه بما رواه العياشي عن

سلام بن المستنير، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال:

«لقد تسمّوا باسمٍ ما سمّى الله به أحداً إلّا علي بن أبى طالب وما جاء تأويله.

قلت: جعلت فداك، متى يجيء تأويله؟

قال عليه السلام: إذا جاء جمع الله أمامه النبيّين والمؤمنين حتّى ينصرونه، وهو قول الله: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ** ـ إلى قوله ـ **وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ**﴾».

وفي «المجمع»: عن أمير المؤمنين عليه السلام في قوله تعالى: ﴿**أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي**﴾. قال عليه السلام: «أأقررتم وأخذتم العهد بذلك على أُممكم. قالوا ـ أي الأنبياء وأُممهم ـ: أقررنا بما أمرتنا بالإقرار به، قال الله: فاشهدوا بذلك على أُممكم، وأنا معكم من الشاهدين عليكم وعلى أُممكم».

وفي «الدر المنثور» أخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب، في قوله تعالى: ﴿**فاشهدوا**﴾. يقول: «فاشهدوا على أُممكم بذلك، وأنا معكم من الشاهدين عليكم وعليهم، فمَن تولّى عنك يا محمّد بعد هذا العهد من جميع الأُمم فأُولئك هم الفاسقون، هم العاصون بالكفر».

أقول: الروايتان تدلّان على أنّ المخاطب في الآية الشريفة هم النبيّون، ورواية القمّي المتقدِّمة تدلّ على أنّ المخاطب الملائكة، ولا منافاة بينهما لتعميم الخطاب بالنسبة إلى الجميع، والآية ليست في مقام الحصر.

وفي «التوحيد»: روى الصدوق، عن ابن بكير، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «سمعته وهو يقول في قوله عزّ وجلّ: ﴿**وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً**﴾. قال عليه السلام: هو توحيدهم لله عزّ وجلّ».

أقول: روى مثله العياشي أيضاً، والحديث يدل على أنّ المراد بالإسلام

التوحيد الأعمّ من التكويني والاختياري، لأنّ الجميع مجبولون على التـوحيد فطرة.

وفي «المجمع» في الآية: أنّ معناه إكراه أقوام على الإسلام، وجاء أقوام طائعين. قال: كرهاً، أي فرقاً من السيف.

وفي «تفسير القمّي» في قوله تعالى ﴿طَوْعاً وَكَرْهاً﴾ أي فرقاً من السيف.

أقول: قد تقدّم في التفسير ما يستفاد ذلك أيضاً.

وفي «الدر المنثور» في قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً** ـ الآية ـ﴾ أخرج أحمد، والطبراني في «الأوسط» عن أبـي هـريرة، قـال رسـول الله ﷺ: «تجيء الأعمال يوم القيامة، فتجيء الصلاة، فتقول: يا رب أنا الصلاة، فيقول: إنّك على خير، وتجيء الصدقة، فتقول: يا رب أنا الصدقة، فيقول: إنّك على خير، ثمّ يجيء الصيام، فيقول: أنا الصيام، فيقول: إنّك على خير، ثمّ تجيء الأعمال كلّ ذلك يقول الله: إنّك على خير، بك اليوم آخذ، وبك أعطي، قال الله فـي كـتابه: ﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾».

***

بحث كلامي:

الآيات الشريفة التي تقدّم تفسيرها، من جملة الآيات الكثيرة التـي دلّت على ثبوت عالم العهد والميثاق، وهي من جلائل الآيات التي وردت فـي هـذا الموضوع، فقد تكفّلت ـ ولو على سبيل الإيجاز ـ لبيان العهد والمأخوذ منه العهد، ومَن أُخذ له العهد، والغاية منه، وأثره على الإنسان، وتأثيره في بقيّة العوالم التي يرد عليها الإنسان، وقد وردت أحاديث في السنّة الشريفة، تبيّن بعض الجوانب التي تتعلّق بهذا العالم، الذي هو من العوالم الربوبية المتعدِّدة.

ولكن، لم يعلم أنّ أخذ العهد كان في عالم الذرّ الأوّل، أو فـي عـالم الذر

الثاني ، كما لا يعلم الزمان والمكان الذي أُخذ فيه الميثاق ، ولذلك اختلف العلماء فيه؛ فبعضهم عبّر عنه بالثابتات الأزلية ، وآخر يقول إنّه الأعيان الثابته ، وثالث إنّه عالم المُثُل الأفلاطونية ، ورابع اعتبر أنّه عالم المثال المنفصل . وخامس أنّه عالم الأشباح والأظلة ، والجميع يريدون التوصّل إلى معرفة هذا العالم الذي أقصى ما يمكن القول فيه إنّه من الغيب، ولا يمكن الاطّلاع عليه إلّا لذوي النفوس القدسية الزكية ، التي يُفاض عليها من عالم الغيب بقدر الاستعداد .

ويرجع الميثاق إلى المعارف اللائقة للإنسان ، التي لابدّ أن يتلقّاها في جميع النشئات التي يمكن أن يرد عليها إتماماً للحجّة ، وإيضاحاً للمحجّة ، والآخذ للميثاق هو الله تعالى ، والمأخوذ منه الإنسان في أي عالم ممكن أن يرد عليه ، والمأخوذ هو حقائق الكتاب والحكمة وأُصول المعارف الحقّة التي يجب أن يتحلّى بها الإنسان الكامل .

وبعبارة أُخرى : المأخوذ هو الحقّ المطلق الذي يكون غاية خلق العالم بروحانيّاته وجسمانيّاته ، ولأجل عظمة هذا العهد المأخوذ اهتمّ به سبحانه؛ لأنّه مرآة الكمال المطلق ، وقد أظهره سبحانه في كتابه الكريم لمصالح كثيرة .

وغاية ما يمكن أن يُقال: إنّه حادث مسبوق بالعدم ، ولكنّه أبدي دائم بدوام الله تعالى ، تتبدّل صوره بحسب تبدّل النشئات ، فإنّ العلم الأزلي الأتمّ الأكمل الذي هو عين ذاته الأقدس من جملة مراتبه ، حيث يكون الكلّ فيه واحداً ، ومجرّداً عن الزمان والمكان ، وله مراتب كثيرة ، ففي مرتبة يكون في مقام العلم بالنظام الأحسن ، وفي مرتبة أُخرى عهد وعمل ، وفي مرتبة ثالثة جنّة ورضوان ، كما أنّه الغاية من بعث الأنبياء والرسل ، وخلق الجنّة والتحذير عن النار ، ويصحّ أن يُعبّر عنه بالفلسفة العملية المعروفة بين الفلاسفة الإلهيّين ، كما أنّه التجلّي الجلالي والجمالي ، وعالم الجمع مقابل عالم التفريق ـ وهو العالم الذي نحن فيه ـ

إذا لوحظ الجمع والتفريق بالمعنى الإضافي النسبي، وهو الفطرة التي فطر الله عليها، والوجوه الجامعة بين جميع الأديان الإلهيّة، فيكون التخلّي عنها خروجاً عن الفطرة وفيه فساد العالم، وخسران بني آدم، فلا يفيد الإنسان شيئاً آخر غيره، كما قال تعالى في آخر الآيات المتقدِّمة ﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾.

***

بحث عرفاني:

لا ريب في أنّ الإنسان أشرف الموجودات بل هو اجلّها وأعظمها، فهو النوع الأتمّ الأكمل لسائر الأنواع الممكنة، وكيف لايكون كذلك وقد تباهى الله عزّ وجلّ به على سائر المخلوقات في قوله تعالى ﴿**فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ**﴾ في نظام خلقه الجسماني فضلاً عن روحانيّته المقدّسة، التي خرّت الأملاك ساجدة لها، فهو مظهر جميع النشئات الممكنة في عالمَي الغيب والشهادة، وفي مثل هذه الأُعجوبة التي حارت العقول فيها، لابدّ أن يتجلّى الله تعالى لها في كلّ نشئاته، فإنّ المعيّة التي أثبتها سبحانه وتعالى للانسان في قوله: ﴿**وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ**﴾، ليس المراد بها المعية الزمانية أو المكانية في عالم الدُّنيا فقط، بل المعية المطلقة في كلّ العوالم، فإنّ لله تعالى أطواراً من التجلّيات منها عالم الميثاق، ومنها عالم الذر، وعالم الشهادة، وقد حصلت من هذه التجلّيات جذبة روحانية للإنسان الى الله تعالى، فهو عزّ وجلّ محبوبه في تمام حالاته وجميع نشئاته، ولكن الحُجُب الجسمانية الظلمانية تحجبه عن الوصول الى المحجوب، وفي عالم الميثاق تجلّى الله تعالى فيه وأخذ عزّ وجلّ من الإنسان العهود المؤكّدة بالنسبة الى معرفة خالقه وتوحيده، والإيمان برسله وما ينزل عليهم، ليكون على معرفة في جميع العوالم التي يرد عليها عارفاً لمبدئه ومعاده، ومنهجه في الحياة وعاقبته، ويصحّ للعارف

المطّلع على الأسرار أن يعبّر عن عالم الميثاق بـالتجلّي الجـمالي والجـلالي لله تعالى، ولكن الحُجُب الظلمانية المعانعة عن مشاهدة عـالم المـيثاق، وحـجب الابتعاد عن ما عوهد عليه الإنسان كثيرة تختلف قلّةً وكثرة بالنسبة إلى النفوس، ففي نفس تكون لأجل عدم فـعاليّة القـوى المـدركة، والاخـتصاص بـالآلات الجسمانية، فإنّها نحو حجاب ظلماني بالنسبة إلى درك ذلك العالم. ومَن انسلخ عن هذه المرتبة، فقد أزال عن نفسه حجاباً من الحجب، كما أنّ التقرّب إلى ساحة الحبيب، والدخول في تجلّياته عـزّ وجـلّ لا يكـونان إلّا بـالعبودية الخـالصة والخلوص لديه، وقد ذكرنا أنّ عالم الميثاق مـن مـظاهر تـجلّياته عـزّ وجـلّ والاشتغال بالوفاء بما أخذ منه العهود من آثار هذا التجلّي الإلهي.

ثمّ إنّ عموم قوله تعالى: **﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْـخَاسِرِينَ﴾** يشمل جميع المفتعلات التي ليست على طريقة الإسلام وهديه تماماً، فيشمل كلّ ما ينسب إلى الدِّين ـ ولو مع الواسـطة ـ إن لم يـطابق الظواهر المقدّسة الشرعية، ولعلّه لذا ورد النهي عن التعمّق في الدِّين، بل عدّ في بعض الروايات من جنود الجهل والنفاق، فإنّ التسليم والاستسلام لما أنزله الله تعالى شيء والتعمّق شيء آخر.

والآية المباركة تنفي كلّ المذاهب المنسوبة إلى الطوائف الصوفية، وجميع أعمال المرتاضين الذين يرتاضون على غير ظاهر الإسلام.

وبالجملة: فإنّها بعمومها تنفي كلّ مذهب ودين غير الإسلام الذي كان عليه سيِّد الأنبياء صلّى الله عليه وآله وما بيّنه القرآن الكريم.

***

الآية ٨٦ ـ ٩١

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾.

الآيات الشريفة لا تخلو عن الارتباط بالآيات المباركة المتقدِّمة، فإنّه تعالى بعد أن بيّن حقيقة الدِّين الذي يجب اتّباعه، وأنّه الإسلام الذي بعث به جميع الأنبياء وأخذ عليه الميثاق، وبيّن أنّ غيره باطل لا يقبل منه.

ذكر عزّ وجلّ في هذه الآيات حال الكافرين به، والظالمين الذين خرجوا عن هدايته سبحانه وتعالى، واتّبعوا أهوائهم، وفسقوا بالخروج عن الميثاق الذي أخذ منهم، وبيّن جزائهم بأن أوعدهم سوء العذاب، وسجّل عليهم لعن مَن في السماوات والأرض.

وفي معرض الكفر والإيمان قسَّم سبحانه وتعالى الكافرين إلى أصناف ثلاثة؛ فمنهم مَن يقبل توبته إذا رجع إلى الحقّ وأنكر الباطل وأصلح نفسه واتّبع

الإسلام، ومنهم مَن ضلَّ عن الصراط المستقيم وأصرّ على الكفر وتوغّل فيه، فهؤلاء أفلتت منهم الفرصة، فإنّ الله لا يقبل توبتهم، ومنهم مَن مات على الكفر ولم يؤمن به تعالى، فلن تقبل منهم فدية ولو كانت ملء الأرض ذهباً، فإنّهم مخلَّدون في العذاب وما لهم من ناصرين.

***

التفسير

قوله تعالى: **﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾**.

(كيف) لفظ استفهام يفيد الاستبعاد والجحد والإنكار. ويُراد به استحالة الهداية، نظير قوله تعالى: **﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ﴾**[1]، أي يستحيل أن يكون لهم العهد.

والمعنى: أنّه لا طريق لهم يهديهم إلى الحقّ، إلّا ما يريده الله عزّ وجلّ وقد كفروا به؛ لأنّه تعالى أقام الدلائل الواضحة والحجج القويمة على الدِّين الحقّ، وهم قد تركوه وأعرضوا عنه باختيارهم، فهم قد أبعدوا أنفسهم عن الألطاف الإلهيّة، والتوفيقات الربّانية، التي هي سنّة الله تعالى في هداية البشر إلى الحقّ، وقد حرموا أنفسهم عن الكمال.

والآية الشريفة وإن كانت تستبعد الهداية عنهم مطلقاً، ولكن ذيل الآية يدلّ على أنّ الهداية تستحيل مع تلبّسهم بالظلم، قال تعالى: **﴿وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾**، فإنّ الوصف فيه مشعر بالعلّية، أي لا يهديهم مع وجوده فيهم، لأنّه من الجمع بين النقيضين المستحيل عقلاً، فإذا رجعوا عنه بالتوبة الصادرة عن القلب فلا ينافي هدايته عزّ وجلّ لهم.

وفي الآية الشريفة إيئاس للنبي ﷺ من إيمانهم؛ لأنّهم رأوا الهدى فنكبوا

---

١. سورة التوبة: الآية ٧.

عنه وشهدوا الحقّ فاعرضوا عنه، فاستحقّوا جزاء الظالمين بطبيعة اختيارهم.

قوله تعالى: ﴿وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾.

عطف على معنى الفعل في «إيمانهم»، أي بعد أن آمنوا وشهدوا أنّ الرسول حقّ. والواو للحال، والجملة حالية بتقدير (قد).

والمراد بهم إمّا أهل الكتاب، فتكون شهادتهم هي الاعتراف بالدلائل الواضحة على صدق الرسول، كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾، أو أهل الردّة، فشهادتهم تكون إقراراً منهم بالرسالة عن معرفة بحقّية الرسول، وصدق ما جاءتهم البيّنات، فلا يكون إقرارهم إقراراً صوريّاً.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾.

البيّنات ـ جمع بيّنة مؤنّث البين ـ وهي الدلائل والواضحة، والحجج القويمة، والبراهين الناطقة على حقّية الرسول وصدقه، سواء كانت هذه الدلائل هي الآيات القرآنية الدالّة على صدق الرسول وصحّة دعواه، أم المعجزات الباهرات، أو البشارات التي وردت في الكتب السماوية وصدّقها العارفون بها، فيكون كفرهم بعد وضوح الحقّ وقيام الحجّة، مكابرة للحقّ وعناداً منهم معه وعن بغي، ولذلك كانوا ظالمين، وقد استحبّوا العمى على الهدى، وآثروا الظلام على النور.

قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

برهان قويم على عدم هدايتهم، وقد أقام عزّ وجلّ الوصف (الظالمين) مقام الضمير، لبيان العلّة في حرمانهم عن الهداية، وهي الظلم الذي هو العدول عن الطريق الذي يجب سلوكه في الاهتداء إلى الكمال المنشود، ولا يهتدي معه

صاحبه إلى الفلاح والنجاح. ولكن ذلك لا ينافي هدايته عزّ وجلّ لهم بعد رجوعهم عن الظلم وتبرّيهم من الكفر.

ثمّ إنّ الظلم إمّا أن يكون قبل الدخول إلى الإسلام، فيمحى بالإسلام ولا يبقى له أثر، فإنّ الإسلام يَجبُّ ما قبله. وإمّا أن يكون بعد الإسلام مع البقاء على الظلم والتلبّس به، فيكون الإسلام منه صورياً ومن مجرّد الإقرار اللِّساني، ولا يترتّب على هذا الإسلام أثر، بل يترتّب عليه آثار الكفر والنفاق، أو يكون الظلم مسبوقاً بالإسلام وهو الارتداد، أو يكون مسبوقاً بالإسلام ثمّ لا يزول حتّى يموت. وقد ذكر سبحانه وتعالى هذه الأقسام في الآيات اللاحقة بعد إجمالها في هذه الآية الشريفة.

قوله تعالى: **﴿أُوْلَـئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾**.

(أُولئك) مبتدأ، و(جزائهم) مبتدأ ثان، وجملة: **﴿أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾** خبر المبتدأ الثاني، والجملة من المبتدأ والخبر خبر للمبتدأ الأوّل.

واستحقاقهم لهذا الجزاء ـ وهو لعن جميع مَن في السماوات والأرض ـ لخبث ذواتهم وانطباع قلوبهم على الكفر، فهم آيسون من رحمة الله تعالى مطرودون عن هدايته وتوفيقاته، ولأنّ الخارج عن الهداية والمارق عن الإنسانية الكاملة التي خلق الله تعالى الإنسان لأجلها يستحقّ لعن كلّ لاعن، وقد تقدّم في تفسير قوله تعالى: **﴿أُوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمْ اللهُ وَيَلْعَنُهُمْ اللاَّعِنُونَ﴾**[1] ما يتعلّق بعود جميع أقسام اللعنة عليهم، وفي المقام تفصيل لما أجمله عزّ وجلّ هناك.

---

١. سورة البقرة: الآية ١٥٩.

ولعن الله تعالى لهم طردهم عن رحمته والدخول في سخطه، كما أنّ لعن الملائكة هو الدُّعاء عليهم باللعنة، واللعن من الخلق السبّ والدُّعاء عليهم، وقد أذن عزّ وجلّ للناس بالدُّعاء عليهم باللعنة، وهم إمّا المؤمنون خاصّة فهو واضح لأنّهم يلعنون الكافرين، أو المطلق فلأنّ كلّ واحد من أفراد الإنسان يعلم بأنّ مَن لم يتّبع الحقّ يستحقّ اللعن، بل يلعن نفسه في حاق الواقع أيضاً؛ لأنّه يعلم أنّ خلاف الحقّ باطل، ولكن جهله المركّب منعه عن درك ذلك.

قوله تعالى: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾.

أي في اللعنة والطرد عن رحمة الله تعالى، واللعنة عليهم تستلزم دخولهم النار، فيمكن ارجاع الضمير في «فيها» إلى النار المستفاد من السياق، إذ لا فرق في رجوع الضمير إلى السبب التامّ أو المسبّب منه.

والجملة حال من الضمير في «عليهم». وخلودهم فيها إيئاس لهم عن الهداية والتوفيق لملازمتهم للظلم.

قوله تعالى: ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾.

بيان للخلود الذي استحقّوه لخبثٍ في ذواتهم، ورسوخ حبّ الظلم في نفوسهم، فالعذاب يدوم بدوام علته.

قوله تعالى: ﴿ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾.

الإنظار: الإمهال، كناية عن أنّهم لا تنالهم الرحمة ولايؤخّر عنهم العذاب يوم القيامة، فإنّ المسبّب لا يمكن أن يتخلّف عن السبب الذي هو الظلم وخبث الذات.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾.

استثناء ممّن ذكر سابقاً، والمراد من (بعد ذلك) من بعد الكفر و(أصلحوا) أي صاروا صالحين، وأتوا بالعمل الصالح ـ كقولهم «أغدّ البعير أي صار ذا غـدة» ـ بقرينة سائر الآيات التي جمع فيها بين الإيمان والعمل الصالح والبقاء عليه.

والمراد من التوبة البقاء عليها قلباً وعملاً، فإنّ الذنب كبير لا يكـفي فـيه مجرّد الندم، بل لابدّ من كون التوبة نصوحاً يظهر أثرها على الجوارح.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

أي: فإنّ الله يغفر لهم ذنوبهم ليزكّي به نفوسهم، ويرحمهم بالرضا والثواب والدخول في رضوانه وجنّته.

والجملة تعليل لما دلّ عليه الاستثناء، وضع فيها العـلّة مـوضع المـعلول تأكيداً، ولبيان أنّ رحمته ومغفرته لازمتان لمن كان أهلاً لهما.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً﴾.

بيان للصنف الثاني من الكافرين، وهم الذين انغمروا في الضلالة والكفر بعد ظهور الحقّ وتمام الحجّة، فإنّه لا سبيل لهم للصلاح ولا مطمع في اهتدائهم، فلا يهديهم الله تعالى ولا تقبل توبتهم بعد الكفر، لاستهزائهم بالدِّين وأحكام الشرع المبين، فهم أصرّوا على العناد وصدّوا عن سبيل الله تعالى، وأحلّوا نفوسهم دار البوار، وازداد الطغيان في نفوسهم لممارستهم الملكات السيّئة.

ومن ذلك يعلم أنّ ذكر هذا الصنف بعد قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾، يكون من تطبيق الكلّي على بعض مـصاديقه، فـلا مـجال للإشكال في عدم قبول التوبة، لمنافاته للآيات الكثيرة الدالّة على قبول التـوبة مطلقاً، قال عزّ وجلّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾، وكذا السنّة الشريفة الدالّة على قبول التوبة حتّى قبل حضور الموت،

وقد تقدّم في بعض مباحثنا تفصيل ذلك.

وملخّص الكلام: أنّ التوبة مقبولة مطلقاً إلّا إذا أسقط التائب نفسه عن قبولها، وهذا الصنف وما ياتي من هذا القبيل.

نعم، لو آمن ثمّ ارتدّ وكفر ثمّ تاب، فعن جمع من الفقهاء ـ تبعاً لبعض الروايات ـ عدم قبول توبته أيضاً. لكن صرّح المحقّقون منهم تبعاً للعمومات والإطلاقات بقبول توبته أيضاً، إلّا في الأحكام المختصّة كقتله، وبينونة زوجته، وتقسيم تركته بين ورثته. ولكن هذا الفرد (الفطري) خارج عن مفهوم الآية الشريفة، إذ ليس فيه العلّة في عدم قبول توبته وهي الازدياد في الكفر، بل هو كفر واحد بعد الإيمان.

قوله تعالى: **﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾**.

نفي مؤبّد لقبول التوبة في المستقبل، لأنّهم ازدادوا كفراً وأصرّوا على العناد واللجاج، وهم على ضلالة فلا تقبل توبتهم.

وإنّما عدل سبحانه وتعالى عن قول «لا تقبل توبتهم» إلى **﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾** للإشارة إلى أنّ توبتهم المستقبلة والمتأخّرة لن تقبل منهم أبداً، لأنّها لا تصدر عن خوف من الله تعالى، بل هي تصدر عن نزعات النفس الأمّارة والاستهزاء بالحق، وإلّا فإنّ التوبة الصادقة المنبعثه عن الخوف من الله عزّ وجلّ والتقوى، مقبولة حتّى قبل حضور الموت، كما هو ظاهر إطلاق الآيات الشريفة وصريح جملة من الروايات.

قوله تعالى: **﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾**.

الضالّون: المخطئون طريق النجاة والمعرضون عن الحقّ، أي هم كذلك في مدّة حياتهم، ومن تحقّق الحصر، وإتيان الإشارة البعيدة (أُولئك)، وتأكيد الجملة

بالضمير المنفصل (هم)، ووجود اللام في الخبر واسميّته، كلّ ذلك يدلّ على تأكيد الضلال وتمكّنه فيهم وهو راسخ فيهم، فلا يرجى هدايتهم.

والآية الشريفة تشتمل على علّة عدم قبول توبتهم وهي الضلال الناشئ من ازدياد الكفر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾.

هؤلاء هم القسم الثالث من أقسام الكافرين، وهم الذين لا تقبل توبتهم لأجل أنّهم ماتوا على الكفر والعناد، وموتهم على الكفر كناية عن فوت التوبة عنهم في مدّة حياتهم، بخلاف الطائفتين السابقتين، فإنّ الأُولى تابت عن الكفر توبة نصوحاً ولم تعد إليه، والثانية تابت عن الكفر ثمّ رجعت إلى الكفر وازدادت كفراً، وهذه الطائفة لم تتحقّق منهم التوبة في مدّة حياتهم أبداً، فلا يستحقّون المغفرة والرحمة، ولا يهديهم الله تعالى في يوم القيامة، وإن حاولوا الافتداء عمّا فعلوه في الدُّنيا لتقبل توبتهم.

قوله تعالى: ﴿ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَباً﴾.

مل ء الشيء (بالكسر) مقدار ما يملؤه، وفي الدُّعاء: «لك الحمد مل ء السماوات والأرض»، ومعناه لو قدر أن تكون كلمات الحمد أجساماً لبلغت من كثرتها أن تملأ السماوات والأرض، فالمراد التمثيل لكثرة العدد، وإلّا فالمكان ليس ظرفاً للكلام. وإن كان ظرفاً للمتكلِّم. والملاء (بالفتح) مصدر ملأه ملأً.

وقد شبّه عزّ وجلّ الأرض بالإناء الذي يملأه الذهب، فتضمّن الكلام استعارة بليغة، وإنّما ذكر عزّ وجلّ ملء الأرض ذهباً، لأنّه غاية ما يعظم عند الإنسان فيبذله للخلاص.

وإنّما دخلت الفاء في خبر «إنّ الذين كفروا» هنا، ولم تدخل في الآية

السابقة ، مع أنّ الآيتين سواء في ذلك ، لخروج المبتدأ ـ في المقام ـ باعتبار صلته مخرج الشرط ، بخلاف الآية السابقة .

قوله تعالى : ﴿وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ .

أي : ولو قدّم ذلك بعنوان الفداء في الآخرة ، وإنّما ذكره سبحانه وتعالى في هذه الطائفة دون السابقة ، لأنّ الفداء استنقاذ محبوب بمال ، وقد فاتتهم التوبة في الدنيا ، فلا يمكن استنقاذها في الآخرة بشيء وإن بلغ في نظر الإنسان ما بلغ في العظمة ، وفيه غاية التهويل والتخويف ، لأنّه لا خلاص لهم من الوعيد .

والواو في ﴿وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ قيل إنّها للمصاحبة للشرّ ، تستدعي شرطاً آخر يكون الخبر المذكور منبّهاً عليه بالطريق الأولى ، ففي المقام أنّ افتدائهم بملء الأرض ذهباً من أكثر الاحتمالات بقبول الفدية ، فإذا لم يقبل فالاحتمالات الأُخرى أولى بعدم القبول ، ومثل ذلك كثير في الفصيح من الكلام ، فتكون «لو» منبّهة على أنّ ما قبلها جاء على سبيل الاستقصاء ، وما بعدها يكون أقوى الوجوه بالقبول ، فلا يندرج في ما قبلها . فهذا التركيب يفيد هذا المعنى الدقيق .

وقيل :إنّ الواو للعطف والتقدير ، أي التفصيل بعد الإجمال . ويمكن إرجاعه إلى السابق . ويحتمل أن يكون هذا التركيب لبيان غاية التهويل والتخويف .

والظاهر أنّ بين جميع ما ذكر في المقام تلازم في الجملة .

قوله تعالى : ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ .

مبالغة في التحذير ، ونهاية بُعدهم عن التوبة واستعدادهم لها ، وإيئاسهم عن جميع ما يمكن أن يتوسّل به لدفع العذاب .

قوله تعالى : ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ .

نفي للانتفاع بالشفعاء الذين قد يتشفّعون بهم في دار الدُّنيا وينصرونهم ،

فلاتلحقهم الشفاعة المعدّة لأهل الذنوب والمعاصي في يوم القيامة. و (من) تدلّ على استغراق النفي وعمومه لجميع أفراد الناصرين، لكلّ واحد منهم ولجميعهم بالأولى.

***

بحث دلالي:

يبيّن عزّ وجلّ في قوله تعالى: ﴿**كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُوا...**﴾ قاعدة كلّية أثبتها علماء الفلسفة العملية ـ وذكرها علماء الأخلاق في كتبهم ـ واستدلّوا عليها بأدلّة كثيرة عقلية ونقلية؛ وهي أنّ الرذائل النفسانية إنّما ترسخ في النفس بممارستها ومزاولتها وعدم الاعتناء برفعها وإزالتها وتطهير النفس عنها، فإذا رسخت لا تزول إلّا بصعوبة شديدة ومتاعب مريرة، بل لا يمكن زوالها في بعض النفوس وإن أمكن تخفيفها، ولكنّها تعود بين حين وآخر وتظهر آثارها، لكون أصلها في الذات، فإذا رسخ الكفر مثلاً في النفس فإنّه لا ينفعع الإيمان، فلو آمن وشهد الحقيقة والرسول وآياته وبيّناته ثمّ كفر، يكشف كفره هذا عن رسوخ ملكة الكفر في نفسه، ولا تزول إلّا بالتطهير، أي التوبة النصوح المقارن مع الصلاح والإصلاح.

ولأجل هذا أكّد سبحانه وتعالى على الصلاح في هذه الآية الشريفة. وهي كبرى تنطبق على الأقسام التالية التي يذكرها سبحانه وتعالى في ذيل الآية المباركة، كما عرفت في التفسير، فيكون لفظ «كيف» للتعجّب الإنكاري؛ أي الامتناع العادي.

***

بحث روائي:

في «المجمع» في قوله تعالى: ﴿**كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ**

وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ـ إلى قوله تعالى ـ **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾** قيل:

«نزلت الآيات في رجل من الأنصار يُقال له الحارث بن سويد بن الصامت، وكان قَتَل المحذر بن زياد البَلَوي غدراً، وهرب وارتدّ عن الإسلام، ولحق بمكّة، ثمّ ندم فأرسل إلى قومه أن يسألوا رسول الله ﷺ: هل لي من توبة؟ فسألوا، فنزلت الآيات المتقدِّمة، فحملها إليه رجل من قومه، فقال: إنّي لأعلم أنّك لصدوق، وأنّ رسول الله ﷺ أصدق منك، وأنّ الله تعالى أصدق الثلاثة، ورجع إلى المدينة وتاب وحسن إسلامه».

وقال الطبرسي: وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام.

أقول: روى قريباً منه السيوطي في «الدر المنثور».

وفي «الدر المنثور» أيضاً: عن عكرمة، عن ابن عبّاس، قال:

«ارتدّ رجل من الأنصار عن الإسلام ولحق بالشرك، فندم فأرسل إلى قومه أن يسألوا رسول الله ﷺ: هل لي من توبة، فإنّي ندمت؟ فنزلت: **﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْماً كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ** ـ إلى قوله تعالىٰ: **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾**، فكتب بها قومه إليه فرجع فأسلم».

أقول: يمكن أن يكون سبب النزول متعدِّداً.

وفي «الدر المنثور»: عن عطاء في قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾**، قال: «نزلت في اليهود، كفروا بعيسى والإنجيل، ثمّ ازدادوا كفراً ببعثة محمّد ﷺ والقرآن».

وفي «أسباب النزول» للواحدي عن أبي العالية في الآية:

«أنّها نزلت في اليهود والنصارىٰ، كفروا بمحمّد ﷺ بعد إيمانهم بنعته وصفته، ثمّ ازدادوا كفراً بإقامتهم على كفرهم».

أقول : بعد كون دين الله واحداً في أصل التوحيد والنبوّة والمعاد ، فلا فرق بين مَن آمن بنبيّ واحد ثمّ كفر به ، أو آمن صنف بنبيّ خاصّ أخبر بالنبيّ ثمّ كفروا بالنبيّ اللاحق ، فتنطبق الآية الشريفة على كلّ منهما بعد وحدة المناط فيهما .

***

الآية ٩٢ ـ ٩٥

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾.

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى جملة من أحوال الكافرين، وبيّن الميثاق الذي أُخذ منهم، وحاجّهم في ما ادّعوه من الإيمان. ثمّ سرد أقسام الكافرين، وبيّن أنّ قسماً منهم تقبل توبتهم إذا كانوا في مقام الإصلاح وأتوا بالعمل الصالح.

يذكر عزّ وجلّ في المقام أنّ الإيمان لابدّ وأن يقترن بالعمل بالأحكام الإلهيّة التي أنزلها الله تعالى على رسله، وأنّ الميزان الصحيح هو متابعة ملّة إبراهيم ونبذ الشرك والكفر والعناد، وأنّ من أهمّ مظاهر الإيمان والعمل الصالح هو الإنفاق في سبيل الله تعالى، بل أنّ البرّ هو الثمرة الظاهرة للإيمان، فلابدّ أن يقترن ذكره، لأنّ البرّ يكشف عن محبّة الله تعالى والزهد في حطام الدُّنيا والرغبة الى ثوابه عزّ وجلّ ورضائه، فمن آثر شهوة المال وجمعه كان ممّن آثر حبّ الدُّنيا على محبّة الله تعالى، فالإنفاق في سبيل الله تعالى هو الميزان الفارق بين الإيمان

الحقيقي والإدعائي.

ثمّ بيَّن بعض مفتريات اليهود على الله تعالى، وفنّد مزاعمهم، ووبّخهم على التعدّي في أحكام الله والشرك به، وأوعدهم العذاب.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿**لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾.

النيل هو الإصابة والوصول، وفي الحديث: «خرج بلال بفضل وضوء النبيّ ﷺ فبين ناضح ونائل»؛ أي مصيب منه وآخذ.

والبر: هو كلّ ما يصحّ أن يتقرّب به الى الله تعالى من الخير والإحسان والفعل المرضي، ومن أسمائه تعالى «البر» بالفتح، أي العطوف على عباده ببرّه ولطفه، وتقدّم في قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ**﴾[1] بعض ما يتعلّق باشتقاق هذه الكلمة.

والمشهور أنّ الخطاب للمؤمنين، ولكن يمكن أن يكون الخطاب للجميع، لاسيما بعد ورود هذه الآية بعد الآيات التي بيّنت أقسام الكافرين، وما سيذكره عزّ وجلّ من بيان خلاف اليهود وافترائهم.

والمراد بنيل البر: هو الدخول في زمرة الأبرار، والوصول إلى الدرجات العالية والثواب الجزيل الذي أعدّه الله تعالى لهم، وقد اختلف المفسّرون في المراد بالبر الذي يناله المُنفق في المقام، فقيل: إنّه الجنّة، وقيل: إنّه برّ الله تعالى وإحسانه، وقيل غير ذلك، ولكن كلّ ذلك يرجع الى ما ذكرناه، وما ذكروه يكون أحد أفراده.

والبرّ كما يشمل الأفعال الخيّرة كعبادة الله تعالى والطاعة له عزّ وجلّ بإتيان

---

١. سورة البقرة: الآية ١٧٧.

الواجبات وترك المحرّمات والإنفاق في سبيل الله تعالى، يشمل أيضاً ما هو فعل القلب، كالإيمان بالله عزّ وجلّ وكتبه ورسله، والاعتقاد الحقّ، والنيّة الصادقة، وتهذيب النفس بمكارم الأخلاق، ويدلّ عليه قوله تعالى: **﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾**[1]، فإنّه تعالى جمع القسمين من البرّ: الأفعال القلبية، والأفعال الجوارحية.

كما أنّ الإنفاق عام يشمل الإنفاق من الأموال وغيرها، ولكنّه بقرينة ما يأتي يختصّ بتلك الأشياء التي يرغب إليها الإنسان، ويعتزّ بها الأفراد ويهواها ويحبّها، وهو يعمّ المستحبّ وغيره، ولا معنى للنسخ حينئذٍ، لأنّ وجوب بعض أفراد الإنفاق لا ينافي استحباب بعضها الآخر.

وإنفاق المحبوبات والمشتهيات في سبيل الله تعالى من أعظم ما يختبر به الإيمان الصحيح عن الإيمان الفاسد، لأنّ فيه يظهر الاعتزاز بالإيمان بالله ومحبّته عزّ وجلّ، التي لابدّ أن تعلو على محبّة الأموال وغيرها، التي يعتزّ بها الإنسان وتشحّ بها نفسه ويرغب في ادّخارها، فهو كاشف عن رضى الله تعالى والرغبة في ثوابه والإيمان الصادق، فيكون الإنفاق في حبّه برّاً يرضاه الله تعالى بالشروط التي ذكرها عزّ وجلّ في آيات الإنفاق في سورة البقرة.

وذكر بعض المفسّرين أنّه يفهم من الحصر المستفاد من النفي والإثبات ـ أي من إثبات البر في الإنفاق ونفيه عن غيره، وأنّ الإنفاق غاية لا ينال البرّ إلّا

---

١ . سورة البقرة: الآية ١٧٧.

بها ـ أنّ من أنفق ممّا يحبّ كان برّاً، وإن لم يأت بسائر شعب البرّ من الإيمان بجميع أركانه.

ولكنّه باطل؛ لأنّ هذه الآية ـ بانضمام سائر الآيات الواردة في الإنفاق ـ يستفاد منها أنّ إنفاق المحبوب هو أحد أركان الإيمان، وقد جمع سبحانه وتعالى الإنفاق مع سائر أركان الإيمان وشعبه في سورة البقرة الآية ١٧٧. وإنّما جعل الإنفاق غاية لنيل البرّ هنا للاهتمام به، لما يترتّب عليه عظيم الفائدة، ولما فيه الآثار الكبيرة التربوية والنفسية والاجتماعية، ولأنّ الإنفاق من أهمّ الأساليب في ترويض غريزة النفس في حبّ الدُّنيا وما فيها، بحيث يكون فقد المال موجباً لتأمّله بخلاف غيره، كما قال علي عليه السلام: «ينام الإنسان على الثكل، ولا ينام على الحرب»، وقد تقدّم في آيات الإنفاق في سورة البقرة بعض ما يتعلّق به.

يُضاف إلى ذلك أنّ قوله: ﴿ممّا تحبّون﴾ يدلّ على أنّ الشيء الذي يبذل لابدّ أن يكون مرضياً لله تعالى، فإنّ الشيء الزهيد الذي لا ترضونه لا يدخل في الإنفاق المحبوب، لأنّ القصد هو التقرّب الى الله تعالى وابتغاء وجهه الكريم، وهو من أحد طرقه، وبقيّة الأركان هي من شروطه.

ومن جميع ذلك يستفاد أنّ الألف واللام في «البر» إمّا للحقيقة، أي حقيقة البرّ التي بيّنها عزّ وجلّ في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، أو للعهد، أي ذلك البرّ المعهود الذي جعله الله تعالى للأبرار، وهم المؤمنون الصادقون المتّقون.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾.

ترغيب للإنفاق، وترهيب عن تركه، وتطييب لنفوس المنفقين، بأنّ ما ينفقونه لا يذهب هدراً، والله تعالى عليمٌ بإنفاقهم ونيّاتهم وإخلاصهم، ويجازيهم على ذلك ويضاعف لهم الجزاء، كما وعدهم به، فلا يخشى أحدٌ بعد ذلك من الإنفاق، ولكن لابدّ من الإخلاص فيه ليفوز بالجزاء الأوفى.

وترشد الآية الشريفة إلى حسن الإخفاء في الإنفاق والحثّ عليه ، فإنّ الله تعالى عليمٌ به ، وإن خفي عن الناس ولم يعلم به سوى المُنفق .

قوله تعالى : ﴿**كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ**﴾ .

الطعام : ما يطعم ويتغذّى به ، وفي الحديث : «ما لنا طعام إلّا الأسودان؛ التمر والماء» ، وإن كان يطلق عند أهل الحجاز على البرّ خاصّة ، وينصرف عند الإطلاق إليه عندهم ، وفي حديث أبي سعيد : «كنّا تخرج زكاة الفطرة صاعاً من طعام ، أو صاعاً من شعير» ، ويأتي بمعنى المعطوم .

والحل : مصدر بمعنى المفعول ، كالحَل مقابل العقد ، وهو ضدّ الحرام ، وهما قسمان من أقسام الأحكام الخمسة التكليفيّة ، وفي الحديث عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله : «مَن أكل من حلال القوت صفا قلبه ورقّ ودمعت عيناه ، ولم يكن لدعوته حجاب» .

وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، وهي كلمة عبرانية مركّبة ، ومعناها المحارب أو المجاهد في الله أو جندي الله ، وقد ذكر المؤرّخون من اليهود في وجه تسمية يعقوب بهذا الاسم أنّه صارع الله أو الملاك عند فنوئيل ـ وهو اسم موضع ـ وهذا ممّا يكذّبه القرآن الكريم والعقل السليم . واُطلق على الأسباط الاثني عشر عموماً ، ويعرّفون ببني إسرائيل ، وبعد ذلك صار اسماً للمملكة الشمالية التي لم تكن لقبائل يهوذا وبنيامين ، ولاوى ، ودان ، وشمعون شركة فيها . وبعد سبي بابل اتّخذ الراجعون من السبي إسرائيل اسماً لاُمّتهم ، مع أنّ أكثرهم كانوا من مملكة يهوذا . وفي القرآن الكريم يطلق على مَن دان بدين موسى بن عمران .

والمعنى: كلّ الطعام بجميع أُصولها كانت حلالاً لبني إسرائيل، إلّا ما استثناه عزّ وجلّ من تحريم يعقوب على نفسه بعض المطعومات. وهذا الحكم إرفاقي امتناني بالنسبة إليهم، كجملة كثيرة من الأحكام الامتنانية، التي شرّعها الله جلّ جلاله عليهم ابتداءً، ولكنّهم ظلموا فحرّم عزّ وجلّ عليهم بعض الطعام، تأديباً لهم وعقوبة لما فعلوه من الجرائم، كما حكي عزّ وجلّ في موضع آخر فقال: **﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيراً﴾**[1].

ويستفاد من قوله تعالى: «على نفسه» أنّ التحريم لم يكن عامّاً يشمل جميع بني إسرائيل، بل كان مختصّاً به لأجل مصالح خاصّة كانت تتعلّق به.

وقد اختلف المفسِّرون في النوع الذي حرّمه، فنسب الى ابن عبّاس أنّه الشحم الباطن والكليتان وزائدتا الكبد. وعن آخر أنّه لحم الأنعام، وعن ثالث أنّه حرّم لحوم الإبل وألبانها، ونقل الحاكم عن ابن عبّاس أنّه عليه السلام كان به عرق النسا، فنذر إن شفي لم يأكل أحبّ الطعام إليه، وكان تلك أحبّ الطعام إليه».

ولكن نقل شيخنا البلاغي أنّه: «لم تذكر التوراة أنّ إسرائيل حرّم على نفسه شيئاً، بل إنّما تذكر أنّ إسرائيل ضربَ على حُق فخذه على عرق النسا، لذلك لا يأكل بنوا إسرائيل عرق النسا إلى هذا اليوم، فتوراتهم تقول إنّ ذلك تشريع منهم لا من إسرائيل، كما في الفصل الثاني والثلاثين من سفر التكوين».

والآية الشريفة مجملة من هذه الجهة، فلم تعيّن شيئاً، ولعل الغرض من ذلك إثبات أنّ التحريم كان لبعض أنواع المطعومات لشخص معيّن، لا لجميع الشعب، وأنّ الله تعالى قد أحلَّ لهم جميعها، فما تقولّه اليهود في هذا المجال افتراء على الله تعالى.

---

١. سورة النساء: الآية ١٦٠.

وقال بعض المفسّرين: إنّ المراد من إسرائيل الشعب كلّه، كما هو شائع في الاستعمال عندهم، لا يعقوب فحسب.

ويرد عليه: أنـّه استعمال غير معهود في القرآن الكريم، بل عند العرب في عصر النزول، وقد ورد لفظ بني إسرائيل في ما يقرب من أربعين مورداً. مع أنّ ذكر بني إسرائيل أوّلاً شاهد على أنّ المراد من إسرائيل هو يعقوب عليه السلام، ولا يتصوّر وجه لحذف المضاف من الكلمة الثانية في موضع الإبهام والالتباس، يُضاف إلى ذلك رجوع الضمير المفرد في ﴿**على نفسه**﴾ إليه، فلو كان بني إسرائيل لكان الضمير ضمير الجمع.

قوله تعالى: ﴿**مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ**﴾.

الظاهر أنـّه متعلّق بـ«حرم».

والمعنى: أنّ الله تعالى لم يحرِّم من الطعام شيئاً على بني إسرائيل قبل نزول التوراة إلّا ما حرّم إسرائيل علىٰ نفسه.

وذكر بعض المفسِّرين أنـّه متعلِّق بـ﴿**كَانَ حِلًّا**﴾. وأورد عليه بأنـّه يلزم الفصل باجنبى وهو جملة ﴿**إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ**﴾ المشعرة بتمام ما قبلها، فليزم التعقيد والإبهام.

وأُجيب عنه: بأنـّه لا يضرّ الفصل بالاستثناء، إذ هو فصل جائز؛ لأنّه من متمّمات الكلام.

وكيف كان، فالمعنى على كلا التقديرين واضح، وهو إثبات الحلّية العامّة والحرمة الخاصّة قبل نزول التوراة.

والاحتمالات في الآية الكريمة ثلاثة:

الأوّل: أن تكون الآية الشريفة مقولة قول اليهود، ومن مزاعمهم الفاسدة،

ويؤيّده ذيل الآية المباركة: **﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾**، الذي هو في مقام الردّ عليهم بالرجوع إلى توراتهم.

فيصير معنى الآية: أنّ بعض أهل الكتاب قالوا إنّ جميع المطعومات كانت حلالاً لبني إسرائيل، قبل أن تحرّم التوراة بعضاً منها، واستثنوا من ذلك ما حرّمه إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة، فنزلت هي بتحريمه.

وجميع ذلك كذب منهم وافتراء، فإنّ التوراة حرّمت الرجس عليهم، كما في العدد الثالث من الفصل الرابع من سفر التثنية، ونصّت في الفصل الحادي عشر من سفر اللّاويين على حرمة الحيوانات البرية والمائية والطيور، فكيف يكون الرجس حلالاً عليهم قبل نزول التوراة، كما أنّ التوراة لم تذكر أنّ إسرائيل حرّم على نفسه شيئاً ـ كما عرفت آنفاً ـ فما ذكروه افتراء وكذب.

الثاني: أن تكون الآية جملة خبرية في مقام الإنشاء، وهذا كثير شائع في المحاورة، واعتمد عليه في علم الأُصول، نظير قوله تعالى: **﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْداً فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ﴾**[1] وغير ذلك.

وحينئذٍ فالآية في مقام الاستفهام الإنكاري، حذفت منه أداة الاستفهام لدلالة المقام عليه، فيكون قوله تعالى: **﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** تفسيراً وإثباتاً لمضمونها.

الثالث: أن يكون قوله تعالى: **﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلّاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾**، حكاية عن قول اليهود الذي أوردته لإلقاء الشبهة على المؤمنين، ونفي كون الإسلام دين الفطرة وعلى ملّة إبراهيم، وهي أنّ الرسول لو كان صادقاً لما أخبر بالنسخ، وأنّ الله حرّم الطيّبات لظلمهم بعدما كانت حلالاً لبني إسرائيل، ويكون قوله تعالى: **﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** واردة

---

١ . سورة البقرة: الآية ٨٠.

في دفع الشبهة لإظهار كذبهم وإبطال شبههم، فأمرهم الرسول ﷺ بتعليم من الله عزّ وجلّ بالرجوع إلى التوراة، فإنّها الفصل في الدعوى وردّ لمزاعمهم، وهي دالّة على حلّية كلّ الطعام، فإنّ أبيتم الإتيان بالتوراة وتلاوتها فاعلموا أنّكم المفترون على الله كذباً وأنّكم الظالمون، وأنّ الرسول هو الصادق في دعوته، وأنّ ملّته على ملّة إبراهيم.

وقد ذكر بعض المفسّرين في المقام وجوهاً لم يقم دليل على صحّتها، بل بعضها خلاف ظاهر الآية الشريفة، فراجع.

قوله تعالى: ﴿**قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾.

خطاب إلى الرسول الكريم بالمحاجّة معهم لإظهار حقيقة مدّعاهم، وأمرهم بإتيان التوراة وتلاوتها في الموارد التي حاجّوا المؤمنين وافتروا على الله الكذب فيها، ليتبيّن أي الفريقين على الحقّ وأي منها كاذب في دعواه.

وفي الآية الشريفة دلالة على صحّة دعوة نبوّة نبيّنا الأعظم ﷺ، فإنّه أخبر عن أنّ التوراة تدلّ على كذبهم وهو لم يقرأها، وهذا لا يكون إلّا عن وحي من الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿**فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللهِ الكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ**﴾.

الخطاب توبيخي للفريق الكاذب بعد المحاجّة معهم، وقد ذمّهم عزّ وجلّ بافترائهم على الله بعد قيام الحجّة، والأمر بالكفّ عن الافتراء على الله، وإلّا كانوا ظالمين لأنفسهم يستحقّون العقاب.

والافتراء: هو الكذب المخترع. وأصله القطع، وكأنّ المفتري يقطع صلة كلامه بالواقع والحقيقة فيكون كذباً.

قوله تعالى : ﴿قُلْ صَدَقَ اللهُ﴾ .

أي : أعلمهم بأنّ الله تعالى صادق في جميع ما أخبر به ، وأنّي لم استطع أن أُنبئكم بذلك لولا وحي الله تعالى إليّ ، فإذا عرفتم صدقي في الدعوة وأنّي على حقّ فلابدّ من متابعة ديني والاعتراف بأنّي على ملّة إبراهيم ، وفي الآية الشريفة تثبت لدعواه ونبوّته .

قوله تعالى : ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنْ الْمُشْرِكِينَ﴾ .

تفريع على معرفة الحقّ وثبوت صدق الرسول ﷺ ، وإنّما أمرهم بمتابعة ملّة إبراهيم لأنّهم كانوا معترفين بملّته عليه السلام ، ولبيان أنّ شريعته على ملّة إبراهيم التي هي على دين الفطرة ، والمبتنية على الإخلاص لله تعالى والتسليم لوجهه الكريم ونبذ كلّ أنحاء الشرك ، وللإرشاد إلى أنّ عدم قبول الإسلام يستلزم عدم متابعة ملّة إبراهيم كما تزعمون ، وهذه حجّة أُخرى على بطلان مزاعمهم وإظهار كذبهم . وإنّما وصف إبراهيم بكونه حنيفاً وعدم كونه من المشركين ، لإظهار عظيم منزلته وجلالة قدره ، ولبيان أنّ شريعته كذلك أيضاً ، وفيه التعريض لهم بأنّهم على الشرك .

***

بحوث المقام

بحث أدبي:

الطعام: مصدر منعوت، وكلّ مصدر منعوت يستوي فيه المذكّر والمؤنّث والواحد والجمع، وهو بمنزلة الجنس. و(كلّ) في قوله تعالى: **﴿كُلُّ الطَّعَامِ﴾**، لتأكيد الاستغراق المفهوم من الجنس المعرّف بالألف واللام (الطعام).

وذكر شيخنا الأديب النيسابوري الأوّل ﷺ أنّ بعض الآيات القرآنية تجيء في النظم والأُسلوب وزان الشعر، مع أنّه ليس ذلك مراد المتكلِّم، وهو يدلّ على نهاية الفصاحة والبلاغة، وكان يعدّ جملة كثيرة من الآيات الكريمة منها هذه الآية الشريفة: **﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾**، التي هي من البحر السابع وهو بحر الرمل. ومنها قوله تعالى. **﴿إِنْ يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾**[1] وهو من بحر الرجز.

***

بحث دلالي:

يستفاد من الآية الشريفة أُمور:

الأوّل: كلمة البرّ الواردة في قوله تعالى: **﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ﴾**، موضوعة لذات البرّ وطبيعته بلا اختصاص له بنوع دون آخر، فتشمل البر المادّي والمعنوي بجميع مراتبهما.

كما أنّ لفظ الإنفاق كذلك، فإنّه يشمل إنفاق المادّيات والمعارف الحقّة والكمالات الإنسانية، وذلك لأنّ الألفاظ موضوعة في حدّ ذاتها للمعاني العامّة،

١ . سورة الأنفال: الآية ٣٨.

من غير تقييد في حاق الواقع بنوع دون آخر، ولا لعالم مخصوص دون سائر العوالم، وإنّما التقييد والتخصيص يحصل من ناحية الاستعمال بلا التفات إليهما، وقد جعل بعض الأعاظم ذلك من الأُصول العقلائية النظامية، وأثبتها علماء الأدب والأُصول بأدلّة كثيرة، فالآية المباركة بعمومها تشمل من حيث المعنى جميع ما يمكن أن يفرض من الكمالات الإنسانية الفردية والاجتماعية والنوعية والشخصية، وهذه الآية نظير قوله تعالى: **﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾**[1] في جمعها للكمالات الإنسانية، وإنّما الاختلاف بينهما بالإجمال والتفصيل.

الثاني: لعلّ وجه ارتباط قوله تعالى: **﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾** بآية البرّ من حيث المفهوم ببيان لطيف وأُسلوب رفيع، وهو أن غير الإخلاص والصدق ليس من البرّ حتّى ينفق، اعتقاداً كان أو قولاً أو عملاً، فلابدّ في جميع ذلك من الإخلاص والصدق ليكون برّاً يقبله الله تعالى ويُثيب عليه بالجزاء الأوفىٰ، فما ورد في الآية من الحلّية والحرمة إذا كانتا من افتعال اليهود فلا ربط لها بالبرّ وهما خارجان عن البرّ موضوعاً، وأمّا إذا كانتا من شرائع الله تعالى فهما عين البر، فيشملهما قوله تعالى: **﴿حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾**.

الثالث: يستفاد من قوله تعالى: **﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ـ الآية ـ﴾**. التعريض باليهود في أنّهم يكذبون ولا يصدقون، وأنّهم لا يعلمون

---

١ . سورة البقرة: الآية ١٧٧.

أحكام الله تعالى ويستهزئون بها، مع أنّ الله تعالى في مقام الامتنان عليهم والتسهيل لهم.

الرابع: يدلّ قوله تعالى: **﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** على تحريف التوراة وأنّهم يكذبون في كثير من الأمور التي ينسبونها إليها، وليس المراد بالتوراة في الآية الشريفة هي التوراة المحرّفة التي هي بين أيدي اليهود، بل المراد منها التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام، والتي لم تنلها يد التحريف، فإنّ الله تعالى أمرهم بالرجوع إليها وطرح التوراة المحرّفة، فالآية الشريفة من الآيات الكثيرة التي تدلّ على تحريفها، وتنهاهم عن الكذب والافتراء على الله تعالى وتأمرهم بالروجوع إلى الحقّ، ويشهد لذلك الآية تدل على أنّهم يفترون على الله الكذب، بقرينة قوله تعالى: **﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾**.

الخامس: يدلّ قوله تعالى: **﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾** على أنّهم هم الظالمون الذين عرفوا بتحريف أحكام الله تعالى وتبديل آياته عزّ وجلّ، وأن مقابلهم على الصدق والحقّ. كما تدلّ عليه الآية التالية، فيكون تفريع قوله تعالى: **﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾** من قبيل ترتّب النتيجة على المقدّمات المعلومة.

***

بحث روائي:

في «الكافي» و«تفسير العياشي»، عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: **﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾** قال عليه السلام: «هكذا فاقرأها».

أقول: هذه قراءة أهل البيت، والفرق بينها وبين قراءة المشهور أنّ الأُولى تبيّن مصداق المحبوب عند المنفق، والثانية تبيّن فرداً من كلّ محبوب، فيشمل المصداق أيضاً.

وفي «المجمع» عن ابن عمر، قال: «سئل النبيّ صلى الله عليه وآله عن هذه الآية: **﴿لَنْ**

تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ هو أن ينفق العبد المال وهو شحيح ، يأمل الدُّنيا ويرجو الغنى ويخاف الفقر» .

أقول : وردت روايات كثيرة عن اهل البيت عليهم السلام في ذلك ، وإنّما عدّد صلى الله عليه وآله هذه الجهات لأنّ كلّ واحدة منها من الأُمور التي تورث محبّة الشيء ، فإذا اجتمعت وأنفق المال معها كان جزاؤه أعظم ونيله للبرّ أكثر .

وفي «تفسير القمّي» في قوله تعالى : **﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾** قال : «إنّ يعقوب كان يصيبه عرق النسا فحرّم على نفسه لحم الجمل ، فقال اليهود : إنّ لحم الجمل محرّم في التوراة ، فقال عزّ وجلّ لهم : **﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾** إنّما حرّم هذا إسرائيل على نفسه ولم يحرّمه على الناس ، وهذا حكاية عن اليهود ولفظه لفظ الخبر» .

أقول : ذكرنا سابقاً المحتملات في الآية الشريفة وهذا من أحدها .

وفي «الكافي» و«تفسير العياشي» عن الصادق عليه السلام : «إنّ إسرائيل كان إذا أكل لحم الابل هيج عليه وجع الخاصرة ، فحرّم على نفسه لحم الإبل ، وذلك قبل أن تنزل التوراة ، فلمّا نزلت التوراة لم يحرّمه ولم يأكله» .

أقول : لا منافاة بين وجع الخاصرة الذي ورد في هذا الحديث وعرق النسا الذي ورد في الحديث السابق ، لإمكان اجتماعهما ، ويظهر منه أنّ التحريم لم يكن تحريماً شرعياً ، بل كان تنزيهيّاً لأجل ذلك العارض .

و معنى قوله عليه السلام : «لم يحرّمه ولم يأكله» ، أي لم يحرّمه إسرائيل بعنوان التشريع السماوي ، ولكنّه لم يأكله خيفةً من عروض ذلك العارض عليه . ويحتمل أن يرجع الضمير فيهما إلى موسى عليه السلام المدلول عليه بقوله تعالى : **﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ﴾** .

وفي «أسباب النزول» للواحدي في قوله تعالى : **﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾**، قال أبو رَوق والكلبي :

«نزلت حين قال النبيّ ﷺ: «أنا على ملّة إبراهيم، فقالت اليهود: كيف وأنت تأكل لحوم الإبل وألبانها ؟! فقال النبيّ ﷺ: كان ذلك حلالاً لإبراهيم فنحن نحلّه، فقالت اليهود: كلّ شيء أصبحنا اليوم نحرِّمه فإنّه كان محرّماً على نوح وإبراهيم حتّى انتهى إلينا، فأنزل الله عزّ وجلّ تكذيباً لهم: ﴿**كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ**﴾».

أقول: على فرض اعتبار الرواية، فإنّ ما ورد فيها يكون من جملة الاحتمالات التي ذكرناها سابقاً، وتقدّم أنّ مقالة اليهود كذب وافتراء.

***

بحث عرفاني:

من أفضل البرّ وأهمّه هو الانقياد لأوامر الله تعالى وإطاعته في كلّ ما شاء وأراد، والتفاني في مرضاته عزّ وجلّ الذي هو آخر حدّ الإمكان وأوّل حدّ الوجوب، كما أنّ أعلى المحبوبات عند الناس هو حبّ الجاه والشرف والعزّة، ولابدّ من إنفاق هذا المحبوب في ساحته جلّ جلاله لينال العبد الغاية القصوى من البرّ بالمعنى المطلق، وعليه سيرة أولياء الله المخلصين، ونسب إلى سيِّدهم علي عليه السلام: «إلهي كفىٰ بي عزّاً أن أكون لك عبداً، وكفى بي فخراً أن تكون لي ربّاً، أنت كما أُحبّ فاجعلني كما تحبّ».

حيث لم يجعل لنفسه عزّاً ولم ينسب إليها فخراً مقابل جلال الله تعالى وعظمته، وما ورد في هذا المعنى من أولياء الله أكثر من أن يحصى.

***

الآية ٩٦ ـ ٩٧

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ ۝ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَللهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ۝﴾.

بعدما ذكر سبحانه أنّ البرّ لا ينال إلّا بالإنفاق في سبيل الله عزّ وجلّ، وأنّ البرّ يشمل جميع ما ينفقه في سبيله تبارك وتعالى عملاً كان أو مالاً أو جاهاً أو المعارف الحقّة الإلهية، وبيّن سبحانه بعض مفتريات اليهود وادّعاءهم الكذب على الله عزّ وجلّ في نسبة الأحكام إليه تعالى. وكان الواجب عليهم نيل البر بإتيان الوظائف التي قرّرها الله تعالى في التوراة التي أنزلها على موسى عليه السلام، واتّباع ملّة إبراهيم عليه السلام حنيفاً.

وفي هذه الآيات الشريفة يقرّر تعالى مظهراً آخر من مظاهر البرّ، وهو تعظيم بيت الله الحرام الذي هو أوّل بيت تحقّق فيه الهدى ودين الحقّ، وتضمّن شعار الوحدة لجميع الأديان السماوية في عبادة الواحد الأحد، والذي فيه آيات بيّنات تدلّ على منزلته العظيمة في الملّة الحنيفيّة التي أمرنا باتّباعها. وأنّ اليهود وغيرهم من أهل الكتاب إن كانوا حريصين حقّاً على ديانة أوائلهم ومناسكهم وآثارهم، فلابدّ لهم من تعظيم هذا البيت المبارك الذي فيه للناس هدىً وللخائف أمن، وأنّ محمّداً يدعوهم إلى البيت الذي دعى إبراهيم اليه.

وقد أمر الله تعالى الناس بالحجّ إليه إذا توفّرت فيه الشروط المعتبرة، وأنّ مَن أعرض عن ذلك كان من الكافرين لنعمة عظيمة وأنكر حكماً إلهيّاً.

وفي الآية الشريفة التعريض بأهل الكتاب، ولا سيما اليهود الذين طعنوا في نبوّة نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله عندما أمر المسلمين بالتوجّه إلى الكعبة، واعترضوا على هذا الحكم بأنّ بيت المقدس أعلى شأناً وأعظم منزلة من الكعبة، وأنّه قبلة الأنبياء ومنهم إبراهيم عليه السلام الذي يدّعي الرسول أنّه على ملّته، فإنّ استقبال الكعبة إعراض عن ملّته ونسخ لها، وهو محال عند اليهود، فردّ عزّ وجلّ عليهم وأنكر هذه الشبهة بإثبات المنزلة العظيمة والشأن الكبير لبيت الله الحرام والسبق الزماني له على بيت المقدس، وجعل الآية على ذلك أنّه مبارك وأنّ فيه مقام إبراهيم عليه السلام، بخلاف بيت المقدس الذي لم يحدث إلّا بعد إبراهيم عليه السلام.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾.

الاوّل من الأول وسمّي أوّلاً لرجوع غيره إليه، وهو كثير الاستعمال في الكتاب والسنّة. والأوّلية من الأمور الإضافية تستعمل بالنسبة إلى الزمان والمكان والشرف والرتبة والوضع وغير ذلك، وقد اجتمعت جميعها في البيت الحرام، فإنّه أوّل مكان خلقه الله تعالى، ثمّ مدّ منه بقيّة الأرض كما دلّ عليه النقل الصحيح، وأوّل من حيث الزمان، إذ لا بيت عبادة قبله، وأوّل من حيث الشرف والعبادة، لأنّه كان معبداً للملائكة.

والبيت معروف، وتقدّم اشتقاق الكلمة في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[1]، وقد أضاف عزّ وجلّ

١. سورة البقرة: الآية ١٢٥.

البيت :

تارةً : إلى نفسه ، فقال : ﴿**وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ**﴾[١].

وقال تعالى حكاية عن إبراهيم : ﴿**رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ**﴾[٢].

وأُخرى : للناس كما في المقام .

وثالثة : أطلقه قال : ﴿**فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ**﴾[٣].

وقال تعالى : ﴿**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ**﴾[٤]، والمراد به الكعبة المقدّسة ، لقوله تعالى : ﴿**جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ**﴾[٥]، وبقرينة قوله تعالى بعد ذلك : ﴿**لَلَّذِي بِبَكَّةَ**﴾، وهي الموضع الذي يزدحم الناس فيه ، وهو الكعبة التي يزدحم الناس عندها لأداء العبادة من الصلاة والطواف .

والوضع : هو الجعل والإثبات وهو عام أيضاً يشمل جميع أنواع الجعل والإثبات .

و﴿**لِلنَّاسِ**﴾ متعلّق بـ«وضع» ، واللام فيه للغاية .

والمعنى : أنّ أوّل بيت جعله الله تعالى مشعراً لعبادة الواحد الأحد، وشعاراً لدين الحقّ ، وقبلةً للناس ، وقد وصفه الله تعالى بأوصاف متعدِّدة تدلّ على سموّ منزلته وعظمته ورفعته .

---

١ . سورة البقرة : الآية ١٢٥.

٢ . سورة إبراهيم : الآية ٣٧.

٣ . سورة قريش : الآية ٣.

٤ . سورة البقرة : الآية ١٢٧.

٥ . سورة المائدة : الآية ٩٧.

قوله تعالىٰ: ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾.

مادّة (بكك) تدلّ على التزاحم ودق العنق، ومنها: «تبارك القوم إذا ازدحموا»، ولم ترد هذه الكلمة في القرآن الكريم إلّا في هذا الموضع. وهي أرض البيت التي يزدحم الناس فيها لأداء الطواف والصلاة ونحوهما، وتذلّ فيها الجبابرة بالخضوع لربّ العالمين.

وقد اختلف المفسِّرون في المراد منها:

فقيل: إنّها اسم للمسجد.

وقيل: إنّها المطاف.

وقيل: إنّها مكّة، أُبدلت الباء ميماً لتقرّبهما.

وقيل: إنّها الحرم.

ويمكن تصحيح الجميع بالإضافة التشريفيّة، لأنّ موضع البيت بكّة معلوم من الآية الشريفة بلاريب، وتشمل مكّة والحرم والمطاف تشريفاً.

قوله تعالىٰ: ﴿مُبَارَكاً﴾.

حال من الضمير. مادّة (برك) تدلّ على الثبوت والاستقرار، وفي حديث الصلاة على النبيّ ﷺ: «وبارك على محمّدٍ وآل محمّد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم»، أي اثبت له وأدم ما أعطيته من التشريف والكرامة، وهو من برك البعير إذا ناخ في موضع فلزمه. وبرك الرجل إذا ثبت على حاله، والبركة هي ثبوت الخير واستقراره وزيادته. ومنه أيضاً «تبارك الله»، أي ثبت فلم يزل ولا يزال، كما يقال: «بركاء الحرب» أي ثبوتها ودوامها. والبرك هو الصدر، لثبوت المحفوظات فيه، وفي حديث عليّ عليه السلام: «ألقت السحاب برك بوانيها» أي صدر البنية.

والمباركة: المفاعلة، من البركة بالتحريك، وهي الخير الثابت بالنمو والزيادة، وهي عامّة تشمل البركات الدنيوية والأُخروية، وقد ذكر سبحانه وتعالى كلا القسمين في آيات أُخرى، قال تعالىٰ: **﴿يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾**[1]، مع أنّه بني في واد غير ذي زرع، لا ثروة فيه ولا تجارة ولا صناعة ولا زراعة، ومع ذلك عاشت فيه أقوام في سعة من العيش وتمتّع من النِّعم، وتوفّرت فيهم الهمم العالية إلى عمرانه، واجتمعت الدواعي إلى احترامه وتوقيره وإكرامه، مع ما هم عليه من الاقتتال وسوء الحال.

ومن جهة أُخرى جعله الله تعالى: **﴿وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾** يقصده المتعبّدون لأداء وظيفة العبودية، ويتوجّه إليه المسلمون في كلّ وقت.

وبالجملة: فإنّ بركة هذا البيت أظهر من أن تخفى، ويعتبر من معجزاته أنّه مسكن إبراهيم الخليل ومأوى الأنبياء والمرسلين في أخصّ عباداتهم، ومهوى قلوب المؤمنين. وقد ذكر سبحانه إجمال تلك البركات في قوله حكاية عن إبراهيم عليه السلام: **﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾**[2].

قوله تعالى: **﴿وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾**.

عطف على مباركاً، وهذه فضيلة أُخرى تدلّ على عظمة البيت ورفعته، وله من المقامات المعنوية التي لم تكن لغيره من بيوت الله تعالى، وإنّما خصّه الله تعالى بالذِّكر لأهمّيته، مع أنّه يمكن شمول البركات المعنوية لها.

---

١. سورة القصص: الآية ٥٧.

٢. سورة إبراهيم: الآية ٣٧.

و(هدىً) بمعنى هادٍ، وإنّما أطلق عليه هدىً لمزيد هداه، وجهات الهداية فيه كثيرة، فمن جهة التوصّل بالقرب إلى ساحة الرحمن والزلفى لديه، لكونه مقصداً للناسكين وموئلاً للعابدين والطائفين والراكعين، لأنّه جامع الناس تحت كلمة التوحيد، ويحفظهم من التفرقة والاختلاف، لأنّه بيت ربّ العالمين، وهو يشعر إلى ربّ البيت، فهو يقتضي الوحدة من جميع الجهات، ففي العبادة تجتمع وحدة المعبود والعبادة والعبودية وجهة العبادة، فتكون جميع الأفراد فيه كنفس واحدة في عبادتهم وعبوديّتهم وجهة عبادتهم، فإذا اجتمعت مع ذلك وحدة القلوب كانت الآثار عظيمة والفوائد كثيرة.

يضاف إلى ذلك أنّ مكّة مولد رسول الإنسانية ومهبط الوحي المبين ومشرق القرآن الكريم ومبدأ الدعوة إلى دين الحقّ، فهو هدىً بجميع مراتب الهداية الدنيوية والأُخروية لجميع العالمين لا لطائفة خاصّة وعالم خاصّ، وكلّ واحد منهم يستفيض منه بحسب استعداداته الخاصّة على نحو الاقتضاء لا العلّية، كما في سائر موارد الهداية. قال تعالى في شأن القرآن الكريم: **﴿هُدىً لِلْمُتَّقِينَ﴾**[1]، وقال تعالى في شأن الرسول العظيم: **﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً﴾**[2]، فالهداية عناية خاصّة هي أخصّ من البركة، فإنّ المشاعر العظام بذاتها هدىً للناس، إذ لا معنى للمشعرية لله تعالى إلّا الهداية المحضة.

قوله تعالى: **﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾**.

(بيّنات) جمع بيّنة وهي الواضحة، أي الدلائل الواضحات، وترتّب الآيات

---

١. سورة البقرة: الآية ٢.

٢. سورة الإسراء: الآية ٩٤.

البيّنات على كونه مباركاً وهدىً للعالمين من قبيل ترتّب الدال على المدلول، فإنّهما لا يعرفان إلّا بجعل العلامات الواضحات الكاشفات عنهما، ونظير هذا ورد في شأن القرآن الكريم أيضاً، قال تعالى: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ**﴾[1].

قوله تعالى: ﴿**مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ**﴾.

بعد أن ذكر سبحانه وتعالى فضائل البيت الشريف من كونه أوّل بيت وضع للناس، وكونه مباركاً، وكونه هدىً للناس، يبيّن سبحانه آياته، وهي: مقام إبراهيم، وأمن داخله، والحجّ إليه، فتكون هذه الثلاثة بياناً للآيات البيّنات وشرحاً لها.

والآيات وإن وصفت بالبيّنات، إلّا أنّ الوصف لا يرفع إبهامها من كلّ جهة، ولذلك وصفها بما يرفع الإبهام في المقام، وقد ذكر سبحانه وتعالى ثلاث آيات من بين الآيات الكثيرة التي تميّز بها البيت كالحجر الأسود، والحطيم، والمستجار وغيرها.

وإنّما خصّ هذه الثلاثة لحِكَم خاصّة، وهي تدلّ على منزلة البيت السامية في الشرف وكرامته عند الله عزّ وجلّ، وما ذكرناه أولى من القول بأنّ مقام إبراهيم وبقيّة الثلاثة بدل تفصيلي من الآيات البيّنات، أو القول بأنّه عطف بيان من الآيات، فإنّ جميع ذلك لا تخلو عن الإشكال ومخالفة للقواعد المرعية في العلوم الأدبية، ويأتي في البحث الأدبي ما يرتبط بالمقام.

ومقام إبراهيم هي الصخرة الصمّاء التي كان يضعها إبراهيم عليه السلام تحت قدميه حين بنائه للبيت الشريف، وقد أثّرت فيها قدماه الشريفتان وبقي أثرهما وسيبقى

---

١. سورة البقرة: الآية ١٨٥.

ما بقي البيت الشريف.

وقد كان لهذا المقام أثر جلي يدلّ على عظمة البيت، وعهداً أبدياً على خلوص باني البيت الشريف ووسيلة لتعظيمه وتوقيره جزاء خدمته للناس، ولذا أمرنا سبحانه وتعالى باتّخاذه مصلّىً، حيث قال عزّ وجلّ: ﴿**وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى**﴾[1] عرفاناً لجميله علينا.

وإنّما خصّ سبحانه وتعالى هذه الآية بالذكر لأنّ إبراهيمعليه السلام موضع احترام جميع الأديان الإلهية وتقدير جميع الأُمم، وهو أوّل مشرّع إلهي ومقنّن الدستور الإنساني، وأنّ الأديان بعده، إنّما هي على ملّته ودينه وهو أبو الأنبياء العظام وهو الباني للبيت الشريف، وأنّ مقامه محفوظ على مرّ الزمان، فليس في البين آية أبين وأجلى من هذه الآية الدالّة على عظمة هذا البيت الذي وضع للعبادة عند الملل الثلاثة وتحريض لهم، فلابدّ لأتباع سائر الأديان الإلهية من توقير البيت وتعظيمه والاهتمام بندائه حين أمر الناس بالحجّ إليه والتوجّه إليه، وإلّا كانوا خارجين عن دينه معرضين عن شريعته وملّته، فهذه الآية الشريفة حجّة على المعاندين للإسلام والمخالفين للتوجّه إلى البيت الشريف، وليس لهم أي عذر في الإعراض عن أوامره، ولعلّ السرّ في بقاء أثر قدميه الشريفتين في الصخرة الصمّاء هو الاقتداء به، وأن يخطو الناس خطاه والعمل بإخلاص ليبقى أثره عند الله تعالى وفي هذا العالم.

والآية الشريفة لا غموض فيها في أنّ المراد منها هي تلك الصخرة المعروفة عن القديم، وقد ورد ذكرها في الأشعار القديمة كقول أبي طالبعليه السلام في لاميّته:

وموطأ إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافياً غير ناعل

ولم يشكّ أحد في ذلك إلّا ما ذكره بعض المفسّرين من أنّ المراد من المقام،

---

١ . سورة إبراهيم: الآية ١٢٥.

المكان الذي اتّخذه إبراهيمعليه السلام للعبادة، وأمّا الأثر فقد كانت العرب تعتقد أنّه موضع قدمي إبراهيم، وقد تقدّم في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾[1] ما يتعلّق بالمقام.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً﴾.

الضمير المنصوب راجع إلى البلد أو الحرم على سبيل الاستخدام، بقرينة قوله تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَماً آمِناً﴾[3]، والجملة عطف على سابقتها كما عرفت.

وأمن مَن يدخله آية أُخرى دالّة على شرف البيت، وكان معروفاً في الجاهلية وقبل البعثة، فقد كانت الأقوام حول البيت الشريف على ما هم عليه من الفوضى والوحشية والتهوّر في الاقتتال والعدوان والعصبية وغلظة في الأخلاق، لا يمنعهم عن ذلك رادع من شريعة أو عقل، ومع ذلك كلّه فقد كانوا يحترمون البيت ويعظّمونه ويخضعون لأمرٍ اتّفقوا عليه، وهو أمْن مَن دخل الحرم، ويشير إلى ما ذكرنا في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾[4]، فالحكمة من إيراد هذه الآية الشريفة في المقام هي تحريض المشركين إلى الدخول في الإسلام والإيمان بخاتم النبيّين والعمل بشريعته.

كما أنّ الآية الأُولى كانت لأجل تحريض اليهود والنصارى إلى الدخول في الإسلام ونبذ العناد واللجاج.

---

١ . سورة البقرة: الآية ١٢٥.

٢ . سورة إبراهيم: الآية ٣٥.

٣ . سورة القصص: الآية ٥٧.

٤ . سورة العنكبوت: الآية ٩٧.

وهذه الآية وهي: أمن مَن دخل الحرم لم تكن من قسر الطبيعة، وإنّما كان بجعل إلهي، فإنّ العناية الإلهية شملت هذا البيت استجابة لدعاء إبراهيم الخليل باني البيت في قوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً﴾[1]، وقوله في موضع آخر: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً﴾[2]، فكان ذلك تشريعاً إلهيّاً، وألهم الناس باحترام البلد الحرام إكراماً للبيت الشريف، وساقهم إلى قبول هذا التشريع.

ومن ذلك يعلم أنّه لا وجه للنزاع في أنّ هذا التشريع إلهي أو إخبار عن خاصّة تكوينيّة، أو هل هو تشريع عام أو خاص، فإنّ كلّ ذلك تطويل بلا طائل تحته، بل هو تشريع إلهي لم ينسخ يكشف عن حكمة وضعيّة، وليس إخباراً عن خاصّة تكوينيّة.

كما أنّ الحكم يختصّ بالإنسان، وتدلّ عليه كلمة (من) الموصولة الظاهرة في العقلاء لسياق الآية الشريفة، وبقرينة الآيتين الأُخرتين، وهما مقام إبراهيم الحجّ إليه، فإنّهما يختصّان بالإنسان. ويمكن جعل هذا النزاع لفظيّاً؛ لأنّ العظمة تكوينيّة وتشريعيّة، إنشائية وإخبارية، فلا موضوع للنزاع، ولكن شموله لمطلق الحيوان لا يستبعده العقل، فإنّ عناياته تعالى كثيرة وعامّة وقد نقل في أمن الحيوانات في الحرم حكايات كثيرة، وقد ورد في السنّة الشريفة عدم جواز الاعتداء على الحيوان وعدم جواز قطع نباتات الحرم.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾.

جملة ابتدائية معطوفة على ما تقدّم، ولا يضرّ الاختلاف في الخبرية والإنشائية، واللام في (لله) للإلزام والإيجاب، و(على) لتأكيد الوجوب كما هو

---

١ . سورة إبراهيم: الآية ٣٥.

٢ . سورة البقرة: الآية ١٢٦.

معروف في مثل هذه الهيئة ، يقال : له عليَّ كذا . وقد أكّد سبحانه وتعالى الوجوب في الحجّ بما لم يؤكّده في غيره من الواجبات .

ومادّة (حجج) تدلّ على القصد ، ولكن استعمل في الحجّ إلى بيت الله الحرام لأداء النسك ، والاسم (الحجّ) بالكسر ، والحجّة مرّة واحدة . والألف واللام في البيت للعهد ، أي بيت الله الحرام لأداء نسك الحجّ المعروفة .

قوله تعالى : ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ .

بدل من الناس ، وسبيلاً تمييز عن قوله استطاع ، واستطاع فعل من الاستطاعة ، وهي استدعاء طواعية الفعل وتأتيه ، أي أوجب الله على المستطيع من الناس حجّ البيت ، ومن تقييد الأمر بالاستطاعة يعرف أنّها غير الاستطاعة العقلية التي هي شرط في كلّ تكليف .

ويستفاد منه ومن إطلاق الآية الشريفة وعدم تقييدها بشيء ، أنّ المراد بها الاستطاعة العرفية ، وهي تختلف باختلاف الأشخاص .

وقد اختلف العلماء في الاستطاعة المحصلة للوجوب .

فقيل : إنّها الاستطاعة البدنية ، أي القدرة على المشي والكسب ولو كان في الطريق .

وقيل : إنّها الاستطاعة المالية .

والحقّ أنّها تشمل جميع أقسام القدرة في المال والبدن وتخلية السرب ، وقد وردت روايات متعدّدة عن الأئمّة الهُداة عليهم السلام في تفسير الاستطاعة بجميع ذلك ، ويأتي في البحث الروائي نقل بعضها .

ثمّ إنّ الآيات الكريمة الواردة في البيت على طوائف :

الأولى : قوله تعالى : **﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً**

وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾[١].

الثانية: قوله تعالى: **﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾**[٢].

الثالثة: قوله تعالى: **﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾**[٣].

الرابعة: قوله تعالى في المقام: **﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾**، ومقتضى المتفاهم العرفي أنّ كلّ آية راجعة إلى جانب من جوانب البيت الشريف.

فالآية الأُولى: راجعة إلى تعيين مكان البيت وهندسة البناء، والحكمة في جعل المبني مرجعاً للطائفين والعاكفين.

والآية الثانية: راجعة إلى مقام الباني وفعليّة البناء وشأنه والحكم المترتّبة عليه، ويدلّ عليه قوله تعالى: **﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾**[٤].

والآية الثالثة: راجعة إلى الدعوة إلى حجّ البيت المعيّن.

والآية الرابعة: بيان لإنشاء الدعوة إلى البيت وفتح باب ضيافة الله تعالى.

هذا بحسب الواقع والترتيب في الجعل.

وأمّا بحسب النزول الزماني فيصحّ التقديم والتأخير رعاية للنظم الطبيعي، وربما يكون الوحي إلى إبراهيم الخليل عليه السلام في زمان واحد وإن كان النظم

---

١. سورة الحجّ: الآية ٢٦.

٢. سورة البقرة: الآية ١٢٥.

٣. سورة الحجّ: الآية ٢٧.

٤. سورة البقرة: الآية ١٢٧.

بينهما طبيعيّاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ جملة خبرية مستعملة في الإنشاء، وهي أبلغ في الوجوب كما أثبتناه في علم الأُصول. ويمكن أن تكون الجملة إخباراً محضاً عن قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾[1].

وكيف كان، فالنتيجة واحدة علي أيّ تقدير، لأنّ الأذان من الله تعالى وإن صدر عن خليله عليه السلام، فيكون المشرّع واحداً إلّا أنّ مبدأ التشريع من زمان إبراهيم، بل في بعض الأخبار من حين آدم عليه السلام، والمظاهر مختلفة وأتمّها تشريع خاتم الأنبياء، فإنّ الحجّ بلغ فيه غاية الكمال كما في سائر تشريعاته المقدّسة.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

تأكيد لوجوب الحجّ وتوبيخ لتاركه، أي أنّ تارك الحجّ كافر، ولا يضرّ الله شيئاً، فإنّ الله غنيّ عن العالمين، وكفى مذمّة لتاركه بأن جعل تعالى مقرّه مقرّ الكافرين وهي النار. وإنّما أقام عزّ وجلّ الكفر مقام ترك الحجّ تغليظاً عليه ولبيان شدّة العصيان، وأنّ فعل تارك الحجّ كفعل الكافرين فيكون الكفر كفراً بالفروع. ثمّ أعقبه عزّ وجلّ بأنّه غنيّ عن العالمين، لبيان كمال السخط على تاركه والخذلان له، فيكون من وضع العلّة موضع المعلول.

وإنّما ذكر عزّ وجلّ استغناءه عن العالمين دون تارك الحجّ بالخصوص، للدلالة على الاستغناء الكامل ولبيان عظم السخط، فإنّه تعالى لا تزيد في ملكه طاعة المطيعين ولا تنقصه معصية العاصين.

وذكر بعض المفسّرين أنّ الكفر هنا يرجع إلى جحود كون هذا البيت أوّل بيت وضعه إبراهيم للعبادة، بعد أن قامت الأدلّة على ذلك وعدم الإذعان لما

---

١. سورة الحجّ: الآية ٢٧.

فرضه الله من الحجّ.

ولكن الظاهر ما ذكرناه، وتدلّ عليه جملة من الأخبار الصحيحة، ويأتي في البحث الروائي نقل بعضها، ويمكن إرجاع ما ذكره إلى ما ذكرناه.

***

بحوث المقام

بحث أدبي:

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ**﴾ اسم إن جملة «أوّل بيت وضع للناس»، والخبر «للذي ببكّة»، واللام في «للذي» مزحلقة، وإنّما أخبر عن النكرة بالمعرفة لتخصيص الأُولى، و«مباركاً» حال من الضمير المستتر في الظرف. وقيل: إنّه حال من الضمير في «وضع».

وقوله تعالى: ﴿**فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ**﴾ مرفوع إمّا على الاستئناف جيء به بياناً وتفسيراً للهدى، أو حال أُخرى، ولا بأس بحذف حرف العطف في الجملة الإسميّة الحاليّة.

و«مقام إبراهيم» إمّا مبتدأ محذوف الخبر، أو خبر محذوف المبتدأ، أي منها مقام إبراهيم.

والجملة إمّا بدل البعض من الكلّ أو عطف بيان، وأُشكل على الأخير بأنّه لايجوز التخالف في عطف البيان في التنكير والتعريف، كما أنّ عطف ﴿**وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً**﴾ يستلزم التقدير. يضاف إلى ذلك أنّه إذا عطفت جملة «لله على الناس» على الجملة السابقة يستلزم تأويلها إلى المفرد أو التقدير، وكلّ ذلك ممّا لا يساعد عليه الكلام.

والحقّ هو القول بأنّ جميع ذلك بيان للآيات البيّنات، وبه يرتفع الإبهام والإجمال من الآيات، وإنّما ذكر عزّ وجلّ كلّ واحدة من هذه الثلاث لغرض خاص.

واختلاف الثلاث في الخبرية والإنشائية لا يضرّ بعد كون مجموعها بياناً،

ولانحتاج إلى التقدير والتأويل، كما عرفت. وهذا الأُسلوب من الأساليب الفصيحة ومن بديع الكلام يؤتى به في ما إذا كانت الأغراض متفاوتة من الجمل الواردة في الكلام. وقد ورد مثل ذلك كثيراً في القرآن الكريم، قال تعالى: **﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾**[1]، وهناك وجوه أُخرى في إعراب الجمل الثلاث مذكورة في الكتب المفصّلة.

وجملة: **﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾**، مشتملة على المبتدأ، وهو حجّ البيت، والخبر وهو «لله»، و«على الناس» متعلّق بما تعلّق به الخبر، أو بمحذوف وقع حالاً من المستتر، والعامل فيه الاستقرار.

وقيل: إنّ «على الناس» خبر و«لله» متعلّق بما تعلّق به الأوّل.

و**﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾** بدل من الناس، والضمير محذوف تقديره (منهم).

وقيل: إنّه خبر لمبتدأ محذوف، أي (هم من استطاع).

***

بحث دلالي:

يستفاد من الآيات الشريفة أُمور:

الأوّل: يدلّ قوله تعالى: **﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾** على عظمة البيت وشرفه ومكانته العظمى عند الله تعالى، فقد جعل له الأوّلية في كلّ شيء كما هو ظاهر الإطلاق، فهو أوّل في الشرف لأنّه بيت الله وواضعه هو الله جلّت عظمته، ولا شرف أعلى وأجلّ من ذلك. وهو أوّل الزمان لأنّه أوّل بيت بني لعبادة الواحد

---

١ . سورة ص: الآية ٤١ ـ ٤٤.

الأحد ولم يكن قبله بيت آخر بهذا الشكل والمضمون. وهو أوّل في المكان، فإنّ موضعه أوّل قطعة خلقت من الأرض، كما نطقت به جملة من الأخبار. وهو أوّل في اجتماع جملة كثيرة من الآيات العظيمة فيها، وقد ذكر سبحانه وتعالى بعضاً منها في الآيات التالية ومواضع اُخرى في القرآن الكريم، ووردت جملة اُخرى في السنّة المقدّسة منها الحطيم، والركن اليماني، والحجر الأسود، والمستجار، فإنّ جميع ذلك أبواب رحمة الله تعالى على عباده، فهو بيت مبارك من جميع الجهات.

الثاني: يستفاد من قوله تعالى: ﴿وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ أنّ وضع هذا البيت قد سبق كلّ وضع من قبل الناس، فلا يحقّ لأحد مزاحمته بوجه من الوجوه، ولذا يؤمن الجاني الداخل إلى الحرم دون الجاني في نفس الحرم، فإنّ أمنه قد حدث من وضع الله تعالى إيّاه لجميع الناس سواء. كما أنّ موضعه قد سبق تحديده من الله تعالى فلا يعارضه بناء آخر ولا يزاحمه حقّ ذي حقّ.

الثالث: إنّما عبّر سبحانه وتعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾، لبيان أنّه لا يختصّ بطائفة خاصّة أو قوم معيّنين، فإنّ الناس سواء في شرعه، وقد جعله تعالى موضع رفادته لجميع أفراد الإنسان، يأمن فيه الخائف ويستجير به الملهوف، لا يجوز لأحد منع آخر من الاستفاضة من فيضه، إلّا إذا ورد من قبل الشرع المبين تحديده، كما بالنسبة إلى الكافر والمشرك، فإنّهما ممنوعان من الدخول في الحرم الإلهي.

ومن مفهومه يستفاد أنّ لغير الإنسان بيتاً آخر أيضاً، وقد ورد في أحاديث كثيرة أنّ الله تعالى وضع البيت المعمور للملائكة في السماء بحذاء البيت في الأرض.

الرابع: قد أكّد سبحانه أمر الحجّ في قوله تعالى: **﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾** بوجوه من الدلالة، من

توكيد الوجوب بصيغة الخبر وإبرازه في الجملة الإسمية وإيراده على وجه يفيد أنّه حقّ لله تعالى في رقاب الناس لا يسعهم أن يخالفوه ويتركوه، وفي التعميم أوّلاً ثمّ التخصيص بالإبدال فإنّ فيه التفصيل بعد الإجمال، والإفصاح بعد الإبهام، كما أنّ فيه تنبيه المراد وتكريره وتسمية ترك الحجّ كفراً تغليظاً عليه، ثمّ ذكر الاستغناء على تقدير عدم الفعل، وهو دليل المقت والسخط وتعميم الاستغناء عن العالمين لما فيه من المبالغة في النكال والترغيم وإيراد المطلب ببرهان قويم.

الخامس: إنّما عمّم عزّ وجلّ الحجّ في هذه الآية وقوله تعالى: ﴿**وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ**﴾[1]، لأنّ الدعوة إلى بيت الربّ الكريم الغني المطلق، لابدّ أن تكون عامّة من كلّ جهة، فعن أبي جعفر عليه السلام:

«ما يقف أحد على تلك الجبال من برٍّ ولا فاجر إلّا استجاب له في آخرته ودنياه، وأمّا الفاجر فيُستجاب له في دنياه».

ويفتح من هذا الحديث أبواب من المعارف لعلّنا نتعرّض لبعضها في الآيات المناسبة إن شاء الله تعالى.

السادس: يستفاد من مجموع الآيات الشريفة أُمور تعتبر من مكارم الأخلاق التي لابدّ للإنسان التحلّي بها:

منها: أنّ البناء لابدّ أن يقتصر على الحدّ المطلوب، فلا يبالغ فيه من كلّ جهة، كما يستفاد من ظاهر قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا**﴾[2]، وتدلّ عليه جملة من الاخبار، أنّ ما زاد على الحاجة فهو وبال على صاحبه.

ومنها: حسن الرفادة والاستضافة، وعدم منع صاحب الدار ذوي الحاجات

---

١. سورة الحجّ: الآية ٢٧.

٢. سورة البقرة: الآية ١٢٧.

الشرعية من الدخول في داره، ومراعاة الشرائط المعتبرة، كما يستفاد من الآيتين ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾[٢].

ومنها: المبالغة في زيادة الألفة والإيتلاف بين أفراد العائلة، وزيارة الإخوان في البيوت، كما يستفاد من الآيات الواردة في سورة الحجّ.

ومنها: ايتمار الوارد بأوامر ربّ الدار والانتهاء عن نواهية، كما يأتي في سورة الحجّ ويظهر من بعض الأخبار.

ومنها: أن تكون الدعوة وفتح الضيافة عامّتين من دون اختصاص بقوم دون قوم، كما يستفاد من قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً﴾[٣].

ومنها: أنّ الدعوة لابدّ أن تكون من صاحب البيت أو بإذن منه، كما يأتي في سورة الحجّ، إلى غير ذلك من الأُمور العقلية التي شرحها الكتاب والسنّة.

السابع: يستفاد من الآيات الشريفة أهمّية الحجّ وعظم أمره كما عرفت، وهو كذلك، فإنّه قد يتّحد العامل والعمل فيه كما في حجّ أولياء الله لكثرة تفانيهم في مرضاة الله تعالى وانقيادهم له من كلّ جهة، فيكون بنفسه حجّاً أكبر يطوف حول البيت الشريف، ويكون هو الحشر الأكبر يظهر في الحشر الأصغر، ومثل هذا الحجّ يتباهى به الله جلّت عظمته والملائكة والمشاعر العظام. وكشف السرّ عن هذا المقام لا يمكن أن يكون بالمقال والكلام لما فيه تجلّى الله تعالى.

وقد اهتمّ عزّ وجلّ بحرمه الأقدس بما لم يهتمّ به في سائر تشريعاته المقدّسة، فإنّه ما من قلامة ظفر في هذا المكان المقدّس إلّا وفيها ملك متخاضع لذي الجلال، ومبهوت عن شروق مشارق ذلك الجمال، وما من موضع شبر إلّا

---

١. سورة البقرة: الآية ١٢٦.

٢. سورة الحجّ: الآية ٢٨.

٣. سورة الحجّ: الآية ٢٧.

وهو أثر قدم نبيّ نادى بالتلبية، وما من موضع رجل إلّا وقد دفن وليّ من أولياء الله العظام. ويكفينا أنّ مكّة مقدَم خليل الرحمٰن ومولد حبيب الله، فهنيئاً لمَن توجّه إلى تلك المحال المقدّسة مصدر الخير والبركة ومَعْلَم الهُدىٰ والنور للناس أجميعن.

***

بحث كلامي:

كلّ تكلّف ـ سواء أكان خالقيّاً أم خلقياً ـ لابدّ وأن يتعلّق بالمقدور، وإلّا كان تكليفاً بالمحال وهو قبيح عقلاً ويمتنع بالنسبة إلى الله تعالى، وقد استدلّ الفلاسفة والمتكلّمون على ذلك بأُمور كثيرة، ويكفي في ذلك الآيات الكثيرة الدالّة على ذلك، قال تعالى: **﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾**[1]، وغيرها من الآيات الشريفة المرشدة إلى حكم الفعل.

ونسب إلى بعض الأشاعرة جواز التكليف بالممتنع الذاتي، بل وقوعه.

ولكن ذلك مردود عقلاً ونقلاً، كما فصّل ذلك في محلّه، ولعلّنا نتعرّض له في بعض الآيات المناسبة له إن شاء الله تعالى.

ثمّ إنّ القدرة المعتبرة في التكاليف أقسام ثلاثة:

الأوّل: القدرة العقلية ـ أي الإمكان الذاتي ـ في مقابل الامتناع العقلي.

الثاني: القدرة التعبّدية الشرعية.

الثالث: القدرة العرفية كما في جميع الأُمور الاختيارية الصادرة عن الناس.

ولا وجه للأوّل، وإلّا لاختلّ النظام ولزم العسر والحرج في امتثال الأحكام، كما لا وجه للثاني لعدم الإشارة إليها في الكتاب والسنّة، وما ذكر في

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

الأحكام من الشروط والأجزاء أو الأوصاف يرجع إلى الثالث، بل لا معنى عندنا للتعبّد في الأحكام الشرعية مطلقاً فضلاً عن موضوعاتها؛ لأنّ كلّ ذلك يرجع إلى مقرّرات الفطرة، وإنّما أشار إليها الشارع الأقدس وكشف عنها كما تقدَّم منّا مكرّراً في هذا التفسير وبيّناه في علم الأصول. فيتعيّن الأخير كما هو المستفاد من الكتاب والسنّة الشريفة، قال تعالى: **﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا﴾**[1]، وقال تعالى: **﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾**[2]، وقال تعالى: **﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾**[3]، ومن السنّة قول نبيّنا الأعظم ﷺ المتواتر بين الفريقين: «بعثت على الشريفة السهلة السمحاء». وقوله تعالى: **﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾** في الآية التي تقدّم تفسيرها يبيّن ذلك كما هو معلوم.

ومن ذلك يعرف أنّ ما فصّله جمع بين الفقهاء في المقام لابدّ أن يرجع إلى ما قلناه، وإلّا فهو من التطويل بغير طائل.

***

بحث عرفاني:

الكعبة المباركة من حيث مقام معنويتها أزلية وأبدية؛ لأنّها وجهة التوحيد وفناء المعبود الوحيد، وفيها تفاني باني البيت إبراهيم الخليل الجليل، بل وتفاني جميع الأنبياء من صفيّهم إلى حبيبهم، فإنّهم بالطواف حول البيت الشريف يظهرون تفديتهم للعزيز المهيمن القهّار، ويطرحون جميع جهات أنانيّتهم من الحُجب والأستار، ويبرزون مقهوريّتهم من جميع الجهات لربّ البيت العتيق، وينسون أنفسهم وقد أتوا من فجٍّ عميق.

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

٢. سورة البقرة: الآية ١٨٥.

٣. سورة الحجّ: الآية ٧٨.

ترى المحبّين صرعىٰ في ديارهم كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا

ولعلّ من أحد أسرار طواف نبيّنا الأعظم ﷺ حول البيت الشريف وهو على البعير، أنّ هذا المقام مقام علوّ العبودية التي يفيضها اللطيف الخبير، فأظهر ﷺ العلوّ الجسماني رمزاً إلى العلوّ المعنوي الروحاني، فليس المقام مقاماً لعروض الدهشة على الطائف من حضرة الكبرياء والجلال، كما عن بعض العرفاء، بل مقام ذلّ العبودية التي تشير إلى عزّ الربوبيّة، وأسرار المقام كثيرة لا يحصيها القول ولا رعاف القلم.

ثمّ إنّ الحجّ كسائر العبادات، منه ما هو ظاهري مسقط للتكليف كحجّ عامّة الناس، ومنه واقعي يوجب نيل أقصى الكمالات والفوز بأعلى المقامات في ما إذا أراد بإحرامه ترك جميع ما يلهيه عن ربّه، ورأى في طوافه التفدية الحقيقيّة في مرضات ربّه، ومن سعيه الدنوّ إلى ساحة قربه، وأراد من رمي الجمرات طرح جميع ما لا يرتضيه الربّ، ومن الذبح إهلاك القوى الشهوانية وإفناءها، ومن صلاته في مقام إبراهيم عليه السلام الفوز بمقام إبراهيم الخليل وهو مقام الخلّة.

***

بحث روائي:

في «الكافي»، عن الصادق عليه السلام: «إنّ الله اختار من كلّ شيء شيئاً، واختار من الأرض موضع الكعبة».

أقول: الروايات في ذلك كثيرة، ومعنى إختياره عزّ وجلّ كثرة عنايته به، ويصحّ أن يكون هذا جهة من جهات أوّلية البيت.

وفي «الكافي»: عن أحدهما عليهما السلام قال: «لمّا أراد الله تعالى أن يخلق الأرض أمر الرياح فضربن وجه (متن) الماء حتّى صار موجاً ثمّ أزبد فصار زبداً واحداً، فجمعه في موضع البيت ثمّ جعله جبلاً من زبد، ثمّ دحا الأرض من تحته، وهو

قول الله عزّ وجلّ : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً﴾ .

وزاد في «الفقية» : «فأوّل بقعة خلقت من الأرض الكعبة ثمّ مدت الأرض منها» .

أقول : قد شرح ذلك علي عليه السلام في خطبته التي أنشأها في خلق السماوات والأرض ، والأخبار في دحو الأرض من تحت البيت كثيرة وليس في القرآن الكريم ما ينافي ذلك ، بل يمكن أن يستفاد من قوله تعالى : ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً﴾ الأوّلية من هذه الجهة ، أي أوّل بقعة من بقاع الأرض ودحيت بقيّة الأرض من تحتها .

وأمّا كيفيّة الدحو وانبساط الأرض ثمّ الردّ إلى البيت ـ كما في بعض الروايات ـ فيمكن أن يكون من جهة كرويّة الأرض ، والتفصيل يطلب من محلّه .

كما أنّ ذلك لا ينافي ما نسب إلى بعض القدماء من أنّ الأرض عنصر بسيط كسائر العناصر البسيطة ، فلأنّ قولهم هذا إنّما كان في البساطة العقلية لا البساطة الخارجية ولو بعد زمان على أصل الخلقة . مع أنّ العلماء قد أثبتوا بطلان القول بالبساطة في العناصر الأربعة ، وحلّلوا كلّ واحد منها إلى عناصر كثيرة ، ربما تبلغ إلى أربعين عنصراً منتزعه من عنصر واحد . وقد ذكر سيِّد مشايخنا العالم العامل الزاهد العابد سيِّد الحكماء المتألِّهين السيِّد حسين البادكوبي قدس سره في مجلس بحثه الشريف : أنّ المراد بالبساطة في قولهم : (هي البساطة الفرضية العلمية الاعتبارية ، لا البساطة الحقيقية الواقعية) . وكان يستدلّ على ذلك بأُمور كثيرة وشواهد من كلماتهم ، فلا نزاع حينئذٍ بين ما ذكروه وما أثبته العلم الحديث .

وفي «تفسير العياشي» عن زرارة ، عن أبي جعفر عليه السلام :

«سألته عن البيت كان يحجّ إليه قبل أن يُبعث النبيّ ؟

قال : نعم ، لا يعلمون أنّ الناس قد كانوا يحجّون ونخبركم أنّ آدم ونوحاً

وسليمان عليهما السلام قد حجّوا البيت بالجن والإنس والطير، ولقد حجّه موسى عليه السلام على جمل أحمر يقول: لبيك لبيك، كما قال الله تعالى: **﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً﴾**.

أقول: ما ورد في الحديث هو مقتضى الأوّلية في البيت الشريف.

وعن ابن شهر آشوب، عن أمير المؤمنين عليه السلام في قوله تعالى: **﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾**، فقال له رجل: «أهو أوّل بيت؟ قال: لا، قد كان قبله بيوت، ولكنّه أوّل بيت وضع للناس مباركاً فيه الهدى والرحمة والبركة، وأوّل من بناه إبراهيم، ثمّ بناه قوم من العرب من جُرهم، ثمّ هدم فبنته العمالقة، ثمّ هدم فبناه قريش».

أقول: قد ورد مضمون ذلك في روايات، والمراد منه هو أوّلية البيت للناس، الذي تضمّن البركة والهدي ونحوهما. وأمّا الأوّلية بالنسبة إلى أصل العبادة فيظهر من بعض الأخبار أنّ مسجد الكوفة كان مصلّى آدم عليه السلام وغيره من الأنبياء العظام، والسائل إنّما سأل عن تقدّم البيت الحرام علىٰ جميع البيوت المسكونة، والإمام نفى ذلك.

وفي «الدر المنثور»: أخرج ابن المنذر، وابن أبي حاتم من طريق الشعبي، عن علي بن أبي طالب عليه السلام في قوله تعالى: **﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾**، قال: «كانت البيوت قبله، ولكنّه كان أوّل بيت وضع لعبادة الله».

وفي «العلل»، عن الصادق عليه السلام قال: «إنّما سمّيت مكّة بكّة؛ لأنّ الناس يتباكون فيها»، أي يزدحمون.

وفيه أيضاً عنه عليه السلام قال: «موضع البيت بكّة والقرية مكّة».

وفيه أيضاً عنه عليه السلام قال: «لِمَ سُمّيت الكعبة ببكّة؟ قال عليه السلام: لبكاء الناس حولها وفيها».

أقول: لأنّ البيت في قديم الأيّام لم يكن محجوباً عن الدخول فيه، وإنّما

كان في محل الباب الستار فقط ، وكانوا يدخلون فيه ويبكون .

وفيه أيضاً ، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام : «إنّما سمِّيت بكّة لأنـّها تبك بها الرجال والنساء، والمرأة تصلِّي بين يديك وعن يمينك وعن شمالك ومعك ، ولا بأس بذلك ، إنّما يكره ذلك في سائر البلدان» .

أقول : هذه استفادة لطيفة من لفظ بكة .

وفي «الخصال» ، عن الصادق عليه السلام : «أسماء مكّة خمسة : أُمّ القرى ، ومكّة ، وبكة ، والبساسة إذا ظلموا بها بستهم أي أخرجتهم وأهلكتهم ، وأُمّ رُحم كانوا إذا ألزموها رحموا» .

أقول : وفي بعض الأحاديث : «من أسماء مكّة الباسة» ، والبسّ الحطم، سمِّيت بها لأنـّها تحطم مَن أخطأ فيها ، وعن بعض أنّ من أسمائها «الناسة» لجدبها ويبسها ، أو بمعنى الطرد عنها .

وفي «تفسير العياشي» ، عن عبد الصمد بن سعد، قال :

«طلب أبو جعفر المنصور أن يشتري من أهل مكّة بيوتهم أن يزيد في المسجد ، فأبوا فأرغبهم فامتنعوا ، فضاق بذلك ، فأتى أبا عبد الله عليه السلام فقال له : إنّي سألت هؤلاء شيئاً من منازلهم وأفنيتهم لنزيد في المسجد ، وقد منعوا في ذلك فقد غمّني غمّاً شديداً .

فقال أبو عبد الله عليه السلام : لِمَ يغمّك ذلك ؟!! وحُجّتك عليهم فيه ظاهرة .

فقال: وبِمَ احتجّ عليهم ؟ فقال بكتاب الله ، فقال : في أي موضع ؟ فقال : قوله الله تعالى : **﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾** ، لما قد أخبرك الله أنّ أوّل بيت وضع للناس هو الذي ببكة ، فإنّ كانوا هم تولّوا قبل البيت فلهم أفنيتهم ، وإن كان البيت قديماً قبلهم فله فناؤه ، فدعاهم أبو جعفر فاحتجّ عليهم بهذا ، فقالوا له : اصنع ما أحببت» .

أقول: وقريب منه رواية أُخرى أيضاً إلّا أنّ فيها: «لمّا بنى المهدي»، والظاهر أنّ أبا جعفر المنصور هو البادي في البناء وأتمّه المهدي، فلا منافاة.

وكيف كان ما ذكره الإمام عليه السلام هو استدلال عقلي صحيح.

وفي «الكافي» و«تفسير العياشي»: عن ابن سنان، عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿**فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ**﴾، قال عليه السلام:

«مقام إبراهيم حين قام عليه فأثّرت فيه قدماه والحجر الأسود ومنزل إسماعيل».

أقول: الآيات كثيرة وإنّما ذكر عليه السلام بعضها.

وفي «الكافي»، عن ابن سنان، قال:

«سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ: ﴿**وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً**﴾، البيت عنى أم الحرم؟ قال عليه السلام: مَن دخل الحرم من الناس مستجيراً به فهو آمن من سخط الله، ومَن دخله من الوحوش والطير كان آمناً أن يهاج أو يؤذى حتّى يخرج من الحرم».

أقول: أمن الوحوش والطير إنّما يكون من فروع أمن الآدميين، وسيأتي في البحث الفقهي ما يتعلّق بذلك.

وفي «الكافي» والعياشي: عن عبد الخالق الصيقل، قال:

«سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قوله الله عزّ وجلّ: ﴿**وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً**﴾؟

قال: لقد سألتني عن شيء ما سألني عنه أحد إلّا ما شاء الله، ثمّ قال: إنّ مَن أمَّ هذا البيت وهو يعلم أنّه البيت الذي أمر الله تعالى به، وعرفنا أهل البيت حقّ معرفتنا، كان آمناً في الدُّنيا والآخرة».

أقول: الأمن والاستيمان يكون محدوداً بحدود ومشروطاً بشروط، وإلّا فإنّ البيت ليس أمن على كلّ أحد حتّى مَن يحادد الله تعالى، ومن شروطه هو

معرفة أهل البيت وعقد القلب على ما هو الحقّ الواقع، ونظير ذلك ما رواه الفريقان متواتراً عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: أنّ الله قال: «كلمة لا إله إلّا الله حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي»، فلا ريب في أنّ الأمن من عذابه تبارك وتعالى مشروط بشروط كثيرة.

وفي «الكافي»: عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: **﴿وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾**، قال: «يعني به الحجّ والعمرة جميعاً لأنّهما مفروضان».

أقول: إنّ أعمال الحاجّ مركّب من هذين، وهذا واضح في حجّ التمتّع، وأمّا في غيره فليست العمرة واجبة إلّا في بعض صور حجّ الإفراد وما إذا أوجب على نفسه بنذر ونحوه، وأمّا احتمال وجوب العمرة نفسها لمَن استطاع دون الحجّ، فلا دليل عليه.

وفي «الكافي»: عن علي بن جعفر عن أخيه موسى عليه السلام، قال:

«إنّ الله عزّ وجلّ فرض الحجّ على أهل الجدة في كلّ عام، وذلك قول الله عزّ وجلّ: **﴿وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾**، قلت: فمَن لم يحجّ ما منّا فقد كفر؟ قال عليه السلام: ولكن مَن قال: ليس هذا هكذا فقد كفر».

أقول: المراد من أهل الجدة أهل القدرة، وقوله عليه السلام: «في كلّ عام»، متعلّق بالجدة، لا بقوله: «فرض»، أي كلّ مَن استطاع في كلّ عام يجب عليه الحجّ، وحينئذٍ فإن حجّ يسقط عنه الفرض وإلّا فهو باق عليه.

والمراد بقوله عليه السلام: «ليس هذا هكذا»، إنكار أصل الفرض والوجوب، فيكون كفراً جهتيّاً حاصلاً من إنكار حكم إلهي وواجب ضروري، ولا ينافي هذا ما يأتي من تفسير الكفر بالترك؛ لأنّه لابدّ من حمله على الترك التسويفي.

وفي «تفسير العياشي»: عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ كَفَرَ**﴾ قال عليه السلام: «ترك».

أقول: تقدّم ما يتعلّق به في الحديث السابق.

وفي «الكافي» أيضاً، عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ**﴾، قال:

«مَن كان صحيحاً في بدنه مخلّاً في سربه، له زاد وراحلة، فهو ممّن يستطيع الحجّ، أو قال: ممّن كان له مال، فقال له حفص: فإذا كان صحيحاً في بدنه فخلى سربه له زاد وراحلة فلم يحجّ، فهو ممّن يستطيع الحجّ؟ قال عليه السلام: نعم».

أقول: قد ورد في مضمون ذلك احاديث كثيرة وهي تبيِّن الاستطاعة العرفية ـ كما قلنا ـ في المال والبدن والسرب، أي الطريق، فلا اختصاص للاستطاعة بأحدهما كما عن بعض.

وأمّا سؤال حفص الكناسي إنّما هو بالنسبة إلى استقرار الحجّ بعد تحقّق الاستطاعة والمسامحة في إتيان الحجّ، وقد حكم بأنّ المسامحة لا تسقط التكليف بعد ثبوته، وقد ذكرنا تفصيل ذلك في كتاب الحجّ من «مهذب الأحكام».

ثمّ إنّه قد ذكرنا جملة ممّا يتعلّق بالبيت الشريف وبعض أحكام الحجّ في آيات ١٩٦ ـ ٢٠١ من سورة البقرة فراجع.

وفي «الفقيه» في وصيّة النبيّ صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام: «يا علي، تارك الحجّ وهو مستطيع كافر، قال الله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ**﴾، يا علي مَن سوّف الحجّ، حتّى يموت، بعثه الله يوم القيامة يهودياً أو نصرانياً».

أقول: ذيل الحديث يبيِّن صدره، والمراد من كونه يهودياً أو نصرانياً أن تركه يكون كذلك، كما أنّ اليهود والنصارى يتركونه كما يتركون سائر الأحكام

الإلهيّة .

***

بحث فقهي:

استدل الفقهاء بقوله تعالى : **﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً﴾** على عدم إقامة الحدّ في الحرم على مَن التجأ إليه ، وقد تظافرت الأخبار بذلك ، فعن الصادق عليه السلام في معتبرة الحلبي، قال :

«سألته عن قول الله تعالى : **﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً﴾** ؟ قال : إذا أحدث العبد جناية في غير الحرم ثمّ فرّ إلى الحرم ، لم ينبغ لأحد أن يأخذه من الحرم ، ولكن يمنع من السوق ولا يبايع ، ولا يطعم ، ولا يسقى ، ولا يُكلّم ، فإذا فعل ذلك يوشك أن يحرج فيُؤخذ ، واذا جنى في الحرم جناية ، أُقيم عليه الحدّ ، لأنّه لم يرع للحرم حرمة» .

وفي صحيح معاوية بن عمّار عن الصادق عليه السلام، قال :

«قلت له : رجل قتل رجلاً في الحل ثمّ دخل الحرم ؟

فقال عليه السلام : لا يقتل ، ولا يطعم ، ولا يُسقى ، ولا يبايع ، ولا يأوى حتّى يخرج من الحرم فيُقام عليه الحدّ .

قلت : فما تقول في رجل قتل في الحرم أو سرق ؟

فقال عليه السلام : يُقام عليه الحدّ صاغراً ، إنّه لم يرَ للحرم حرمة ، وقد قال الله تعالى : **﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾** يقول هذا في الحرم ، فقال : لا عدوان إلّا على الظالمين» .

أقول : وهناك روايات تدلّ على ذلك ، والحكم متّفق عليه عند الإمامية . وقد أُقيمت عليه شواهد كثيرة في جميع الأعصار ، وهذا من خصائص الحرم الإلهي ، وقيل : بإلحاق الحرم النبوي بالحرم الإلهي ، ولكن الحكم لم يثبت عند

الجميع، فلا ترفع اليد عن الأُصول المعتبرة النافية للتكليف، بل عن الإطلاقات والعمومات.

وأمّا كونه أمناً بالنسبة إلى حيوان الحرم ونباته، فقد وردت روايات تدلّ على أنّه يحرم إيذاؤهن وتهييجهنّ، وقلع النبات لا سيما على المحرم، والمسألة مذكورة في باب تروك الإحرام من أبواب الحجّ. وتقدّم ما يدلّ على ذلك في البحث الروائي.

وقد تظافرت الأخبار أيضاً في أنّه أمن من العذاب يوم القيامة، منها ما عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «مَن مات في أحد الحرمين بعثه الله من الآمنين»، ولابدّ من تقييده بما إذا دفن فيه مع وجود سائر الشرائط.

***

الآية ٩٨ ـ ١٠١

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٠١)﴾.

هذه الآيات الشريفة راجعة إلى بيان حقيقة الاستكمالات المعنوية والموانع التي تمنع عن الوصول إليها، ويشهد لها العقل السليم، ولا يصل الإنسان إلى تلك الحقيقة التي هي منتهى الغايات الكمالية وأقصاها، إلّا باتّباع ما ذكره القرآن الكريم في ذلك، والانقياد له انقياداً تامّاً، إثباتاً ونفياً، امتثالاً واجتناباً.

وتبيِّن هذه الآيات أنّ فريقاً من أهل الكتاب يكفرون بآيات الله ويصدّون المؤمنين عن سبيله عزّ وجلّ، بل إنّها ترشد إلى حقيقة من الحقائق الاجتماعية التي طالما يعانيها المجتمع الإنساني وهي أنّ طائفة من الناس على الباطل وتكفر بآيات الله وتنكر الحقائق الواضحة وتصدّ عن الحقّ وتمنع عن رقيّ الإنسان واستكماله، وتعرض الشبهات التي تمثّل السبيل الضلال المعوج العقيم سبيلاً مستقيماً موصلاً إلى الكمال المنشود. وقد حذّر سبحانه المؤمنين منهم وأنذرهم من متابعتهم، وإلّا دخلوا في زمرتهم وكانوا كافرين، وأمرهم بالاعتصام بالله

ورسوله والعمل بأحكامه، فإنّ ذلك هو الصراط المستقيم الذي يوصل الإنسان إلى الكمال المنشود، والهداية التي لابدَّ لكلّ فرد ابتغاؤها، وذلك هو الصواب الواقعي الذي جبلت القلوب السليمة المستقيمة عليه.

والآيات لا تخلو عن الارتباط بالآيات السابقة التي بيّنت سُبل الهداية وعرّفت الصراط المستقيم الذي لا عوج فيه، وأنذرت المؤمنين من شبهات الكافرين والملحدين.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾.

الآيات في المقام هي الدلائل الدالّة على الحقّ ونبوّة نبيّنا الأعظم ﷺ والكتاب المنزل عليه، وما اشتمل البيت الحرام من الآيات البيّنات، بل كلّ ما يوصل إلى الهداية.

وإنّما خاطبهم عزّ وجلّ بأهل الكتاب، إلزاماً لهم للإيمان بالكتاب وتصديقه، ومبالغةً في تقبيحهم وتكذيبهم. والاستفهام للتوبيخ والتعجيز عن إقامة العذر في كفرهم وأعمالهم الفاسدة.

قوله تعالى: ﴿وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾.

جملة حالية، والشهادة هي الحضور والاطّلاع على الأُمور، والشهيد بمعنى العالم المطّلع، وهو من أسماء الله الحسنى، أي الحاضر الذي لا يغيب عنه شيء ولاتخفى عليه خافية.

والمعنى: قل يارسول الله لأهل الكتاب الذين يعاندون الحقّ ويكفرون به: لأي سبب تكفرون والحال أنّ الله يعلم إسراركم وإعلانكم، ومطّلع على أعمالكم وهو يجازيكم عليها.

وفي الجملة غاية التوبيخ ، وفيها الإرشاد إلى مراقبة الإنسان أعماله ، وتزكية النفس بالتخلية عن الرذائل والتحلية بالفضائل ، فإنّ الله مطّلع على السرائر وعالم بمكنون الضمائر .

قوله تعالى : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ﴾ .

مادّة (صدد) تدلّ على المنع والصرف ، وقد استعملت في القرآن الكريم بهيئات مختلفة فيما يقرب من أربعين مورداً .

والسبيل كالطريق ، يستعمل مذكّراً ومؤنّثاً ، ويستعمل في القرآن الكريم كثيراً مذكّراً ، وقد جاء مؤنّثاً في قوله تعالى : ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾[1] ، وفي المقام بقرينة قوله تعالى : ﴿تَبْغُونَهَا﴾ أي السبيل ، لتضمينها معنى الآيات بقرينة الآية السابقة .

والمراد بها طريق الهداية ، وهي الآيات البيّنات الدالّة على الحقّ ونبوّة نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله وما أنزله الله تعالى عليه .

والاستفهام كسابقه توبيخي تعجيزي . وفي خطابهم بأهل الكتاب ، لزيادة تقريعهم وشدّة توبيخهم ، أي مع أنّكم أهل الكتاب تعرفون الآيات الدالّة على الحقّ وتنكرونها وتعرضون عن الإيمان بها .

والمعنى : يا أهل الكتاب ، لأيّ سبب تصدّون المؤمنين بالله عن الإيمان والحقائق ، وتصرفونهم عن سبيل الله بإلقاء الشبهات .

قوله تعالى : ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾ .

جملة حالية إمّا من الضمير في «تصدّون» ، أو حال من السبيل جيء بها لبيان الصدّ ، والضمير يرجع إلى السبيل لتضمّنه معنى الآيات ، كما عرفت .

---

١ . سورة يوسف : الآية ١٠٨ .

وعوجاً مفعول ثان لتبغون، والمفعول الأوّل هو الضمير المتّصل بعد حذف اللام، فإن (بغي) يتعدّى إلى مفعولين؛ أحدهما بنفسه والثاني باللام، أي يبغون لها عوجاً.

وقيل: إنّه منصوب على المصدر، نحو رجع القهقرى.

وقيل: إنّ عوجاً حال وقع موقع الاسم مبالغة.

وفيهما نظر.

مادّة (بغي) تدلّ على طلب التجاوز عن الاقتصاد في ما يتحرّى تجاوزه، سواء تجاوز أم لا، وهو:

تارةً: يكون في الكمّية.

وأُخرىٰ: في الكيفيّة.

وكلّ منهما إمّا محمود كقوله تعالى: ﴿**يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَاناً**﴾[١]، أو مذموم كقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ**﴾[٢]، فالبغي على أقسام:

الأوّل: أن يكون من الحقّ إلى الحقّ، كقوله تعالى: ﴿**وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿**وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً**﴾[٤] باعتبار ذات الصلاة.

الثاني: من الباطل إلى الحقّ، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾[٥]، وقوله تعالى: ﴿**فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ**

---

١ . سورة الفتح: الآية ٢٩.

٢ . سورة القصص: الآية ٧٧.

٣ . سورة القصص: الآية ٧٣.

٤ . سورة الإسراء: الآية ١١٠.

٥ . سورة العنكبوت: الآية ١٧.

وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾[١].

الثالث: من الحقّ إلى الباطل، كقوله تعالى: **﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾**[٢]، وقوله تعالى: **﴿فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾**[٣].

الرابع: من الباطل إلى الباطل، كقوله تعالى: **﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾**[٤].

وكيف كان، فتلك المادّة كثيرة الاستعمال في القرآن الكريم بهيئات مختلفة.

والعوج: خلاف الاعتدال، وهو الميل عن الاستواء، وفي الحديث في وصف نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله: «حتّى يقيم به الملّة العوجاء»، أي ملّة إبراهيم عليه السلام التي غيّرها المشركون عن استقامتها.

والمعروف أنّه بفتح العين مختصّ بالمحسوسات كالأجسام المرئية، وبالكسر فيما ليس بمرئي، كالرأي والقول ومطلق المعاني، قال أبو زيد في كتاب الفرق: «كلّ ما رأيته بعينك فهو مفتوح، وما لم تره فهو مكسور».

ولكن يرد عليه أنّه ورد في القرآن الكريم بكسر العين في المحسوسات، قال تعالى: **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً لَا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلَا أَمْتاً﴾**[٥]، ولذا قيل إنّ الكسر يقال فيهما معاً، والأوّل أكثر. وقيل في المنتصب كالحائط والعصا يقال عَوَج (بالفتح) وفي الأرض والدين

---

١ . سورة البقرة: الآية ١٨٧.

٢ . سورة آل عمران: الآية ٨٥.

٣ . سورة المؤمنون: الآية ٧.

٤ . سورة النور: الآية ٣٣.

٥ . سورة طه: الآية ١٠٥ ـ ١٠٧.

والمعاش يُقال عِوج (الكسر).

وكيف كان، أنّ المراد منه في المقام الزيغ والتحريف والكتمان والمخادعة.

والمعنى: أنـّكم ـ أهل الكتاب ـ تظلمون بصدّكم عن سبيل الله بـالخديعة والتزوير والزيغ والتحريف والكتمان والشبهات فيها، لتردّوا المؤمنين عن إيمانهم بغياً وكيداً، مع أنـّها الصراط المستقيم الظاهرة الحجّة الساطع البرهان.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾.

أي: والحال أنتم شهداء على استقامة سبيل الله. تعلمون أنّ صدّكم عـنه تعالى إنّما يكون صدّاً عن الحقّ، وأنّ منكره ضالّ مضلّ، ويلزم من ذلك معرفتهم بحقّية الرسول الكريم وصحّة دعواه، وقد عرفوا البشارات بنبوّته ودينه التي دلّت عليها كتبهم وأخبرهم أنبياؤهم، فكـان الواجب عـليهم الإيـمان بـه، والسـبق بالاعتراف بدينه لا الصدّ عنه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾.

تهديد لهم على صنيعهم، فإنّه تعالى عليم بصدّهم وضلالهم ومجزيهم عليه، لا يفوته شيء وهو شديد الانتقام.

وإنّما ذكر سبحانه وتعالى عدم الغفلة في هذه الآية الشـريفة، لمّـا نسب الشهادة إليهم على الحقّية، وإنّما أخفوها بمكرهم وخدائعهم الخفيّة فـي جـعل السبيل المستقيم غوجاً، فناسب ذكر عدم الغفلة عن جميع ذلك.

كما أنّ في الآية السابقة كان كفرهم وإنكارهم لآيات الله تعالى، فذكر عزّ وجلّ أنـّه شهيدٌ على ذلك.

وكيف كان، ففي نسبة الشهادة إلى نفسه في الآية الســابقة، وفـي المـقام نسبتها إليهم، من اللطف ما لا يخفى.

قوله تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ**﴾ .

بيان لحقيقة من الحقائق الاجتماعية التي لا يخلو عنها اجتماع من بدء تكوينه ، وهي تأثير بعض طوائف المجتمع الإنساني في البعض الآخر وتأثّرها منها ، وهذه العملية ـ أي التأثير والتأثّر ـ هي من أهمّ الأُمور الاجتماعية التي يبتني عليها الاجتماع الإنساني ، ولها الأثر الكبير في تقدّم المجتمع أو تأخّره ، والقرآن الكريم لا ينكر هذه الحقيقة الاجتماعية ، وإنّما كان له الفضل الكبير في تهذيبها وبيان ما يترتّب عليها من الآثار المهمّة في النفس والتربية والاقتصاد وسائر الشؤون ، حيث إنّه ما يكون في الطائفة المطاعة يسري إلى الطائفة المطيعة من مفاسد الأخلاق والضلال ، وبناءً على ذلك لا وجه لتعيين معنى الفريق كما ذكره بعض المفسّرين ، فإنّه من القضايا الحقيقيّة المنطبقة في كلّ عصر على الطائفة المضلّة في ذلك العصر ، سواء كانت من أهل الكتاب أم كانت من غيرهم إذا كانت لها قوّة الضلال والإضلال ، ويشير إلى ذلك قوله تعالىٰ : ﴿**فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ**﴾ ، فإنّ المراد منه هم الذين عرفوا شيئاً من الكتاب ولكن جعلوه وسيلة للإضلال ، وقد نهى الله تعالى المسلمين من إطاعة هؤلاء ، وحذّرهم من سوء أثرها ، ومن أهمّه أنّها تردّهم كافرين بعد إيمانهم ، وفيه هلاك الدِّين والدُّنيا ، والذلّة في العاجل والآجل وفناء استقلاليّتهم في شؤونهم ، فلابدّ من التنبّه إلى ذلك والالتفات إليه والعمل بما أنزله الله تعالى .

وفي الآية الشريفة التشديد على إنكار إطاعة المؤمنين للكافرين، لكمال شناعة الكفر بعد الإيمان وزيادة قبحه . وإنّما قدَّم عزّ وجلّ توبيخ الكافرين على هذا الخطاب ، لبيان أنّ الكفر كالعلّة الداعية إليه .

قوله تعالى : ﴿**وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ**﴾ .

استبعاد من أن يقع من المؤمنين الكفر وإنكار لما يقع منهم، وعندهم ما يكون سبباً في عدم وقوعه منهم والاجتناب عنه.

وقد ذكر سبحانه وتعالى أمرين مهمّين، هما آيات الله تعالى ورسوله العظيم، فهما حبلان ممدودان من السماء لا يضلّ مَن تمسّك بهما، دالّان على كلّ حقّ، وفيهما الهداية والرشاد. ومَن يعتصم بهما فقد اعتصم بالله العظيم، والكفر بعد وجودهما يكون نظير الجمع بين المتناقضين.

ومن ذلك يعرف أنّ الآية المباركة عامّة، لا تختصّ بطائفة خاصّة، ولا عصر مخصوص.

قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ**﴾.

كبرى كلّية تنطبق على جميع سبل الهداية والرشاد.

ومادّة (عصم) تدلّ على المنع والحفظ ممّا يخاف ويحذر، وفي الحديث: «مَن كانت عصمته شهادة أن لا إله إلّا الله»، أي ما يعصمه من المهالك يوم القيامة. والعاصم هو الحافظ المانع، سواء كان بفعله أو بتسبيب منه، والمعتصم هو الملتجئ إلى العاصم واللائذ به ممّا التجأ ولاذ حذراً منه، والاسم العصمة، وفي شعر أبي طالب عليه السلام في وصف نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله:

* ثمال اليتامى عصمةً للأرامل *

والاعتصام بالله هو الامتناع به، بالتجاء العبد وانقطاعه إليه، ليحفظه من مضلّات الفتن وموبقات المعاصي وموارد غضبه، ومن سفاسف الأخلاق، ويوفّقه لموجبات رحمته ويرضى عنه. ولابدّ لهذا الاعتصام من سبب محقّق له، وهو مخالفة النفس الأمّارة، واتّباع العقل والفطرة اللذين دعا إليهما دين الله ورسله، ولذا وجب الإيمان بخاتم النبيّين وقرآنه، ومَن يكون داعياً إليهما علماً وعملاً. فيكون ذكر القرآن الكريم والرسول من أسباب الاعتصام ومحقّقاته.

ومن ذلك يعلم أنّ المراد من الاعتصام العملي منه دون القولي والاعتقادي فقط .

قوله تعالى : ﴿**فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ .

أي : ومَن جرى على الاعتصام المزبور ، فإنّه يؤهّله إلى توفيق الله تعالى للهداية إلى الصراط المستقيم ، الذي لا يضلّ سالكه ولا يخشى المهالك ، وترتّب الهداية إلى صراط مستقيم على الاعتصام بالله تعالى ، ترتّب المعلول على العلّة التامّة المنحصرة ، لا يتخلّف أبداً ، كما يشعر به إتيان الفعل الماضي وحذف الفاعل في «**فَقَدْ هُدِيَ**» ، الدالّ على تحقّق الفعل من غير قصد وشعور بفاعله .

وإنّما وصف سبحانه وتعالى الصراط بكونه مستقيماً ، للردّ على الذين يبغونه عوجاً ، فإنّهم مهما حاولوا التمويه والإضلال وإخفائه ، فإنّ الصراط لا يخرج عن استقامته ، فهو الحقّ المبين ، وصراط الله منحصر في الصراط المستقيم ، قال تعالى : ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[١] .

***

١ . سورة الأنعام : الآية ١٥٣ .

بحوث المقام

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على أُمور:

الأوّل: يدلّ قوله تعالى: **﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾**، على قواعد عقلية نظامية اجتماعية، منها قاعدة: «امتناع اجتماع المتنافيين»، فإنّ الكفر بآيات الله مع دعوى الإيمان يكون من المتنافيين الذي هو ممتنع بفطرة العقول، وبرهنت عليها العقلاء، ولذا كان الخطاب بـ(كيف) الدال على التعجّب.

ومنها: ثبوت الاختيار للإنسان الذي هو من مهمّات مباحث الفلسفة والكلام.

ومنها: تفكيك المقتضى (بالفتح) عن فعلية المقتضي (بالكسر) من كلّ جهة، وهي ممّا يستنكره العقل، فإنّ تلاوة آيات الله تعالى ووجود الرسول الأعظم فيهم مقتضيان للتخلّق بأخلاقه، والامتثال لأوامره والانتهاء عن نواهيه، فهم منكرون هذه القاعدة التي دلّت عليها الأدلّة العقلية والنقلية.

الثاني: ذكر سبحانه وتعالى في المقام: **﴿مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾**، وفي سورة الأعراف، الآية: ٨٦: **﴿مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾**، وإنّما حذف «به» والواو في المقام لأنّ حذف (به) موافق لقوله تعالى: **﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾**، فقد حذف (به) فيه أيضاً. كما أنّ حذف الواو إنّما هو لأجل أنّ قوله تعالى: **﴿تَبْغُونَهَا﴾** جملة حالية، والواو لا تزاد مع الفعل إذا وقع حالاً، مثل قوله تعالى: **﴿وَلَا تَمْنُنْ**

تَسْتَكْثِرُ﴾[1]، وأمّا في سورة الأعراف عطف على الحال، هي قوله تعالى: ﴿تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ﴾، وكذلك ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجاً﴾.

الثالث: ذكرنا أنّ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾، يدلّ على قاعدة اجتماعية لا ينفكّ عنها أي اجتماع إنساني، وهي تبادل الأفكار والعادات والتقاليد بين المجتمعات، والقرآن الكريم يحذّر المسلمين من ذلك، ويبيّن أنّ كلّ طائفة إذا أطاعت طائفة أُخرى وأخذت بأفكارها وثقافتها لابدّ أن تتأثّر بها، فإن كانت الأفكار فاسدة ومنحرفة، فهي تؤثّر في المؤمنين، وتذهب فضائل أفكارهم، وتفسد عليهم ثقافتهم، وتُحرمهم من سعادتهم، وتوجب ضلالهم وذلّهم وعبوديّتهم، وقد أوجز سبحانه جميع ذلك في قوله تعالى: ﴿يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾، الذي فيه قبح عظيم وآثار سيّئة. وقد لطف تعالى بالمؤمنين حيث خاطبهم بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وبيّن عزّ وجلّ أثره الكبير بأُسلوب رائع.

الرابع: إنّما عبّر سبحانه وتعالى بالتلاوة في قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ﴾، لأنّ التلاوة هي البيان بقصد التفهيم والتفهّم، فلايكتفى بمجرّد وجود القرآن الكريم فقط دون تلاوته والعمل به.

وأمّا ذكر الرسول ﷺ مجرّداً عن كلّ شيء، فلأنّه ﷺ بنفسه وحركاته وسكناته وأقواله وأفعاله حجّة لله على خلقه، ومعلّم عظيم للكمالات الإنسانية، وشارح للآيات الشريفة ومفسّر لها ومبيّن القرآن الكريم قولاً وعملاً، وهو الصراط المستقيم الذي عقب الله تعالى به ذلك. ويمكن أن يستفاد من الآية الشريفة اشتداد العقوبة على المخالفة عند تماميّة الحجّة.

الخامس: إنّما وصف سبحانه الصراط بالمستقيم، لبيان أنّه لايختلف ولا

---

١. سورة المدثر: الآية ٦.

يغيّره إضلال المعاندين وإفساد المفسدين، كما أنّه يحفظ سالكيه عن الوقوع في الضلال.

***

بحث روائي:

في «الخصال»، عن الحسين الأشعر: «قلت لهشام بن الحكم: ما معنى قولكم: إنّ الإمام لا يكون إلّا معصوماً؟ فقال: سألت أبا عبدالله عليه السلام عن ذلك، فقال: المعصوم هو الممتنع بالله من جميع محارم الله، وقد قال الله تبارك وتعالى: **﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾**».

أقول: المراد من قوله عليه السلام: الممتنع بالله، أي الممتنع بالاعتصام في جميع أُموره وشؤونه، فيحصل له توفيق ترك محارم الله بالاختيار، فقد جمع الطاعة وترك المحارم، وهذا هو معنى العصمة.

وفي «أسباب النزول» للواحدي: عن عكرمة في قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾**، قال: «كان بين هذين الحيّين من الأوس والخزرج قتال من الجاهلية، فلمّا جاء الإسلام اصطلحوا وألّف الله بين قلوبهم، وجلس يهودي في مجلس فيه نفر من الأوس والخزرج فأنشد شعراً قاله أحد الحيّين في حربهم، فكأنّهم دخلهم من ذلك، فقال الحيّ الآخر قد قال شاعرنا في يوم كذا: كذا وكذا، فقال الآخرون وقد قال شاعرنا في يوم كذا: كذا وكذا، فقالوا تعالوا نردّ الحرب جَذَعاً كما كانت، فنادى هؤلاء يا آل أوس، ونادى هؤلاء يا آل خزرج، فاجتمعوا وأخذوا السلاح واصطفّوا للقتال، فنزلت هذه الآية فجاء النبيّ صلى الله عليه وآله حتّى قام بين الصفّين فقرأها ورفع صوته، فلمّا سمعوا صوته أنصتوا له وجعلوا يستمعون إليه، فلمّا فرغ ألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضاً وجثوا يبكون».

أقول: على فرض اعتبار الرواية إنّها تبيّن بعض مصاديق الآية الشريفة، كما ذكرنا مراراً من أنّ مورد الآية ومصاديقها لا تكون مخصّصة للآية النازلة .

***

الآية ١٠٢ ـ ١٠٨

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

هذه الآيات من جلائل الآيات الكريمة التي وردت في تكميل النفوس الإنسانية وتنظيم نظام الدُّنيا والآخرة بالنحو الأحسن الأكمل، الذي تعترف به جميع العقول وتقبله الفطرة المستقيمة، وهي مرتبطة بالآيات السابقة، فإنّه تعالى بعد ما حذّر المؤمنين من مكائد الكافرين وفتن أهل الكتاب وإضلالهم، أمرهم بالاعتصام بحبل الله جلّت عظمته، ليهديهم إلى الصراط المستقيم ويوفّقهم للدِّين القويم ويحفظهم من المهالك.

ويبيِّن سبحانه في هذه الآيات المباركة الصلة به تعالى، تلك التي يحبّها كلّ قلب مؤمن، وهي التقوى لأنّها من سُبل الاعتصام بالله، بل من أهمّها، فكلّ ما اقترب العبد من الله بتقواه اشتاق إلى مقام أرفع ممّا بلغ إليه.

وقد دعا سبحانه وتعالى في هذه الآيات الشريفة أيضاً إلى الاعتصام بحبل الله، من الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهي كلّها من سبل الاعتصام به.

ثمّ أمرهم بالاجتماع وعدم التفرّق ونهاهم عن الاختلاف، ووعدهم الحسنى والخير إن هم قاموا بالوظيفة التي أمرهم بها.

فهذه الآيات المباركة تعتبر تتمّة الآيات السابقة، فإنّ السياق في الطائفتين واحد.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ**﴾.

تقدّم ما يتعلّق بهذا الخطاب في أوّل سورة البقرة وغيره من الآيات الشريفة، وفي تكراره لا يخفى من اللطف بالمؤمنين والتشريف لهم، لا سيما بعد خطاب: ﴿**مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ**﴾[1].

والتقوى كما تقدّم مكرّراً هي الطاعة لله تعالى، والاحتراز عن الوقوع في ما يوجب سخطه وعذابه، ويلزم ذلك الشكر لنعمه، وإنّما أمرهم بالتقوى لأنّها جوهرة الكمالات الإنسانية، ومفتاح السعادة، وأساس مكارم الأخلاق، وبها يفوز العبد بالقُرب إلى الله تعالى والبُعد عن النار، وهي تحفظ إيمان المؤمن وتزيده قوّةً وثباتاً.

---

١. سورة البقرة: الآية ١٠١.

هذا، ولكن التقوى على نحوين؛ تقوىً ظاهرية خالية عن الخلوص والإخلاص، وباطنية حقيقة مشتملة عليهما، وهي التي لا يشوبها باطل ولا فساد، وهي ذكر المُنعم بلا نسيان وطاعته بلا عصيان.

وبالجملة: فهي العبودية المحضة التي لا كمال بعدها، وهذا النحو من التقوى هو حقّ في نفسه، وحقّ لله تعالى، وهي التي تليق بساحته تبارك وتعالى دون غيرها.

وقد ورد مثل هذا التعبير في ستّة مواضع من القرآن الكريم، قال تعالى: **﴿يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ﴾**[1].

وقال تعالى: **﴿وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾**[2].

وقال تعالى: **﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾**[3].

وقال تعالى: **﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾**[4].

ومثله في سورة الحجّ، الآية: ٧٤، وسورة الزمر، الآية: ٦٧.

والمستفاد من هذا التعبير هو الأمر بالحقيقة الخالصة من شوائب الأوهام، وتدلّ تلك الجملات على كمال الأهمّية بالمورد، حتّى أنّه تعالى نفى الحقّية عن غيره كما هو المستفاد من النفي والإثبات، وعرفان الحقّ لا يحتاج إلى البيان، فإنّه نفس واقع الشيء على ما هو عليه في ذاته.

ويحتمل أن يكون المراد في قوله تعالىٰ: **﴿حَقَّ تُقَاتِهِ﴾**، آخر مراتب التقوى وأعلى درجاتها التي من صفات الأنبياء والأولياء، وهي حقيقة التقوى التي

---

١. سورة البقرة: الآية ١٢١.

٢. سورة الحج: الآية ٧٨.

٣. سورة الحديد: الآية ٢٧.

٤. سورة الأنعام: الآية ٩١.

أوحاها عزّ وجلّ إلى أنبيائه ، وبشّرت بها رسله ، وغيرها خارج عن تلك الحقيقة وليست شيئاً زائداً عليها .

نعم ، الاشتداد والتضعّف الجاريان في كلّ مقولة يجريان في هذه الحقيقة أيضاً ، ولكن الآية المباركة ليست ناظرة إلى هذه الجهة ، كما أنـّها ليست منسوخة ولا ناسخة ، فيكون تعميم الخطاب في صدر الآية لجميع المؤمنين تشريفاً لهم شيئاً وطلب حقّ التقوى شيئاً آخر ، وطلب الموت على الإسلام في ذيل الآية الشريفة شيئاً ثالثاً ، فيصير صدر الآية وذيلها شاهدين على أن ليس المراد بالتقوى هنا خصوص تقوى الأنبياء والأولياء فقط ، بل هي عامّة تشمل الآية جميع المراتب كلّ على حسب ما يقدر عليه .

ويحتمل التنزيل على مراتب القدرة والاستطاعة ، بل هي ظاهر الآية الشريفة ، فالصحيح يصلّي قائماً مثلاً والمريض جالساً ، وهكذا كلّ على قدر استطاعته . وعلى هذا ، فيكون قوله تعالى : **﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾**[1] شارحاً لهذه الآية الشريفة .

ومحصّل معنى الآيتين : أنّ مراتب التقوى كمراتب أصل التكليف ، كما أنّ الأخير لا يتعلّق إلّا بالمستطاع وينحلّ إلى مراتب كثيرة ، وكذلك التقوى، فكلّ مؤمن لابدّ أن يحظى بالتقوى على قدر استطاعته وطاعته .

كما أنـّه يحتمل أن يكون المراد من قوله تعالى : **﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾**[2] ، الترغيب إلى إتيان المندوبات ، والتنزّه عن إتيان المكروهات ، لأنّ الأُولى من شؤون الواجبات ، والثانية من شؤون المحرّمات ، وكلّ ذلك من حمى الله تعالى كما في بعض الروايات . وعليه فلا ربط لها لهذه الآية الشريفة .

---

١ و ٢ . سورة التغابن : الآية ١٦ .

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

تحريض على مداومة التقوى بعد الأمر بتحصيل حقيقتها والخلوص فيها، فيكون المراد من الإسلام في الآية هو الإسلام الحقيقي الاستمراري حتّى الانتقال إلى النشأة الأُخرى، ووقوع الموت الذي هو أمر غيبي في حال الإسلام والتسليم.

وعلى هذا، لا وجه للتفصيل بكون الطلب في الآية الشريفة متعلِّقاً بأمر تكويني، أو بجامع من الأمر التكويني والاختياري، فإنّ ظاهر الآية هو الأمر بتحصيل المداومة على التقوى حتّى الموت، وتقدّم بعض الكلام في آية ١٨٩ من سورة البقرة.

والمراد بالإسلام هو الطاعة لله تعالى وعدم المحادّة له بالمعصية، وهذه هي التقوى التي أمرنا الله تعالى بها سابقاً.

وذكر بعض المفسِّرين أنّ المراد بالإسلام هو الإيمان القلبي، لأنّ الأعمال حال الموت ممّا لا تكاد أن تتأتّى.

وفيه من التكلّف ما لا يخفى، فما ذكرناه أظهر من الآية الشريفة وأنسب إلى الأمر بالتقوى كما عرفت.

وكيف كان، ففي الآية المباركة التأكيد على ترك طاعة أهل الكتاب.

قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾.

الاعتصام: هو التمسّك والالتجاء، وتقدّم اشتقاق الكلمة في الآية السابقة.

والحبل: معروف، ويستعمل في سبب منيع يوصل إلى البغية والحاجة، وفي الدعاء: «يا ذا الحبل الشديد»، والمراد به القرآن أو الدِّين أو السبب، كما ورد في صفة القرآن: «كتاب الله حبلٌ ممدود من السماء إلى الأرض»، أي نور هداه يكون كذلك، وفي حديث آخر: «وهو حبل الله المتين».

وقيل: المراد عهده وأمانه الذي يؤمن من العذاب.

وقيل: المراد منه العهد والميثاق.

وقيل: غير ذلك، وجميعها من باب التفسير بالمصداق.

والمراد به في المقام ما جعله الله تعالى سبباً عاصماً من الوقوع في الضلالة والمهالك، والمعروف أنّ في الكلام استعارة تمثيليّة، بأن شبّه التمسّك بما جعله الله عاصماً من الوقوع في المهالك بالتمسّك بالحبل المتدلّي من مكان رفيع وثيق مأمون الانقطاع، الذي يمنع المتمسّك به من السقوط والهلكة.

و(جميعاً) حال من فاعل اعتصموا، أي مجتمعين، فيكون قوله تعالى: **﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾** تأكيداً، والنهي عن التفرّق باتّباع السُبل المختلفة، فيوجب البُعد عن سبيل الله تعالى، كما قال عزّ وجلّ: **﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾**[1].

واختلف المفسِّرون في المراد بالحبل في هذه الآية الشريفة.

فقيل: إنّه كتاب الله.

وقيل: إنّه الإسلام.

وقيل: إنّه الطاعة والجماعة.

والحقّ أن يُقال: إنّه بعد أن بيَّن عزّ وجلّ في الآية السابقة أنّ التمسّك بآيات الله تعالى، وبالرسول اعتصام بالله تعالى مضمون له الهدى ومأمون من الضلال والهلاك، فإنّ كلّ واحد منهما يكمِّل الآخر ويفسِّره. والرسول كتابٌ ناطق، كما أنّ القرآن رسولٌ صامت، فيكون التمسّك بالرسول ﷺ تمسّكاً بالقرآن، لاسيما بعد أمر القرآن بذلك، قال تعالى: **﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾**[2]، وقد أمرنا سبحانه وتعالى بالاعتصام بحبل الله في هذه الآية، فتكون

---

١. سورة الأنعام: الآية ١٥٣.

٢. سورة الحشر: الآية ٧.

النتيجة أنّ حبل الله هو الكتاب والرسول، ولكن بما أنّ الحكم في الآية السابقة معلّق على شخص الرسول الكريم، باعتباره جامعاً لجميع الكمالات وملتزماً للطاعات، ومعصوماً من المعاصي والزلّات، شارحاً للكتاب المبين، ومفسّراً لرموزه ودقائقه، فمن يكون مثل الرسول من هذه الجهة يكون من مصاديق حبل الله، ويدلّ على ذلك حديث الثقلين المتواتر بين الفريقين:

«إنّي مخلّف فيكم الثقلين ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا؛ كتاب الله وعترتي أهل بيتي».

فإنّ الكتاب والرسول وعترته كلّها مشاعر هدايته عزّ وجلّ ومصاديق حبل الله، وأنّ حقيقة هذا الحبل هي الإنسانية الكاملة، التي هي في الحقيقة الصراط المستقيم، وأنّ الكتب السماوية والأنبياء والمرسلين تدعو إلى الاهتداء إليها، وهي حقيقة الجنّة التي وعد الله عباده بها، وهي التي توجب مخالفتها النار، فلهذه الحقيقة صور كثيرة مختلفة في جميع العوالم والنشآت.

فتارةً: يكون موسى بن عمران والتوراة.

وأُخرىٰ: يكون عيسى بن مريم والإنجيل.

وثالثة: يكون حبيب الله محمّد بن عبدالله والقرآن الكريم.

ورابعة: يكون عترته الطاهرة، لأنّهم شرّاح القرآن وامتداد لشخص الرسول الكريم كما عرفت، وحينئذٍ يكون الأمر بالاعتصام بحبل الله أمراً حقيقيّاً واقعيّاً تكوينيّاً، وهو عبارة عن الإضافة بين العلّة والمعلول، أو المقتضي (بالكسر) مع المقتضى (بالفتح)، أو بين الخالق والمخلوق، فالخطاب من سنخ الخطابات التكوينيّة التي لا يختصّ بزمان دون زمان ولا بقوم دون آخرين.

نعم، أفضل مصاديقه الإنسان الكامل والإسلام، لأنّهما أفضل الممكنات.

ومن ذلك كلّه يعرف أنّه ليس المراد بالاعتصام القولي منه فقط أو

الاعتقادي، بل الاعتصام العملي والطاعة لله تعالى بكلّ ما شاء وأراد، ومثل هذا الاعتصام تحكم بحسنه فطرة العقول، لأنّ اعتصام الفقير المطلق بالغني كذلك ممّا تحكم بلزومه الفطرة، بل أنّ الممكن بذاته معتصم لمبدأه، لاسيما بعد أن أثبت المحقّقون من الفلاسفة أنّ مناط الحاجة هو الإمكان لا الحدوث، ولابدّ وأن يظهر الإنسان هذا الاعتصام الذاتي في الاعتقاد والقول والعمل، بأن يطابق ما يصدر عنه لما هو المحبوب لدى المعتصم به.

وإنّما أمر سبحانه وتعالى بالاعتصام بحبل الله على نحو الجمع في قوله: «واعتصموا»، ثمّ أكّده بقوله تعالى: «جميعاً»، وثالثة بقوله: «ولا تفرّقوا»، لأنّ اختلاف الأُمّة أحزاباً أو أشياعاً أضرّ شيء بالنظام، ويستفاد من أنّ هذا الحكم لا يتحقّق حدوثاً وبقاءً إلّا على نحو الجمع والاجتماع، فالاعتصام الفردي من دون الجماعة لا يثبت المطلوب والغرض من هذا الحكم، فيكون عدم الاجتماع على هذا الحكم من موجبات التفرّق والاختلاف والوقوع في المهالك، فالآية السابقة تتعرّض لحكم الفرد من حيث التقوى والموت على الإسلام، وهذه الآية لحكم الجماعة.

قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾.

دعوى إلى تذكّر نِعَم الله تعالى التي فيها الموعظة والعبرة، وفيها الحثّ على الاجتماع إلى الاعتصام بحبل الله تعالى المؤدّي إلى التآلف وزوال الأضغان والنفرة بين أفراد المجتمع.

وفي الآية الشريفة دعوة إلى تعلّم العلل والأسباب التي تؤدّي إلى خير الإنسان وسعادته، وتهديه إلى الحقّ والتوفيق إلى الإيمان الصحيح ونبذ التقليد الأعمى، الذي لا يجنى منه الخير. وهذا هو الأصل القويم الذي اعتمد عليه القرآن

الكريم في تعليم الإنسان وهديه إلى سعادته، فإنّه يأمره بالعلم النافع والعمل الصالح، ليمكّنه معرفة الحقائق وارتباط بعضها مع البعض، ثمّ كيفيّة ارتباطها مع مسبّب الأسباب والمبدأ الفيّاض، ورجوعها إلى الله تعالى والأمر بالاعتصام بحبله والتسليم لأمره، فإنّ في ذلك السعادة الحقيقيّة، وفي غيره الجهل والبُعد عن الحقيقة، وقد نهى عزّ وجلّ عن التقليد الأعمى الذي يسلب الإرادة عن الإنسان وينفي عنه التفكّر الصحيح، ويشوّه الحقائق. وقد أقام سبحانه أدلّة ثلاثة على ما حثّ عليه من التذكّر وندب إليه من التفكّر، اثنتان منها تشهد عليهما التجربة، والثالث مبني على البرهان القطعي.

قوله تعالى: ﴿**إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ**﴾.

هذا هو الدليل الأوّل، وهو تذكّر العداوة التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي الفاسد، والبغضاء التي كانت قائمة بينهم، وقد قاسوا مرارتها وكابدوا شدائدها وأهوالها، فقد كانت الحروب والقتل والدمار والضغائن والأحقاد ملتهبة وبلغت ذروتها أبان الدعوة الإسلامية، فألّف عزّ وجلّ بين القلوب بالإسلام والرسول الكريم الأمين، فزالت تلك الأحقاد وحلّ الصلح والوئام، وقد تألّفت قلوبهم، وهو أكبر دليل على حقيقة الإيمان بالله والاعتصام بحبله وتذكّر نعمه، فإنّه لولا الإسلام لما ذاق المجتمع حلاوة المحبّة والأُخوّة، ولما زالت مرارة العداوة والفرقة.

قوله تعالى: ﴿**فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً**﴾.

هذا هو الدليل الثاني، والإخوان جمع أخ. وقيل إنّ أكثر ما يجمع أخو الصداقة على الإخوان، والأخ في النسب على الإخوة، وقد ورد في أخ الصداقة

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[1]، وفي النسب قوله تعالى: ﴿أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ﴾[3].

والمراد بها وقوع التآلف في القلوب، كعادة الإخوة الأشقّاء في كونهم يداً واحدة بقلوب مؤتلفة، وفي تكرار هذه المنّة التنبيه على ما ذكرناه والحثّ على التمسّك بحبل الله والاعتصام به وتذكّر نعمه التي توصّلكم إلى السعادة وتهديكم إلى الرّشاد، فإنّ في الأُخوّة التي منّها الله تعالى عليهم الاجتماع والتآلف.

قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾.

عطف على «كنتم أعداء»، وهذا هو الدليل الثالث المبني على البرهان. و(شفا حفرة) أي طرف الحفرة وحافّتها، فإنّ شفا كلّ شيء جرفه وحافّته. ومنه حديث عليّ عليه السلام: «نازل بشفا جُرُف هار» أي جانبه، وفي المأثور: «لا تنظروا إلى صلاة أحد ولا إلى صيامه، ولكن انظروا إلى ورعه إذا شفا»، أي أشرف على الدُّنيا وأقبلت عليه، ويُقال: «أشفا على الهلاك»، أي ورد على شفاه.

وقيل إنّ كلمة «شفا» لا تستعمل إلّا في الشرّ.

وقد تستعمل في القليل أيضاً، يُقال: «ما بقى منه إلّا شفا»، أي قليل، ويثنى على شفوين والجمع أشفاء، ويضاف إلى الأعلى وإلى الأسفل. وكنتم على شفا حفرة أي مشرفين على السقوط فيها.

والمراد من النار هي التي أوقدها بأعمالهم ومعتقداتهم التي كانت سبباً للنار الحقيقيّة وهي نار جهنّم، ونار الدُّنيا التي هي الحروب والمنازعات، فإنّها

---

١. سورة الحجرات: الآية ١٠.

٢. سورة النور: الآية ٣١.

٣. سورة النور: الآية ٦١.

استعملت فيها كثيراً في المحاورات الصحيحة، كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَاراً لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللهُ﴾[1].

وكيف كان، فالآية الشريفة تبيِّن حالهم في المجتمع الجاهلي الفاسد المبني على الضغائن والحروب والمنازعات والتنافر والافتراق، كما تبيّن مآلهم الذي يصلون إليه، وهو الدخول في النار في الآخرة وسلب الطمأنينة والأمن، فقد جلبت لهم الشقاوة والعناء والزوال في الدُّنيا. وقد أنقذهم الله تعالى من مآلهم الفاسد بالإسلام الذي جلب لهم الطمأنينة والأمن والرفاه والعيش الهنيء والسعادة، وقد شاهدوا بدخولهم في الإسلام ما لم يتخيّلوه في الحسبان، فلذلك كان هذا البرهان أوقع في النفوس من غيره، لأنّه كان به خلاصهم من العذاب في الآخرة والشقاء والحرمان في الدُّنيا، وهذا الدليل حاصل مضمون الدليلين المتقدِّمين المشتملين على الحسّ والوجدان، دون محض التقدير ومجرّد الحسبان.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

أي يبيّنها برهاناً ووجداناً ومشاهدةً، لأجل اهتدائكم إلى حقيقة الإيمان والاعتصام بحبل الله المبين، وتدخلون في الصراط المستقيم وتتذكّرون نعمه التي أنعمها الله تعالى على المسلمين.

قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾.

أمر سبحانه وتعالى بتكميل الغير بعدما أمرهم بتكميل أنفسهم، حيث إنّ

---

١ . سورة المائدة: الآية ٦٤.

الاعتصام بحبل الله تعالى المادّة المهيّأة لتوارد الصور الكمالية عليها . ومن المعلوم أنّ المادّة لا فعلية لها إلّا بالصورة ، كما هو ثابت في الفلسفة الإلهية ، فلابدّ من السعي في تحصيل تلك الصورة ، وهي الدعوة إلى الخير ، سواء كان من النبيّ أم الوصيّ أو مَن يقوم مقامهما في هذا الشأن .

وإنّما تكون الدعوة إلى الخير بمنزلة الصورة الفعلية للاعتصام بالله تعالى ، والدعوة إلى الخير هي من أهمّ الأسباب التي تكون دخيلة في رقيّ الأُمّة وتقدّمها في كلّ المجالات ، فهي تحفظ العلم عن الضياع والعمل عن الفساد ، والمجتمع عن الانهيار في مهلكة الشرور ، فهي جامعة السعادة ومانعة الشقاوة ، وأنّ القوانين المجعولة ـ خالقية كانت أم خلقية ـ إنّما يترتّب الأثر عليها من حيث البقاء ومداومة العمل بها ، لا بمجرّد حدوثها فقط ، وأنّ البقاء يتقوّم بأمرين :

الأوّل : العمل بها بشرائطها المقرّرة .

الثاني : الترغيب إلى فعلها والترهيب عن تركها .

وبعبارة أُخرى: أنّ القوّة المجرية لها في مقام حفظ القانون هي الدعوة . ويعبَّر عنها بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولذا كانت لهما المنزلة العظيمة في الشرائع السماوية ، بل في القوانين المجعولة ، ولولاهما لاختلّ النظام وتعطّلت الأحكام ، ولأنبياء الله العظام وأوصيائهم الكرام الزعامة الكبرى في التصدّي لهذين التكليفين العظيمين .

والمراد من الخير كلّ ما له دخل في الاعتصام بحبل الله ، سواء كان من المعارف الحقّة أم الأعمال الصالحة أو مكارم الأخلاق ، وما ذكره عزّ وجلّ في المقام ترغيباً إلى الخير الذي تدعو إليه فطرة العقول ويحبّه كلّ إنسان ، ولا يمكن أن يجهله أحد ، ولبيان أنّ المجتمع الذي يكون الخير هو مطلبهم ومنهاجهم وعملهم هو المجتمع السعيد والأُمّة الراقية .

وقد اختلف المفسِّرون في معنى الخير في المقام:

فقيل: إنّه الإسلام.

وقيل: إنّه اتّباع القرآن وسنّة الرسول، وقيل غير ذلك.

والحقّ أنّ ما ذكروه من مصاديق مطلق الخير، والصحيح ما ذكرناه، فإنّ جميع ذلك دواع إلى الاعتصام بحبل الله تعالى.

والأُمّة: الجماعة التي تؤم أمراً معيّناً، وقد أُطلقت في القرآن الكريم كثيراً على اتباع الأنبياء، لأنّهم اجتمعوا على قصد واحد، وهو اتباع الحقّ وراء قدوة شخص معيّن، وتطلق أيضاً على الدِّين والملّة، قال تعالى: **﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾**[1]، وعلى السنين، قال تعالى: **﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾**[2]، والجميع يرجع إلى معنى واحد، وقد تقدّم في قوله تعالى: **﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً﴾**[3]، وكذا في قوله تعالى: **﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾**[4] بعض الكلام في اشتقاق هذه الكلمة.

والدُّعاء إلى الخير، هو الدّعاء إلى كلّ ما فيه صلاح الأُمّة ديناً ودنياً وآخرة، كما عرفت. وفي الحديث: «سأخبركم بأوّل أمري: دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسىٰ»، دعوة إبراهيم عليه السلام هي قوله تعالى: **﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾**[5]، وبشارة عيسى هي قوله تعالى: **﴿وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾**[6].

---

١ . سورة الزخرف: الآية ٢٢.

٢ . سورة يوسف: الآية ٤٥.

٣ . سورة البقرة: الآية ١٢٨.

٤ . سورة البقرة: الآية ١٤١.

٥ . سورة البقرة: الآية ١٢٩.

٦ . سورة الصف: الآية ٦.

والمعروف: كلّ ما هو خير وحسن عقلاً ولم ينه عنه شرعاً، فهو اسم جامع يشمل طاعة الله جلّ جلاله والتقرّب إليه والإحسان إلى الناس، وفي الحديث: «أهل المعروف في الدُّنيا هم أهل المعروف في الآخرة»، يعني مَن بذل معروفه في الدُّنيا وأحسن العشرة مع الناس، آتاه الله جزاء معروفه في الآخرة. وروي عن ابن عبّاس في معنى الحديث:

«يأتي أصحاب المعروف في الدُّنيا يوم القيامة فيغفر لهم بمعروفهم وتبقى حسناتهم جامة (جامدة) فيعطونها لمَن زادت سيّئاته على حسناته، فيغفر له ويدخل الجنّة، فيجتمع لهم الإحسان إلى الناس في الدُّنيا والآخرة».

والمنكر: هو ما أنكره العقل والشرع، فيكون ضدّ المعروف.

وعطف الأمر بالمعروف على دعوة الخير، يكون عطفاً تفسيراً لبيان أنّ دعوة الخير هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولمعلوميّة الخير ومحبوبيّته لدى الجميع، فلابدّ أن يكون المعروف والمنكر معلومين عند الداعي إلى الخير، وللإعلام بأنّ المجتمع الذي بلغ من الكمال بالاعتصام بحبل الله تعالى صار المعروف عندهم هو الخير، والمنكر هو الشرّ، كما أنّه يمكن أن يكون أيضاً لأجل أنّ المعروف والمنكر عند الشرع هو الخير والشرّ، المعروفان عند العقل وتدعو إليهما الفطرة.

وقيل: إنّ عطف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على دعوة الخير، هو من عطف الخاص على العام، فيكون من قبيل عطف أفضل الأفراد على الكلّي.

ولا ينافي ذلك ما ذكرناه.

وكيف كان، فالآية الشريفة تدلّ على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلا شكّ في ذلك.

وإنّما البحث والخلاف في كونه كفائياً أو عينيّاً، والظاهر أنّه يرجع إلى

دلالة «من»، **فقيل**: إنّها للتبعيض، فيكون الوجوب كفائياً.

وقيل: إنّها بيانيّة.

والمعنى: كونوا أُمّة كذلك، فيكون الوجوب عينيّاً.

وسياق الآية الشريفة يدلّ على الأوّل، ويرجّحه أنّ الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إنّما تكون واجبة لأجل البعث على الطاعات والزجر عن القبائح والمعاصي، ولا معنى لوجوبهما بعد حصول الغرض من البعض، فالخطاب وإن كان متعلّقاً بالجميع لكن الغرض يحصل من أيّ فرد كان، وبما أنّ المقام يحتاج إلى التعاضد والتعاون حتّى يكون له التأثير القويّ في حصول الغرض، وليسا كغيرهما من الواجبات، كان الأمر متعلّقاً بالجميع، وبعد ذلك فلا وقع للنزاع في كون «من» تبعيضيّة أو بيانية، فإنّ الأمر متعلّق بالجميع بقدر ما يتعلّق بالأفراد والبعض، فإنّ هذا التكليف لطف إلٰهي يتعلّق بالجميع، ولا بدّ من التعاضد والتعاون، ولا يمكن ترك القائم به لوحده والإعراض عنه، وقد ذكرنا في الأُصول أنّه لا فرق بين الوجوب الكفائي والوجوب العيني بحسب ذات الوجوب، وإنّما الفرق بينهما باعتبار سقوط التكليف عن الكلّ بعد قيام البعض به في الأوّل دون الثاني. وهذا يكون من باب تعدّد الدال والمدلول، لا باعتبار حقيقة الوجوب، ولذا اشتهر بين الفقهاء أنّ في ترك الجميع للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يعاقب الكلّ لا البعض، فراجع ما ذكرناه في «مهذب الأحكام»، ويدلّ على ما ذكرناه ذيل الآية الشريفة الظاهر في الرجوع إلى الموصوفين بهذه الصفة.

قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

جملة استئنافية، أي الداعون إلى المعروف والناهون عن المنكر هم الكاملون في الفلاح، كما هو قضيّة الحصر.

ويستفاد من الآية الشريفة كمال الأهمّية لهذا التكليف الإلهي والمنصب الرفيع ، بل هما من مناصب الأنبياء والأوصياء والأولياء الصالحين ، وقد ورد في فضلهما روايات كثيرة ، يأتي في البحث الروائي نقل بعضها ، ولهما شروط وآداب كثيرة ، يستفاد بعضها من هذه الآية الشريفة والبقيّة من غيرها .

ويستفاد من مجموع الأدلّة الواردة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كتاباً وسنّةً ، أنّ هذه الدعوة من صفات الباري جلّ جلاله ، كالحكم بين الناس بالعدل ، وقد فوّض الله تعالى ذلك إلى أنبيائه وأوصيائه والقائمين مقامهم ، وهذه الدعوة ترجع إلى التخلّق بأخلاق الله تعالى، والتخلّي عمّا لا يرضاه الله، والتحلّي بما يرضاه ، وتفاني الدنيا في عالم العقبى ، فيصير الكلّ باقياً ببقاء الله تعالى ، ولعلّ ما ورد في الحديث : «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خلقان من خلق الله تعالى ، مَن أحياهما أحياه الله تعالى» ، يرجع إلى ذلك ، فإنّ الخلق إنّما يعتبر في مرتبة الفعل لا في مرتبة الذات ، والمراد بالإحياء الأعمّ من الإحياء الدنيوي والأُخروي ، وسبب الإحياء معلوم ، لأنّه اتّصال فعلي بالحيّ القيوم .

قوله تعالى : **﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾** .

بعدما أكّد سبحانه الدعوة إلى الاتّحاد والاعتصام بحبل الله تعالى والدعوة إلى الخير ، بيّن سبحانه وتعالى في هذه الآية ما يترتّب على الإعراض عن ذلك والإحجام عن ما أمرهم في سبيل الوحدة والاتّحاد بين أفراد المجتمع ، فإنّه لايمكن أن تختلف أُمّة إذا اجتمعت على مقصد واحد وهدف معيّن واتّفقت عقائدهم ، وكانت بعيدة عن الأهواء الباطلة وما يوجب الضلال ، وتحقّق التعاون والتناصر بين أفرادها ، وقويت أواصر الوحدة فيهم ، وبعدت عمّا يوجب الافتراق والاختلاف بينهم ، فهذه الآية كالدليل على لزوم متابعة ما ورد في الآيات السابقة .

والتفرّق إنّما يكون في ما يجب فيه الاجتماع ممّا فيه الصلاح والإصلاح، ويكون ابتداءً في الأبدان والابتعاد عمّا يوجب اتّحاد الأفراد.

وأمّا الاختلاف إنّما يكون في العقائد والآراء ويوجبه الافتراق في الكلمة، فهو كالمقدّمة التي توصل إلى الاختلاف في العقائد والآراء، فإنّ كلّ اختلاف في الرأي إنّما ينشأ عن التفرّق في الكلمة وتباعد أفراد المجتمع، والاختلاف هذا إنّما يكون عن ضلال الأهواء والبغي، ولذا نسب سبحانه وتعالى الاختلاف إلى البغي في عدّة آيات، منها قوله تعالى: **﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾**[1]، ويدلّ على ذلك أيضاً قوله تعالى في المقام: **﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾**، فإنّ الاختلاف بعد مجيء الآيات للحقّ الموجبة للاتّحاد والاجتماع إنّما يكون عن إعراض عنها، فيكون عن بغي وضلال.

والمعنى: ولا تكونوا كالذين تفرّقوا في الكلمة ولم يجتمعوا على ما أمرهم الله تعالى وخرجوا عن الجماعة، فأوجب التباغض بينهم والتباين في آرائهم والاختلاف في عقائدهم، فصاروا شيعاً وأحزاباً، وفي ذلك زوال سعادتهم ووقوعهم في الشقاق والنفاق والحروب والمنازعات، فتذهب كرامتهم واستقلالهم وأمنهم وأمانهم.

ويستفاد من الآية الشريفة، أنّ الاختلاف المذموم هو ما إذا كان البغي والضلال، وأمّا غيره فلا ضرر فيه، بل هو ضروري لاختلاف الأفهام والإدراكات، ويكون سبباً للرقي والاستكمال، ولكن لابدّ أن لا يصل إلى حدّ يوجب التباغض والتنافر.

قوله تعالى: **﴿وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾**.

---

١. سورة البقرة: الآية ٢١٣.

جملة استئنافية هي نتيجة للسابق ، أي أنّ الذين افترقوا واختلفوا في دين الله لهم عذاب عظيم ، جزاءً لظلمهم وعدوانهم لما أوجدوا من التفرّق والاختلاف .

وإنّما ختم سبحانه وتعالى هذه الآية الشريفة بهذه الجملة مقابلةً للآية السابقة ، فإنّ النتيجة إذا كان فيها الفلاح والنجاح فلا محالة يكون في عكس ذلك الخسران والعذاب .

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ .

تفريع على التقسيم السابق ، وبيان لجزاء الطائفتين المتقدّمتين ، ويكون التقسيم من اللف والنشر المشوش المصطلح عليه في علم البديع ، فتكون وجوه المفلحين مبيضّة ووجوه الظالمين مسودّة .

وإنّما ذكر عزّ وجلّ الوجوه من بين سائر الأعضاء ، إعلاناً لرفعة شأن المفلحين في الآخرة ، حتّى يعرفهم جميع أهل المحشر وينظروا إليهم ، وتبييناً لخسّة الظالمين وإذلالهم حتّى يكونوا منفعلين في الآخرة كما كانوا كذلك في الدُّنيا .

وقد خصّ سبحانه وتعالى من نِعَم الآخرة وعذابها بياض الوجه وسواده ، لأنّ المفلحين لمّا كانوا معتصمين بحبل الله تعالى، تلحقهم البشارات الإلهية في كلّ آن، وكانوا مجتمعين في الاعتصام به عزّ وجلّ ،كانت الطلاقة والبشاشة ظاهرة في وجوههم في الدار الدنيا ، فيكونون كذلك في الدار الآخرة ، وأمّا الظالمون الذين أعرضوا عن الاعتصام بحبله ، فانقطعت عنهم البشارات الربانيّة ، ووقعوا في النزاع والتباغض والاختلاف ، فكانوا مخذولين قد ظهر على وجوههم الانكسار والانفعال في الدُّنيا ، فلحقهم مثل ذلك في الدار الآخرة ، فكان الجزاء مناسباً لأعمالهم وصفاتهم .

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾.

تفصيل بعد إجمال. والجملة مركّبة من الشرط، وهو: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾، والجواب فيقال لهم: ﴿أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾، وحذف القول واستتباع الفاء في الحذف له شائع في كلمات الفصحاء، وإنّما الممنوع حذفها وحدها.

وعن بعض المفسّرين يجوز أن يكون الجواب: «فهم في عذاب أليم» كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾، ويناسبه قوله تعالى في الآية الأُخرى: ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، وفائدة ذلك التهويل بالجواب ليقدّره السامع بكلّ نحو يشعر به المقام من الهول، وهو باب واسع في البلاغة.

ولكن، يمكن أن يقال إنّه لا وجه لهذا الاختلاف في الأسباب التوليدية، كما أثبتناه في علم الأُصول، سواء كان الجواب السبب أم المسبّب، مع أنّ هذا التهويل والتخويف يستفاد من لفظ العذاب المعهود الموصوف بالعظمة.

وكيف كان، ففي قوله تعالى: ﴿أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ التفات لغرض التوبيخ والتقريع. وإنّما قدّم عزّ وجلّ جزاء الظالمين بمحاورته لقوله تعالى: ﴿وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾، وتوبيخاً لهم وتشنيعاً لفعلهم، مع أنّه عزّ وجلّ ابتدأ بذكر أصل الثواب، واختتم بجزاء المفلحين، ليكون الابتداء والاختتام بما يشرح الصدر ويسرّ الطبع، وللإعلام بأنّ رحمته سبقت غضبه. وحقيقة هذا الخطاب عامّة بالنسبة إلى الدنيا والآخرة.

والمراد بالإيمان الظاهري منه، أي الذين آمنوا به، كما أنّ المراد بالكفر ترك الاعتصام بحبل الله، فتفرّقوا واختلفوا وبدّلوا دين الله تعالى وهتكوا حرماته، فكفروا بأنعم الله، وحينئذٍ لا تختصّ الآية الشريفة بطائفة خاصّة كما قيل، بل تعمّ جميع مَن آمن صورة وترك العمل بما آمن به وكفر بأنعمه عزّ وجلّ.

قوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾.

إنّما أطلق عزّ وجلّ العذاب ولم يصفه بأمر، تعظيماً له وتهويلاً، والأمر للإهانة، والفاء للإيذان بأنّ العذاب مترتّب على الكفر، كما يدلّ عليه ذيل الآية الشريفة: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾، والباء للسببيّة.

وإنّما جمع عزّ وجلّ الفعل الماضي والمستقبل، للدلالة على استمرارهم على الكفر، وكأنّه صار طبعهم، وبذلك استحقّوا الجزاء الأليم، وأنّ ذلك العذاب جزاء أعمالهم، اختاروه بسوء أعمالهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

الرحمة عامّة شاملة لجميع مواهبه تعالى وإفاضاته بالنسبة إلى عباده المؤمنين، دنيوية كانت تلك الرحمة أو اُخروية، وكلّ ما يكون في الدنيا يتمثّل في العقبى بصورة حسنة، وكلّ ما هو في الجنّة يكون في صورة الفلاح والنجاح، فهما متّحدان ذاتاً، فيكون الجزاء في الطائفتين مناسباً لأفعالهم، فكلّ ما يصدر عنهم في الدنيا يكون لهم أو عليهم في العقبى.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾.

الظرف متعلّق بالآيات، كما يصحّ تعلّقه بقوله: «نتلوها»، لأنّ المتلو عين تلك الآيات، وهي عين ما يتلوها الله تعالى على نبيّه، فلا فرق بين تعلّق الظرف بالتلاوة أو بالآيات المتلوّة، وهو قيد توضيحي، لأنّ كلّ ما يصدر عنه تبارك وتعالى حقّ بجميع معنى الكلمة.

والمراد بالآيات والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما أنّ المراد بالحقّ نفس الأمر الواقعي، الذي يقوم به نظام الدنيا والآخرة، فإنّ

الأحكام التي شرّعها الله تعالى لعباده تتضمّن سعادتهم الدنيوية والأُخروية، بل لأجلها شرّعت.

قوله تعالى: ﴿**وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعالَمِينَ**﴾.

بيان لمعنى الحقّ، فإنّ ما هو الحقّ واقعاً لا يعقل منه الظلم، لأنّه إنّما يكون لترميم النقص وتكميله، والمفروض أنّه محال عليه تعالى، فهو عام يشمل جميع أنحاء الظلم تشريعاً وجزاءً، كما تدلّ عليه الآية الشريفة، فإنّ الظلم نكرة واقعة في سياق النفي.

و(العالمين) جمع محلّى باللام، يفيد الاستغراق يشمل كلّ عالم في سلسلة الزمان، كما يشمل عالم البرزخ والآخرة إلى ما لا نهاية له، وهذه الآية تأكيد لقوله تعالى: ﴿**فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ**﴾، فإنّ العذاب إذا كان نتيجة الكفر لا وجه لاحتمال الظلم بالنسبة إلى العامل الذي اختار الجزاء بنفسه، فتكون جميع المساوي والشرور التي تصيب الإنسان في العالَمين ـ الدنيا والآخرة ـ من ترك الاعتصام بحبل الله تعالى عملاً، ومن التفرّق والاختلاف كما تقدّم.

***

بحوث المقام

بحث أدبي:

نصب «حقّ» في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ على النيابة عن المفعول المطلق المضاف إليه، لأنّه من صفاته.

واللام في قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ للأمر، والجمهور على إسكانها، وقرئ بكسرها على الأصل، و(تكن) إمّا من كان التامّة، فتكون «أُمّة» فاعلاً وجملة «يدعون» صفته، و«منكم» متعلّق بـ(تكن)، أو بمحذوف يكون صفة لأُمّة قدّم عليها فصار حالاً، وإمّا من كان الناقصة فتكون «أُمّة» اسمها و(يدعون) خبرها و(ومنكم) إمّا حال من أُمّة، أو متعلّق بكان الناقصة.

وإنّما أتى «يدعون» مذكّراً باعتبار إرادة الجماعة من الذكور من الأُمّة، وتدخل النساء تغليباً، إن لم نقل باشتراك الصيغة للمذكّر والمؤنّث.

ونصب (يوم) في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ للظرفية.

قيل: إنّ العامل فيه «عظيم»، ويجوز أن تعمل فيه الجملة في معنى يعذبون يوم.

وقيل: إنّه منصوب على الظرفية، أي (لهم)، لأنّ فيه معنى الاستقرارية.

وقيل: إنّه منصوب بإضمار (اذكر) على أنّه مفعول.

وقيل: إنّه ظرف لفلاح المفلحين وعاقبة المتفرّقين.

والحقّ أن يقال: إنّ النصب لما كان يدلّ على الإعلان والإظهار والتفخيم، فيكون المقدر «اعلن يومَ تبيض وجوه وتسودّ وجوه»، فتدلّ الآية المباركة على عظمة هذا الخطاب وتجليله وتعظيمه، بحيث يجذب القلوب وتصير

العقول صرعى.

***

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على أُمور:

الأوّل: قوله تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾**، على مراعاة التقوى والمبالغة فيها في جميع الأحوال، بحيث لا تشوبها غفلة فلا يتركها أحد قدر المستطاع، ولذا قسّم أهل العرفان التقوى على مراتب ثلاث:

تقوى العوام: وهي الاجتناب عن ما لا يرضاه الله تعالى.

وتقوى الخواص: وهي الاجتناب عن كلّ مرجوح حتّى المكروهات.

وتقوى أخصّ الخواص: وهي الاجتناب عمّا سوى الله تعالى في الكونين.

الثاني: يدلّ قوله تعالى: **﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾**، على لزوم الإسلام في جميع الأزمان، وعدم الانصراف عنه في وقت من الأوقات، والتمسّك به حتّى يقع الموت وهو على الإسلام، بحيث لا تصرفه الشبهات ولا تعوقه المشكلات عن العمل بأحكام الإسلام، فلا يردّه بعد إيمانه كافراً، فإنّ الحشر إنّما يكون على ما يقع عليه الموت، وقد ورد عن نبيّنا الأعظم ﷺ: «كما تعيشون تموتون وكما تموتون تحشرون»، فإذا مات على دين الإسلام والالتزام به اعتقاداً وعملاً، حشر على هذه الحالة وفاز بالسعادة والرضوان من حين موته.

ومن ذلك يظهر الوجه في التأكيد والحصر الواردين في الآية الشريفة.

كما أنّه يمكن أن يستفاد من هذه الآية أيضاً أنّ المعصية قد توجب الصرف عن الإيمان حين الموت، فيتحقّق الخسران لا محالة، فلابدّ من ترك المعصية مطلقاً حتّى لا يكون للشيطان فيه مطمع. وعلى هذا يكون ترتّب هذه الآية على قوله تعالى: **﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾** من قبيل ترتّب المقتضى (بالفتح) على المقتضي

(بالكسر)، واللازم على الملزوم.

الثالث: يستفاد من قوله: **﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾** أنّ الاعتصام بحبل الله تعالى إنّما هو أمر من الأُمور الاجتماعية التي تؤثّر في المجتمع ولا يمكن أن ينال الأثر المطلوب منه إلّا بعمل جميع أفراد المجتمع به وعدم التفرّق عنه بوجه من الوجوه، وعلى هذا لابدّ أن يكون هذا الحبل ذا أثر اجتماعي قويم وله التأثير الكبير في المجتمع، ويكون مقبولاً لديهم، وهم مأمورون بالتمسّك به عملاً، وهو بمنزلة الروح للأُمّة، ولولاه لما كان للأفراد أثر أصلاً، بل كانوا كالجسم بلا روح. والروح الاجتماعية في الإسلام إنّما هي الاعتصام بحبل الله تعالى عملاً، وهذه الروح هي النعمة الحقيقيّة على المجتمع. ومثل هذا الحبل في الإسلام هو القرآن الكريم ومَن أُنزل عليه ومَن شرح القرآن حقّ الشرح.

ومن ذلك يعرف السرّ في تعقيب هذه الآية بقوله تعالى: **﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾**، فإنّه تعالى يبيّن بعض وجوه التفرّق والإعراض عن الاعتصام بحبل الله في عصر ما قبل الإسلام، ثمّ ما وصل إليه الأمر بعد التمسّك بحبل الله، والالتفاف حول الرسول الكريم، والاجتماع على الإخوّة، كما عرفت في التفسير. فيكون الاعتصام بحبل الله حقّ الاعتصام علّة تامّة منحصرة لحفظ الاجتماع عن الخلاف والاختلاف حدوثاً وبقاءً، كما أنّ الانفصام عنه علّة تامّة منحصرة للنفاق والتفرّق والخلاف والسقوط في هاوية الهلاك، والعيان في كلّ ذلك يغني عن البيان والبرهان.

الرابع: يستفاد من التأكيد في إتيان لفظ «جميعاً»، والنهي عن التفرّق في قوله تعالى: **﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا﴾**، أن جعل الداعي إلى

الاجتماع المانع عن الخلاف والاختلاف أمر حقيقي خارجي واقعي وواحد، لا أن يكون اعتقاديّاً، بأن يدّعي كلّ أحد أنّه معتصم بحبل الله تعالى، ولا يلزم الخلاف الباطل بضرورة العقل، فيصحّ أن يقال إنّه كلّ ما حصل الخلاف والاختلاف، لم يتحقّق الاعتصام الحقيقي بحبل الله، فيرجع محصل معنى الآية: أن اجعلوا أنفسكم من مظاهر الاعتصام بالله. ولعلّ من أحد أسرار هذا التأكيد على الاجتماع والنهي عن الاختلاف هو ما كان يعلمه الله تعالى من مستقبل هذه الأُمّة من وقوع الاختلاف فيها، وأنّها تختلف كما اختلف غيرهم من اليهود والنصارى، وهذا هو دأب القرآن الكريم، أنّه إذا بالغ في التحذير عن شيء إنّما يريد التنبيه على ترتّب وقوعه، وهو من ملاحم القرآن الكريم.

الخامس: يدلّ قوله تعالى: **﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾** على وجوب النظر في الأدلّة والآيات والتفكّر الصحيح المنتج، فإنّ في ذلك الهداية للإنسان.

السادس: يستفاد من قوله تعالى: **﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾**، أهمّية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد أمر عزّ وجلّ الأُمّة إلى تحمّل هذه المسؤولية أوّلاً، لأنّ المقام يحتاج إلى التعاون والتعاضد، فلا يمكن ترك المتصدّي وحده كما مرّ في التفسير، ثمّ أمر طائفة خاصّة منها إلى التصدّي لهما، لأنّه يشترط فيهما العلم والقدرة، ومن المعلوم عدم تحقّق جميع الشروط في كلّ فرد، ثمّ ثبوت الجزاء الجزيل على ذلك وتشديد النكير على تركه.

وأخيراً، أنّ هذا التكليف من أسباب التكميل والتهذيب، والصلاح والإصلاح، وترويض النفس وتزيينها بالفضائل والكمالات، وسعادة الفرد والمجتمع، وتحسين نظام الاجتماع والمدنية، ولذا كان التكليف جارياً على أحسن نهج وما هو الأوفق بالحكمة، فهو من أعظم صفات الله تعالى، أوكلها إلى

أنبيائه ورسله، ويدلّ على ذلك جملة من الأحاديث:

فقد ورد عن الإمام محمّد الباقر عليه السلام في حديث:

«إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبيل الأنبياء ومنهاج الصلحاء، فريضة عظيمة بها تقام الفرائض وتؤمن المذاهب، وتحلّ المكاسب، وتردّ المظالم، وتعمّر الأرض، وينتصف من الأعداء، ويستقيم الأمر ـ الحديث ـ».

السابع: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ**﴾ مراتب هذه الدعوة، فإنّها تبتني على كونها باعثة على الانقياد، وداعية إلى الزجر ورادعة عن المنكر من القول والفعل وسائر الأُمور المحصلة لهذا الغرض، وإن كان في بعض المراتب يتوقّف على إذن وليّ الأمر، فإنّ عموم الدعوة يشمل جميع هذه المراتب القولية والعملية وغيرهما.

الثامن: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ**﴾، أنّ الدار الآخرة وما فيها من النعيم والجحيم بمنزلة المرآة للدار الدنيا (أو كالصورة)، فكلّ ما هناك لا يعلم إلّا بما هاهنا.

كما تدلّ الآية الشريفة على سنخية الثواب والعقاب مع العمل، ويصحّ أن يراد باليوم في قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ**﴾، طبيعة اليوم المنطبقة على يوم الآخرة وأيّام الدنيا، فإنّ المفلحين مبيضّة وجوههم في هذا العالم قبل يوم الآخرة، والظالمين عكس ذلك، ويكون البياض كناية عن الراحة النفسية واستقرار الضمير واعتماد الناس عليه. وفي الآيات الكريمة والسنّة المقدّسة شواهد كثيرة يأتي في المحلّ المناسب شرح ذلك إن شاء الله تعالى.

التاسع: يدلّ قوله تعالى: ﴿**وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعالَمِينَ**﴾، أنّ ترك التكاليف الإلهية يوجب اختلال النظام وسوء الحال في كلّ عالم، فيكون كلّ ظلم يرد على الإنسان إنّما يرد من ناحيته. وأمّا التكاليف، فقد وضعها الله تعالى على عباده

لسعادتهم وتحسين نظامهم وصلاحهم وإصلاحهم، وحسن معيشتهم ورفع الظلم من بين أفراد الناس.

***

بحث فقهي:

جعل الأحكام مطلقاً شرعية كانت أم غيرها على أقسام:

الأوّل: ما إذا تعلّق الحكم بالطبيعة من حيث الأفراد الانبساطية، ويلزمه محبوبيّة الاجتماع فيه، بل قد يتعلّق الأمر الندبي بها مستقلّة، كالصلاة فرادى وجماعة وغيرها من العبادات، التي يكون الاجتماع فيها مطلوباً ومرغوباً فيه.

الثاني: أن يكون الاجتماع فيه مطلوباً مستقلّاً، فتسري المطلوبية فيه إلى كلّ فرد أيضاً، ويكون ذلك مطلوباً، لا أن يكون هدراً وباطلاً، والاعتصام بحبل الله تبارك وتعالى من هذا القبيل، فيتعلّق التكليف بالجميع، كما تعلّق بالأفراد مستقلّاً أيضاً، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كذلك.

الثالث: أن يتعلّق التكليف بالجميع، ولكن ليس من قدرة كلّ أحد امتثال هذا التكليف بنفسه من نفسه، كالتكليف بحمل حجر ثقيل لا يقدر على حمله إلّا جماعة، ولا وجه حينئذٍ لتعلّق التكليف بكلّ فرد مستقلّاً، بل هو ثابت للجميع، وليس الاعتصام بحبل الله تعالى من هذا القبيل، وهناك أقسام أُخرى لعلّنا نتعرّض لها في المقامات المناسبة إن شاء الله تعالى.

ثمّ إنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لهما شروط وآداب كثيرة، مذكورة في كتب الفقه، وقد تعرّضنا لها في كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من «مهذب الأحكام».

ويستفاد من قوله تعالى: **﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾** أصل الوجوب، وأنّه كفائي ـ كما ذكرنا ـ مضافاً

إلى علم الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر ومعرفته بوجوبهما ، لأنّ الخير معروف لدى كلّ أحد وإنّ المعروف هو كلّ الخير كما عرفت .

***

بحث روائي:

في «المعاني» و«المحاسن» و«تفسير العياشي» ، عن أبي بصير، قال: «سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ : ﴿**اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ**﴾ ؟

قال : يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر» .

أقول : ورد مثله في «الدر المنثور» عن ابن مسعود، عن رسول الله صلى الله عليه وآله ، وما ورد عن الصادق عليه السلام بعض مراتب التقوى التي ذكرها عليه السلام ، وهي تكفي في التلبّس بالتقوى وترتّب آثار التقوى في الدنيا والعقبى .

وفي «تفسير العياشي» ، قال : «سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله : ﴿**اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ**﴾ ؟ قال عليه السلام : منسوخة بقول الله : ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾» .

أقول : روي في «المجمع» وفي «تفسير القمّي» أيضاً ، والمراد من المنسوخ هنا المرتبة الأخيرة من التقوى ، المسمّاة في علم الأخلاق بتقوى أخصّ الخواص . والمراد بالنسخ هنا عدم وجوب مراعاتها دفعاً للعسر والحرج ، وتسهيلاً على الأُمّة ، وأمّا لو رعاها أحد مع مراعاة القواعد الشرعية فلا محذور فيها .

وفي «الدر المنثور» : أخرج الخطيب عن أنس ، قال :

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله : لا يتّقي الله عبد حقّ تقاته حتّى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه» .

أقول : فيكون المراد من قوله تعالى : ﴿**اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ**﴾ ، استناد جميع الأُمور إليه تبارك وتعالى ، وجعله مسبّب الأسباب في كلّ سبب ، أي الاعتقاد

بقوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾[1]، وهذه عبارة أُخرى عن الذكر المعروف المأثور: «لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم».

وبعبارة أُخرى: أنّ قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾، جامع للتوحيد الذاتي وتوحيد المعبود والتوحيد الفعلي، وهذه أحسن كلمة جامعة للمعارف القرآنية.

وفي «تفسير البرهان»: عن ابن شهرآشوب، عن «تفسير وكيع»، عن عبد خير قال: «سألت عليّ بن أبي طالب عن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾؟ قال: والله، ما عمل بها غير بيت رسول الله ﷺ، نحن ذكرناه فلا ننساه، ونحن شكرناه فلن نكفره، ونحن أطعناه فلم نعصه، فلمّا نزلت هذه الآية قالت الصحابة: لا نطيق ذلك، فأنزل الله: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، قال وكيع: ما أطعتم ـ الحديث ـ».

أقول: يبيّن عليه السلام أوّلاً أنّ المراد بالآية حقيقة الشكر وحقيقة الطاعة بجميع مراتبها، وهذا هو الذي يعبّر عنه في اصطلاح العرفاء وعلم الأخلاق بـ تقوى أخصّ الخواص، وذيل الرواية يبيّن تقوى العامّة.

العيّاشي عن الحسين بن خالد:

«قال أبو الحسن الأوّل عليه السلام: كيف تقرأ هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ماذا؟ قلت: مسلمون، فقال: سبحان الله يوقع عليهم الإيمان فيسمّيهم مؤمنين، ثمّ يسألهم الإسلام. والإيمان فوق الإسلام، قلت: هكذا يقرأ؟ في قراءة زيد، قال عليه السلام: إنّما هي قراءة على التنزيل».

أقول: صدر الآية الشريفة تبيّن أنّ الإيمان أخصّ من الإسلام، ولا معنى

---

١ . سورة النساء: الآية ٧٨ .

لبيان الأعمّ بعد ذكر الأخصّ، ولكن ذيل الرواية كما نسب ذلك إلى قراءة عليّ عليه السلام المراد من الإيمان هو الإسلام، كما كان ذلك شائعاً في صدر الإسلام من أنّ المراد من الإيمان الإسلام، كسائر الآيات المشتملة على قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾.

وفي «المجمع»، عن الصادق عليه السلام: «وأنتم مسلمون بالتشديد».

أقول: المراد بالتسليم اعتقاداً وقولاً وعملاً في كلّ ما يرتضيه الله تبارك وتعالى، وهذا ليس إلّا تقوى الله حقّ تقاته.

وفي «الدرّ المنثور»، في قوله تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً**﴾ أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير عن أبي سعيد الخدري، قال:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض».

أقول: لا ريب في صحّته، كما لا ريب في صحّة ما ورد عنه صلى الله عليه وآله متواتراً، أنّه كتاب الله وعترته، لفرض أنّ عترته شارحة لكتاب الله، فلا ينافيه من هذه الجهة.

وفيه أيضاً، أخرج ابن أبي شريح الخزاعي، قال:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ هذا القرآن سبب، طرفه بيد الله، وطرفه بأيديكم، فتمسّكوا به فإنّكم لن تزالوا ولن تضلّوا بعده أبداً».

أقول: وهو عنى الاعتصام بحبل الله. وحبل الله الممدود ونحو ذلك من التعبيرات، أي الممدود إليكم لتأخذوا به.

وفي «معاني الأخبار»، عن السجّاد عليه السلام: «حبل الله هو القرآن، والقرآن يهدي إلى الإمام».

أقول: كما أنّ الإمام عليه السلام يهدي إلى القرآن، فهما في الهداية إليه تبارك وتعالى سواء.

وفي «تفسير القمّي»، في قوله تعالى: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً**﴾، قال: «التوحيد والولاية».

أقول: هما على نحو المتن والشرح.

وفي «تفسير العياشي»، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام، قال: «آل محمّد هم حبل الله الذين أمرنا بالاعتصام به، فقال: واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا».

أقول: لأنّهم لا ينطقون إلّا عن القرآن ولا يبيّنون شيئاً إلّا منه.

وفي «الدر المنثور»، عن زيد بن أرقم، قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

«إنّي لكم فرط وأنّكم واردون عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلّفوني في الثقلين.

قيل: وما الثقلان يارسول الله؟

قال صلى الله عليه وآله: الأكبر كتاب الله عزّ وجلّ، سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، فتمسّكوا به لن تزالوا، والأصغر عترتي، وأنّهما لن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض، وسألت لهما ذاك ربّي فلا تقدّموهما فتهلكوا ولا تعلّموهما، فإنّهما أعلم منكم».

أقول: هذا الحديث الشريف يبيّن جميع ما ورد في أخبار الثقلين وفي التمسّك بحبل الله تعالى، فليس لأحد أن يتمسّك بتلك الأخبار إلّا بعد عرضها على هذا الحديث، لفرض أنّه في مقام البيان والشرح والتعليل.

وفي «تفسير القمّي»، في قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَفَرَّقُوا**﴾ عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «إنّ الله تبارك وتعالى علم أنّهم سيفترقون بعد نبيّهم ويختلفون، فنهاهم عن التفرّق كما نهى مَن كان قبلهم، فأمرهم أن يجتمعوا ـ الحديث ـ».

أقول: قريب منه روايات كثيرة عن نبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله.

وفي «الدرّ المنثور»، عن أنس، قال:

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله: افترقت بنوا إسرائيل على إحدى وسبعين فرقة، وإنّ

أُمّتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة ، كلّهم في النار إلّا واحدة ، قالوا : يارسول الله ، ومَن هذه الواحدة ؟ قال : الجماعة ، ثمّ قال : واعتصموا بحبل الله جميعاً» .

أقول : المراد بالجماعة : الجماعة التي تمسّكوا بالقرآن وبالعترة ، كما في الحديث السابق آنفاً الشارح لمثل هذا الحديث .

وفي «الدر المنثور» أيضاً : أخرج أبو داود ، والترمذي ، وابن ماجة والحاكم في «صحيحه» عن أبي هريرة ، قال :

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله : افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وتفرّقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة ، وتفترق أُمّتي على ثلاث وسبعين فرقة» .

أقول : في مضمون ذلك روايات كثيرة متواترة روتها الشيعة والجمهور .

وفي «الخصال» : عن سليمان بن مهران ، عن جعفر بن محمّد ، عن آبائه ، عن أمير المؤمنين عليه السلام ، قال :

«سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : إنّ أُمّة موسى افترقت على إحدى وسبعين فرقة ، فرقة منها ناجية وسبعون في النار ، وافترقت أُمّة عيسى بعده على اثنتين وسبعين فرقة ، فرقة منها ناجية ، وإحدى وسبعون في النار ، وإنّ أُمّتي ستفترق بعدي على ثلاث وسبعين فرقة ، فرقة منها ناجية واثنتان وسبعون في النار» .

أقول : لابدّ من عرض أمثال هذه الروايات على الحديث المتقدّم الشارح لها المنقول عنه صلى الله عليه وآله .

وفي «جامع الأُصول» ، عن الترمذي ، عن ابن عمرو بن العاص ، قال :

«قال رسول الله صلى الله عليه وآله : يأتي على أُمّتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل ، حتّى لو كان فيهم مَن نكح أُمّه علانية كان في أُمّتي مثله ، إنّ بني إسرائيل افترقوا على إحدى وسبعين ملّة ، وتفترق أُمّتي على ثلاث وسبعين ملّة ، كلّها في النار إلّا ملّة واحدة ، فقيل : ما الواحدة ؟ قال : ما أنا عليه اليوم وأصحابي» .

أقول: رواه السيوطي في «الدرّ المنثور»، والمراد من الأصحاب هم الملتزمون بالقرآن والعترة، لئلا يقع التنافي بينه وبين ما دلّ على أنّهما المناط في الرشاد وعدم الضلال، كما دلّت عليه جملة كثيرة من الروايات.

وفي «كمال الدِّين»، بإسناده عن غياث بن إبراهيم، عن الصادق عليه السلام، عن آبائه عليهم السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: كلّ ما كان في الأمم السابقة فإنّه يكون في هذه الأُمّة مثله حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة».

أقول: المراد بالقذة: تقدير كلّ واحدة من الأُمّتين على قدر صاحبتها وتقطع، وقال ابن الأثير: «يضرب مثلاً للشيئين يستويان ولا يتفاوتان»، وذكر الحديث: «لتركبن سنن مَن كان قبلكم حذو القذّة بالقذّة».

وفي «الكافي»، عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله تعالى: **﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنْ النَّارِ﴾ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا بمحمّد﴾**: «هكذا والله نزل جبرئيل على محمّد صلى الله عليه وآله».

أقول: وفي «تفسير العياشي» مثله، إلّا من دون «والله نزل بها جبرئيل على محمّد»، وهذا تنزيل لمعنى القرآن لا أن يكون تحريف في البين كما يتوهّم. أو يحمل على بعض مراتب أصل النزول، فلا تنافي بينه وبين نزول أصل الآية الشريفة كما في المصاحف، فإنّ مراده تبارك وتعالى قد يظهر بصورة الوحي، ثمّ توحي الآية بصورة أُخرى مع معلومية أصل المراد وتحقّقه.

وفي «تفسير القمّي»، عن النبيّ صلى الله عليه وآله:

«لتركبن سنّة مَن كان قبلكم حذو النعل بالنعل. والقذّة بالقذة، لا تخطون طريقهم ولا يخطى شبر بشبر وذراع بذراع وباع بباع، حتّى إن لو كان مَن قبلكم دخل جُحر ضَبٍ لدخلتموه.

قالوا: اليهود والنصارى تعني يارسول الله؟

قال: فمَن أعني؟ لتنقضنّ عرى الإسلام عروة عروة، فيكون أوّل ما

تنقضون من دينكم الأمانة وآخره الصلاة».

أقول: بعد وجود الشيطان في الأُمّة المرحومة، وعدم منعه عن التدخّل فيها، فيعلّمهم الشيطان تلك الطرق المنتهية إلى الفساد المستلزمة للبُعد عن تقوى الله تعالى، التي أفسد بها الأمم السابقة، وقد جرّب تلك الطرق في الأُمم السابقة واستنتج منها نتائج هامّة، فلا يعقل أن يخلّي هذه الأُمّة لنفسها وعن أعوانه بإغواء هذه الأُمّة بتلك الطرق.

والمراد بالأمانة: التكاليف الواقعية أُصولاً وفروعاً.

والمراد بالصلاة: ذهاب صورتها من بين المسلمين أيضاً، وفي جملة من الأحاديث أنّه لا تقوم الساعة إلّا على شرار خلق الله تبارك وتعالى، ومن ذلك يستفاد أنّ الصلاة بمنزلة العمود للدِّين، فما دامت هي بين المسلمين بحدودها وقيودها يحتفظ بها نظامهم ويتوحّد بها كلامهم.

وفي «صحيح الترمذي»، عن النبيّ ﷺ، أنّه قال:

«والذي نفسي بيده لتركبن سنن مَن كان قبلكم حذو لانعل بالنعل والقذّة بالقذّة، حتّى إن كان فيهم مَن أتى أُمّه يكون فيكم، فلا أدري أتعبدون العجل أم لا؟».

أقول: تقدّمت الروايات الدالّة على ذلك، والسرّ في الاختلاف يرجع إلى اختلاف الآراء والأهواء، وهو ذاتي بعد عدم التزامهم بالشريعة الواقعية وتشرّعهم بغير الواقع.

وفي الصحيحين: عن رسول الله ﷺ، قال:

«ليردن عليَّ الحوض رجال ممّن صاحبني حتّى إذا رفعوا اختلجوا دوني، فلأقولنّ: أي ربِّ أصحابي، فيُقال لي: إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك».

أقول: هذا حديث صحيح يشهد له الوجدان والاعتبار.

وفي الصحيحين أيضاً: عن أبي هريرة، أنّ رسول الله ﷺ قال:

«يرد عليَّ يوم القيامة رهط من أصحابي ـ أو قال من اُمّتي ـ فيحلّؤن عن الحوض، فأقول: ياربِّ أصحابي، فيقول: لا علم لك بما أحدثوا بعدك، ارتدّوا على أعقابهم القهقرى فيحلّؤن».

أقول: المراد من (يحلّؤن) أي يصدّون عنه ويمنعون من وروده، ومضمون هذا الحديث متواتر بين المسلمين، مضافاً إلى الوجدان الخارجي، كما دلّت عليه الآية الشريفة: **﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾**[1].

وفي «الدرّ المنثور»، أخرج الحاكم وصحّحه عن ابن عمر:

«أنّ رسول الله ﷺ قال: مَن خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه حتّى يراجعه، ومَن مات وليس عليه إمام الجماعة فإنّ موتته ميتة جاهلية».

أقول: المراد من إمام الجماعة إمام زمانه، كما وقع بهذا التعبير في جملة من الروايات.

وفي «المجمع»، في قوله تعالى: **﴿أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾** عن أمير المؤمنين عليه السلام: «هم أهل البدع والأهواء والآراء الباطلة من هذه الاُمّة».

أقول: في سياق ذلك روايات كثيرة.

***

١. سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

الآية ١٠٩ ـ ١١٢

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿١٠٩﴾ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾.

الآيات الشريفة مرتبطة بالآيات السابقة، فإنّها اختتمت بأنّ الله تعالى لا يريد أن يوقع بالعالمين ظلماً.

وفي الآية الأُولى من هذه الآيات يبيّن العلّة لذلك من أنـّه غني عن ظلمهم، لأنّه يملك ما في السماوات وما في الأرض وإليه مصير الأُمور، وإنّما يريد ـ جلت عظمته ـ أن يحقّ الحقّ ويجري العدل وينال كلّ إنسان جزاء ما أحسن أو أساء، فيترتّب الجزاء على العمل ويعيش الإنسان بالحقّ وينتهي إلى الحقّ، فقد جمع الله فيها بين المبدأ والمعاد.

وأمّا الآية الثانية منها فتبيّن قدر هذه الأُمّة في هذه الأرض، وبِمَ استحقّت

هذه المنزلة ونالت هذه الكبرياء والعظمة ؟! لم تكن محاباة ولا مجازة، بل لأنّها اعتصمت بحبل الله تعالى، فالآية الشريفة توصف المعتصمين به الداعين للخير بوصف شريف رفيع وتبيِّن قدرهم وفضلهم على مَن سواهم.

كما أنّ الآيات الأخيرة تكشف عن هوان وتصغير أهل الكتاب، بل وغيرهم من الكفّار، بأنّهم لا يملكون ما يضرّوكم، وإنّما هم في ذلّة وكتبت عليهم المسكنة، تعيش في ضمائرهم وتمزّق مشاعرهم، لأنّهم كفروا بآيات الله وتمرّدوا بقتل الأنبياء والاعتداء على الحقّ والحقيقة.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**﴾.

أي: له وحده جميع ما في السماوات والأرض من جميع الجهات، خلقاً وتصرّفاً وتدبيراً وإيجاداً وإفناءً، لأنّه إله العالم ومدبّره وخالقه، وما سواه محتاج إليه في جميع شؤونه.

وإنّما ذكر اسم الجلالة، لبيان وجه مالكيّته ورجوع سائر الخلق إليه، لأنّه الذات المستجمعة لجميع الصفات الكمالية، ولما في الأُلوهيّة من السلطة التامّة على جميع الممكنات.

والمراد بالملكية فيه عزّ وجلّ هي الملكية الحقيقيّة الإيجادية والإبقائية والإفنائية والتربوية التامّة الأبدية، لا الملكيّة الإضافية الاعتبارية، فإنّها من الاعتباريات التي لا تليق به تبارك وتعالى، كما ذكرنا في هذا التفسير مكرّراً.

قوله تعالى: ﴿ **وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**﴾.

بيان للمعاد بعد ذكر المبدأ، لأنّ مَن كان موجداً لما سواه لابدّ أن يصير ما

سواه إليه أيضاً، لما هو ثابت في الفلسفة الإلهية من التلازم بين المبدأ والمعاد، فليس لغيره من الأمر شيء، فلا محالة ترجع الأمور إليه عزّ وجلّ، فهو واحد في الإيجاد والإرجاع والمعاد.

وإنّما ذكر عزّ وجلّ ذلك في المقام، لبيان التلازم بين المبدأ والمعاد، والإظهار في مقام الإضمار، لبيان الدليل لإقامة المعاد ورجوع الأمر إليه، كما استدلّ بذلك على إيجاد الممكنات، ولإظهار المهابة ومنتهى العظمة وغاية الكبرياء، فإذا كان الله تعالى مالكاً لسائر خلقه ومصيرهم إليه، وهو يجازي كلّاً بما تقتضيه حكمته وعدله حسب عمله، فلا يتصوّر وجه للظلم فيه تعالى.

قوله تعالى: **﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾**.

إخبار عن حقيقة الواقع على ما هو عليه، وهو غير محدود بأي حدّ من الحدود الزمانية والمكانية، كما هو شأن الحقائق الواقعية يكفي في صدقها صرف الوجود، وقد تحقّق ذلك عندما كان المسلمون متّصفين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وداعين إلى الخير، فقد كانت لهم السلطة الروحية والظاهرية والتفوّق على غيرهم من الأمم وصدرت منهم العجائب، وسيستعيدون سلطتهم وعظمتهم وروحانيّتهم وتفوّقهمن إذا ظهر العدل الحقيقي في الإسلام واتّفقت كلمة المسلمين على التوحيد، واجتمعت الأُمّة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وشاعت الرحمة بينهم.

والمراد بالخروج هو الظهور بحسب مراتبه التدريجيّة الواقعية، كخروج الأوراد من أكمامها والنباتات عن منبتها، قال تعالى: **﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾**[1].

---

١. سورة الرحمان: الآية ٢٢.

ومن جهة الخيرية معلومة، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتخلّق بأكرم أخلاق الله تعالى، فيصير حقيقة المعنى: كنتم خير أُمّة ظهرت للناس، لأنّكم متخلّقون بأعظم أخلاق الله تعالى، ولاريب في أنّ الصفة تعليليّة، يعني: أنّكم ما دمتم على تلك الصفة تتّصفون بالخيرية، وتنسلخ عنكم إذا زالت الصفة كما هو شأن كلّ وصف تعليلي، فتكون هذه الجملة من قبيل القضايا العقلية المشتملة على العلّة والمعلول، المطابقة لفطرة العقول، يؤتى بها لزيادة التحريض على الانقياد والطواعية، ولبيان شدّة الاهتمام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وتدلّ الآية الشريفة على مدح المؤمنين بالصفات الواردة فيها وتفوّقهم على سائر الناس، وقد تشرّفت الأُمّة بهذه الطائفة المعيّنة المتّصفة بحقيقة الإيمان وبأكرم صفات الباري عزّ وجلّ.

ومن ذلك يعرف أن (كان) ناقصة تدلّ على تحقّق الشروط، لا ما يقال: من أنّها تدلّ على تحقّق مضمونها في الزمان الماضي وانقضى وانقطع، على ما ذكر جمع كثير من أنّ الآية الشريفة نزلت في الذين هاجروا مع رسول الله صلى الله عليه وآله إلى المدينة، وأخرج بعضهم عن عمر أنّه قال: «أوّلنا ولا تكون لآخرنا، فلو شاء الله لقال أنتم فكنّا كلّنا، ولكن قال: كنتم، في خاصّة أصحاب محمّد صلى الله عليه وآله، ومَن صنع مثل صنيعهم كانوا خير أُمّة أُخرجت للناس».

ولكن حق القول أن (كان) وان كانت ناقصة وغير منسلخة عن الزمان، ولكنّها لا تدلّ على ما ذكروه، فإنّه لو كان الأمر كذلك لكانت الآية الشريفة واردة في ذمّ الصحابة لا في مدحهم؛ لأنّها تدلّ على أنّهم كانوا متّصفين في وقت النزول بالمضمون، ولكنّهم انسلخوا عنه في وقت آخر. وهذا بعيد عن سياق الآية الشريفة، ولأجل هذا قال بعضهم: إن (كان) في المقام منسلخة عن الزمان، وقد

استعملت للأزلية قياساً على قوله تعالى : ﴿وَكَانَ اللهُ سَمِيعاً عَلِيماً﴾[١] ، وأشباهه ، فإنّها تستعمل على اللزوم من دون انقطاع وانقضاء .

ولكن ، ذلك مردود أيضاً ، فإن (كان) كذلك بالنسبة إلى صفات الباري ، لأنّ صفاته سبحانه وتعالى أزلية أبدية ، لا يعقل المضي والانقطاع فيها ، ولكن ذلك لا يوجب صرفها عن وضعها في المقام كما هو معلوم .

وقيل : إن (كان) تامّة ـ كقوله تعالى : ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾[٢] ـ مأخوذة من الكون المطاوع للتكوين ، نظير قوله تعالى : ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾[٣] ، و(خير اُمّة) حال من الضمير ، وجملة (اُخرجت) صفة للاُمّة ، بمعنى اُخرجت من العدم إلى الوجود .

ولكن ، كلّ ذلك تطويل بلا طائل بعد ظهور السياق في مدح مَن اتّصف بهذه الصفة ، سواء كان في عصر النزول أم بعد ذلك ، وقد تشرّفت الاُمّة بهذه الطائفة المؤمنة ، وقد أثبتنا في الاُصول أنّ القضايا الحقيقية الواقعية تنطبق على موضوعاتها قهراً أينما تحقّقت ووجدت في الماضي والحال والمستقبل . فلا وجه للنزاع في أن (كان) تامّة أو ناقصة أو منسلخة عن الزمان أو غير منسلخة ، بعد أن كانت الآية من قبيل القضايا الحقيقيّة ، وهكذا في سائر القضايا القرآنية .

قوله تعالى : ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنكَرِ﴾ .

بيان لسبب الصلاح والخيرية للمجتمع ، بل الحياة السعيدة ـ كما تقدّم ـ فإنّ بهما يتحقّق صلاح المجتمع والاُمّة ، وتبعّد الشرّ عنهما ، فالأمر بالمعروف والنهي

---

١ . سورة النساء : الآية ١٤٨ .

٢ . سورة البقرة : الآية ٢٨٠ .

٣ . سورة البقرة : الآية ١١٧ .

عن المنكر بكلّ ما فيهما من المتاعب والمشاق ضروريان لإصلاح المجتمع، وكلّ ما ازداد وانتشر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، اتّصفت الأُمّة بالعظمة والخيرية، وكلّ ما ضعفا انهارت الأُمّة في كيانها.

قوله تعالى: ﴿**وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ**﴾.

أي: تؤمنون بالله تعالى حقّ الايمان، وإنّما قدّم عزّ وجلّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الإيمان بالله تعالى ـ وإن كان الأخير مشتملاً عليهما وأصلاً لهما ـ لبيان أهمّيتهما وأنّ الإخلال بشيء منهما إخلال بالإيمان، ولأنّ الإيمان يمكن أن يدّعيه كلّ أحد، إلّا إذا اقترن القول بالفعل. فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لهما الدلالة على صدق الدعوى، فهما أظهر في الخيرية من مجرّد ادّعاء الإيمان، فيكونان كالمقتضي لتحقّق الإيمان وثبوتهن وصدقه. ولأنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابدّ أن يكونا عن علم بموردهما وعمل لهما، فقد جمعا بين الاعتقاد والعمل.

ومن سياق الآية الشريفة يستفاد أنّ مجرّد الإيمان لم يكن كافياً في الاتّصاف بالخيرية والفضل العظيم، بل لابدّ من تحقّق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتختصّ هذه الفضيلة بطائفة خاصّة، وليس كلّ واحد من المؤمنين داخلاً فيها، فالخطاب يكون لجماعة مخصوصين ملازمين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متلبّسين بحقيقة الايمان، ويأتي في البحث الروائي ما يتعلّق بذلك.

قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَهُمْ**﴾.

أي: لو كان أهل الكتاب على ما وصف به المؤمنون واستعصموا بالإيمان بالله العظيم حقيقة وواقعاً، لفازوا بالسعادة في الدنيا والآخرة ودفع عنهم العذاب.

قوله تعالى: ﴿**مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾.

أي: لكنّهم مختلفون، فمنهم أُمّة مؤمنة، وأُخرى فاسقة خارجة عن طاعة الله تعالى، فكان هذا الاختلاف سبباً في بُعدهم عن حقيقة الإيمان، فلم يجتمعوا على الاعتصام بحبل الله تعالى، بخلاف المؤمنين الذين آمنوا بمحمّد ﷺ واجتمعوا على الاعتصام بحبله تعالى واتّفقوا على طاعة الله عزّوجلّ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ففازوا بسعادة الدارين.

وعلى هذا يمكن أن يكون الإيمان والكفر في الآية الشريفة هما الإيمان والكفر الجهتيان، أي الاجتماع على الاعتصام بالله والتمسّك بحبله والاتّفاق على طاعته، والكفر خلاف تلك.

قوله تعالى: ﴿**لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً**﴾.

الأذى: ما يعرض الإنسان من مكروه في نفسه أو جسمه أو تبعاته، والمراد به في المقام إمّا في القول كالكذب والبهتان، وقبيح الكلام، أو في الفعل، كالتهييج والتجمّع للحرب والقتال، أو ما يجرح قلوب المؤمنين بإظهار الكفر والمجاهرة بالضلال وإفساد القلوب الضعيفة، وقد يستلزم الضرر اليسير، فيكون الاستثناء متّصلاً.

وقيل: إنّ الاستثناء منقطع باعتبار خروج الأذى عن مفهوم الضرر.

ولكنّه بعيد، لأنّ الضرر مطلق النقص، فيشمل الجميع.

والمعنى: أنّ أهل الكتاب لا يمكنهم إيقاع الضرر بكم إلّا ما يوجب أذيّتكم، فإنّهم مع اختلافهم المزبور وفسقهم لايجتمعون على أمر فيه الضرر عليكم، ولا يقدرون على قتالكم والغلبة عليكم.

قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ**﴾.

تولى الأدبار: كناية عن الانهزام وهو معروف، الآية في مقام بيان الضرر

الذي تقدّم ذكره، أي وإن اجتمعوا على إيقاع الضرر بكم بالقتال معكم، فإنّهم ينهزمون من غير أن يظفروا منكم بشيء.

قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ**﴾.

جملة إخبارية مستقلّة ووعد آخر منه عزّ وجلّ بأنّهم لا ينصرون عليكم، لأنّه لا ينصرهم أحدٌ عليكم. ويمكن أن تكون الجملة تتمّة للسابق، أي مع انهزامهم لا ينصرهم أحد، فتكون عاقبتهم العجز والخذلان.

وكيف كان، ففي الآية الشريفة ثلاث بشارات للرسول الكريم والمؤمنين، وقد تحقّقت مصاديقها على أحسن وجه وأكمله، ويستمرّ ذلك أيضاً لو اتّفق المسلمون على العمل بما نزل من القرآن الكريم وما جاء به الرسول العظيم، ونبذوا الاختلاف والتفرّق كما أُمرنا به.

قوله تعالى: ﴿**ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا**﴾.

الذلّة (بالكسر): ذلّ خاصّ قرين الإهانة، ضدّ العزّ الذي هو بمعنى الامتناع، فيكون الذلّ بالمعنى العام هو الانكسار والضعف، ومن أسمائه تعالى: «المذلّ»، أي هو الذي يلحق الذلّ بمَن يشاء من خلقه، وينفي عنه جميع أنواع العزّ، كما أنّ من أسمائه عزّ وجلّ «المعزّ» و«العزيز».

وهما أي الانكسار والضعف:

تارةً: يكونان عن قهر، فهو ذلّ (بالضمّ).

وأُخرىٰ: عن تصعب وشماس، فهو الذل (بالكسر)، وهي من صيغ الهيئة.

وضرب الذلّة عليهم كناية عن ملازمتها لهم وظهور أثرها فيهم، فلا خلاص لهم منها، كضرب السكة على الفلز.

وثقفوا: بمعنى وجدوا وأدركوا الظفر بهم.

والمعنى: أنّ الذلّة قد تمكّنت في نفوسهم بحيث يظهر أثرها فيهم عند الملاقاة والظفر فيهم، فإنّه لا منعة لهم بسببها.

قوله تعالى: **﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِنْ اللهِ وَحَبْلٍ مِنْ النَّاسِ﴾**.

استثناء مفرغ، والحبل هو السبب الذي يوجب التمسّك به العصمة والامتناع، ويطلق على العهود، والذمام والرعاية توسّعاً، وحبل الله هو الالتجاء إليه عزّ وجلّ بالإيمان به والإخلاص له، وحبل الناس هو الدخول في ذمامهم وعهودهم وحمايتهم.

والمعنى: أنّهم لن يسلموا من الذلّة إلّا إذا آمنوا ودخلوا في عهد الله تعالى وانقطعوا إليه بإخلاص، أو دخلوا في عهود الناس وذمامهم، فإنّهم يسلمون من القتل والأسر وذلّ التباغض ونحو ذلك.

وإنّما كرّر سبحانه وتعالى لفظ الحبل لاختلاف المعنى، فإنّه من الله هو الحكم والقضاء تكويناً أو تشريعاً، ومن الناس العمل والبناء.

والمراد بضرب الذلّة الأعمّ من التشريعي الذي هو القتال معهم وأخذ الجزية منهم، والتكويني الذي جعله الله تعالى عليهم بسبب الجحود بآيات الله تعالى، وقد أثبته التأريخ في العهود الماضية، ولا تختصّ الآية الشريفة بطائفة خاصّة منهم، بل تشمل اليهود والنصارى وكلّ مَن جحد الحقّ.

قوله تعالى: **﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنْ اللهِ﴾**.

أي: رجعوا من رحمة الله تعالى وهم متلبّسون بغضبه عزّوجلّ.

قوله تعالى: **﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الْمَسْكَنَةُ﴾**.

المسكنة شدّة الفقر، والمراد بها الفقر الذاتي الذي لا خلاص لهم عنه، وهو

أشدّ أنحاء الفقر والحال السيّئة.

والمعنى: أنّ إصرارهم على الجحود أوجب اتّصافهم بأنحاء الرذائل المعنوية والظاهرية.

قوله تعالى: **﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾**.

تعليل لاتّصافهم بالرذائل، وقد ذكر عزّ وجلّ بعض الأفراد، وهو الكفر بآيات الله تعالى وقتل الأنبياء بغير حقّ. ثمّ أجمله عزّ وجلّ بعد ذلك بوجه كلّي.

وإنّما كان قتل الأنبياء من أسلافهم، ولكن نسب إلى الأخلاف باعتبار رضائهم بفعل الآباء، كما أنّه وصف قتل الأنبياء بغير حقّ تشديداً لهذه الجريمة النكراء، لبيان أنّ قتل كلّ نبيّ إنّما يكون بغير حقّ، فيكون القيد توضيحيّاً إعلاماً لأهمّية الجريمة وتشديد النكير فيها.

قوله تعالى: **﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾**.

تعليل لاتّصافهم بالرذائل المعنوية والظاهرية، وظاهر التعليل شموله لكلّ مَن اتّصف به ولو لم يكن منهم، فلا وجه لما في بعض التفاسير من التخصيص بطائفة خاصّة منهم، فإنّ المناط عموم التعليل، أي إصرارهم على الاعتداء الذي أوجب العصيان والكفر بآيات الله، فيكون العصيان منهم مستمرّاً بسبب استمرار الاعتداء منهم.

***

بحوث المقام

بحث دلالي:

قد اشتهر في العلوم العقلية أنّ الجزئي لا يكون كاسباً ولا مكتسباً ، وذلك لأنّ العلم مطلقاً إنّما يتعلّق بالكلّيات والقواعد العامّة ، وأمّا الجزئيات والأفراد فهي تابعة لها . وهذا هو المراد من قول الفلاسفة الإلهيّين والطبيعيّين إنّ نتائج الأفكار مطلقاً ليست إلّا الكلّيات ، هذا في العلم المستفاد من الحواس الجسمانية .

وأمّا ما يوحى من الله سبحانه وتعالى على أنبيائه ، أو ما يقوله نبيّنا الأعظم ﷺ ، فإنّها كلّها ليست إلّا قواعد كلّية عقلية فطرية ، فإنّ الجزئيات لا يمكن أن تكون مورد نظر الفلاسفة المتألّهين فضلاً عن المبدء القيوم ونبيّه الأعظم الذي يفتخر على سائر الأنبياء بقوله ﷺ : «أُوتيت جوامع الكلم» ، فالقرآن الكريم والسنّة المقدّسة ، كلاهما حقائق كلّية وكلّيات واقعيّة ، تظهر للعقول آثارها وتنشر في العالم أخبارها ، ويستفاد من كلّ آية قواعد وأُصول كثيرة ، ولذا اتّفق الجميع على أنّ المورد لا يكون مخصّصاً ومقيّداً .

ومن ذلك يعرف أنّ ما ورد في الآية الشريفة حقيقة من الحقائق ، لا تختصّ بعصر دون آخر ولا بطائفة معيّنة من المؤمنين ، فكلّ ما تحقّقت فيه الشروط كان داخلاً في مضمون الآية الشريفة وثبتت له الخيرية والتفضيل على سائر الناس ، فلا وجه للنزاع في أن (كان) في قوله تعالى : ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾ ناقصة أم تامّة منسلخة عن الزمان أم لا ، وإن كان ظاهر السياق بحسب العلوم الأدبية يقتضي أن تكون (كان) ناقصة ، لكن حقيقة الواقع على ما هو عليه لا تتغيّر بالجهات الأدبية ، فالآية المباركة في مقام الإخبار عن أُمّة مؤمنة وفت بما التزمت

لله تعالى وثبتت على إيمانها، ففازت بالسعادة والخيرية والفضل على سائر الناس، ولا ينافي ذلك أن يُقال إنّهم كانوا في علم الله كذلك.

ثمّ إنّه يدلّ قوله تعالى: ﴿**مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾، على أنّ السبب في نفي الخيرية عنهم أنّهم اختلفوا ولم يجتمعوا على الإيمان والثبات عليه، فكان هذا الذيل راجعاً إلى صدر الآيات التي أمرنا فيها بالاعتصام بحبل الله والاجتماع، فيرجع الذيل إلى الصدر، وهذا من بدائع الأُسلوب، كما فيه التأكيد على أهمّية الاجتماع ونبذ الافتراق.

والسرّ في التعبير بالبناء للمجهول في «أُخرجت»، كون الناس في طريق الاستكمال تكويناً وأنّ الحركة في سير الاستكمال، فتصير هذه الأُمّة خير الأُمم لا محالة إن طبّقت على نفسها مبادئ دينها، وذلك لا يتحقّق إلّا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما تقدّم.

وإنّما عبّر سبحانه وتعالى في هذه الآية الشريفة بالمجهول «أُخرجت» وفي قوله تعالى: ﴿**اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾[١] بالمعلوم، وأضاف الفعل إلى نفسه الأقدس، لأنّ تأسيس الاهتداء إلى الصراط المستقيم وجعل هذا القانون القويم يختصّ بالله تعالى، ولذا أضاف ذلك إلى نفسه الأقدس، قال تعالى: ﴿**يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾[٢].

وأمّا بعد البيان وإتمام الحجّة فتصبح النفوس مستعدّة لنور الفيض عليها وقبولها للكمالات اعتقاداً وعملاً، ولذا أتى بالفعل مجهولاً «أُخرجت» مدحاً لهم. فالآيتان المباركتان تبيّنان السبب الفاعلي والمادّة القابلة، أي النفوس المستعدّة.

---

١ . سورة البقرة: الآية ٢٥٧.

٢ . سورة الحجرات: الآية ١٧.

والتعبير بـ(الأذى) في قوله تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلَّا أَذىً﴾، للإشعار بأنّ الضرر لا يكون عميقاً ولا أصيلاً بحيث يتناول أساس الدعوة، وإنّما هو مجرّد عرض يزول وأنّ النصر ليس من نصيبهم، فالآية الشريفة تعدّ من ملاحم الآيات في القرآن الكريم، وهي تدلّ على أنّ المسلمين لو داوموا على ما كانوا عليه في بدء الدعوة من الاتّحاد والوحدة بينهم تاركين الخلاف والاختلاف، لكانت لهم الكلمة العليا والسيطرة والاستيلاء على الأعداء والكفّار، ولن يقدر أحد أن يضرّهم، ولكنّهم اختلفوا وتفرّقوا وكان فعلهم هذا بمنزلة إعطاء السلاح بيد عدوّهم، فصار يقاتلهم بسلاح أنفسهم، فلا يلوموا في ذلك إلّا أنفسهم، وفي مثل ذلك لا ينفع الدّعاء ولا الاستغاثة بالله العظيم، كما تقدّم في مباحث الدُّعاء.

كما يستفاد من الآية الشريفة أنّ الذلّة عليهم كانت مستمرّة ما داموا مستحقّين لها لسوء أعمالهم، إلّا أن يعتصموا بحبل الله أو يعتصموا بذمّة المسلمين.

وإنّما جمع بين ضرب الذلّة وضرب المسكنة على هؤلاء، فإنّ الأُولى إنّما هي حالة خاصّة تعتري الشخص الذليل من ناحية الغير، إمّا لانكسار الشوكة وانحلال الجامعة أو لسلب الحقّ ونحو ذلك، والمسكنة هي حالة تعتري الشخص من ناحية نفسه منشؤها استصغار الشخص نفسه عند الغير، كتوارد حالات الذلّة والفقر عليه.

وتعدّد كلمة «ضربت» في الآية الشريفة لأجل تعدّد متعلّقها.

كما أنّ تعدّد اسم الإشارة «ذلك» إنّما هو لتعظيم الأمر والتفخيم، ولتعدّد السبب والتأكيد وإتمام الاحتجاج.

***

بحث روائي:

في «تفسير العياشي»، عن عمرو الزبيري، عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله

تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾، قال: «يعني الأمّة التي أُوجبت لها دعوة إبراهيمعليه السلام، فهم الأمّة التي بعث الله فيها ومنها وإليها، وهم الأمّة الوسطى، وهم خير أمّة أُخرجت للناس».

أقول: يستفاد من هذا الحديث أنّ الأمّة التي ورد مدحها في مواضع من القرآن الكريم واحدة، وهي التي تتّصف بفعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي محصورة في أفراد معدودين كما عرفت في التفسير.

في «تفسير القمّي»، عن أبي عبداللهعليه السلام قال: نزلت: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

أقول: قريب منه في «تفسير العياشي»، وهذا على وجه التأويل، وهو بيان لأظهر مصاديق الأمّة الآمرة بالمعروف والناهية عن المنكر.

وفي «الدرّ المنثور»: أخرج ابن أبي حاتم عن أبي جعفرعليه السلام: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال: «أهل بيت النبيّصلى الله عليه وآله».

أقول: تقدّم ما يتعلّق بذلك.

وفي «أسباب النزول» للواحدي في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾: عن عكرمة ومقاتل: «نزلت في ابن مسعود وأُبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبي حذيفة، وذلك أنّ مالك بن الضيف ووهب بن يهوذا اليهوديّين قالا لهم: إنّ ربّنا خير ممّا تدعوننا إليه، ونحن خير وأفضل منكم، فأنزل الله تعالى هذه الآية».

أقول: لو صحّ الحديث وانطبقت عليه العلّة، يكون الحديث بياناً لبعض المصاديق، فلا تنافي بينه وبين غيره.

وفي «الدر المنثور»، أخرج أحمد: «قال رسول اللهصلى الله عليه وآله: أُعطيت ما لم يعط أحد من الأنبياء؛ نصرت بالرعب، وأُعطيت مفاتيح الأرض، وسمّيت أحمد،

وجعل التراب لي طهوراً، وجعلت أُمّتي خير الأُمم».

أقول: الحديث معروف بين الفريقين، والمراد بالفقرة الأخيرة هي البعض كما عرفت. أو تشرّفت سائر الأُمّة بهم.

***

الآية ١١٣ ـ ١١٥

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾.

الآيتان المباركتان متّحدتان في السياق مع ما قبلهما من الآيات، لأنّهما تبيِّن وتقرّر أنّ أهل الكتاب ليسوا جميعاً علي حدٍّ سواء في الانحراف والبُعد عن الايمان بالله تعالى، كما أسلفتها الآيات السابقة، بل استثنى سبحانه وتعالى عنهم أُمّة مستقيمة على الهدى قائمة بالعبادة، مؤمنة بالمبدأ والمعاد، ناهضة بتكاليف الأُمّة المسلمة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، سبّاقة إلى الخير، فهم مجزيّون على أعمالهم كما يجزى الصالحين، والله سبحانه وتعالى يعلم ما أضمرته قلوبهم، كما هو عليم بالمتّقين.

***

التفسير

قوله تعالى: **﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾**.

جملة استئنافية تبيِّن عدم استواء جميع أهل الكتاب في ما وصفهم الله

تعالى به، والحكم الذي حكمه عليهم آنفاً، فإنّه سبحانه وتعالى قد قسّمهم الى طائفتين؛ هما المؤمنون وهم الأقلّون، والفاسقون وهم الأكثرون. قال تعالى: ﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ الْفَاسِقُونَ﴾[1]، ثمّ بيَّن أوصاف الفاسقين وحذّر المؤمنين من غيّهم ومكرهم، وبيّن تعالى جزاءهم، ثمّ حكم على النوع بما تقدّم.

وفي هذه الآية المباركة يبيّن عزّ وجلّ حال الطائفة المؤمنة منهم وصفاتهم.

والسواء مصدر، ولذا أفرد مع كونه خبرا الجمع، ولكن أُريد به الوصف، أي ليسوا مستوين.

قوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾.

جملة تعليلة تفصيلية تبيِّن الوجه في عدم الاستواء. ومادّة (قوم) تدلّ على الثبات والاستدامة، وقد استُعملت في القرآن الكريم كثيراً بهيئات مختلفة، والمراد في المقام استقامة الأُمّة على الطاعة والإيمان والعبادة، وثباتها على ذلك.

وبعبارة جامعة: الثبات على الحقّ مقابل مَن انحرف عنه، ويدلّ على ذلك ذيل الآية الشريفة الذي يبيِّن أنّها كانت قائمة في الإيمان بالله، والطاعة له عزّ وجلّ، والقيام بوظائف العبودية والعمل الصالح.

والمراد من أهل الكتاب، هم الذين ذكرهم الله تعالى في الآية السابقة عند تقسيمه لهم. قال تعالى: ﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ الْفَاسِقُونَ﴾، بلا فرق في ذلك بين اليهود والنصارى، وذكر المفسِّرون أنّهم النجاشي وجماعة من اليهود الذين ثبتوا على الحقّ وآمنوا بمحمّد ﷺ المبشّر به في الكتب الإلهيّة.

وقد وصفهم الله تعالى بأوصاف متعدِّدة تبيِّن صدق إيمانهم واستقامتهم

---

١. سورة آل عمران: الآية ١١٠.

على الحقّ.

قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾.

تفصيل بعد اجمال، والتلاوة هى القراءة مع التأمّل في الجملة. والآناء جمع (انى) بكسر الهمزة أو فتحها، وهو مطلق الوقت والزمان، أي قيامهم في الليل بقراءة آيات الله في صلاتهم وتهجدهم.

والمراد بـ (آيات الله) تعالى الأعمّ ممّا ورد في التوراة والإنجيل والقرآن الكريم. وهذا الوصف يبيّن جهة عبوديّتهم وثباتهم فيها.

قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

وصف آخر يبيّن سبقهم الى الإيمان بالمبدأ والمعاد، الأعمّ من الإيمان بهما في حالة العمل بشريعتهم وحالة ظهور شريعتنا وتصديقهم لها، فهم في كلتا الحالتين يؤمنون بالله واليوم الآخر.

وإنّما أخّر سبحانه وتعالى الإيمان بالله واليوم الآخر عن التلاوة والسجود، إشعاراً بأنّ العمل بالدِّين أهمّ أركانه. وأنّه ليس من مجرّد الاعتقاد فقط، وأنّ عبادتهم لله تعالى وملازمتهم لها أوجبت توفيقهم بقبول الإسلام وعدم جحودهم له.

قوله تعالى: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ﴾.

وصف ثالث يبيّن طاعتهم لله تعالى بأهمّ أركانها، وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتشرّفون بذلك بالاتّصاف بما اتّصفت به خير اُمّة.

قوله تعالى: ﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾.

وصف رابع يبيّن الإخلاص في اعتقادهم والصدق في إيمانهم وسعادتهم.

والمسارعة: المبادرة. والفرق بينها وبين العجلة أنّ المسارعة وصف

للحركة، سواء كانت بإرادة أم لا. وأمّا العجلة فهي وصف للمتحرِّك، أي استعجل في فعله وحركته.

وعن جمع من اللّغويين وبعض المفسِّرين: أنّ الفرق بين السرعة والعجلة أنّ السرعة التقدّم في ما ينبغي أن يتقدّم فيه، وهي محمودة، ونقيضها مذموم، وهو الإبطاء، والعجلة التقدّم في ما لا ينبغي أن يتقدّم فيه وهي مذمومة ونقيضها محمود وهو الإناءة.

ولكن لا يمكن قبول ذلك على الإطلاق، لاستعمال العجلة بالنسبة إليه تعالى، قال جلّ شأنه: **﴿وَعَدَكُمُ اللهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾**[1].

والخيرات: جمع خير، وهو معلوم عند الجميع، سواء كان في العبادة أم في غيرها، ولكن الغالب استعماله في بذل المال وقضاء الحوائج به، ولكن لابدّ أن لايتعلّق به نهي شرعي وإلّا سقط عن الخيريّة.

قوله تعالى: **﴿وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾**.

قضيّة حقيقيّة تبيِّن نتيجة ما تقدّم من الصفات والأعمال، فتكون جميع الآية المباركة بمنزلة العلّة والمعلول.

والصالحون: هم أهل الحقّ في الدُّنيا والآخرة، ولهم مقام محمود يتمنّاه الأنبياء العظام، قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام: **﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾**[2]، وقال تعالى حكاية عن إبراهيم: **﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي**

---

١. سورة الفتح: الآية ٢٠.

٢. سورة يوسف: الآية ١٠١.

بِالصَّالِحِينَ﴾[1]. فيكون المراد من الصالح مَن كمل اعتقاده وعمله فصلح للوصول إلى مقام القرب إليه تعالى، ولهذه الصلاحيّة مراتب كثيرة يأتي التعرّض لها إن شاء الله تعالى.

والمعروف بين المفسّرين أنّ المراد بهؤلاء الممدوحين عبدالله بن سلام وأصحابه.

ولكن، ذكرنا سابقاً أنّ الآيات الشريفة كلّيات حقيقيّة واقعية إنّما يتعرّض المفسِّرون لبعض مصاديقها، وذلك لايوجب التخصيص بشيء أبداً.

قوله تعالى: **﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾**.

المراد من الخير ما تقدّم في الآيات السابقة من الإيمان بالله واليوم الآخر، والطاعة له عزّ وجلّ والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمسارعة إلى الخيرات.

والمعنى: وكلّ ما يصدر منهم من خير ـ اعتقاداً كان أو عملاً ـ فلن يحرموا شكر الله تعالى والإثابة لهم، ولن يضيع عملهم عند الله فيوفيه أُجورهم من غير نقصان.

ونظير هذه الآية الشريفة قوله تعالى: **﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾**[2].

قوله تعالى: **﴿وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾**.

أي: أنّ الله تعالى يعلم السرائر وما تنطوي عليه نفوسهم، وعليم بأعمالهم وإن أسرّوا بها، وعليم بتقواهم فيجازي كلّ فرد بحسب ما يعمله.

---

١ . سورة الشعراء: الآية ٨٣.

٢ . سورة البقرة: الآية ١٥٨.

وفي الآية الشريفة التحريض على تحصيل التقوى، وقد ختم سبحانه وتعالى الخطاب بالتقوى، للتنويه بفضلها، ولبيان أنّها الأساس في جميع الأديان.

***

بحوث المقام

بحث أدبي:

ذكرنا أنّ قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ جملة مستقلّة مركّبة من اسم ليس وهو الضمير، وخبرها «سواء»، وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ﴾ جملة أُخرى مركّبة من المبتدأ والخبر.

وقيل: «أُمّة» اسم ليس، وسواء خبرها، وأتى الضمير في ليس على لغة من قال: «اكلوني البراغيث».

ورد بأنّ المقام ليس مثل اكلوني.

وقوله تعالى: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ﴾ في موضع رفع صفة لـ(أُمّة).

وقيل: إنّ الجملة في موضع نصب على الحال من ضمير «يتلون».

ولكن أُشكل عليه بأنّ التلاوة لا تكون في السجود، ولا في الركوع.

والحقّ أن يُقال: إنّ المستفاد من الجملة استمرار التلاوة منهم في حال تهجّدهم وعبادتهم، سواء كانت في السجود أم الركوع أم في غيرهما، مع أنّه لم يثبت بدليل امتناع التلاوة في شريعة أهل الكتاب في حال السجود.

وقوله تعالى: ﴿آنَاءَ اللَّيْلِ﴾ نصب على أنّه ظرف زمان.

وإنّما تعدّى «فلن يكفروه» إلى مفعولين، لأنّه بمعنى الكفران، أي أن يحرموا ثواب فعلهم الشكر عليه.

***

بحث دلالي:

يستفاد من الآية الشريفة أُمور:

الأوّل: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**لَيْسُوا سَوَاءً**﴾ التفرقة بين الحقّ والباطل، وهو أمر فطري كالتفرقة بين النور والظلمة، ويرشد إلى ذلك قوله تعالى: ﴿**أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ**﴾[1]، فإنّه عزّ وجلّ أرجع عدم استواء الفريقين إلى فطرة الإنسان، وهو لا يختصّ بفريقين أحدهما يكون مؤمناً والآخر فاسقاً، بل يمكن أن يجري في الشخص الواحد في حالتين مختلفتين، وهو أمر وجداني.

الثاني: يدلّ قوله تعالى: ﴿**أُمَّةٌ قَائِمَةٌ**﴾ على أنّ مناط الإيمان إنّما هو الاستقامة، وإنّما تتحقّق بالعمل بكتاب الله تعالى والطاعة له عزّ وجلّ والايتمار بأوامره والانتهاء عن نواهيه، فيصير بذلك صالحاً ويدخل في زمرة الصالحين، وقد ذكر عزّ وجلّ صفات متعدّدة في هذه الآيات، كلّ واحدة منها تبيّن جانباً من جوانب الشخصية الإيمانية.

الثالث: إنّما قرن سبحانه وتعالى الإيمان بالله مع الإيمان باليوم الآخر، لبيان أنّ إيمانهم كان إيماناً يثير الخشية لله تعالى والاستعداد للقاء الله تعالى والمحاسبة للأعمال، فكان إيمانهم إيماناً إذعانياً، لا إيماناً ادّعائياً، كما يدّعيه أبناء جنسهم.

الرابع: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنْ الْمُنْكَرِ**﴾، أنّ هذين التكليفين من أهمّ الواجبات النظامية في جميع الشرائع الإلهية، وكلّ مؤمن في أيّ دين كان إنّما يثبت إيمانه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

الخامس: يدلّ قوله تعالى: ﴿**وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ**﴾، أنّ الخير قد تمكّن في نفوسهم، بحيث يبادرون إلى فعله غير متثاقلين، لعلمهم بحسنه وعظيم أثره وجلالة مقامه ورفعة شأنه، فهذه الصفة جامعة لجميع الفضائل ومكارم الأخلاق.

---

١. سورة السجدة: الآية ١٨.

السادس: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**وَأُوْلَـٰئِكَ مِنَ الصَّـٰلِحِينَ**﴾، أنّ تلك الصفات ثابتة فيهم وناشئة عن ملكات راسخة وقد صلحت سرائرهم، فتكون الذات والاعتقاد والعمل صالحاً، ويدخلون بذلك في زمر الصالحين، وهم عباد الله المخلصين، وهم الأقلّون في كلّ أُمّة، ولهم المقام المحمود في الدُّنيا والآخرة.

السابع: يدلّ قوله تعالى: ﴿**وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ**﴾ على حقيقة من الحقائق، وهي أنّ أعمال العباد محفوظة عند الله تعالى، فهو العالم بصلاحها وفسادها، وهو يجازي كلّ فرد بما يستحقّه، وتدلّ عليها جملة كثيرة من الآيات الشريفة.

الثامن: يدلّ قوله تعالى: ﴿**وَاللهُ عَلِيمٌ بِـالْمُتَّقِينَ**﴾، أنّ المناط في قبول فعل الخيرات إنّما هو التقوى، ويدلّ عليه قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ**﴾[1].

***

بحث روائي:

في «الدرّ المنثور»، في قوله تعالى: ﴿**لَيْسُوا سَوَاءً**﴾ عن ابن عبّاس، قال: «لمّا أسلم عبدالله بن سلام وثعلبة بن سعية، وأسيد بن عبيد ومَن أسلم من اليهود، قالت أحبار اليهود: ما آمن لمحمّد إلّا شرارنا ولو كانوا من أخيارنا لما تركوا دين آبائهم، وقالوا: لقد خسرتم حين استبدلتم بدينكم ديناً غيره، فأنزل الله تعالى: ﴿**لَيْسُوا سَوَاءً ـ الآية ـ**﴾».

وفيه أيضاً: عن ابن مسعود، قال: «نزلت الآية في صلاة العتمة يصلّيها المسلمون، ومَن سواهم من أهل الكتاب لا يصلّيها».

أقول: على فرض اعتبار الروايتين وغيرهما ممّا ورد في هذا الشأن، فإنّها

---

١ . سورة المائدة: الآية ٢٧.

تبيّن بعض المصاديق ، وقد ذكرنا أنّ الآية الشريفة مطلقة تشمل جميع أهل الكتاب قبل الإسلام وحين الدعوة ، وأمّا بعد استقرار الدعوة ، فلا تنفعهم أعمالهم لفرض أنـّهم مأمورون بالإيمان .

***

الآية ١١٦ ـ ١١٧

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾﴾.

بعدما ذكر سبحانه صفات المؤمنين المتّقين من أهل الكتاب، وبيّن حسن سريرتهم وسعادتهم، يذكر تعالى في هاتين الآيتين الكريمتين حال الكفّار ـ الذين خسروا أنفسهم وباعوها للشيطان فجحدوا الحقّ ـ توبيخاً لهم وتشنيعاً عليهم وإتماماً للحجّة، ومقابلة الطائفة الأُولى المتقدِّمة، ليعرف المؤمنون بذلك مقاماتهم المعنوية وما لهم من الجزاء الكبير.

كما بيّن سبحانه وتعالى أنّ ما أنفقت هذه الطائفة الكافرة بالله العظيم في هذه الدُّنيا لحفظ جاهها واستمرار ملذّاتها، لن تنفعها عمّا أُعدّ لها من الجزاء في هذه الدنيا، ولها في الآخرة عذاب الخلود، ومثّل تعالى ما ينفقونه كعاصفة باردة تحرق الحرث وتدمّره، لأنّهم ظلموا أنفسهم واندفعوا وراء شهواتهم مختارين، فكان مصيرهم الهلاك والعذاب.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً**﴾.

الآية المباركة تبيّن حقيقة من الحقائق الواقعية، وتظهر سوء حال الكافرين لاسيما في يوم الجزاء، وهي عدم انتفاع الإنسان بما يعتبره رافعاً لحوائجه وما يدّخره للانتفاع به، وإن بذل غاية جهده في نيله والاحتفاظ به، إلّا إذا أُضيف ذلك إلى الله تعالى، لأنّه الدائم الباقي والغني المطلق، وهو الذي يحفظ الأعمال ليجازي عليها، وحيث أنّ أهمّ ما يبذل الإنسان جهده فيه هو الأموال والأولاد ويعول عليهما في النوائب والشدائد، فقد ذكرهما عزّ وجلّ.

وبما أنّ ما عند الكافر لم يكن مضافاً إلى الله تعالى، لفرض كفره، فلا موضوع لإغنائهما عنه في يوم حاجته إليهما وإن تمتّع بهما قليلاً، لكن لا يغنيه شيء منهما، ويؤكّد ذلك قوله تعالى: ﴿**شَيْئاً**﴾ الدال على عدم الإغناء بوجه من الوجوه، وقد تقدّم في الآية العاشرة من هذه السورة بعض الكلام.

والمراد من الذين كفروا، مطلق مَن كفر بالحقّ وعانده، سواء كان من أهل الكتاب أم المشركين. فهذه الآية الشريفة من جهة تكون مقابلة للطائفة المؤمنة كما عرفت، ومن جهة أُخرى تكون توطئة لما سيذكره عزّ وجلّ في قصّة أُحد.

قوله تعالى: ﴿**وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾.

أي: أُولئك الكافرون داخلون في النار وملازموها، ولا يمكنهم الخلاص منها، لأنّهم كانوا ملازمين للكفر ومداومين على الظلم وقد جبلت نفوسهم على الفسق والضلال، فلا موضوع لنجاتهم منها. وهذه الآية المباركة كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ**

النَّارِ﴾[1].

وإنّما افترقت هذه الآية عن سابقتها في أنّ السابقة اختتمت بقوله تعالى: **﴿وَأُوْلَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾**، وفي المقام: **﴿وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ﴾**، والمآل وإن كان واحداً ولكن السابقة ناظرة إلى كيفيّة العذاب، وهذه إلى أصله.

قوله تعالى: **﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾**.

الآية الشريفة في بلاغتها وفصاحتها وحسن اُسلوبها تصوّر الواقع الذي عليه تصرّفات الظالمين والكافرين والمنافقين وإنفاقهم، بأبلغ صورة وأحسن تشبيه.

وفيها مثل عام لكلّ مَن ينفق في غير وجه الله تعالى وكان للدُّنيا وفي الدُّنيا. وهي كالدليل لعدم إغناء الأموال عن الكافرين، وتبيّن عدم انتفاع المنفق بها بوجه من الوجوه، بل يكون وبالاً عليهم، لأنّهم كفروا بالله العظيم وآياته وأشركوا به، ولم يطلبوا من الإنفاق وجه الله تعالى ورضاءه، وإن كان بزعمهم منه، فإنّه من مجرّد الوهم والظنّ، لوجود المانع فيهم.

والمثل في الكلام هو إيراد كلام يشبه كلاماً آخر يقصد به شيء معيّن، يبيّن أحدهما الآخر ويصوّره، والأمثال في القرآن الكريم كثيرة، وهي تقرّب المقصود إلى أذهان المخاطبين بأحسن وجه.

وإنّما خصّ سبحانه وتعالى التمثيل بالحياة الدنيا، لبيان أنّهم منقطعون عن الدار الآخرة؛ وهذا وجه آخر دالّ على أنّ إنفاقهم كان للدُّنيا وفي الدنيا ومنقطعاً عن الله تعالى والدار الآخرة، مضافاً إلى كفرهم، فهم لا ينفقون غالباً إلّا على نظائرهم وأمثالهم، ولو اتّفق أنّهم أنفقوا في صلة الرحم والفقراء والمساكين، ونفع

---

١ . سورة آل عمران: الآية ١٠.

المحتاجين وغير ذلك من المقاصد والشؤون، فإنّ كفرهم مانع عن قبول الله تعالى لها، الذي هو المناط في جميع الأعمال.

وإنّما خصّ الأموال بالذكر ولم يذكر الأولاد، لأنّهم يتّبعون الآباء إن كانوا كفّاراً، وإلّا فلا ارتباط بينهما لأنّهم مسلمون، فهم عليهم لا لهم.

قوله تعالى: **﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾**.

الريح: واحدة الرياح، وقيل إنّ المفرد يستعمل في العذاب إن لم تكن قرينة على خلاف ذلك مثل قوله تعالى: **﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا﴾**[1]، والجمع في الرحمة، وفي الحديث: «كان يقول إذا هاجت الريح: اللّهُمَّ اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً»، وممّا يثبت ذلك أنّ أغلب المواضع التي ذكر الله تعالى في القرآن الكريم إرسال الريح بلفظ الواحد، كان في العذاب. والجمع في آيات الرحمة، قال تعالى: **﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنْ الرِّيحِ﴾**[2].

وقال تعالى: **﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ﴾**[3].

وقال تعالى: **﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾**[4].

ومادّة (ص ر ر) تدلّ على الجمع والاشتداد والتأكّد، وقد استعملت في موارد كثيرة بهذه الدواعي:

منها: البرد الشديد.

---

١ . سورة يونس: الآية ٢٢.

٢ . سورة الإسراء: الآية ٦٩.

٣ . سورة الحاقة: الآية ٦.

٤ . سورة الفرقان: الآية ٤٨.

ومنها: الضجّة والصيحة؛ قال تعالى: ﴿**فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ**﴾[١].

ومنها: الجمع والانضمام، قال تعالى: ﴿**فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ**﴾[٢].

ومنها: الإصرار على الشيء، وفي الحديث: «ما أصرّ مَن استغفر».

ولعلّ استفادة الشدّة من المعنى للقاعدة المعروفة بين الأُدباء: «إنّ زيادة المباني تدلّ على زيادة المعاني».

والحرث: الزرع. وفي الآية الشريفة تشبيه مركّب، فقد شبّه سبحانه وتعالى إنفاقهم في مقاصدهم وشؤونهم التي يزعمون أنّها وجه الله، أو التي يريدون بها الصدّ عن سبيل الله تعالى، بالريح الباردة التي تضرّ الحرث والزرع، فهي فاسدة ومفسدة، فلا ينتفعون من إنفاقهم أبداً، لا في الدنيا ولا في الآخرة، بل يكون مفسداً لأخلاقهم وموجباً لسقوط الآثار الواقعية التي تترتّب على كلّ إنفاق، ويحرمهم من السعادة الدنيوية والأُخروية، فلم يجنوا من إنفاقهم إلّا الشقاء والحرمان، فالآية المباركة تبيّن حال إنفاقهم مع كفرهم في إحباطه له، فيكون الكفر والظلم بمنزلة الريح الباردة.

وإنّما وصف القوم بالظالمين، لبيان أنّ ظلمهم هو السبب في هلاك الزرع والإنفاق، فهو يتلف الأعمال ويذهب آثارها الدنيوية والأُخروية، فيكون الهلاك والحرمان عقوبة لهم.

وإنّما عبّر سبحانه وتعالى بالريح الباردة دون النار وغيرها التي توجب إتلاف الزرع وسقوط الانتفاع به بالكلّية، لأنّ الريح الباردة تفسد الزرع وتهلكه فلا قابليّة له للنمو، ولكن يبقى حشيشها وأصل المادّة ويمكن الانتفاع بها في

---

١. سورة الذاريات: الآية ٢٩.

٢. سورة البقرة: الآية ٢٦٠.

بعض الجهات ، وهكذا إنفاق الكافرين ، فإنّه قد ينتفع به إمّا في الدنيا لقضاء مآربه ، أو في البرزخ فإنّه يوجب تخفيف العذاب إن كان لأغراض حميدة .

قوله تعالى : ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ .

الضمير يرجع إلى الكافرين المنفقين . وهذه القضيّة مكرّرة في القرآن الكريم بأساليب مختلفة ، وهي تدلّ على نفي الظلم عنه عزّ وجلّ وثبوت الاختيار للإنسان ، وأنّه الفاعل المختار ، وأنّ الجزاء والآثار التي تترتّب على الأفعال إنّما يستحقّها بما يختاره من الأفعال والأعمال ، إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ . وذلك لأنّ نظام العالم إنّما يتحقّق بترتّب المسبّبات على الأسباب والمعلول على العلّة ، فإذا كان للشيء سبب واحد فالترتّب واضح معلوم ، وأمّا إذا كانت الأسباب متعدِّدة والمقتضيات كثيرة ، فالمسبّب والمقتضى (بالفتح) يترتّب على السبب الأخير ، وإن كان للجميع دخل في التحقّق ، ولا ريب أنّ جميع الممكنات يستند إلى قضاء الله تعالى وقدره ، ومشيئته الكاملة ، ولكنّه تعالى أراد أن يجعل الإنسان مختاراً في أفعاله لحِكَم كثيرة؛ منها تصحيح قانون الثواب والعقاب على الفعل الاختياري ، وحينئذٍ يستنكر العقل أن يستند الظلم إلى الله تعالى بعد خلقه للإنسان مختاراً في أفعاله وأعماله ، فتنحصر نسبة الظلم إلى الفاعل المباشر ، فالآية الشريفة هي قضيّة عقلية كما عرفت . ومن أهمّ الأُمور الدينية ، لأنّ جميع الأديان الإلهية تستنكر استناد الظلم إلى الله عزّ وجلّ . ووجدانيّته؛ لأنّ الله تعالى بعد أن أتمَّ الحجّة على العباد وبيّن لهم الصراط المستقيم وأرسل الرسل وأنزل الكتب لتكميل الإنسان ومنحهم العقل والشعور والاختيار ، فإذا اختار عبد غير المطلوب منه فقد ظلم نفسه ، بأن حرم نفسه من الكمالات والأجر الجزيل .

والمعنى : أنّ الله لم يظلم الكافرين الذين أنفقوا أموالهم في غير وجه الله

فحرموا أنفسهم من الثواب وأحبطوا عملهم، لكنّهم همّ ظلموا أنفسهم باختيارهم الكفر المانع عن القبول، فاختاروا العذاب والحرمان.

***

بحوث المقام

بحث دلالي:

تدلّ الآيتان الشريفتان على أُمور :

الأوّل : يدلّ قوله تعالى : **﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللهِ شَيْئاً﴾** على حقيقة من الحقائق الواقعية ، وهي أنّ الأموال والأولاد إنّما يستفيد منهما الإنسان مطلقاً ويستغني بهما في حوائجه ومآربه ، إذا كان كلّ واحد منهما لله تعالى وفي وجه الله عزّ وجلّ ، حتّى تكون محفوظة عنده تعالى ، وتبقى ببقاء الله ، لأنّها تدخل في خزائنه ، ولله خزائن السماوات والأرض ، ويوفي صاحبها الجزاء الأوفى ويدفع العذاب عنه ، والكافر قد انقطعت العصمة بينه وبين الله تعالى بسبب كفره ، فحرم نفسه عن جميع تلك الآثار، فلن تُغني عنه من الله شيئاً .

الثاني : يستفاد من قوله تعالى : **﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ﴾** أُمور :

منها : أنّ إنفاقهم للأموال إنّما كان للدنيا ولأجل الشؤون والمقاصد الدنيوية فقط ، ولا نظر لهم إلى ما ورائها .

ومنها : أنّهم ظلموا أنفسهم باختيارهم الكفر ، كما ظلموا أنفسهم في إنفاق الأموال في غير وجه الله تعالى ، فقد حرموا أنفسهم من الآثار الواقعية التي تترتّب على إنفاقها .

ومنها : أنّهم لم يحرموا من بعض الآثار كما لم يحرم الزارع من حشيش الزرع وبقاياه بعد إصابته الريح الباردة وإتلافها له ، ولذلك نرى أنّ التعبير يختلف

بالنسبة إلى أعمالهم في آية أُخرى، قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ**﴾[1].

الثالث: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾ على استمرار الظلم وتجدّده باستمرار العلّة، وهي الكفر والعصيان.

الرابع: يستفاد من الآية الشريفة أنّ الذنوب والمعاصي قد توجب هلاك الزرع والنسل والكوارث والآفات، لأنّ للذنوب آثاراً واقعية لا يمكن التخلّف عنها، وقد دلّت على ذلك نصوص كثيرة من القرآن الكريم والسنة الشريفة، بل أنّ كلّ ذنب له أثره الخاص به، كما دلّت عليه أدلّة متعدِّدة، وفي كثير من الدعوات المأثورة، منها الدعاء المعروف بدعاء كميل المروي عن أمير المؤمنين عليه السلام.

***

بحث عرفاني:

جميع الافعال الحاصلة من النفس الإنسانية بواسطة القوى الباطنية الجسمانية إنّما هي بمنزلة الأشباح والأظلّة للصور الحاصلة في النفس، فهي كالمرآة التي تبثّ أشعّتها إلى الخارج، وقد أثبت ذلك المحقِّقون من الفلاسفة، وقال بعض المحقِّقين.

النفس في وحدتها كلّ القوى وفعلها في فعلها قد انطوى

والقرآن الكريم والسنّة الشريفة يثبتان ذلك أيضاً، فإذا كانت النفس متوجِّهة إلى الله تعالى، تكون أشعّتها من سنخها متّصلة إلى الله جلّ جلاله، وإذا كانت متوجِّهة إلى غيره عزّ وجلّ، تكون أشعّتها كذلك، فلا تتحقّق أيّة إضافة لله

---

١. سورة النور: الآية ٣٩.

تعالى، وإلّا لزم الخلف الباطل، هذا من جهة النفس.

وأمّا من جهته عزّ وجلّ، فقد قال الله تعالى: «أنا خير شريك من عمل لي ولغيري تركته لغيري» فإذا كان العمل له تعالى ولغيره، لا يعتني به الله تعالى، فكيف إذا كان تمام العمل لغيره ؟! وإذا كانت تربية الأولاد ومصرف الأموال في غير ما يرتضيه عزّ وجلّ، لا يمكن أن ينتفع من ذلك نفعاً إلّا ما يتصوّر من المنافع الوقتية الوهمية، وهي عدم محض بالنسبة إلى النفع الواقعي الحقيقي، قال تعالى: **﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً﴾**[1]، وقال تعالى: **﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾**[2].

***

---

١. سورة النور: الآية ٣٩.

٢. سورة الأنفال: الآية ٢٨.

الآية ١١٨ ـ ١٢٠

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ۝١١٨ هَا أَنْتُمْ أُوْلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنْ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ۝١١٩ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ۝١٢٠﴾.

بعدما ذكر عزّ وجلّ صفات خاصّة من الكافرين وهي المؤمنين منهم، وذكر بعض صفات الجاحدين منهم أيضاً، وبيّن أنـّهم لا يقدرون على تحقيق مقاصدهم في الصدّ عن سبيل الله تعالى مهما بذلوا من جهد وأنفقوا من الأموال.

يبيِّن سبحانه وتعالى في هذه الآيات ما تنطوي عليه ضمائرهم، وما تخفيه صدورهم بالنسبة إلى الحقّ الواقع والمؤمنين.

وبيَّن سبحانه وتعالى أنّ الكافرين لا يحبّونهم ويحقدون عليهم ويفرحون بما يُصيبهم من المكروه، ويضمرون كلّ عداوة لهم والحسد منهم. وقد حذّر سبحانه المؤمنين من كيد الكافرين وسُبل إضلالهم، وأمرهم بالاجتناب عنهم والتصدّي لهم.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ﴾.

دستور إلهي يبيِّن منهج المجتمع الإسلامي في احتكاكه مع المجتمعات الأُخرى. وتتضمّن الآية المباركة أهمّ الأحكام الاجتماعية التي أراد الله تعالى بها الحفاظ على وحدة المجتمع الإسلامي وصونه عن التفرّق والفساد، وذلك لأنّ أسرار المجتمع الواحد لابدّ أن تكون محفوظة لدى أفراده، وأن لا يطّلع عليه غيرهم، بل في إطّلاع العدوّ عليها هلاكهم وتفرّقهم، لاسيما إذا كان متّصفاً برذائل الأخلاق، كما ذكره عزّ وجلّ في هذه الآيات المباركة.

ومادّة (بطن) تدلّ على الخفاء مقابل الظاهر، وقد استُعملت في القرآن الكريم بهيئات مختلفة:

قال تعالى: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾[2].

ومن أسمائه الحسنى «الباطن»، قال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾[3]، أي هو المحتجب عن أبصار الخلائق وأوهامهم، فلا يدركه بصر ولا يحيط به وهم، أو هو العالم بما بطن.

وبطانة الثوب خلاف ما ظهر من الثوب، قال تعالى: ﴿بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾[4].

والمراد بالباطنة في المقام هو وليجة الرجل وخاصّته الذي يكاشفه بأسراره

---

١. سورة الأنعام: الآية ١٥١.

٢. سورة الأنعام: الآية ١٢٠.

٣. سورة الحديد: الآية ٣.

٤. سورة الرحمٰن: الآية ٥٤.

ويستبطن أمره ويشاوره في أحواله ، وهو مصدر يسمّى به الواحد والجمع ، وفي الحديث : «ما بعث الله من نبيّ ، ولا استخلف من خليفة ، إلّا كانت له بطانتان» .

والمراد من ﴿دونكم﴾ أي غيركم ، والتعبير به لبيان أنّ غيركم أدون منكم ، فلا ينبغي أن تتّخذوهم بطانة تلقون إليهم أسراركم ، وقد وصفهم الله تعالى بأوصاف متعدِّدة تدلّ على غاية بُعدهم عن المؤمنين ونفرتهم عنهم .

قوله تعالى : ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً﴾ .

بيان للنهي عن اتّخاذ الأعداء والمنافقين بطانة ، فإنّهم يضمرون الشرّ والفساد ، فهذه الجملة في حين كونها تعليليّة تكون مبيِّنة لحقيقتهم ، وهي الصفة الأُولى من صفاتهم ، بل الأصل لجملة كثيرة من الصفات الآتية .

و(يألونكم) من الإلو ، وهو التقصير والإبطاء والضعف ، والفعل ألا ـ كغزا ـ يألو ، ألواً ، وهو لازم يتعدّى إلى المفعول بالحرف وإلى المفعولين ، ويتضمّن معنى المنع ، يُقال : لا آلوك نصحاً ، أي لا أمنعك ، وقد يجعل بمعنى الترك ، فيتعدّى إلى مفعول واحد ، يُقال : ما ألوت الشيء ، أي ما تركته .

وكيف كان ، ففي المقام إذا جعلناه بمعنى التقصير فلا يتعدّى إلى مفعول فضلاً عن المفعولين ، فلابدّ من جعله بمعنى لا ينقصوكم ، كما في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئاً﴾[1] .

ومادّة (خبل) تدلّ على الفساد ، سواء كان في الرأي أم غيره ، يُقال : «خبل الحبّ قلبه» أي أفسده ، ومنه الحديث : «وبطانة لا تألوه خبالاً» ، أي لا تقصر في إفساد أمره وشأنه . وفي الحديث أيضاً : «بين يدي الساعة الخبل» ، أي الفتن المفسدة . والخبل قد يصيب الحيوان فيؤدّي إلى الاضطراب في شعوره وحركاته .

---

١ . سورة التوبة : الآية ٤ .

وخبالاً مفعول ثان، والجملة صفة توضيحيّة تبيِّن قبح اتّخاذهم بطانة.

والمعنى: أنّهم لا يقصرون لكم فساداً ولا ينقصوكم شرّاً فيجهدون في الإضرار بكم، وهذه حقيقة واقعية تترتّب على اتّخاذ الأعداء والمنافقين أعواناً وبطانة يعتمد عليهم ويلقى إليهم الأسرار، مع أنّهم لا يضمرون المؤمنين إلّا العداء والخديعة والإضلال.

قوله تعالى: ﴿**وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ**﴾.

الصفة الثانية من صفاتهم، وهي حبّ الإضرار بالمؤمنين وإيقاعهم في الهلاك والمشقّة.

والعنت: المشقّة وشدّة الضرر، وفي الحديث: «أيما طيب تطبّب ولم يعرف بالطب فاعنت، فهو ضامن» أي أضرّ المريض وأفسده، وما مصدرية.

يعني أحبّوا مشقّتكم وتمنّوا عليكم الوقوع في الضرر والهلاك.

قوله تعالى: ﴿ **قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ**﴾.

صفة ثالثة، وهي ظهور علامات العداء والشنآن على أقوالهم ولحن كلامهم وفلتات ألسنتهم، لأنّ البغض قد استولى على قلوبهم، فلا يقدرون على حفظ ألسنتهم، ولا يمكنهم أن يملكوا أنفسهم عند الملاقاة، وعزّ عليهم إخفاء ما في ضمائرهم من العداوة والبغضاء، فكأنّهم يتفوّهون بما في ضمائرهم بلا اختيار منهم.

والبغضاء شدّة البغض. والأفواه جمع فم، وأصله فوه ولامه هاء، والجمع يرد الشيء إلى أصله، أي من أقوالهم وفلتات ألسنتهم.

قوله تعالى: ﴿**وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ**﴾.

صفة رابعة، وهي تدلّ على تمكّن البغضاء في قلوبهم، وأنّ ما في قلوبهم أكبر ممّا يعلمه أحد، إلّا أن يظهره الله تعالى ويبيّنه لكم.

وإنّما أبهم عزّ وجلّ ما في الصدور لبيان أنـّه لا يوصف لعظمته وتنوّعه، وليذهب ذهن المخاطب كلّ مذهب، وأن كلّ ما صدر منهم كان قليلاً مقابل ما في قلوبهم. وبعدما بيّن الله عزّ وجلّ حقيقتهم وعرّف حالهم وطبائعهم، لا يبقى للمؤمنين مجال وعذر أن يتّخذوهم بطانة من دون المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

أي: قد أظهرنا لكم العلامات الفارقة بين الحقّ والباطل، وبها يتميّز الولي عن العدوّ. وقد عرف مَن يتّخذ بطانةً ومَن هو خائن لايصلح أن يكون كذلك، إن كنتم تعقلون البيان وتلك الآيات وتفهموها وتجعلونها محط أنظاركم ومورد عملكم، فلا يبقى بعد ذلك عذر.

قوله تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ أُوْلَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ﴾.

تأكيد على ترك اتّخاذهم بطانةً، وتنبيه للمؤمنين على خطأ مَن يتّخذهم كذلك، وقد ذكر عزّ وجلّ ذلك بأُسلوب بديع وعبارة فصيحة وخطاب بليغ، يثير المخاطب عند سماعه ويستفزّه على أمر مهمّ قد خفي عليه.

و«ها» للتنبيه، و«أنتم» مبتدأ، و«أُولاء» إسم إشارة وهو منادى يفيد فائدة الاختصاص، وجملة «تحبّونهم» خبر، وإنّما يؤتى مثل هذا الخطاب في مقام التحريض على التباعد، والتنبيه على أمرٍ خفيّ؛ وهو بيان حقيقة المنافقين الذي هو من أعظم مقاصد القرآن الكريم، وللنحويّين مذاهب أُخرى في إعراب مثل هذا التركيب، مَن شاء فليراجع كتبهم، و«لا يحبّونكم» إمّا عطف أو حال.

وكيف كان، فقد وصف الله تعالى المؤمنين بأنّهم يحبّون الناس، بل يحبّون

أشدّهم عداوة الذين لا يقصرون في إفسادهم وتمنّي عنتهم، كما ذكره عزّ وجلّ آنفاً، مع أنّهم لا يحبّونهم، وإنّما أحبّوهم لأنّ الإسلام دين المحبّة والرحمة، ومع ذلك كيف تتّخذونهم بطانةً وهم لا يملكون أيّة رحمة في قلوبهم وليس عندهم ما يدعو إلى حبّكم لهم ؟!

قوله تعالى: **﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾**.

المراد بالكتاب جنسه، أي جميع الكتب التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه ورسله، كتابكم وكتبهم، وهم لا يؤمنون بكتابكم.

وإنّما أكّده عزّ وجلّ بقوله **﴿كُلِّهِ﴾** لبيان أنّهم يؤمنون بجميع جزئيات الكتاب وأجزائه، حتّى في ما يكون مشقّة عليهم، بخلاف المنافقين والكافرين الذين لا يؤمنون بالكتاب، ولو آمنوا ببعض كتبهم فإنّما يؤمنون بما ينفعهم، فإذا كنتم تحبّونهم ولا يحبّونكم، وتؤمنون بكتبهم ولا يؤمنون بكتابكم، فأنتم أحقّ بأن تبغضوهم، وقد نهيتم في مواطن كثيرة عن الركون إليهم والاعتماد عليهم، وقد وصفهم الله تعالى بأوصاف:

كالظلم، قال تعالى: **﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾**[1].

والاعتداء، قال تعالى: **﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾**[2].

والخيانة، قال تعالى: **﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾**[3].

والفساد، قال تعالى: **﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾**[4].

---

١ . سورة هود: الآية ١١٣.

٢ . سورة البقرة: الآية ١٩٠.

٣ . سورة الأنفال: الآية ٥٨.

٤ . سورة القصص: الآية ٧٧.

والكفر، قال تعالى مخاطباً لنبيّه: ﴿اتَّقِ اللهَ وَلَا تُطِعْ الْكَافِرِينَ﴾[1].

فلا يبقى بعد ذلك عذر في اتّخاذكم إيّاهم بطانة، وليس من شأنكم ولا يحسن منكم أن تحبّوا مَن لا يحبّه الله تعالى، فإذا كنتم مؤمنين بالكتاب فهو ينهاكم عن الركون إليهم ويرشدكم إلىٰ ترك محبّتهم في كلّ عصر وزمان إلى يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنْ الْغَيْظِ﴾.

بيان لشدّة نفاقهم، وإنّما حكم على الجميع باعتبار صدور ذلك عن بعضهم، لأنّ الجميع مسؤول عمّا يصدر عن بعض، بحكم قانون التكافل الإجتماعي.

والعض: هو الأخذ بالأسنان مع صغط، وهو إمّا أن يكون عن الندم، أو عن شدّة الغيظ بحيث لا يتمالك المغتاظ عن أن يعض أنامله ويؤلمها، قال أبو طالب:

* يعضون غيضاً خلفنا بالأنامل *

والأنامل جمع أنملة وهى طرف الإصبع.

والمعنى: إذا لقولكم قالوا نفاقاً آمنا بما أنتم به ونحن معكم، وإذا اختلى بعضهم مع بعض أظهروا ما في أنفسهم وعضّوا لأجلكم أطراف أصابعهم حنقاً وغيضاً، وإنّما كانوا يعضّون الأنامل لأنّهم لا يستطيعون التشفّي من المؤمنين إلّا بهذا الطريق.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾.

دعاء عليهم وإن كان في صورة الأمر، أي: امتهم بغيضهم.

والمعنى: قل لهم يا محمّد افعلوا ما شئتم فإنّ الله تعالى يُعلي كلمة الحقّ،

---

١. سورة الأحزاب: الآية ١.

وإنّ الإسلام الذي هو سبب غيضكم لا يزداد إلّا علوّاً وجلالاً وعزّةً، وإنّ الله تعالى خاذلكم فستموتون من شدّة الغيظ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾.

أي: أنّ الله تعالى لا يخفى عليه سرائركم وما في صدوركم من البغي والحسد والحقد، وإن جاهدتم في كتمانها.

وذات الصدور: كناية عن السريرة أو الحالة أو العلّة المتعلّقة بالصدور من نفاق أو إيمان ونحو ذلك، فإنّ الصدور وعاء للقلب الذي هو مرجع جميع الأُمور، ولذا قال تعالى في آية أُخرى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾.

المسّ: هو اللمس، والمراد به هنا الإصابة، وإنّما عبَّر بالمسّ كناية عن قلّة النفع. والمساءة خلاف السرور، والحسنة الخير والنعمة، والسيِّئة الفادحة والمحنة.

واختلاف التعبير في الحسنة والسيِّئة لبيان أنّ الكافرين يسوؤهم ما يصيب المسلمين من الخير وإن قلّ، ويفرحون بإصابتهم السيِّئة دون مجرّد المسّ، وهذا يكشف عن شدّة الغيظ واستيلاء البغض على قلوبهم وحسدهم الشديد للدِّين والمؤمنين.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا﴾.

أي: إن تصبروا على طاعة الله ونصرة دينه وجهاد الأعداء وعداوتهم والبُعد عن الأهل والأوطان، وتتّقوا الله في جميع الأفعال والأعمال وتنفيذ أحكام

---

١ . سورة آل عمران: الآية ١٥٤.

الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾.

وعد منه عزّ وجلّ بالحماية والنصرة. والكيد هو المكر والخديعة. ويضرّكم (بضم الراء وتشديدها) من الضرر، وقرئ بكسر الضاد وسكون الراء المخفّفة، من ضار يضرّه بمعنى المضرّة. وشيئاً منصوب على المصدر.

والمعنى: لا يضرّكم مكرهم وأذاهم شيئاً من الضرر لا قليلاً ولا كثيراً. وهذا من مكارم الأخلاق الإسلامية، حيث لم يأمرهم عزّ وجلّ بمقابلة مكرهم وكيدهم بمثلها، بل أمرهم بالصبر والتقوى وعدم التعدّي، والخير والإحسان، فإنّهم في حماية الله عزّ وجلّ وكنفه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

وعد منه للمؤمنين بالحسنىٰ، ووعيد للكافرين بسوء العُقبىٰ، فإنّ الله تعالى يعلم كيد الكافرين وصبر المؤمنين وتقواهم، وهو محيط بجميع الأفعال والأعمال والأشخاص، إحاطة علم وقدرة، فيجازي كلّاً حسب فعله ثواباً وعقاباً. وفي الآية المباركة التأكيد على نجاة المؤنين وخلاصهم من كيد الكافرين ومنعهم عن المؤمنين.

***

بحوث المقام

بحث دلالي:

يستفاد من الآيات الشريفة أُمور:

الأوّل: ظاهر قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ**﴾، حرمة اتّخاذ البطانة بالقيود المذكورة، وهي أنّهم لا يألونكم خبالاً، وتمنّي العنت لكم، وظهور البغضاء من أفواههم، ويمكن أن تحمل هذه القيود على الغالب، فإذا لم يكن في العدو تلك الصفات والقيود ولكن علم منه العداوة بالقرائن، فهو أيضاً داخل في الآية المباركة، بل هو منافق بصريح ذيل الآية الشريفة.

الثاني: الآية الشريفة ترشد إلى أهمّ الأحكام الاجتماعية، وهو الاهتمام بالصاحب الذي يريد أن يصحبه الإنسان في حياته، والقرين الذي يعتمد عليه في جميع أُموره، وقد اهتمّ الإسلام به أشدّ اهتماماً، فإنّ له التأثير الكبير على الفرد سلوكاً واخلاقاً وديناً، فأمر سبحانه وتعالى المؤمنين أن يكون القرين الذي يتّخذ مؤمناً ومتّصفاً بأوصاف حسنة ومتحلّياً بمكارم الأخلاق، ففي الحديث عن نبيّنا الأعظمﷺ: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل». وفي المثل:

عن المرء لا تسل وسل عن قرينه فإنّ القرين بالمقارن يقتدي

الثالث: قد ذكر سبحانه وتعالى في الآيات المباركة أُموراً قد اتّصف بها الكافرون، وكلّ واحد منهما يبيّن جانباً من جوانب شخصيّتهم النفسية والاجتماعية وحقدهم وحسدهم على الحقّ وأهله، وإنّما أكّد عزّ وجلّ ذلك بسرد تلك الأوصاف اهتماماً بالموضوع، وتذكيراً للمؤمنين بترك اتّخاذ مثل هؤلاء الموصوفين وعدم صلاحيّتهم للخلّة والبطانة والمواصلة، ثمّ أرشدهم إلى أمر

فطري وأرجعهم إلى أنفسهم عند ما حكى عزّ وجلّ أنّهم لا يحبّونكم فكيف يصلحون للمواصلة المبنيّة على الودّ والمحبّة ؟!

الرابع: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا**﴾، أنّ الأمن من كيد الكافرين مشروط بالصبر على أذاهم وكيدهم بتقوى الله وترك كلّ معصية منها الردّ بالمثل، ويمكن أن يحمل التقوى على خصوص ترك موادّتهم واتّخاذهم بطانة.

وكيف كان، فإنّ ذلك وعدٌ منه عزّ وجلّ لهم بالحسنى والظفر وحسن العاقبة من مكائدهم وما يضمرون من شرار الصفات.

الخامس: يستفاد من لفظ «البطانة» جميع ما ورد في الصاحب والقرين وغيرهما ممّا يستعمل في هذا المضمون، فإنّ البطانة مشتمل عليها مع زيادة، وهذا هو دأب القرآن الكريم في استعمال ألفاظ خاصّة يبيِّن الموضوع بتمام جهاته بأُسلوب رصين وألفاظ بديعة، وهذا اللفظ يشمل مثل تعليم أسرار القرآن ومعارفه، فإنّ إفشاءهما لغير الأهل داخل في الآية الشريفة.

***

بحث روائي:

في «الدر المنثور»، عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ**﴾، قال: «نزلت في قوم من المؤمنين كانوا يصافون المنافقين ويواصلون رجالاً من اليهود، كما كان بينهم من القرابة والصداقة والحلف والجوار والرضاع، فأنزل الله تعالىٰ هذه الآية ينهاهم عن مباطنتهم، خوف الفتنة منهم عليهم».

أقول: على فرض اعتبار الحديث أنّه يبيِّن بعض المصاديق.

***

الآية ١٢١ ـ ١٢٩

﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ۝١٢١ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ۝١٢٢ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ۝١٢٣ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ۝١٢٤ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۝١٢٥ وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ۝١٢٦ لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ۝١٢٧ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ۝١٢٨ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ۝١٢٩﴾.

الآيات الشريفة تذكِّر المؤمنين بالمواقف الصعبة التي مرت على الإسلام والمسلمين، وما لاقاه صاحب الدعوة من المتاعب والمصاعب من المنافقين والمشركين، والحروب التي خاضها المؤمنون ضدّ العتاه والجبابرة، الذين أرادوا النيل من الإسلام، والوقوف أمام تقدّمه، كما تذكر الآيات النِّعم التي أنعمها على المؤمنين من الإيمان والنصرة وكفاية الأعداء، وهدايتهم إلى ما يوجب سعادتهم في حياتهم وبعد مماتهم، وأوعدهم النصر والمغفرة إذا صبروا واتّقوا المعاصي

وأطاعوا الله والرسول الكريم.

وقد ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآيات المباركة غزوة أُحد وبدر من بين سائر الغزوات، لما فيهما من العبر والدروس العظيمة، وأنّ ما وقع في غزوة أُحد إنّما هو نموذج من أفاعيل المنافقين الذين كانوا مندسّين في صفوف المؤمنين، فميّزهم الله تعالى بما وقع منهم من المحنة، فالآيات الشريفة تتمّة لما أراده عزّ وجلّ من هذه السورة من تذكير المؤمنين بحقيقة الإيمان ونعم الله تعالى عليهم، وما لهم من الجزاء الكبير في الآخرة، وأمرهم بالصبر والتقوى.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾.

إذ: ظرف في موضع نصب متعلّق بمحذوف، مثل (اذكر) ونحوه، وجملة «تبوّئ المؤمنين» حال من فاعل «غدوت». و«مقاعد» مفعول ثان لـ«تبوّئ».

وغدوتَ: من الغدوة، يُقال: غدا يغدو غدواً، وهو الخروج أوّل النهار ضدّ الرواح، وقال بعضهم: إنّه بمعنى انطلق، ويمكن أن يكون المراد به هو السير والانطلاق في زمان مخصوص وهو أوّل النهار وصدره، ويستفاد منه قرب الموقع من المدينة، وقد حدّده أرباب السِّير والتواريخ بـ(أُحد)، والغدو سحر يوم السبت سابع شوّال من سنة ثلاث من الهجرة.

والأهل: قرابة الرجل ومَن يجمع وإيّاهم نسب، أو مصاهرة، أو بيت، أو دين، أو صناعة ونحو ذلك، ويستوي فيه المذكّر والمؤنّث، والمفرد والجمع، ويختصّ استعماله بالإنسان، والمراد به في المقام خاصّة رسول الله ﷺ ومَن يتعلّق به من قرابته وأصحابه، وإنّما عبّر به عزّ وجلّ في المقام لبيان شدّة الاتّصال والأُلفة بينه ﷺ وبينهم، فكأنّهم جميعاً من أهله، ولا يختصّ بفرد معيّن كما ذكره

جمع من المفسّرين ، وقدّر بعضهم (بيت أهله) ، ولكن ذلك لا دليل يدلّ عليه ، والحقّ ما ذكرناه.

وإنّما غدى من أهله بعد المشاورة معهم في أمر الجهاد مع العدوّ واستمالة قلوبهم إليه ، مقدّمة لتوطين أنفسهم على الجهاد وإقامة دعائم الإسلام.

ومادّة (بوأ) تدلّ على الرجوع والقرار ، سواء كان إلى الحقّ أو إلى الموضع المعيّن ، وأصل البواء اللزوم ، يُقال : تبوّأ المكان إذا استقرّ فيه وألزمه ، وبوّأه المقعد إذا أقرّه فيه ، وبوّأته داراً إذا أسكنته إيّاها. وقد استعملت هذه الهيئة في القرآن الكريم في أحد عشر موضعاً مضافة إلى الله تعالى وأنبيائه الكرام :

قال تعالى : **﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾**[١].

وقال تعالى : **﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفاً تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾**[٢].

وقال تعالى : **﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ﴾**[٣].

وفي المأثور : «ابوء بنعمتك عليَّ وابوء بذنبي».

وقال صلى الله عليه وآله في وصف المدينة : «هاهنا المتبوّأ». والجميع يشعر بعناية المبوئ (بالكسر) للمبوأ (بالفتح).

وفي المقام تدلّ الكلمة على عناية خاصّة من سيّد الأنبياء صلى الله عليه وآله للمؤمنين الذين هيّأ لهم مقاعدهم للقتال ، لأنّه قائدهم ومدبّر شؤونهم ، وقد هيّأ بنفسه المقدّسة لهم ذلك اهتماماً بهم ولعظمة الموضوع ، وقطعاً للمعاذير ، والدعاوي الباطلة من سائر الأفراد ، وقد عيّن مواقع الجيش والمواضع التي يجب أن

---

١ . سورة الحجّ : الآية ٢٦.

٢ . سورة العنكبوت : الآية ٥٨.

٣ . سورة يوسف : الآية ٥٦.

يتّخذوها أثناء الحرب في القتال، وقد ورد في الأحاديث أنّه ﷺ عيّن سفح أُحد ـ بضم الألف والحاء، جبل على نحو ميل من المدينة في شمالها على طريق العراق ـ موقعاً حربيّاً وجعله في ظهورهم، وجعل على الشعب عبدالله بن جبير مع خمسين من الرماة، وسيأتي في البحث التاريخي نقل ذلك. وفي الآية الكريمة تقرير إلهي لحسن تخطيط نبيّه الأعظم ﷺ وتدبيره لجهات الحرب.

قوله تعالى: ﴿وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أي: والله سميع لكلّ ما قيل في هذه الحرب، سواء من المؤمنين والمنافقين، وما قاله الرسول العظيم لهم ودعاؤه لهم بالنصر. عليم بالنيّات وما في الضمائر.

وفي اختصاص هذين الاسمين بالذكر لما يتطلّبه المقام من الشدّة والسيطرة، وما يجري في الخلوات بين الناس، وما يقال في تثبيط العزائم ووهنها، وتنشيط المنافقين في هذا المضمار.

وفي الآية الشريفة التفات من خطاب المؤمنين إلى خطاب الرسول الكريم ﷺ، ولعلّه لأجل ما يلوح من الآية الشريفة اللوم والعتاب والتعريض بالمؤمنين، لما ظهر من بعضهم من الوهن في العزائم والفشل في القتال، ولذلك أعرض عن خطابهم إلى خطاب رسول الله ﷺ، وذكر عزّ وجلّ ما يهم هذه الحرب وما يرتبط بها من تعيين مواقع الجيش، وهو من مختصّات قائدهم وأميرهم، وبه اختبر درجات إيمانهم وثباتهم وقوّتهم.

قوله تعالى: ﴿إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنكُمْ﴾.

إذ: ظرف في موضع نصب متعلّق بقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ﴾، أي والله سميع عليم حين همّت طائفتان منكم أن تفشلا.

وقيل: إنّه بدل من «إذ غدوت».

وقيل: إنّه متعلّق بـ«تبوئ».

وكيف كان، فإنّ الآية المباركة تبيّن وجه اللوم والعتاب والتعريض بالمؤمنين.

والهم: هو القصد وأوّل العزيمة، والفشل: الجبن وضعف القلب، والطائفتان: هما بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس، وهذا هو المشهور بين المفسِّرين.

وقيل: إنّهما طائفة من المهاجرين وطائفة من الأنصار.

وقيل: إنّه عبدالله بن أُبي، وجماعة من أصحابه الذين اتّبعوه في الخذلان.

ولكن من المعلوم أنّ هؤلاء قد نافقوا وفشلوا وقعدوا عن نصرة رسول الله ﷺ، لا أنّهم همّوا بالفشل، والله تعالى يذكرهم بالنفاق والخذلان والذمّ والمقت، وأنّهم يومئذٍ للكفر أقرب منهم للإيمان في هذه السورة، فالطائفتان غيرهم، وسيأتي في البحث التأريخي ما يتعلّق بذلك.

قوله تعالى: ﴿**أَنْ تَفْشَلَا وَاللهُ وَلِيُّهُمَا**﴾.

حال من فاعل «همّت»، أي: الحال أنّهما يعلمان أنّ الله ناصرهما ويعصمهما عن الفشل، وفي الآية الشريفة اللوم والعتاب لهاتين الطائفتين، فإنّ المؤمن لاينبغي له أن يفشل، أو يقصده وعنده رسول الله ﷺ السبب المتّصل، وقد أمر بالتوكّل على الله تعالى والاعتصام به.

وذكر بعض المفسّرين أنّ هذا الهمّ لم يكن عن عزم وتصميم على مخالفة النبيّ ﷺ ومفارقته له، لأنّ ذلك لا يصدر عن مؤمن، بل كان مجرّد وسوسة وحديث نفس، كما في قوله:

أقول لها إذا جشأت وجاشت مكانك تحمدي أو تستريحي

ولكن ذلك اجتهاد في مقابل النصّ، فإنّ المعروف من معنى الهمّ هو القصد دون مجرّد الخطور بالبال والوسوسة، مع أنّ مجرّد الخطور لو كان سبباً لهذا اللوم والعتاب لما نجى من ذلك مؤمن، فلا وجه لاختصاص الطائفتين بهما. يضاف إلى ذلك أنّ الأمر بالتوكّل والتذكير بولاية الله تعالى لهما، فيهما الدلالة على أنّ الهمّ لم يكن من مجرّد الوسوسة، بل هو قصد وعزيمة من دون فعل، فالآية الشريفة تدلّ على أنّ الله تعالى عصمهما عمّا همّتا به، لأنّه عزّ وجلّ وليّ المؤمنين، يرعى مصالحهم ويثبّتهم على الإيمان، قال تعالى: ﴿**يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ**﴾[1].

قوله تعالى: ﴿**وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ**﴾.

أي: على الله تعالى لا علىٰ غيره يتوكّل المؤمنون، لأنّه وليّهم وناصرهم، فلايهنوا في نصرة الدِّين، وإنّ المؤمن بمقتضى إيمانه لابدّ وأن يتوكّل على الله تعالى في جميع اُموره، ولكن يجب أن لا يقصّر في إقامة الأسباب، فإنّه تعالى أبى أن يجري الاُمور إلّا بأسبابها، وهو الموفّق بين الأسباب والمسبّبات، وقد ينصر الفئة القليلة على الفئة الكثيرة ويمدّهم بالقوّة المعنوية والظاهرية، كما حكى جلّ شأنه في الآيات التالية.

قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ**﴾.

بدر: اسم ماء أو بئر بين مكّة والمدينة، يُقال إنّه كان لرجل من جهينة، فسمّي الموضع باسمه، وقد وقع فيه أوّل غزوة من غزوات النبيّ ﷺ في السابع عشر من شهر رمضان المبارك سنة اثنتين من الهجرة، وفيها قاتل المشركين وانتصر فيها المسلمون.

---

١ . سورة إبراهيم: الآية ٢٧.

وأذلّة جمع ذلّة ، وإنّما ذكره عزّ وجلّ لبيان الذلّة في جميع الشؤون الظاهرية المعدّة لهذا المقام . وجملة : «أنتم أذلّة» حال من مفعول «نصركم» ، والمراد من الذلّة نوع خاص منها هو القلّة في العدد والعدّة والانقطاع عن جميع الجهات الدنيوية .

والآية الشريفة تؤكّد نصر الله تعالى للمؤمنين ، فتذكّرهم بالنِّعم التي أنعمها عزّ وجلّ عليهم ، فقد نصرهم الله تعالى في بدر ذلك النصر الباهر على أعدائهم ، مع ما هم عليه من العدّة والعدد ، كما أيّد الله تعالى المؤمنين بالملائكة ، وهو يكفي في التنبيه على أنّ التوكّل على الله تعالى بعد إقامة السبب الظاهري يؤثّر الأثر الكبير العجيب ، فتكون الآية الشريفة مسوقة لإيجاب التوكّل على الله تعالى بذكر أحد موارده ، كما أنّها تؤكّد اللوم والعتاب على ما ظهر منهم من الهمّ بالفشل في أُحد . فكان الأجدر بهم أن لا يهنوا في الحرب ، فإنّ الله تعالى على نصرهم لقدير ، كما نصرهم في غزوة بدر الكبرى مع ذلّة المؤمنين ظاهراً واستذلال المشركين لهم ، حيث لم يكن لهم أهبّة حرب ولا عزّة محارب ، ولا منعة لهم لا في العدد ولا في العدّة ، فقد كان عدهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، وليس لهم من العدّة إلّا جريد النخل وفرسين وأباعر معدودة يتعاقب عليها بعض المسلمين وقليل من الزاد ، بينما كان عدد المشركين ما يناهز الألف ولهم العدّة الكاملة من النخيل والنعم والسيوف والدروع ، إلّا أنّ الله تعالى نصر المسلمين بأعزّ وجه ، لأنّهم كانوا معزّزين بعزّة الله تعالى واقعاً ، قال تعالى : **﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾**[1] ، فهم وإن كانوا أذلّة من قبل العتاة والجبابرة مقابل تلك القوّة والشوكة في يوم بدر ، ولكن لهم العزّة من جهة أُخرى .

---

١ . سورة المنافقون : الآية ٨ .

قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

أي: فاتّقوا الله بتذكّر نعمه، لاسيما نعمة النصر في يوم بدر، وبترك المعاصي حتّى الهمّ بالفشل والخذلان والنفاق، وبالصبر في عظائم الأُمور حتّى تستعدّون للقيام بوظيفة الشكر، الذي هو من أجلّ المقامات، لأنّه يوجب توارد النِّعم عليكم ويمنحكم النصر العظيم.

قوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾.

إذ: ظرف لـ(نصركم)، وهو يبيّن ولاية الله تعالى على المؤمنين جزاء شكرهم وتوكّلهم على الله تعالى.

والكفاية: هي الاستغناء بالشيء عن غيره. والإمداد: هو إعطاء الشيء حالاً بعد حال وعلى طريق الاتّصال.

وقال بعضهم: الإمداد ما كان بطريق التقوية والإعانة، وما كان بطريق الزيادة، يُقال: مدّه مدّاً.

وقال آخرون: مدّه في الشرّ، وأمده في الخير.

والهمزة في «ألن» للإنكار، والنفي بـ«لن» لتأكيده، وللدلالة على أنّهم كانوا آيسين من النصر لقلّة العدد والعدّة.

وإنّما أتى بلفظ الربّ وإضافة إلى ضمير المخاطبين، للدلالة على كمال العناية بهم، والتربيب العظمى، وأنّه لا يدعكم في هذه الحالة التي تحتاجون إلى عطفه وعنايته ونصرته، وهو يدلّ على تقوية الإنكار، والخطاب للنبيّ ﷺ، تعريضاً بالمؤمنين لمّا همّوا بالفشل.

والمعنى: تقول يا محمّد للمؤمنين في أُحد عندما همّوا بالفشل: أليس الله

تعالى بقادر على أن يكفيكم العدو كما كفاكم في بدر، بأن يمدّكم ربّكم الذي يرعاكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين من السماء، وقد أمدّكم يوم بدر بأقلّ من ذلك.

والمراد بقوله: «منزلين»، أي متهيئين لنصركم، وهذا خصيصة لبعض الملائكة دون كلّهم، فكما أنّ جبرئيل موكل لجملة من الأُمور السماوية والأرضية التي ليس ذلك من شأن كلّ ملك، كذلك ملائكة النصر في بدر وأُحد.

وظاهر الآية الشريفة يدلّ على أنّه وعدٌ من النبيّ ﷺ للمؤمنين وترغيب لهم إلى الصبر والتقوى حتّى يتحقّق الموعود به، وتثبيت لعزيمتهم.

ولا يستفاد من الآية الشريفة وقوع ذلك في غزوة أُحد، بل كان مجرّد وعد إن وفوا بما اشترط عليهم من الصبر والتقوى، بخلاف غزوة بدر والأحزاب ويوم حنين، قال تعالى في بدر: **﴿فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾**[1].

وفي الأحزاب، قال تعالى: **﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾**[2].

وفي يوم حنين، قال تعالى: **﴿وَأَنْزَلَ جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا﴾**[3].

ثمّ إنّه لا منافاة بين تحديد الاستجابة لطلب الإمداد في يوم بدر بألف ونزول ثلاثة آلاف من الملائكة فيه، إذ أنّ مردفين في قوله تعالى: **﴿بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾**، يمكن أن يكون المراد به أنّ هذا العدد هو قسم خاص من الملائكة أُردف لآخرين، فتكون ثلاثة آلاف لمجموع العدد، كما يأتي إن شاء الله تعالى.

---

١ . سورة الأنفال: الآية ٩.

٢ . سورة الأحزاب: الآية ٩.

٣ . سورة التوبة: الآية ٢٦.

قوله تعالى : ﴿**بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا**﴾ .

تصديق لكفاية الله تعالى لهم من الأعداء ونصرتهم عليهم ، ولكنّه وعد بشروط إن وفوا بها يف الله تعالى بوعده ، وهي الصبر على الجهاد ، والثبات في نصرة دين الله ، وتقوى الله عمّا يوجب الخذلان والوهن في العزائم وصرف الإمداد الإلهي والفيض الربوبي ، ومجيء الأعداء من فورهم .

ومادّة (فور) تدلّ على الحركة والاضطراب ، يُقال : فار الماء إذ نبع وجرى ، ويُقال : فارت القدر إذا غلت ، وفي الحديث : «إنّ شدّة الحرّ من فور جهنّم» ، وتطلق على الغضب ، لأنّه يشبه فور القدر ، واستعملت في السرعة والحركة التي لا سكون ولا بطء فيها ، يقال : جاء فلان في حاجته ثمّ رجع من فوره ، أي من حركته ، فكأنّه في حركة مستمرّة .

وقد استعملت هذه المادّة في القرآن الكريم في أربعة موارد :

قال تعالى : ﴿**حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ**﴾[1] .

ومثله في سورة المؤمنون ، الآية : ٢٧ .

وقال تعالى : ﴿**سَمِعُوا لَهَا شَهِيقاً وَهِيَ تَفُورُ**﴾[2] .

وفي المقام .

واختلف المفسّرون في المراد منه :

فقيل : إنّه من وجههم .

وقيل : إنّه من سفرهم .

وقيل : إنّه من غضبهم .

والحقّ أنّ جميع ذلك لا دليل عليه ، لا سيما إذا كان المراد من غضبهم من

---

١ . سورة هود : الآية ٤٠ .

٢ . سورة الملك : الآية ٧ .

يوم بدر، لكان الأنسب أن يقول عزّ وجلّ من (فورهم ذلك)، مع أنّ الآية الشريفة بملاحظة سياقها والقرائن نزلت في شأن غزوة بدر.

والصحيح أنّ المراد منه هو الفور ضدّ التراخي، أي يأتوكم المشركين والأعداء من ساعتهم من دون إبطاء، وإنّما وصف عزّ وجلّ مجيئهم بذلك، لتأكيد السرعة وشدّة غضبهم وتصميمهم على منازلة المؤمنين، فإذا كانوا كذلك فإنّ الإمداد واقع لا محالة، ويكون أسرع.

قوله تعالى: ﴿**يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ**﴾.

بيان لسرعة الإمداد عند سرعة مجيء المشركين؛ والآية الشريفة تبيّن أقصى الحالات التي يحتاج إليها المؤمنون إلى المدد، وهي حالة المباغتة في الحرب وسرعة الحركة التي يتطلّبها المحاربون في تلك الحالة، وقد وعدهم عزّ وجلّ بإنزال المدد فوق ما يتصوّر من السرعة.

و(**مسوّمين**): من السيما، وهي العلامة، يُقال: سوّمه ويسومه تسويماً، أي أظهر علامة الشيء. يعني أنّ الملائكة كانوا معلّمين بعلامة خاصّة، كما هو الشأن في جميع الحروب التي يكون لكلا الطرفين علامة خاصّة يتميّز بها عن الطرف الآخر، وبها كان المسلمون يعرفون الملائكة، كما عرفهم المشركون وقد ملئوا منهم رعباً، كما هو المعروف.

وقد اختلفت الروايات في علامة الملائكة، ففي بعضها أنّها (العمائم)، وفي بعضها الآخر أنّ سيماء الملائكة يوم بدر الصوف الأبيض في نواصي الخيل وأذنابها، وغير ذلك من الأخبار.

والحقّ ما ذكرناه، فإنّ المناط هو معرفة الطرفين الملائكة، أحدهما بعلامة النصر وتثبيت القلوب، والآخر بالخذلان والرعب، ولا ينافي ذلك أن تكون

للملائكة علائم خاصّة، ولا ثمرة في البحث عن العلامة الخاصّة بعد وضوح الحال لكلا الطرفين.

والآية الشريفة لا تدلّ على نزول الملائكة في اُحد، لأنّ سياقها بضميمة القرائن تدلّ على أنـّها ناظرة إلى يوم بدر، وقد وعدهم عزّ وجلّ بالإمداد، ولكنّهم وهنوا وعصوا وتركوا أمر رسول الله ﷺ، ولو إنّـهم صبروا واتّـقوا الله لأمـدّهم الملائكة بالنصرة والثبات.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ﴾.

تثبيت آخر لقلوب المؤمنين لتطمئن نفوسهم. وهو يدلّ على عدم نـزول الملائكة في اُحد، لأنّ الله تعالى جعل نزول الملائكة مشروطاً باُمور ثلاثة، وهي: الصبر، والتقوى، ومجيء الأعداء من فورهم، ولم تتحقّق تلك الشروط، فلم يكن ذلك إلّا وعداً منه عزّ وجلّ فيه البشارة والطمأنينة لقلوب المؤمنين.

والضمير يرجع إلى ما ورد في الآية السابقة من الإخبار بنزول المـلائكة والوعد بالإمداد، فإنّه وإن لم يتحقّق الموعود به، ـ كما عرفت ـ لكن ذلك بشرى للمؤمنين يذهب به خوفهم وتنبسط نفوسهم، وهذه حكمة عظيمة من تذكيرهم بما مضى من المدد والوعد بالإمداد.

قوله تعالى: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾.

حكمة اُخرى في الوعد بالإمداد، وهي تسكين قلوب المؤمنين وتثبيتها عند النزال، فلا يلحقهم الخوف من كثرة العدوّ وعدّتهم.

وإنّما أخّر عزّ وجلّ «به» في المقام وقدّمه في موضع آخر، قـال تـعالى: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ﴾[1]، ولعلّ الوجه في ذلك أنّ المؤمنين لذلّتهم وقلّة عددهم

---

١. سورة الأنفال: الآية ١٠.

وعدّتهم في بدر، لم يكن لهم أمل في النصر إلّا إرادة الله تعالى ونصرته وإنجاز وعده عزّ وجلّ، كما هو معروف من انقطاعهم إلى الله تعالى، فكان القصر في الكلام بخلاف اُحد، فإنّ الأمر لم يكن كذلك، فنزل الخطاب من غير قصر.

قوله تعالى: **﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾**.

(عند): يفيد مطلق الحضور، الأعمّ من الجسماني والروحاني وما هو فوق ذلك، كالحضور عند الله تعالى، وقد استعمل في القرآن الكريم في الجسمانيات المحضة في الدنيا:

كقوله تعالى: **﴿فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾**[١].

وقوله تعالى: **﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ﴾**[٢].

وفي الآخرة، كقوله تعالى: **﴿وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ﴾**[٣].

وفي المجرّدات والروحانيات، كقوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ﴾**[٤].

ومثل قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾**[٥].

وفي فوق الروحانيات والمجرّدات، كقوله تعالى: **﴿وَمَا عِنْدَ اللهِ بَاقٍ﴾**[٦].

وقال تعالى: **﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ﴾**[٧].

---

١. سورة البقرة: الآية ١٩٨.

٢. سورة النحل: الآية ٩٦.

٣. سورة الصافات: الآية ٤٨.

٤. سورة الأعراف: الآية ٢٠٦.

٥. سورة النجم: الآية ١٣ و ١٤.

٦. سورة النحل: الآية ٩٦.

٧. سورة القلم: الآية ٣٤.

إلى غير ذلك من الآيات الشريفة، بل استعمل مضافاً إلى الله تعالى في القرآن الكريم بأنحاء مختلفة.

والحصر في الآية الشريفة يفيد أنّ جميع أنواع النصر ـ معنوية كانت أو مادّية ـ تنحصر به تعالى، لفرض أنّ الكلّ مسخّر تحت أمره ومشيئته، وأنّ الملائكة لا شأن لهم في ذلك إلّا أنّهم بمنزلة الآلة الجسمانية والقوى المحضة.

وفي ذكر العزيز الحكيم بيان لعلّة انحصار النصر فيه تبارك وتعالى، لأنّ مَن كان عزيزاً وقويّاً منيعاً بكلّ معنى الكلمة، وعالماً حكيماً بدقائق الأُمور، ينحصر النصر فيه لا محالة.

قوله تعالى: ﴿**لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ**﴾.

بيان لبعض وجوه الحكمة التي من أجلها ينصر الله تعالى المؤمنين مطلقاً، وحينئذٍ لا فرق بين أن يكون اللام متعلّقاً بقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ**﴾، أو يكون متعلّقاً بالنصر في قوله تعالى: ﴿**وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ**﴾، فإنّ الله تعالى عزيز حكيم، يضع الأشياء على ما تقتضيه الحكمة، وقد ذكر عزّ وجلّ وجوهاً من الحكمة في نصر المؤمنين وهي قطع طرفاً من الكافرين، وكبتهم.

وقطع الطرف: كناية عن إهلاك طائفة من الكافرين وإضعاف قوّتهم وإذهاب شوكتهم، كما وقع في يوم بدر وخيبر ونحوهما.

ومادّة كبت تدلّ على الإهانة والذلّة بدواعي مختلفة إمّا الخزي والعار، أو الصرف، أو الردّ بالغيظ، أو الردّ بعنف وتذليل، أو بالصرع على الوجه، أو بالهزيمة ونحو ذلك، وقد استعملت هذه المادّة في القرآن الكريم في ثلاثة موارد:

أحدها المقام.

والثاني والثالث، قوله تعالى: ﴿**كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**﴾[1].

---

١ . سورة المجادلة: الآية ٥.

والجامع هو الإهانة والذلّة. وما ذكره أهل اللغة والتفسير من المعاني إنّما هو دواعي الاستعمال وإن جعلوها من أصل المعنى.

وكبت الذين كفروا وقع في يوم الأحزاب وأُحد وأمثالهما، حيث أذلّهم الله تعالى بأخسّ وجه، فقد رجعوا خائبين منهزمين قد انقطعت آمالهم، ولم يلحقهم إلّا الخزي والعار.

قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ**﴾.

جملة معترضة تفيد أنّ جميع الأُمور المتعلّقة بالخلق، سواء كانت في الهدى أم التعذيب أو القتل أو الأسر أو التوبة، ترجع إلى خالقهم وقدرته وإرادته، وليس للنبيّ ﷺ شيء من ذلك سوى أنّه ينفّذ أمر الله تعالى فيهم، فإنّه بشر مخلوق مثلهم.

وإنّما أدرج عزّ وجلّ هذه الجملة في التقسيم، لبيان أنّ النبيّ ﷺ إذا أصابه مكروه، أو إذا دارت الدائرة على المسلمين، لا يُلام على ذلك، فإنّه ليس له في ذلك صنع، وإنّما يرجع إلى قدرة الله تعالى وإرادته، وكذا بالنسبة إلى الظفر على الأعداء فإنّ الشكر لابدّ أن يكون الله تعالى على ما أنعم.

ولهذه الجملة في هذا الموضع لها وقع كبير في النفوس، فإنّ أمر الحرب شديد ولا يمكن أن تتقبّلها النفس بسهولة، فإنّ تهيئة الناس لها تهيئة نفسية ومعنوية وظاهرية، تحتاج إلى عناية خاصّة، ولأجل ذلك أدرج سبحانه هذه الجملة، لبيان أنّ جميع الأُمور ترجع إلى الله تعالى، وهو الذي يحكم ما يريد، فليس للأفراد دخل في هذا الأمر، فكان لها تأثير كبير في نفوس المؤمنين، وتزيد في انقطاعهم إلى الله تعالى، وتظهر توكّلهم عليه، وحينئذٍ كان الإمداد والفيض الربوبي كبيراً، والإقدام على الحرب والمنازلة شديداً، ففي هذا البيان الربوبي من

الحِكَم الدينية والاجتماعية والحربية ما لا يخفى.

قوله تعالى: **﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾**.

الجملتان معطوفتان على قوله: «ليقطع»، وهما من أفراد التقسيم التي ذكرت لبيان وجوه الحكمة في نصر الله تعالى للمؤمنين.

والمعنى: أو يتوب على الكفّار والمشركين فيهديهم إلى الإسلام وتزيد بذلك شوكة المسلمين وعددهم وعدّتهم، وهذا هو نصرٌ كبير، فإنّه لا يختصّ في ساحة القتال ومنازلة الأعداء، أو يعذّبهم في الدنيا بما يريده الله تعالى ويشاء، أو في الآخرة بما أعدّ لهم من العذاب الأليم، وذلك لأنّهم ظالمون لأنفسهم، فقد أعرضوا عن الإسلام ولم يحسنوا التوبة إلى الله تعالى.

والترديد الظاهري في الآية المباركة إمّا بداعي تهويل الأمر عليهم، أو لأجل وقوع ذلك بالنسبة إلى الأفراد، فبعضهم استؤصلوا، وبعضهم كبتوا، وبعضهم تاب الله عليهم بعد أن أسلموا، وبعضهم عذّبوا.

ويمكن أن يكون قوله تعالى: **﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾** والآية اللاحقة، لأجل ترغيبهم إلى التوبة، والعفو عمّا يفعله أراذل الأنام، وأنّ العفو عند المقدرة من أخلاق الكرام.

وقد ذكر المفسّرون في إعراب هاتين الجملتين: «أو يتوب عليهم أو يعذّبهم» وجوهاً مذكورة في كتب التفسير، والجميع لا يرجع إلى محصل، وتحتاج إلى عناية زائدة.

قوله تعالى: **﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾**.

كلام مستأنف يفيد عظمة مَن يرجع جميع الأمور إليه، فإنّه مالك لجميع ما في السماوات والأرض ملكاً حقيقيّاً، يفعل فيها ما يشاء وما يريد، خاضعة لديه،

مسخّرة تحت إرادته، حكيم في أفعاله. والجملة في موضع التعليل لما تقدّم.

قوله تعالى: ﴿يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾.

من حكمته أنـّه يغفر لمَن يشاء، وقد فسّره عزّ وجلّ في موضع آخر، قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾[1]، ويعذّب مَن يشاء إذا أعرض عن الهدى والتوبة.

وتعليق المغفرة والعذاب على المشيئة، لبيان أنـّه تعالى يفعل ذلك وفق حكمته المتعالية، وتنبيه الإنسان على عدم الاغترار بأعماله، وأفعاله، وعدم إيئاسهم من رحمته تعالى، وبياناً لإحاطة رحمته ومغفرته على غضبه وعذابه على أي فرض.

قوله تعالى: ﴿وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

تقرير لمضمون ما ورد في الصدر، فهو غفور للمذنبين رحيم لهم، لئلا يحصل لهم اليأس من رحمته تعالى.

***

١. سورة طه: الآية ٨٢.

بحوث المقام

بحث دلالي:

يستفاد من الآيات الشريفة أُمور :

الأوّل : يستفاد من قوله تعالى : **﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾** كثرة اهتمام النبيّ الكريم بأُمّته وعنايته ﷺ بأُمورهم ، فإنّهم رعيّته وهو مسؤول عن رعيّته ، فقد خرج من أهله الذين هم أولى الناس به غدوة ليعيّن مقاعد القتال ومواضع جيش المسلمين ، ولأهمّية الأمر وعظمته فقد خرج غدوة إليه وقدّمه على سائر أُموره ، ويستفاد منه قرب الموضع من مدينة الرسول ، وقد عيّنه التاريخ بأنّه جبل أُحد ، كما هو المشهور المعروف هناك .

الثاني : يستفاد من سياق الخطاب العتاب واللوم على ما فعله المؤمنون من الوهن في العزيمة والفشل في القتال ، ولذا أعرض عزّ وجلّ عن خطابهم إلى خطاب النبيّ الكريم في عدّة مواضع من هذه الآيات الكريمة :

منها : قوله تعالى : **﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ﴾** .

وقوله تعالى : **﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾** .

وقوله تعالى : **﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾** .

ووجه الخطاب إلى المؤمنين في كلّ مورد يستفاد منه اللّوم والعتاب .

الثالث : يستفاد من مجموع الآيات الشريفة الواردة في المقام وغيره ، كثرة هموم نبيّنا الأعظم ﷺ بالنسبة إلى شؤون أُمّته ، وقد قاسى في سبيل الله وإظهار كلمة الحقّ من الأعداء والمنافقين ما لم يقاسه أحدٌ من أنبياء الله تعالى ، فإنّ أنبياء الله تعالى ـ خصوصاً سيّدهم ﷺ ـ دائماً في حالة الجهاد والمحاربة مع غيرهم ، إلّا

أنّ مراتب الجهاد والمحاربة مختلفة قولاً وعملاً ، وذلك لأنّهم مظاهر العقل المجرّد وأخلاق الله تعالى ومعارفه الواقعيّة ، ومثل ذلك إذا اختلط مع غيره إنّما يكون من اختلاط العلم بالجهل المركّب أو البسيط ، وعداء الطرفين معلوم لكلّ ذي شعور .

الرابع : يستفاد من قوله تعالى : ﴿**إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا**﴾ علم الله تعالى بالجزئيّات ، كما تدلّ عليه الأدلّة العقلية والنقلية ، قال تعالى : ﴿**يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**﴾[1] .

وتتضمّن هذه الجملة العتاب مع الدلال ، وهو من أجمل الأساليب وأبدعها كما في قوله تعالى : ﴿**وَاللهُ وَلِيُّهُمَا**﴾ فإنّ العتاب فيه ظاهر ، أي لأيّ شيء صدر منكم الهمّ بالفشل مع أنّ الله تعالى معكم يحفظكم ويرعى مصالحكم .

الخامس : يستفاد من قوله تعالى : ﴿**وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ ، العفو عن ما صدر عنهم من الهمّ بالفشل ، وأنّ ذلك يزول فتستقرّ النفوس ويثبت المؤمنون في أُمورهم بالتوكّل على الله تعالى ، وإنّ من حقّ الإيمان بالله تعالى هو التوكّل عليه ، وهو يكفي المؤمنين .

وحذف المتعلّق في التوكّل للدلالة على أنّ المؤمن ينبغي أن يتوكّل عليه في جميع أُموره وشؤونه ، جليلها وحقيرها سهلها وصعبها .

السادس : يستفاد من قوله تعالى : ﴿**وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ**﴾ ـ بقرينة الحال ـ هي الانقطاع التام عن المخلوق وعالم المادّة ، والتوجّه الكامل إلى عالم الغيب ، وحينئذٍ يقع نصر الله تعالى لا محالة ، فإنّ المستفاد من مجموع الآيات المباركة الواردة في نصرة الله للمؤمنين في مواضع مختلفة ، أنّ المناط كلّه هو تحقّق هذه الحالة الانقطاعية إلى الله عزّ وجلّ ، وكلّ مَن حصلت له هذه الحالة ، فهو من

---

١ . سورة غافر : الآية ١٩ .

أصحاب بدر الذين أبلوا البلاء الحسن في نصرة دين الله تعالى وبذلوا مهجهم في سبيله عزّ وجلّ، فسلام عليكم يا أهل بدر، فقد فضّلتم على بدر السماء لأنّكم أنوار الهدى وأصحاب محمّد المصطفى، فلا ينسى مناركم، ويرتجى مقامكم أبداً، وفيكم يدوّي صوت رسول الله ﷺ في الآفاق: «زمّلوهم بدمائهم فإنّهم يحشرون يوم القيامة وتشخب أوداجهم دماً»، واحمرار الشمس حين طلوعها وغروبها من شواهد بقاء حياتكم الأبدية ورمز سعادتكم السرمدية.

السابع: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ**﴾ أنّ الكفاية إنّما تتحقّق في الإمداد الربوبي، وهو لا يختصّ بنوع خاص، بل يشمل جميع ما يتعلّق بنصرة المؤمنين المادّية والمعنوية، وما يتعلّق بشؤونهم العسكرية وثبات نفوسهم واستقرارها وإلقاء الرعب في قلوب الأعداء.

الثامن: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ**﴾، أنّ الإفاضات الربوبيّة بقدر اطمئنان القلب الحاصل من التصفية، ولابدّ أوّلاً من البشارات الإلهية بالفيض والإمداد، وأنّ لذلك الأثر الكبير في اطمئنان القلب، الذي يكون المؤمن بحاجة إليه في جميع حالاته، لاسيما حالة الجهاد والحرب مع الأعداء.

وإنّما وجّه الخطاب إلى الرسول الكريم باعتبار أنّه واسطة الفيض، ولبيان أنّ كلّ فيض لابدّ أن يكون عن طريقه ومن وجهه، وإذا اجتمعت الواسطة من تصفية النفس واطمئنان القلب والتوجّه إليه عزّ وجلّ يقع النصر والفيض الربوبي لا محالة، ويتقدّران بقدر اطمئنان قلب المفاض عليه وسائر خصوصيّاته.

التاسع: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**لِيَقْطَعَ طَرَفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ـ الآية ـ**﴾ وجوه الحكمة في الجهاد مع الأعداء، وقد عدّ سبحانه وتعالى جملة منها، وهي قطع دابر الكافرين وإذهاب شوكتهم، وكبتهم أو الهداية والتوبة عليهم، وزيادة

شوكة المسلمين ، أو التعذيب بما يراه الله تعالى في شأنهم ، وقد ذكر عزّ وجلّ جملة أُخرى منها في مواضع متفرّقة ، يأتي التعرّض لها في الموضع المناسب .

العاشر : إنّما عبّر سبحانه وتعالى بقطع الطرف ، لأنّ الجيش إنّما يتقوّم بقيام طرفه ، فإذا قطع فلا تبقى له قائمة ، كما في قطع أطراف الإنسان ، والقطع هنا أعمّ من القتل أو الأسر أو الخذلان أو التطميع بالمادّة ، أو إيقاع الرعب في قلبه ، ففي كلّ ذلك قطع للطرف وإذهاب للشوكة .

الحادي عشر : أنّ في وقوع جملة : ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ**﴾ المستأنفة الواقعة بين جملتين مرتبطتين ، فيها من الحِكَم الكثيرة ما لا يخفى ، فمنها أنّها تكون لأجل التهويل وتعظيم الموضوع ، والتسلية للنبيّ العظيم صلى الله عليه وآله بما جرى على أهله وعشيرته من القتل والأسر ، وتسكيتاً لأقاويل المنافقين لما كثرت ، حيث قالوا : لو كان نبيّاً لما كسرت رباعيّته ولا شجّ وجهه .

ومنها : دفع توهّم الغلوّ فيه صلى الله عليه وآله ، نظير قوله تعالى : ﴿**وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى**﴾[1] ، وجلباً لقلوب المؤمنين .

ومنها : توطئة لذكر التوبة بعد ذلك ، لئلا يستوحش المسلمون من قبول توبتهم؛ فإنّها من الله تعالى ويكون التوفيق لتوبتهم منه تعالى أيضاً .

مضافاً إلى أنّ لهذه الجملة من التأثير المعنوي في ساحة القتال والوغى على النفوس ما لم يكن للسلاح وغيره ، وهي تؤثّر في الروح المعنوية وتشدّها وتقوّيها في حالة يكون المحاربون بأشدّ الحاجة إليها ، وغير ذلك من الحِكَم الكثيرة ، وقد جرت عادة الفصحاء والبُلغاء على ذكر جملة مستأنفة بين جمل مترابطة يشدّ بعضها مع بعض وحدة كلامية ، اهتماماً بالموضوع .

الثاني عشر : أنّ قوله تعالى : ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ**﴾ بملاحظة سائر

---

١ . سورة الأنفال : الآية ١٧ .

الآيات المباركة، يدلّ على أنّ المنفي هو بعض مراتب القضاء والقدر، وإلّا فإنّ أمر التشريع وجعل الأحكام مفوّض إليه، فإنّه ﴿**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾[1]، فلا يصحّ لأحد أن يتمسّك بهذه الآية الشريفة وينفي بعض الأمور عنه ﷺ، باعتبار أنّه ليس له من الأمر شيء.

***

بحث روائي:

في «تفسير القمّي» عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ**﴾ قال عليه السلام: «سبب نزول هذه الآية أنّ قريشاً خرجت من مكّة تريد حرب رسول الله ﷺ، فخرج يبغي موضعاً للقتال».

أقول: سياق الآية المباركة يشهد على صحّة ما ورد في مثل هذه الروايات، كما عرفت في التفسير.

وفي «تفسير القمّي» في قوله تعالى: ﴿**إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا**﴾ نزلت في عبد الله بن أُبي وقوم من اصحابه اتّبعوا رأيه في ترك الخروج والقعود عن نصرة رسول الله ﷺ.

أقول: يمكن أن يكون فعل عبد الله بن أُبي سبباً لحصول الهمّ بالفشل في جمع آخر، والآية المباركة ناظرة إلى هذا الجمع، وأمّا عبد الله بن أُبي فقد قعد عن القتال، لا أنّه همَّ بالفشل، ويشهد لذلك ما رواه الطبرسي في «المجمع» والسيوطي في «الدر المنثور»، والاختلاف في مَن همّ بالفشل لا يضرّ بعد معروفيّته.

وفي «المجمع» عن الصادقين عليهما السلام: «هما بنو سلمة وبنو حارثة، حيّان من

---

١. سورة النجم: الآية ٣ و ٤.

الأنصار ، وقيل هما بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس ، وكانا جناحي العسكر» .

وفي «الدر المنثور» عن السُّدي في حديث :

«وخرج رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أُحد في ألف رجل ، وقد وعدهم الفتح إن يصبروا ، فرجع عبد الله بن أُبي في ثلاثمائة فتبعهم أبو جابر السلمي يدعوهم فأعيوه، وقالوا له : مانعلم قتالاً ولئن أطعتنا لترجعن معنا ... ثمّ قال : إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا، وهم بنو سلمة وبنو حارثة ، همّوا بالرجوع حين رجع عبد الله بن أُبيّ، فعصمهم الله وبقي رسول الله صلى الله عليه وآله في سبعمائة» .

وفي «تفسير القمّي» في قوله تعالى : ﴿**وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ**﴾ قال أبو عبد الله عليه السلام :

«ما كانوا أذلّة وفيهم رسول الله صلى الله عليه وآله ، وإنّما نزل : وأنتم ضعفاء» » .

أقول : وروى مثله في «المجمع» ، وهذه الروايات تؤيِّد ما ذكرناه في معنى الذلّة ، وهو الانقطاع الى الله تعالى من كلّ جهة ، وإنّما ينفي الإمام عليه السلام الذلّة الحاصلة لبعض الجيوش عند غلبة العدو عليه ، لا المعنى الذي قلناه ، وقوله عليه السلام : «ونزل» ، المراد به النزول تأويلاً ، لا النزول اللفظي .

وفي «تفسير العياشي» ، عن أبي بصير ، قال : «قرأت عند أبي عبدالله عليه السلام ﴿**وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ**﴾ فقال عليه السلام :

مه ، ليس هكذا أنزلها الله ، إنّها أُنزلت : أنتم قليل» .

أقول : هذا الحديث يبيِّن ما ذكرناه ، والمنفي هو الذلّة الحاصلة لبعض النفوس عند فقدان الحامي والكفيل . وأمّا الذلّة التي تكون بسبب قلّة العدد والعدّة والانقطاع عن الخلق ، فلا تنفيها الروايات .

وفي «الكافي» ، عن أبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ : ﴿**يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ**﴾ ، قال عليه السلام :

«العمائم، اعتمّ رسول الله ﷺ فسدلها من بين يديه، ومن خلفه، واعتمّ جبرئيل فسدلها من بين يديه ومن خلفه».

وفي «الكافي» أيضاً: عن أبي جعفر عليه السلام قال:

«كانت على الملائكة العمائم البيض المسترسلة يوم بدر».

أقول: تقدّم ما يتعلّق بهذه الروايات في التفسير.

في «الدر المنثور» عن أنس بن مالك، قال:

«كسرت رباعيّة رسول الله ﷺ يوم أُحد ودمي وجهه، فجعل الدم يسيل على وجهه، ويقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيّهم بالدم، وهو يدعوهم إلى ربّهم ؟! فأنزل الله تعالى: **﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾**».

وفي «أسباب النزول»، للواحدي عن سالم عن أبيه:

«أنّه سمع رسول الله ﷺ قال: في صلاة الفجر حين رفع رأسه من الركوع: ربّنا لك الحمد، اللّهُمَّ العن فلاناً وفلاناً، دعا على ناس من المنافقين، فانزل الله عزّ وجلّ: **﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾**».

أقول: روى قريب منه البخاري في «صحيحه» واختلاف الروايات لا يضرّ، لما تقدّم مكرّراً من إمكان تعدّد منشأ النزول، ولعلّ نزول قوله تعالى: **﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾** في هذا الحال لأجل تسكين قلب رسول الله ﷺ، والتوعيد على مَن فعل ذلك به ﷺ.

ثمّ إنّه قد وردت روايات كثيرة مختلفة المضامين في قصّة أُحد، ونحن نذكر قسماً منها في البحث التأريخي إن شاء الله تعالى.

***

بحث عرفاني:

يمكن أن يكون قوله تعالى : **﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّءُ الْمُؤْمِنِينَ﴾** إشارة إلى معراج آخر لنبيّنا الأعظم صلى الله عليه وآله ، فإنّ معراجه الأوّل كان في مكّة من بيت أُمّ هاني ، وكان من الخلق إلى الحقّ والانقطاع عن العلائق بالكلّية والانقطاع إلى الربّ الفياض من جميع الجهات ، وإعداد نفسه الأقدس لمعراج آخر ، والسفر من الحقّ لكشف الحجب الظلمانية عن النفوس ، ولا حجاب أقوى وأغلظ من الكفر مطلقاً ، ولا ينكشف ذلك الحجاب إلّا بالسيف ، فكما أنّ لجهاده وحروبه المقدّسة دخلا في نظام التشريع ، لها دخل في نظام التكوين أيضاً ، وهو إثارة العقول المستترة بالسيوف التي تعمل في نصرة الحقّ . والغدو من الأهل لتعيين مواقع القتال للمؤمنين معراج للرسول الكريم لإظهار الحقّ وإزالة الحُجب والأغشية الظلمانية ، ومن المعلوم أنّ أغلى الأشياء وأعظمها لدى الإنسان هي الروح التي بين جنبيه ونفسه التي يقضي بها آماله ويفعل أفعاله ، فهي الأصل ، وجميع ما سواها من الأهل والمال وسائر الجهات من الفروع التي ترجع إلى حفظ النفس وحبّ بقائها ، وهذه الجوهرة النفيسة إن بُذلت في الأوهام والخيالات والمادّيات ، فقد بيعت بأرخص الأشياء وشريت بثمن بخس ، وإن كان بذلها في الحقيقة التي لا حدَّ لكمالها بوجه من الوجوه ، فهي السعادة العظمى . ومن مظاهر تلك الحقيقة الجهاد في سبيل الله تعالى ، فإنّه اتّصال بالمبدأ القيوم؛ قال تعالى : **﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾** ، فهل يعقل حدّاً لمعنى «عند» مَن لا تناهي لحدّ الحضور لديه ، مضافاً إلى أنّ في رفع الحجب والأستار من الأسرار والدقائق ما لا يعلمها إلّا الله تعالى .

***

بحث تاريخي:

الآيات الشريفة التي تقدّم تفسيرها ترشد المؤمنين إلى بعض الأُمور التي لابدّ من مراعاتها في ميدان القتال والجهاد مع أعداء الله تعالى، فقد أمرت المسلمين بالتوكّل عليه في جميع أُمورهم، والصبر والثبات والتقوى عن جميع ما يوجب البُعد عنه عزّ وجلّ، والاستعانة والانقطاع إليه لطلب الإمداد الربوبي والفيض الإلهي المعدّ للمنقطعين إليه والمستغيثين به، وقد بيّن عزّ وجلّ بعض الصفات التي يجب على المؤمن التحلّي بها، وهي طاعة الله تعالى ومتابعة الرسول الكريم، والصبر والتقوى، والتوكّل عليه وترك ما يوجب الوهن في الغرائم، وقد ذكر عزّ وجلّ غزوة بدر وغزوة أُحد.

أمّا الأُولى: فلأجل ما حصل من المسلمين من الالتفاف حول النبيّ الكريم والانقطاع إلى الله تعالى، والإمدادات الغيبيّة لهم وموجبات النصر على الأعداء.

وأمّا الثانية: فلما ظهر من بعض المسلمين من الهمّ بالفشل والوهن في الغرائم وترك متابعة الرسول صلى الله عليه وآله في وصاياه وأوامره، وكادوا أن يقاسوا مرارة الهزيمة لو لا ما منّ الله تعالى به عليهم من العفو والتوبة، فأمدّهم بالإمداد الغيبي.

وسيأتي ذكر غزوة أُحُد في الآيات الآتية. والاشارة إلى بعض غزوات رسول الله صلى الله عليه وآله في مواضع مختلفة من القرآن الكريم. ونحن نذكر في هذا البحث عدد غزوات الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وما يتعلّق بغزوة أُحُد، وأمّا سائر الغزوات فيأتي البحث عنها في مواضعها.

حروب رسول الله صلى الله عليه وآله:

تنقسم حروب رسول الله صلى الله عليه وآله إلى قسمين:

الأوّل: الغزوة ـ وهي القوّة المؤلّفة من اعداد كبيرة مقاتلة ـ التي كان يقودها

رسول الله ﷺ بنفسه الأقدس.

الثانية: السرية، وهي مجموعة من الجند ـ يقدَّر عددها ما بين الثلاثين إلى الأربعين أو أكثر ـ، يُناط بهم مهمّة قتالية محدودة، أو مهمّة استطلاعية، حيث إنّها تستقصي أخبار العدو وتحصل المعلومات اللازمة عنه، ولا تخرج إلّا بإذن الرسول الكريم ﷺ، فيعقد لها رايتها، والمعروف أنّه ﷺ كان يودّعها بنفسه الكريمة ويدعوا لها بالنصر والتوفيق.

وأمّا العين أو العيون، فإنّ المراد منها إرسال شخص أو أكثر يقوم بمهمّة استطلاعية والتجسّس على الأعداء فقط، وعدد سرايا الرسول الكريم ﷺ ستّ وثلاثون سرية على ما هو المعروف.

غزوات رسول الله ﷺ:

المعروف أنّ عدد غزوات رسول الله ﷺ ستّ وعشرون غزوة، وقيل إنّها أكثر:

أوّلها: غزوة الأبواء، وتسمّى غزوة ودان ـ وهي قرية بين مكّة والمدينة بينها وبين الأبواء ستّة أميال ـ وذلك في محرّم من السنة الثانية من الهجرة.

ثانيها: غزوة بواط، وقعت في ربيع الأوّل من السنة الثانية أيضاً، وبواط جبال جهينة على أبراد من المدينة جهة ينبع.

ثالثها: غزوة العشيرة في جمادى الأُولى من تلك السنة.

رابعها: غزوة بدر الأُولى، بعد رجوع النبيّ ﷺ من غزوة العشيرة بقليل.

خامسها: غزوة بدر الكبرى في السابع عشر من شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة ومعه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، مائتان ونيف وأربعون من الأنصار، والباقون من المهاجرين، ومعهم فرسان وسبعون بعيراً يتعاقبون عليها،

والحامل للواء مصعب بن عمير العبدري . وأمّا المشركون فقد كانوا تسعمائة وخمسين رجلاً معهم مائة فرساً وسبعمائة بعير .

سادسها : غزوة بني سليم في النصف من شوّال من نفس السنة .

سابعها : غزوة السويق ، وسمِّيت هذه الغزوة بهذا الاسم لأنّ المشركين كانوا يلقون حرب السويق وهم يهربون .

ثامنها : غزوة ذي أمر ، وهو ماء ، وتسمّى بغزوة غطفان أيضاً ، وقعت في شهر ربيع الأوّل من السنة الثالثة .

تاسعها : غزوة نجران ، عندما بلغ النبيّ ﷺ أنّ جمعاً من بني سليم يريدون الغارة على المدينة ، فسار إليهم في ثلاثمائة من أصحابه لستٍّ من جمادى الأولى .

عاشرها : غزوة أُحُد لعشر خلون من شوّال من السنة الثالثة ، على ما يأتي من التفصيل .

الحادية عشرة : غزوة حمراء الأسد ـ وهي من المدينة على سبعة أميال ـ وأقام ﷺ بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء بعد رجوعهم من غزوة أُحد .

الثانية عشرة : غزوة بني النضير لمّا نقضوا العهد مع رسول الله ﷺ وأرادوا قتله غدراً ، فخرج لهم رسول الله ﷺ في عسكر ، فتحصّنوا وحاصرهم حتّى خضعوا لأمره ورضوا بالجلاء ، وذلك في السنة الرابعة .

الثالثة عشرة : غزوة ذات الرقاع بعد غزوة بني النضير بشهرين ، وهما ربيع الأوّل وربيع الثاني في السنة الثالثة ، وذلك لمّا تهيأت قبائل من نجد لحربه فتجهّز لهم وخرج في سبعمائة مقاتل .

الرابعة عشرة : غزوة بدر الآخرة في شعبان من هذه السنة ، عندما بلغه توعّد أبي سفيان .

الخامسة عشرة: غزوة دومة الجندل ـ وهي مدينة بينها وبين المدينة خمس عشرة ليلة وبين دمشق خمس ليال ـ عندما بلغه أنّ جمعاً كثيراً فيها يظلمون مَن مرّ بها ويريدون الإغارة على المدينة، فخرج لهم ﷺ لخمس ليالٍ بقين من شهر ربيع الأوّل من السنة الخامسة، وكان في ألف من المسلمين.

السادسة عشرة: غزوة بني المصطلق ـ وتسمى بغزوة المريسيع ـ قبل غزوة الخندق بثلاثة أشهر من السنة الخامسة.

السابعة عشرة: غزوة الخندق، وقعت في شهر شوّال من السنة الخامسة عندما اجتمعت قبائل قريش في أربعة آلاف مقاتل، وغطفان في ألف فارس، وبنو مرّة في أربعمائة، وبنو أشجع وبنو سليم في سبعمائة، وبنو أمد وغيرهم، حيث بلغ المجموع عشرة آلاف مقاتل يقودهم أبو سفيان بن حرب.

الثامنة عشرة: غزوة بني قريظة، وكانت عند انصرافه عن الخندق ولمّا كان الظهر أمر رسول الله ﷺ مؤذّناً أن يؤذّن: مَن كان يصلّي العصر لا يصلّيها إلّا في بني قريظة بحكم سعد بن معاذ.

التاسعة عشرة: غزوة بني لحيان، وهم قبيلة نزلت شمالي شرق مكّة، وهم الذين قتلوا سبعين صحابياً الذين أرسلهم النبيّ ﷺ في صفر من السنة الرابعة إلى نجد ليدعوهم إلى الإسلام، فخرج إليهم رسول الله ﷺ في جمادى الأُولى من السنة الخامسة في مائتي راكب ومعهم عشرين فرساً.

العشرون: غزوة الحديبية في ذي القعدة من السنة الخامسة للهجرة، عندما خرج رسول الله ﷺ معتمراً لا يريد حرباً ومعه من المهاجرين والأنصار وغيرهم ما يبلغ عددهم ألف وخمسمائة، ولكن المشركين منعوه من الزيارة ودخول مكّة، إلّا أنّ الجميع اتّفقوا على الصلح، وسمّي بصلح الحديبية.

الواحدة والعشرون: غزوة خيبر، في محرّم من السنة السابعة، عندما خرج

رسول الله ﷺ إليها في ألف وأربعمائة رجل، معهم مائتا فارس، وخيبر تبعد عن المدينة نحو مائة ميل من الشمال الغربي.

الثانية والعشرون: غزوة وادي القرى.

الثالثة والعشرون: غزوة الفتح، أي فتح مكّة، وذلك أنّه كان بين النبيّ ﷺ وبين قريش عهد يمنع أحد الفريقين من مقاتلة الآخر والزعامة عليه، وعندما حارب بنو بكر ـ وهم في عهد قريش ـ بني خزاعة ـ وهم في عهد المسلمين ـ والجميع بمكّة، ساعد القرشيون بني بكر بالسلاح وقاتل معهم مَن قاتل مستخفياً حتّى أخرجوا خزاعة إلى الحرم وأصابوا منهم ما أصابوا، وبذلك نقضت قريش العهد فأرسلت قريش أبا سفيان بن حرب إلى المدينة لتجديد العهد، ولكن رسول الله ﷺ عقد العزم على فتح مكّة، فتجهّز للسفر وسار النبيّ ﷺ في منتصف شهر رمضان في عشرة آلاف، ووصلف إلى مكّة في عشرين خلت من نفس الشهر حتّى وصل الحجون موضع رايته.

الرابعة والعشرون: غزوة حنين، عندما اجتمعت هوازن وثقيف وغيرهما من القبائل وخرجوا مع الأموال والذراري والنساء إلى غزو رسول الله ﷺ، وعندما بلغه ﷺ خبر هذه الغارة خرج في اثني عشر ألف مقاتل في شوّال من السنة الثامنة.

الخامسة والعشرون: غزوة الطائف، وذلك لمّا قدم المنهزمون من ثقيف ومَن انضمّ إليهم من غيرهم إلى الطائف، أغلقوا عليهم مدينتهم، وجمعوا ما يحتاجون إليه واستحصروا فيها، فسار إليهم النبيّ ﷺ بمَن معه في شوّال من نفسه السنة.

السادسة والعشرون: غزوة تبوك، وهي آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ بعد خروجه من الطائف بستّة أشهر عندما بلغه أنّ نصارى العرب قد اجتمعوا مع جند

الروم لمحاربته ، ووصلت مقدّمتهم إلى بلقاء ـ أرض بالشام ـ فأمر رسول الله ﷺ بالتجهيز لغزوهم ، فتجهّز ثلاثون ألفاً في ساعة العسرة وساروا إلى تبوك في جمادى الثاني من السنة الثانية ، ولمّا انتهى رسول الله ﷺ إلى تبوك لم يلق حرباً وصالح أهلها وقفل راجعاً .

وأمّا غزوة مؤتة ، فلم يشترك فيها رسول الله ﷺ ، وإنّما جهّز جيشاً في ثلاثة آلاف مقاتل واستعمل عليه زيد بن حارثة ، وقال : «إن أُصيب فالأمير جعفر بن أبي طالب ، فإن أُصيب فعبد الله ابن رواحه» ، فسار الجيش وشيّعهم الرسول الكريم وذلك في جمادى الأُولى من السنة الثامنة .

هذه جملة غزوات النبيّ ﷺ ، وهذا الحصر استقرائي تأريخي يختلف حسب شدّة الاستقراء وضعفه ، ولعلّه لأجل ذلك اختلفوا في عدد الغزوات .

ونحن نذكر في هذا البحث غزوة أُحد وما يتعلّق بها ، من موقعها وأسبابها ونتائجها وكيفيّة الحرب وغير ذلك ، على ما هو المعروف بين أهل السِّير والتواريخ ، وما ورد عن الأئمّة الهُداة عليهم السلام إن شاء الله تعالى .

موقع القتال:

هذه الغزوة كانت في أُحد ، وهو جبل بظاهر المدينة في شمالها على خمسة أميال ، وهو أقرب الجبال إليها ، وطوله من شرقه إلى غروبه يساوي ستّة كيلومترات ، وترتفع قمّة هذا الجبل عن سطح البحر بمقدار ألف ومائتي متراً .

وقد عسكر المسلمون والمشركون في هذا الموضع ، وكان موقفا الفريقين متعارضاً ، لاختلاف هدف كلّ واحد منهما . فالفريق الذي كان يريد مهاجمة المدينة (المشركون) ، فإنّه استقبل جبل أُحد واستدبر المدينة ، والفريق الذي أراد الدفاع عن المدينة (المسلمون) ، فإنّه استقبل المدينة واستدبر جبل أُحد .

ومن ذلك يُعرف أنّ جيش المشركين وصل إلى جنوب غربي جبل أُحد عن طريق وادي العقيق غربي المدينة ، وتمكّن من الوصول إلى الطرف الشمالي من المدينة المنورة ، فيكون الموضع الذي عسكر فيه المشركون يقع بالتحديد شمال شرق المدينة .

وقد أطلق المشركون إبلهم وخيولهم في مزارع المسلمين شمالي المدينة ، ليستنفروا المسلمين ويجبروهم على القتال خارج أبنية المدينة، وعند السفوح الجنوبية بجبل أُحد ، وقد تجنّبوا الدخول إلى المدينة المنوّرة وحاراتها وآطامها وتحصيناتها ، فإنّهم كانوا يعلمون بأنّهم لا يتمكّنون من محاربة المسلمين فيها ، لأنّهم لم يكونوا يحسنون مثل هذا النوع من القتال .

وقد لفت الرسول الكريمﷺ أنظار أصحابه إلى هذه الجهة عندما اظهر رأيه لهم في البقاء داخل المدينة والتحصّن فيها ومقاتلة المشركين، إذا همّوا الدخول فيها ، لعلمهﷺ بأنّهم لا يقدرون على ذلك وسينصرفون عنها خائبين ، تماماً كما حدث في غزوة الخندق ، أو لغير ذلك من الأسرار ، وبعدما ورد في القرآن الكريم من الآيات المتقدِّمة يشير إلى بعض منها ، ولكن أكثر المسلمين اتّفقوا على الخروج ومقاتلة المشركين خارج المدينة ، وكان ذلك خلاف المأمول منهم ، ولقد لاقوا المتاعب والمصاعب في خروجهم هذا .

وكيف كان، فقد أمر الرسولﷺ أصحابه بالتهيّؤ للخروج، ودخل داره وتقلّد سيفه وارتدى عدّة القتال ، ولما تردّد مَن خالف رأي النبيّﷺ وأظهروا الرغبة على النزول على رأيه ، قال قولته المشهورة :

«لا ينبغي لنبيٍّ لبس لامته ـ الدرع ونحوه ـ أن يضعها حتّى يحكم الله بينه وبين عدوّه» .

ولقد تلقى الوحي من السماء بالخروج ، قال تعالى : ﴿**وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ**

تُبَوِّءُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، فخرج رسول الله ﷺ ومعه ألف رجل من ناحية المشرق حتّى نزل (الشيخين) ـ موضع بين المدينة وأُحد على الطريق الشرقية مع الحرة إلى جبل أُحد ـ ولقد اختار النبيّ ﷺ أرضاً للقتال في أُحد بمنتهى الحكمة والمهارة، ولقد اعترف بذلك غير المسلمين أيضاً، فوضع خمسين من الرماة في فم الشعب خلف قوّاته لغرض حرمان العدو من الالتفاف على قوّاته من الخلف، وتحمي ظهرها وتستر انسحابه عند الحاجة، وحدّدت كتب السير والتواريخ ذلك الموضع بـ(جبل عينين)، وإن كان ذلك أقرب إلى الربوة منها الجبل.

وكيف كان، فقد أسند إلى هذا الموضع جناحه الأيسر، كما أسند جناحيه الأيمن إلى سفح جبل أُحد الذي كان شديد الانحدار، واستقبل قوّات المشركين، فكان في حصن منيع وكبير. ولذا لمّا سقط هذا الموضع بيد المشركين انهار دفاع المسلمين وتدفّقت خيل المشركين على المسلمين ووقعت الهزيمة، كما نطق به التنزيل، قال تعالى: **﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾**[1]، هذا موقع القتال في غزوة أُحد وهندسة الحرب فيها.

أسباب الحرب:

إذا راجعنا كتب السير والتاريخ نجد أنّهم يذكرون أسباباً عديدة لهذه الغزوة، ولكن أكثرها لا تخلو عن المناقشة، والذي يستفاد من مجموع الحوادث الواقعة قبل غزوة أُحد وبعدها أُمور هي:

الأوّل: خذلان المشركين في غزوة بدر الكبرى، ورجوعهم إلى مكّة

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٥٣.

مقهورين موتورين، وفي «المجمع» عن الصادق عليه السلام: «كان سبب غزوة أُحد أنّ قريشاً لمّا رجعت من بدر إلى مكة؛ وقد أصابهم ما أصابهم من القتل والأسر، لأنّه قتل منهم سبعون وأسر سبعون»، فحرصت قريش منذ نكبتها في بدر على الأخذ بثأرها من المسلمين، وصمّمت على الاستعداد عسكرياً لاستعادة كرامتها وشرفها.

الثاني: خوف القبائل المجاورة للمدينة، سواء كانت من المشركين أم اليهود من قوّة المسلمين، ممّا كانوا يترقّبون الفرص للانتقام منهم ونقض العهد ويتربّصون الدوائر ويتجسّسون عليهم ويؤذونهم بالقول والفعل. ولمّا علمت بعزم قريش على الغزو حرّضتها على ذلك.

الثالث: خوف قريش على الطرق التجارة المؤدِّية إلى الشام وإلى العراق من أن تقع بيد المسلمين فيمنعونهم عن التجارة، كما وقعت المدينة بأيديهم وأصبحت قاعدة أمنية لدعوتهم وحركاتهم العسكرية.

الرابع: خوف انتشار الدعوة الإسلامية، لأنّها كانت تلقى أُذناً صاغية، وارتفعت بعض الموانع عن قبولها بعد هزيمة قريش في بدر الكبرى، فقد أسلم أكثر مشركي المدينة بعد بدر.

الخامس: الدفاع عن المدينة، بعدما عرف الرسول الكريم صلى الله عليه وآله استعداد قريش لغزوها وإبادة أهلها ومحو الدعوة في مهدها.

السادس: استفزاز قريش المسلمين في عدّة مواضع، منها أنّهم أرسلوا إبلهم وخيلهم ترعى زروع يثرب.

التعبئة:

لمّا رجعت قريش إلى مكّة من بدر بعد إصابتهم الهزيمة والخذلان ـ قتلاً

وأسراً ـ حرصت على الأخذ بثأرها من المسلمين، وقد نذر أبو سفيان بن حرب أن لا يمسّ رأسه ماء من جنابة حتّى يغزو محمّداً، وصمّمت على استعادة كرامتها وشرفها ـ كما عرفت ـ فاستعدّت لذلك استعداداً تامّاً، قرّر كبراء قريش تخصيص ربح تجارة قافلة أبي سفيان التي جرت من أجلها معركة بدر لإنجاز هذه المعركة وتقويتها بالمواد والسلاح، وقد كان ربح تلك التجارة ـ كما في «السيرة الحلبية» ـ خمسين ألف دينار، فبذلوا الربح في معركة الثأر، وقال أبو سفيان: يا معشر قريش، لا تدعوا نساءكم تبكين على قتلاكم، فإنّ الدمعة إذا خرجت أذهبت الحزن والعداوة لمحمّد، فلمّا غزوا رسول الله ﷺ يوم أُحد أذنوا لنسائهم في البكاء والنوح. واجتمعت قريش للحرب بحدّها ـ وهو البأس ـ وجدها ـ وهو العظمة والغنى ـ وأحابيشها ـ وهم حلفاء قريش ـ ومَن أطاعتها من قبائل كنانة وأهل تهامة، فكانوا نحو ثلاثة آلاف، ألفان وتسعمائة من قريش ومواليها وأحابيشها، ومائة من بني ثقيف، بينهم سبعمائة دارع ومعهم مائتا فرس وثلاثة الآف بعير.

وفي «مجمع البيان» عن الصادق عليه السلام:

«أنّ القوّة لمّا خرجت من مكّة كانت ثلاثة الآف فارس وألفي راجل»، ولقد جاء المشركون من مكّة إلى أُحد وليس فيهم رجل واحد يمشي على قدمية، واستصحب أكثرهم نساءهم للتشجيع ورفع المعنويات، وقد بذلت نساء قريش ـ خاصّة هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان ـ أقصى جهودهنّ لتشيع قريش وبعث الحماس في نفوس الرجال لأخذ الثار من المسلمين، وهي التي حرّضت وحشياً الحبشي على قتل حمزة عمّ النبيّ ﷺ، فقتله بحربته المعروفة. ثمّ إنّه خرجت قريش من مكّة ووصلت أُحد في شوّال من السنة الثالثة للهجرة في أربعة عشر شهراً.

وقد أرسل العبّاس عمّ الرسول ﷺ رسالة مع أحد الرجال لأخذ الثار من

المسلمين، يخبرهم عن وقت خروج قريش لقتاله وعن عدد قوّاتها، فأسرع الرجل بعدما اشترط عليه العبّاس أن يسير ثلاثاً إلى رسول الله ﷺ، فلمّا بلغ رسول‌الله الخبر جمع أصحابه وحثّهم على الجهاد، فقال عبد الله بن أبي سلول: «والله لا نخرج من المدينة حتّى نقاتل في أزقّتها، فيقاتل الرجل الضعيف والمرأة والعبد والأمة على أفواه السكك وعلى السطوح، فما أرادنا قوم قط فظفروا بنا ونحن في حصوننا ودورنا، وما خرجنا إلى عدو لنا قط إلّا كان الظفر لهم علينا»، وكان الرسول الكريم يرغب البقاء في المدينة أيضاً، وقام سعد بن معاذ وغيره من الأوس، فقالوا: يا رسول الله، ما طمع فينا أحد من العرب ونحن مشركون نعبد الأصنام فكيف يطمعون فينا وأنت فينا؟ لا، حتّى نخرج إليهم فنقاتلهم. فقبل رسول‌الله ﷺ رأيه وخرج مع نفر من أصحابه يتبوّؤن موضع القتال كما حكي عزّ وجلّ عنهم في الآية الشريفة، وقد عرفت سابقاً موضع القتال، وعبّأ رسول‌الله ﷺ أصحابه فسار في ألف من أصحابه كما سيأتي.

القوى:

وصلت قوّات المسلمين وقوّات المشركين الى أُحد يوم الجمعة الخامس عشر من السنة الثالثة للهجرة.

أمّا قوى المسلمين فقد كانت مؤلّفة من ستمائة وخمسون فارساً، وحامل اللواء علي بن أبي طالب عليه السلام، كما ورد عن الصادق عليه السلام، وقيل: إنّ حامل اللواء هو مصعب بن عمير أخي بني عبد الدار، وخمسون من الرماة على الشعب، قال الصادق عليه السلام: «ووافت قريش إلى أُحد وكان رسول الله ﷺ عبّأ أصحابه وكانوا سبعمائة رجل، ووضع عبد الله بن جبير في خمسين من الرماة على باب الشعب، وأشفق أن يأتي كمينهم من ذلك المكان، فقال ﷺ لعبد الله بن جبير وأصحابه: إن

رأيتمونا قد هزمناهم حتّى أدخلناهم مكّة فلا تبرحوا من هذا المكان، وإن رأيتموهم هزمونا حتّى أدخلونا المدينة فلا تبرحوا والزموا مراكزكم».

وقد رجع عبد الله بن أُبي مع ثلاثمائة من أصحابه عندما وصل الرسول مع ألف إلى الشوط، وقد كان خروجهم خيراً للمسلمين وقد ذمّهم الله تعالى وقبّح أفعالهم، ولمّا انتهى رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أُحد وبالتحديد موضع القنطرة ـ وقد اندرست فلا يعلم موقعها ـ وقد حانت الصلاة وهو يرى المشركين، أمر بلالاً فأذّن وصلّى، ولقد همّت طائفتان من المؤمنين وهما بنو سلمة من الخزرج وبنو حارثة من الأوس بالفشل، ولم يعرف عدد هاتين الطائفتين، وكان معسكر المسلمين بالقرب من أُحد على ما عرفت، وقد استعرض صلى الله عليه وآله المسلمين وردَّ من استصغر منهم وهم سبعة عشر شخصاً، وأجاز أشخاصاً من أبناء الخامسة عشر. وقد لبس رسول الله صلى الله عليه وآله الدرع فوق الدرع، وجعل على أحد الجانبين الزبير بن العوام وعلى الآخر المنذر بن عمرو.

وأمّا قوّات المشركين، فقد كانت مؤلَّفة من ثلاثة الآف أو خمسة الآف كما ورد عن الصادق عليه السلام، وكان على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل، وكان اللواء عند طلحة بن أبي طلحة من بني عبد الدار، وقد نظّم المشركون قوّاتهم للقتال بأُسلوب الصف وأمّنوا حماية ميمنة الصفوف وميسرتها بالفرسان. وكان مع القوّة مائتا فرس وثلاثة الآف بعير، وهذه القوّات كانت بقيادة أبى سفيان.

وقال في «المجمع» عن الصادق عليه السلام: «ووضع أبو سفيان خالد بن الوليد في مائتي فارس كميناً وقال: إذا رأيتمونا قد اختلطنا فاخرجوا عليهم من هذا الشعب حتّى تكونوا وراءهم»، وعند احتدام القتال انحط خالد بن الوليد في مائتي فارس على عبد الله بن جبير فاستقبلوهم بالسهام فرجع.

وفد تفوّق المشركون على المسلمين بالعدد إلى خمسة أمثال المسلمين، وأمّا بالعدة فقد كان تفوّقهم أكثر، كما عرفت.

المعركة:

ابتدأ القتال عندما قامت مفرزة من قوّات المشركين بقيادة أبي عامر عبد عمرو بن صيفي الأوسي بالهجوم على قوّات المسلمين، وقد خرج إلى أُحد في خمسة عشر رجلاً من الأوس ومن عبيد أهل مكّة، وقال ابن هشام في «السيرة»: «إنّه كان معه خمسون غلاماً من الأوس»، وقريب منه ما ذكره الواقدي، كان يزعم لقريش أنّه إذا نادى أهله الذين في صفوف محمّدﷺ استجابوا له وانحازوا معه. وخرج أبو عامر منادياً: «يا معشر الأوس أنا أبو عامر، فأجابه المسلمون: لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق»، وقد أذن الرسولﷺ للمسلمين بالقتال فنشب بين الطرفين.

وقد حاول أبو عامر وعكرمة بن أبي جهل الهجوم على أجنحة المسلمين، ولكن المسلمون ردّوهم وفشلت محاولات أُخرى لهم في الالتفاف حول المسلمين، لأنّهم كانوا في حصن منيع وكبير، كما عرفت ولمّا التقى الناس ودنا بعضهم من بعض قامت هند بنت عتبة في النسوة اللاتي معها وأخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال ويحرّضنهم، فقالت هند:

ويهاً بني عبد الدار ويهاً حماة الأدبار
ضرباً بكل بتّار

وتقول:

نحن بنات طارق نمشي على النمارق
إن تقبلوا نعانق أو تدبروا نفارق
فراق غير وامق

فاحتدم القتال بينهم وحميت الحرب ، وقاتل أبو دجانة حتّى أمعن في الناس ، وقدّم قريش صاحب لوائهم طلحة بن أبي طلحة وصفّوا صفوفهم ، وصاح طلحة : مَن يبارز ؟ فخرج إليه عليّ عليه السلام فقتله .

وفي «المجمع» عن الصادق عليه السلام : «وأخذ الراية أبو سعيد بن أبي طلحة فقتله علي عليه السلام أيضاً ، وسقطت الراية فأخذها مسافع بن أبي طلحة فقتله عليّ عليه السلام ، حتّى قتل تسعه نفر من بني عبد الدار ، حتّى صار لواؤهم إلى عبد لهم أسود يُقال له : صواب ، فانتهى إليه عليّ عليه السلام فقطع يده اليمنى ، فأخذ اللواء باليسرى ، فضرب يسراه فقطعها فاعتنقها بالجذماوين إلى صدره ، ثمّ التفت إلى أبي سفيان فقال : عذرت في بني عبد الدار ؟ فضربه عليّ عليه السلام على رأسه فقتله ، وسقط اللواء فأخذتها غمرة بنت علقمة الكنانية فرفعتها ، ثمّ شدّ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله على كتائب المشركين حتّى نقضت صفوفهم وتصدّعت ، فانهزم المشركون حتّى أحاط المسلمون بنساء المشركين ووقع الصنم الذي احتملوه للتبرّك به فوق الجمل الذي كان يحمله ، وأخذ المسلمون يتعقّبون المشركين حتّى أبعدوهم عن معسكرهم ، ثمّ عادوا يجمعون الغنائم .

قال الصادق عليه السلام : وحمل الأنصار على مشركي قريش فانهزموا هزيمة قبيحة ، ووضع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله في سوادهم، وانحطّ خالد بن الوليد على عبد الله بن جبير فاستقبلوهم بالسّهام فرجع ، بل قام بأكثر من محاولة للالتفاف حول المسلمين وعلى هذا الجناح الخطير بالخصوص فلم يفلح لشدّة الرماة في موضعهم قبل تركهم له ، ونظر أصحاب عبد الله بن جبير ينتهبون سواد القوم ، فقالوا لعبد الله بن جبير : قد غنم أصحابنا ونبقى نحن بلا غنيمة ؟ فقال لهم عبد الله : فإنّ رسول الله قد تقدّم إلينا أن لا نبرح فلم يقبلوا منه ، وأقبلوا ينسلّ رجل فرجل حتّى أخلوا مراكزهم ، وبقي عبد الله بن جبير في اثني عشر رجلاً» .

ومن ذلك يعلم أنّ هزيمة المشركين كانت منكرة، بحيث إنّ المسلمين تركوهم وبادروا إلى جمع الغنائم والأسلاب، ثمّ تبعتهم الرماة وانتصر المسلمون نصراً باهراً.

المحنة:

لمّا انشغل المسلمون بجمع الغنائم وغفلوا عن عدوّهم انحط خالد بن الوليد ـ وكان ميمنة جيش المشركين ـ على عبد الله بن جبير وقد فرَّ معظم أصحابه وبقي في نفر قليل، فقتلهم على باب الشعب، ثمّ أتى المسلمين من أدبارهم، ونظرت قريش إلى الراية قد رفعت فلاذوا بها ولم يتنبّه المسلمون إلّا والمشركون فوق رؤوسهم وأحاطوا بهم، فانهزموا هزيمة عظيمة وأقبلوا يصعدون الجبال وفي كلّ وجه، حتّى خلص المشركون إلى رسول الله ﷺ، فجرحوا وجهه الشريف وكسروا رباعيّته اليمنى من ثناياه السفلى، ورموه بالحجارة حتّى سقط في حفرة من الحفر التي كان أبو عامر الفاسق يكيد بها المسلمين، وحمل ابن قميئة على رسول الله ﷺ وقال: «أروني محمّداً لا نجوت إن نجا، فضربه على حبل عاتقة ونادى: قتلت محمّداً واللات والعزى»، وتطارد هذا الخبر في المعركة وكان حمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب وأبو دجانة سماك بن خراشه وجماعة أُخرى قليلة قد التفّوا حول الرسول الكريم مستقتلين، فكلّما حملت طائفة على رسول الله ﷺ استقبلهم علي عليه السلام فدفعهم عنه حتّى تقطّع سيفه، فدفع إليه رسول الله ﷺ سيف ذا الفقار، وانحاز رسول الله ﷺ إلى ناحية أُحد فوقف، فلم يزل عليّ عليه السلام يقاتلهم حتّى أصابه في رأسه ووجهه وبدنه وبطنه ورجليه ستّون جراحة، فقال جبرائيل: إنّ هذه لهي المواساة يا محمّد. فقال محمّد ﷺ: إنّه منّي وأنا منه. فقال جبرائيل: وأنا منكما.

قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام: «نظر رسول الله إلى جبرائيل بين السماء والأرض على كرسي من ذهب، وهو يقول: لا سيف إلّا ذو الفقار ولا فتى إلّا علي».

وقد نادى كعب بن مالك بأعلى صوته بعد إشاعة المشركين قتل محمّد صلى الله عليه وآله: يا معشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله، وصاح حمزة بالهتاف المعروف للمسلمين في يوم أُحد: «أمِت أمِت»، واندفع إلى قلب المشركين، وأقبل ثابت بن الدحداحة يومئذٍ والمسلمون أوزاع قد سقط في أيديهم، فجعل يصيح: يا معشر الأنصار إليّ إليّ أنا ثابت بن الدحداحة، إن كان محمّد قد قتل فإنّ الله حيّ لا يموت، فقاتلوا عن دينكم فإنّ الله مظهركم وناصركم، فنهض إليه نفر من الأنصار فجعل يحمل بمَن معه من المسلمين وقد وقفت لهم كتيبة خشناء من المشركين فجعلوا يناوشونهم، وحمل عليه خالد بن الوليد بالرمح فطعنه فأنفذه فوقع ميّتاً وقتل مَن كان معه من الأنصار، ويُقال: إنّ هؤلاء آخر من قتل من المسلمين.

أمّا حمزة بن عبد المطلب فكان يحمل على القوم فإذا رأوه انهزموا ولم يثبت له أحد، وكانت هند قد أعطت وحشيّاً عهداً لئن قتلت محمّد أو عليّاً أو حمزة لأعطيتك كذا وكذا، قال وحشي: أمّا محمّد فلم أقدر عليه. وأمّا علي فرأيته حذراً كثير الالتفات فلا مطمع فيه. فكمنت لحمزة فرأيته يهدّ الناس هدّاً، فمرَّ بي فوطأ على جرف نهر فسقط وأخذت حربتي فهززتها ورميته بها فوقعت في خاصرته وخرجت من ثنته فسقط، فأتيته فشققتُ بطنه وأخذت كبده وجئت به إلى هند. فقلت: هذه كبد حمزة، فأخذتها في فمها فلاكتها فلفظتها ورمت بها.

واجتمع المسلمون رويداً رويداً وتجمّعوا حول الرسول واستعصموا بالجبل وبلغ الاعياء برجال قريش حدّاً بالغاً، وفشلت محاولاتها لقتل الرسول الكريم والقضاء على المسلمين، وكانت هذه محنة كبيرة على المسلمين، وقد حكي عزّ

وجلّ عنها، فقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾[1]. وآل حال المسلمين إلى الاضطراب، ودخل قسم آخر من المنهزمين المدينة، ولاذ الباقون بالفرار.

النصر:

قرّرت قريش بعد المحاولات العديدة القضاء على المسلمين، وبلغ بهم التعب والاعياء أكثر ممّا لحق بالمسلمين، فقرّرت إنهاء القتال، وكان ذلك لأسباب عديدة، نذكر المهمّ وسيأتي في الآيات التالية قسما آخر.

منها: الإمداد الغيبي الإلهي بعد التوبة عليهم، وصرف المشركين عنهم بإلقاء الرعب في قلوبهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ بَلِ اللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾[2].

ومنها: الوهن والإعياء والتعب في الطرفين، بل كان في طرف المشركين أعظم وأكثر لما لحقهم من الهزيمة أوّل الأمر، وقتل أبطالهم وصناديدهم.

ومنها: ظنّهم بأنّهم أدركوا الثأر من المسلمين لقاء ما أصابهم يوم بدر، ولو أنّهم لم يكونوا قد قتلوا المسلمين أحداً غير حمزة بن عبد المطلب عمّ النبيّ لكفاهم ذلك.

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٥٢.

٢. سورة آل عمران: الآية ١٤٩ و ١٥٠ و ١٥١.

ومنها: استقامة المسلمين بعدما لحقتهم النكسة والتفافهم حول رسول الله ﷺ واستعادة قواهم بأخذ الراية الكبرى بأيديهم، ودعوات الرسول ﷺ المتتالية بالاجتماع وترك الهزيمة، فكان ذلك السبب المهمّ في لحوق الهزيمة بالمشركين، فإنّهم استيقنوا بأنّهم لا يمكنهم البقاء واستمرار الحرب مع هذه الاستقامة من المسلمين، وكأنّهم أدركوا أنّه ما بقي رسول الله ﷺ فيهم لا يمكنهم النصر، فقرّرت إنهاء القتال والرجوع في موعد آخر، فلمّا انصرف أبو سفيان ومَن معه نادى: وإنّ موعدكم بدر العام القابل. وقد أجبرتهم هذه الأُمور على الفرار وترك المحاربة مع المسلمين.

الخسائر:

قرّرت قريش بعد الهزيمة الرجوع إلى مكّة وإنهاء الحرب، مخذولين خائبين محرومين عمّا كانوا يأملون. وانتصر المسلمون بالتوبة والثبات والعزيمة والتزام الطاعة، والالتفاف حول الرسول الكريم ﷺ، وقد عرفت سير القتال في ما تقدّم، ولمّا انقضت الحرب أشرف أبو سفيان على الجبل، فقال: يوم بيوم بدر والحرب سجال، ثمّ انصرف أبو سفيان ومَن معه وقال: إنّ موعدكم العام المقبل، ثمّ بعث رسول الله ﷺ عليّاً في أثرهم، وقال:

«انظر فإن جنبوا الخيل وامتطوا الإبل، فإنّهم يريدون مكّة، وإن ركبوا الخيل فإنّهم يريدون المدينة، فوالذي نفسي بيده لئن أرادوها لأناجزنّهم. قال عليّ عليه السلام: فخرجت في أثرهم فامتطوا الإبل وجنبوا الخيل يريدون مكّة».

وكانت حصيلة هذه الحرب أنّه قتل من قريش جمعٌ غفير، وقيل إثنان وعشرون رجلاً وأُثخن الجراح فيهم، ودفن المشركون موتاهم.

وأمّا المسلمون، فقد استشهد منهم سبعون رجلاً أو نيّف وسبعون، وقد

أصابهم الجراحات، لا سيما الذين كانوا يحوطون حول رسول الله ﷺ، فقد وجد في عليٍّ عليه السلام ستّون جراحة، وفي أبي دجانة نيف وسبعون. والتمس المسلمون قتلاهم فرأوا أنّ المشركين قد مثّلوا بهم وكان التمثيل بحمزة عليه السلام شرّ تمثيل، «ووقعت هند وصواحباتها على القتلى يمثّلن بهم، واتّخذت هند من آذان الرجال وآنافهم خدماً (الخلخال) وقلائد». وأقبلت صفيّة بنت عبد المطلب فقال: رسول الله ﷺ لابنها الزبير ليردّها لئلا ترى ما بأخيها حمزة، فلقيها الزبير فأعلمها بأمر النبيّ ﷺ، فقالت: إنّه بلغني أنّه مُثّل بأخي وذلك في الله قليل فما أرضانا بما كان من ذلك لأحتسبنّ ولأصبرن، فأعلم الزبير النبيّ ﷺ بذلك، فقال: «خلِّ سبيلها» فأتته وصلّت عليه واسترجعت. وأمر رسول الله ﷺ به فدُفن ونزل في قبره عليّ وأبو بكر وعمر والزبير وجلس رسول الله ﷺ على حفرته. وحمل بعض الناس قتلاهم إلى المدينة فأمر رسول الله ﷺ بدفنهم حيث صرعوا، وأمر أن يدفن الاثنان والثلاثة في القبر الواحد، وأن يقدّم إلى القبلة أكثرهم قرآناً، وصلّى عليهم، فكان كلّما أُتي بشهيد جعل حمزة معه وصلّى عليهما، وكان يجمع تسعة من الشهداء وحمزة عاشرهم فيُصلِّي عليهم. وأمر أن يُدفن عمرو بن الجموح وعبد الله بن حرام في قبر واحد، وقال: «وكانا متصافين في الدُّنيا»، وربما كانوا يلفّون بثوب واحد لقلّة الثياب، ولم يغسّلوا.

وقيل: إنّه لم يصلِّ على شهداء أُحد، كما في «صحيح البخاري»، ولكنّه مردود.

وخرجت نساء من المدينة لمساعدة الجرحى، وكانت فاطمة عليها السلام هي التي داوت جرح النبيّ ﷺ، وفي «صحيح البخاري»: «كانت ابنته تغسّله وعليّ يسكب الماء بالمجن (الترس)، فلمّا رأت فاطمة أنّ الماء لا يزيد الدم إلّا كثرة أخذت قطعة من حصير فأحرقتها فألصقتها فاستمسك الدم».

وفي «الكافي» عن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «أنّه أصاب علياً عليه السلام يوم أُحد ستّون جراحة، وأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله أمر أُمّ سليم وأُمّ عطية أن تداوياه، فقالتا: إنّا لا نعالج منه مكاناً إلّا انفتق مكان وقد خفنا عليه، ودخل رسول الله صلى الله عليه وآله والمسلمون يعودونه وهو قرحة واحدة وجعل يمسحه بيده، ويقول: إنّ رجلاً لقى هذا في الله فقد أبلى وأعذر، فكان القرح الذي يمسحه رسول الله صلى الله عليه وآله يلتئم ـ الحديث ـ».

ولمّا اراد النبيّ صلى الله عليه وآله الرجوع إلى المدينة ركب فرسه وأمر المسلمين أن يصطفّوا فاصطفّوا خلفه وعامّتهم جرحى، واصطفّ خلفهم النساء وهن أربع عشرة امرأة كن بأصل أُحد، فقال: اصطفّوا حتّى أُثني علىٰ ربِّي، فاصطفّ الناس صفّين خلفهم النساء، ثمّ دعا، فقال:

«اللَّهُمَّ لك الحمد كلّه، اللَّهُمَّ لا قابض لما بسطت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مُعطي لما منعت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مضلّ لمن هديت، ولا مقرّب لما باعدت، ولا مباعد لما قرّبت، اللَّهُمَّ إنّي أسألك بركتك ورحمتك وفضلك وعافيتك، اللَّهُمَّ إنّي أسألك النّعيم المقيم الذي لا يحول ولا يزول، اللَّهُمَّ إنّي أسألك الأمن يوم الخوف والغناء يوم الفاقة، عائذاً بك اللَّهُمَّ من شرّ ما أعطيتنا وشرّ ما منعت منّا، اللَّهُمَّ توفّنا مسلمين، اللَّهُمَّ حبِّب إلينا الإيمان وزيّنه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين، اللَّهُمَّ عذِّب كفرة أهل الكتاب الذين يكذِّبون رسولك ويصدّون عن سبيلك، اللَّهُمَّ أنزل عليهم رجسك وعذابك إله الحقّ آمين».

وأقبل صلى الله عليه وآله حتّى نزل ببني حارثة يميناً واطلع على بني عبد الأشهل وهم يبكون على قتلاهم، فقال صلى الله عليه وآله: «أمّا عمّي حمزة فلا بواكي له»، وكان رجوعه إلى المدينة يوم السبت من يوم الواقعة. وخرجت النساء ينظرن إلى سلامة رسول الله صلى الله عليه وآله، فنظرت إليه أُمّ عامر الأشهلية فإذا عليه الدرع كما هي، فقالت: «كلّ

مصيبة بعدك جلل يا رسول الله» ، وقالت أُمّ سعد بن معاذ : «أما إذ رأيتك سالماً فقد اشفت المصيبة» ، فعزّاها رسول الله بابنها عمرو بن معاذ ، وقال : يا أُمّ سعد أبشري وبشّري أهليهم أنّ قتلاهم قد ترافقو في الجنّة وقد شفّعوا في أهليهم» .

شهداء أُحد:

ذكرنا أنّ شهداء أُحد من المسلمين سبعون رجلاً ، وقيل نيف وسبعون ، ثلاثة منهم من المهاجرين والباقون من الأنصار .

أمّا المهاجرون فهم :

١ ـ حمزة بن عبد المطلب بن هاشم عمّ النبيّ ﷺ ، وكان الذي أصابه وحشي بحربته .

٢ ـ عبد الله بن جحش ، وكان خاله حمزة ، وقتله أبو الحكم بن الأخنس بن شريق .

٣ ـ مصعب بن عمير الذي قاتل دون رسول الله ﷺ ومعه لواءه حتّى قتل ، وكان الذي أصابه ابن قميئة الليثي وهو يظنّ أنّه رسول الله ﷺ ، فرجع إلى قريش فقال : قتلت محمّداً .

وقد ورد أنّه بعد أن انصرف رسول الله ﷺ راجعاً إلى المدينة فلقيته حمنة بنت جحش ، فنعي لها أخوها عبد الله بن جحش فاسترجعت واستغفرت له ، ثمّ نعي لها خالها حمزة بن عبد المطّلب فاسترجعت واستغفرت له ، ثمّ نعي لها زوجها مصعب بن عمير فصاحت وولولت ، فقال رسول الله ﷺ : «إنّ زوج المرأة منها لبمكان» .

٤ ـ شماس بن عثمان ، قتلة أبي بن خلف .

وأمّا الأنصار ، فهم :

١ ـ عمرو بن معاذ بن النعمان ، قتله ضرار بن الخطاب .

٢ ـ الحارث بن أنس بن رافع .

٣ ـ عمارة بن زياد بن السكن .

٤ ـ سلمة بن ثابت بن وقش ، قتله أبو سفيان بن حرب .

٥ ـ عمرو بن ثابت بن وقتش ، قتله ضرار بن الخطاب .

٦ ـ ثابت بن وقش .

٧ ـ رفاعة بن وقش ، قتله خالد بن الوليد .

٨ ـ حسيل بن جابر أبو حذيفة اليمان ، قتله المسلمون خطأً .

٩ ـ صيفى بن قيظي ، قتله ضرار بن الخطاب

١٠ ـ الحباب بن قيظي .

١١ ـ عباد بن سهل ، قتله صفوان بن أُمية .

١٢ ـ الحارث بن أوس ، قتله ضرار بن الخطّاب .

١٣ ـ اياس بن أوس .

١٤ ـ عبيد بن التيهان ، قتله عكرمة بن أبي جهل .

١٥ ـ حبيب بن قيم .

١٦ ـ يزيد بن حاطب بن أُمية ، وهؤلاء كلّهم من بني عبد الأشهل .

وأمّا من بني عمرو بن عوف :

١ ـ أبو سفيان بن الحارث بن قيس بن زيد ، وهو أبو البنات الذي قال لرسول الله ﷺ أُقاتل أم أرجع إلى بناتي ؟ فقال رسول الله ﷺ : صدق الله عزّ وجلّ .

١٨ ـ حنظلة بن عامر ، وهو غسيل الملائكة بماء مزن ، قتله الأسود بن شعوب .

١٩ ـ أنيس بن قتادة ، قتله أبو الحكم بن الأخنس .

٢٠ ـ عبد الله بن جبير بن النعمان أمير الرماة كما جعله النبيّ ﷺ، قتله عكرمة بن أبي جهل.

٢١ ـ أبو حبة عمرو بن ثابت.

ومن قبائل أُخرى:

٢٢ ـ خيثمة أبو سعد، قتله هبيرة بن أبي وهب.

٢٣ ـ عبد الله بن سلمة، قتله ابن الزبعري.

٢٤ ـ سبيع بن حاطب، قتله ضرار بن الخطاب.

٢٥ ـ خارجة بن زيد، قتله صفوان بن أُمية.

٢٦ ـ سعد بن ربيع.

وهما دفنا في قبر واحد.

٢٧ ـ أوس بن أرقم.

٢٨ ـ مالك بن سنان وهو أبو أبي سعيد الخدري، قتله غراب بن سفيان.

٢٩ ـ سعد بن سويد.

٣٠ ـ عتبة بن ربيع بن رافع.

٣١ ـ ثعلبة بن سعد بن مالك.

٣٢ ـ حارثة بن عمرو.

٣٣ ـ سقف بن فروة.

٣٤ ـ عبد الله بن ثعلبة.

٣٥ ـ قيس بن ثعلبة.

٣٦ ـ طريف.

٣٧ ـ ضمرة.

٣٨ ـ نوفل بن عبد الله، قتله سفيان بن عويف.

٣٩ ـ عباس بن عبادة، قتله سفيان بن عبد شمس.

٤٠ ـ النعمان بن مالك، قتله صفوان بن أُمية.

٤١ ـ عبدة بن الحساس.

٤٢ ـ المجدّر بن زياد، قتله الحارث بن سويد غيلة.

وقد دفن هؤلاء الثلاثة في قبر واحد.

٤٣ ـ عنترة مولى بني سلمة، قتله نوفل بن معاوية.

٤٤ ـ رفاعة بن عمرو.

٤٥ ـ عبد الله بن عمرو من بني حزام، قتله سفيان بن عبد شمس.

٤٦ ـ عمرو بن الجموح.

ودفنا في قبر واحد.

٤٧ ـ خلاد بن عمرو بن الجموح، قتله الأسود بن جعونة.

٤٨ ـ المعلى بن لوذان، قتله عكرمة بن أبي جهل.

٤٩ ـ ذكوان بن عبد قيس، قتله أبو الحكم بن الأخنس بن شريق.

٥٠ ـ عمرو بن قيس، قتله نوفل بن معاوية الديلي.

٥١ ـ قيس بن عمرو.

٥٢ ـ سليط بن عمرو.

٥٣ ـ عامر بن مخلّد.

٥٤ ـ أبو أسيرة بن الحارث، قتله خالد بن الوليد.

٥٥ ـ عمرو بن مطرف.

٥٦ ـ أوس بن حرام.

٥٧ ـ أنس بن النضر عمّ أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ، قتله سفيان بن عويف.

٥٨ ـ قيس بن مخلّد.

٥٩ ـ كيسان بن مازن مولىٰ بني النجار.

٦٠ ـ سليم بن الحارث.

٦١ ـ نعمان عمرو.

٦٢ ـ سهل بن قيس.

٦٣ ـ حارث بن عدي بن خرشة.

٦٤ ـ أبو أيمن مولى عمرو بن الجموح.

٦٥ ـ مالك بن أياس.

٦٦ ـ أياس بن عدي.

ومجموع هؤلاء سبعون رجلاً على ما هو المشهور بين المؤرِّخين، وقد ضبط بعضهم أكثر من ذلك وأقل، كالواقدي في «المغازي» وغيره كما مرّ، وسجّل التأريخ أيضاً أسماء قتلة المشركين.

وكان رسول الله ﷺ يزور الشهداء ويقول: «السلام عليكم بما صبرتم فنِعمَ عُقبى الدار»، ومرّ ﷺ على قبر مصعب بن عمير فوقف عليه ودعا، وقرأ: **﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾**[1]، وكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تأتيهم بين اليومين والثلاثة فتبكي عندهم وتدعو، وكانت أُمّ سلمة زوج النبيّ ﷺ تذهب فتسلِّم عليهم في كلّ شهر فتظلّ يومها، فجاءت يوماً ومعها غلامها نبهان فلم يُسلِّم، فقالت: أي لكع ألا تُسلِّم عليهم؟! والله لا يسلِّم عليهم أحد إلّا ردّوا إلى يوم القيامة.

وعن فاطمة الخزاعية، تقول: «غابت الشمس بقبور الشهداء ومعي أُخت

---

١. سورة الأحزاب: الآية ٢٣.

لي ، فقلت لها : تعالي نُسلِّم على قبر حمزة ونصرف . قالت : نعم ، فوقفنا على قبره ، فقلنا : السلام عليك يا عمّ رسول الله ، فسمعنا كلاماً ردّ علينا : وعليكما السلام ورحمة الله وبركاته ، قالتا : وما قربنا أحد من الناس » .

المجروحون:

أمر رسول الله ﷺ أبا عمرو أن يداوي كلّ مجروح في داره ، فباتوا يوقدون النيران ويداوون الجراح ، وأنّ فيهم لثلاثين جريحاً أو أكثر ، وقال : لا يبلغ معي بيتي عزيمة منّي ، فنادى فيهم سعد : عزيمة رسول الله إلّا أنّ سعد بن معاذ مضى معه ﷺ إلى بيته ، ثمّ رجع إلى نسائه فساقهن ، ولم تبق امرأة إلّا جاء بها إلى بيت رسول الله ﷺ فبكين بين المغرب والعشاء ، وقام رسول الله ﷺ حتّى فرغ من النوم لثلث الليل فسمع البكاء ، فقال : ما هذا ؟! فقيل : نساء الأنصار يبكين على حمزة ، فقال رسول الله ﷺ : رضي الله عنكن وعن أولادكنّ ، وأمرنا أن نرد إلى منازلنا ، فرجعنا إلى بيوتنا بعد ليل معنا رجالنا ، فما بكت منّا امرأة قط إلّا بدأت بحمزة إلىٰ يومنا هذا ـ أي قبل واقعة الطف .

فسلامٌ عليك يا خير الشهداء، ويا عمّ رسول الله، ويا أسد الله وأسد رسوله ، جزاك الله عن الإسلام وأهله خيراً .

نتائج الحرب:

وقعت الحرب بين المسلمين والمشركين في أُحد، وقد اقتسما النصر والهزيمة بينهما بادئ الأمر ، ولم يكن النصر حاسماً للمشركين ، كما زعمه بعض المؤرّخين ، بل اذا تعمّقنا في سير القتال ونتائج هذه الغزوة، نرى أنّ النصر كان أقرب إلى المسلمين منه إلى المشركين ، فإنّهم مع تفوّقهم الكبير على المسلمين في

العدد والعدّة، وإحاطتهم بهم من كافّة الجوانب بعد قتل رُماة المسلمين في فم الشعب، لم يتمكّنوا من هزيمتهم والقضاء عليهم قضاءً تامّاً، كما كان هو هدف المشركين من هذه الغزوة، وقد نجح المسلمون بقيادة رسول الله صلى الله عليه وآله وحكمته وبراعته من تطويق المشركين، وإخراجهم من موقع الحرب بإصابات قليلة، قدّرها بعض المؤرِّخين عشرة بالمئة بالنسبة إلى قوّات المشركين المتفوِّقة، وقد تمكَّن الرسول الكريم صلى الله عليه وآله من تخليص قوّاته من الموت المحتّم، وهذا هو النصر الكبير.

ثم إنّه يمكن استخلاص نتائج كبيرة من هذه الغزوة، نذكر المهمّ في المقام وتأتي البقيّة في مستقبل الكلام:

منها: ظهور عظمة الرسول الكريم صلى الله عليه وآله في هذه الحرب كقائد عظيم وزعيم كبير في قيادة الجيش بحكمة ومهارة في أحرج المواقف، وظهرت عبقريته صلى الله عليه وآله في جعل النصر للمسلمين المغلوبين آخر الآمر، وقد انهارت معنويات الكثيرين منهم، إلّا جماعة خاصّة مؤمنة خلصت في إيمانها، واستقامت على الحق والدفاع عنه.

ومنها: معرفة المنافقين المندسّين في صفوت المسلمين، ممّا أتاح لهم الفرصة في التخلّص منهم على حكمة وبصيرة.

ومنها: حصول المسلمين على المعلومات الكثيرة عن نوايا المشركين وقوّتها وسائر الأُمور التي تخصّهم، ممّا جعلت المسلمين على حيطة منهم.

ومنها: إنّ هذه الحرب نبّهت المسلمين أنّ التعدّي عن أوامر القائد يؤدّي إلى نتائج وخيمة يصعب تحمّلها، فقد كانت مخالفة رماة المسلمين لتعليمات الرسول الكريم صلى الله عليه وآله الدرس الكبير لهم لكي لا يعودوا إلى مثلها.

ومنها: معرفتهم أنّ الاستقامة على الحقّ والصبر في ميدان القتال والثبات

في الشدائد والأهوال، كلّ ذلك يؤدّي الى النصر الحاسم وإلحاق الهزيمة بالأعداء.

ومنها: أنّ الأخلاق الرذيلة التي توجّه النفس إلى الأُمور المادّية والانشغال بأُمور تافهة، توجب إعراض النفس عن الجانب المعنوي في الجهاد مع الأعداء، وتؤثّر في وهن العزائم، فقدكان العُجب الذي لحق ببعض المسلمين نتيجة نصرهم الساحق على المشركين في يوم بدر، الأثر الكبير في إلحاق النكسة بهم.

هذا، مضافاً إلى أنّهم استفادوا من وقعة اُحد أنّ التعليمات الإلهيّة والفيوضات الربّانية، لها التأثير التامّ في الثبات في ميدان القتال والنصر الأكيد، وهو ممّا يؤكّد عليه القرآن الكريم في الآيات المتقدِّمة، وما سيأتي في الآيات اللاحقة.

وبالجملة: أنّ في غزوة اُحد من الدروس العظيمة التي لابدّ للمسلمين الاستفادة منها، والاعتبار بها، وستبقى اُحد رمزاً للتفاني والجهاد المقدّس مدى الدهر.

***

الآية ١٣٠ ـ ١٣٢

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

ذكرنا مراراً أنّ الآيات القرانية نزلت لتكميل الإنسان، وإرشاد الناس إلى ما يوجب سعادتهم في الدارين، وقد دأب القرآن الكريم على إنزال الأحكام الإلهيّة على سبيل التدريج والتأنّي، لسبق النفوس بالجاهلية التي لابدّ من إزالتها وإصلاح الفاسد فيها، وبيان الصراط المستقيم وتهذيب النفوس بالعلم والعمل، بكلّ ما يمكن التحريض عليه، إمّا الوعد الجميل، أو الثناء الجزيل حتّى تستقيم النفوس بالتقوى، ومن عادة الله عزّ وجلّ في تربية الإنسان إنزال الأحكام على سبيل التدريج، لترتاض النفوس المستنفرة من علم وحكمة، ولذا كان كلّ حكم في القرآن الكريم يتعقّبه التحريض على العمل.

وفي هذه الآيات الشريفة يأمر سبحانه الناس ببعض ما يوجب سعادتهم، ويزجرهم عمّا يوجب شقاوتهم، ويرشدهم إلى ما هو الأصلح لهم، كما أنّ الآيات السابقة دعتهم إلى الجهاد مع الأعداء ونبذ الخصال المذمومة والصفات السيّئة التي أوجبت الوهن في العزيمة والضعف في القتال، فهذه الآيات وسابقتها والتي تليها لا تخرج عن ما رسمه القرآن الكريم في تعليم الإنسان وتربيته وتهذيبه، ومن

ذلك يظهر السرّ في الأمر بإطاعة الله والرسول لأنّ فيها الفلاح والنجاح.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا**﴾.

الآية المباركة تشتمل على الأمر والنهي والترغيب والترهيب، وترشد الناس إلى أهمّ موضوع اعتنى به الإسلام اعتناءً بليغاً، فحرّمه وشدّد النكير عليه، وهو الربا الذي ذكره عزّ وجلّ في مواضع متعدِّدة من القرآن الكريم، ولكثرة أهمّية الموضوع تدرّج الإسلام في تشريع الحكم فيه، وبيّن وجوه المفاسد المترتّبة عليه.

والآية الشريفة تنهي المؤمنين عن تعاطي الربا وتحرّمه حرمة مؤكّدة، وقد تقدّم في قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ الْمَسِّ**﴾[١] بعض الكلام.

والمراد بالأكل هو الأخذ والتعاطي، وقد ذكره بالخصوص لأنّه الأهمّ من المقاصد، ولزيادة في التشنيع، أي إنّكم تفعلون ذلك مع ما فيه من المفاسد لأجل غرض دني، وهو الأكل.

والربا هو مطلق الزيادة، وشرعاً زيادة يشترط في القرض، أو في بيع أحد المثلين بالآخر. على ما فصّلناه في «مهذب الأحكام».

قوله تعالى ﴿**أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً**﴾.

بيان لبعض وجوه المفاسد، لأنّ الربا بحسب طبعه يستهلك أموال المديون لتتراكم عند الدائن منضماً إلى رأس ماله، فيكون ما يأخذه أضعافاً مضاعفة.

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٧٥.

والاضعاف جمع قلّة لضعف، وهو مثل الشيء، وضعفاه مثلاه، وأضعافه أمثاله، وهو من الألفاظ المتضايفة التي يقتضي وجودها وجود آخر من جنسها في الكم أو من جهة أُخرى.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾.

أي: اتّقوا الله في ما نهاكم عنه، فإنّ في التقوى صلاح المجتمع، وانتظام النظام بالوجه الاحسن الاكمل.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

أي: لكي تفلحوا في جميع أُموركم الدنيوية والأُخروية. والفلاح هو من أهمّ الغايات، والآية ترشد الناس إلى أنّ التقوى توجب الفلاح كالأسباب التوليدية، دون ما يتوهّمه الإنسان.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

تأكيد للتحريم السابق، اهتماماً بالموضوع وتشنيعاً على مَن أكل الربا الذي يؤدّي إلى نار عظيم. وفيه الدلالة الواضحة على كفر آكل الربا.

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾.

الإطاعة المتابعة اعتقاداً وقولاً وعملاً وهي أعمّ من العبادة، وإطاعة الله والرسول متابعتهما في جميع الأحكام والتكاليف، ومنها حرمة الربا.

وإنّما قرن سبحانه وتعالى إطاعته بإطاعة الرسول، لبيان أنّ إطاعة الله لا تكون إلّا بإطاعة الرسول، ولا تكون إطاعة الرسول إلّا بإطاعة الله تعالى، فتكون إطاعة أحدهما من دون الآخر باطلة.

قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

بيان لبعض ما يترتّب على إطاعة الله وإطاعة الرسول من رحمة الله تعالى للمطيعين وهي الغاية العظمى ، لأنّ بالإطاعة تستعدّ النفوس لتلقّي الرحمة والفيض الإلهي .

وفي الآية الشريفة عتاب لمَن ترك الإطاعة لله وللرسول في غزوة أُحد .

***

بحوث المقام

بحث دلالي:

يستفاد من الآية الشريفة أُمور:

الأوّل: تأكيده سبحانه وتعالى النهي عن الرِّبا بوجوه:

الأوّل: قوله تعالى: ﴿أَضْعَافاً مُضَاعَفَةً﴾.

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾.

الثالث: قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾.

الرابع: قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾.

وهذه وجوه أربعة تؤكِّد التنفير عن الربا، والتنزّة عن أكله والتشنيع على فاعله، لأنّ الربا من أهمّ الموضوعات التي تمسّ الفرد والاجتماع من جهات شتّى.

الثاني: يستفاد من قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الحكمة في النهي عن أكل الربا، وإطاعة الله والرسول فيه هو إثبات التراحم بين الأفراد، الذي يفضي إلى التعاون والتعاضد بينهم، وهو يستلزم الفلاح والصلاح في الدُّنيا والآخرة.

الثالث: يستفاد من قوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾، أنّ النار مخلوقة ومعدّة للكافرين العاصين جزاءاً لهم، وإنّما خصّ سبحانه الكافرين بالذِّكر، إمّا لأجل أنّ النار قد أُعدّت لهم أوّلاً وبالذات ولغيرهم بالتبع، أو لأنّ الكافرين يخلدون فيها دون غيرهم، أو لأجل بيان أنّ المرابي الذي لا يعمل بالحكم الإلهي بعد علمه به في حكم الكافرين، فيشمل الكافر كلّ فاسق أيضاً، وقد تقدّم في هذا التفسير مكرّراً أنّ للكفر مراتب.

ومن العجائب أنّ الآية الشريفة اُفتتحت بالخطاب للمؤمنين، فما أيسر أن يخرج المؤمن عن إيمانه ويدخل في زمرة الكافرين، بترك حكم إلهي وارتكاب منكر عقلي، ولذا قيل إنّها أخوف آية في القرآن الكريم.

الرابع: أنّ قوله تعالى: ﴿**وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ**﴾ يتضمّن حكماً عقلياً بتّياً إرشادياً، قرّره الواحد الأحد على لسان سيِّد الأنبياء أحمد ﷺ، وبذلك تتمّ الحقيقة الإنسانية، وتتحقّق العبودية المحضة.

وإنّما قرن إطاعته عزّ وجلّ بطاعة الرسول ﷺ، لبيان أنّ إطاعة الرسول من إطاعة الله، فلابدّ من المسارعة إليها، وقد ذكر سبحانه وتعالى الحكمة في الأمر بالطاعة، هي الفلاح المفضيّ للنجاح في جميع الاُمور والحالات، وهو مطلوب كلّ فرد.

الخامس: إنّما عقّب الوعيد بالوعد ترغيباً في الطاعة وترهيباً عن المخالفة، كما هو دأبه تعالى في القرآن الكريم.

***

الآية ١٣٣ ـ ١٣٨

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾.

الآيات الشريفة من جلائل الآيات التي يذكر فيها أهمّ الخصائل الحميدة الفردية والاجتماعية، وهي تهدي الإنسان إلى استكمال نفسه ومجتمعه، وتعلِّمه كيفيّة علاج الرذائل النفسانية، فهي تدعوه إلى الخير والإحسان، والتحلّي بمكارم الأخلاق، والانزجار عن الشرّ والسوء ومساوئ الأخلاق.

وقد عدّد سبحانه وتعالى جملة من الأخلاق الكريمة والخصال الحميدة وهي المسارعة إلى الخير، والإنفاق في سبيل الله في السرّاء والضرّاء، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس، والتوبة عن المعاصي والذنوب التي تُبعد الإنسان عن خالقه وتوقعه في الورطات والمشاكل.

وقد أمر عزّ وجلّ بنيل الإحسان وكلّ خير فردي واجتماعي ، وبيّن سبحانه وتعالى أنّ في التخلّق بها وفي إفشائها، يحقِّق للإنسان الحياة السعيدة، وتأمنة من الوقوع في المهالك، وتوجب له النجاة من الشدائد ، وبها تثبت الوحدة بين أفراد المجتمع ويشدّ بعضهم بعضاً .

فهذه الآيات الشريفة تبيِّن الصراط المستقيم الذي مَنْ سلكه لا يضلّ ولا يشقى ، وقد ذكر سبحانه في الآيات السابقة أهمّ ما يمنع الإنسان من السير على ذلك الصراط المستقيم ، وما يعيقه من تكميل نفسه ومجتمعه ، وهو الربا الذي يعدّ في نظر الإسلام من أهمّ الموانع المادّية والمعنوية التي تحرم الإنسان عن الحياة السعيدة ، وتمنع من الإنفاق الذي يعدّ من أهمّ الأُسس في نيل السعادة .

وقد عدَّ عزّ وجلّ أنّ التعدي عمّا ذكره والإعراض عمّا بيّنه يؤدّي إلى الشقاء والحرمان ، وأمر عزّ وجلّ بالاعتبار عمّا جرى في الأُمم السابقة التي أعرضت عمّا ارتضاه الله تعالى لهم .

***

التفسير

قوله تعالى : ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ .

دعوة عامّة إلى الغفران ، وبشارة عظيمة لجميع أهل الذنوب والعصيان ، واستضافة من الجواد الغني لجميع الواردين عليه ، وترغيب إلى العباد في إزاحة جميع الأغشية والظلمات ، ودفع أنواع الجهالات ، ووعدٌ منه عزّ وجلّ لمَن أطاع الله وأطاع الرسول ، وقد ذكر جزاء المتّقين المطيعين اتباعاً للوعيد بالوعد الجميل ، واقتراناً للترهيب بالترغيب ، كما هو سنّته عزّ وجلّ .

والمسارعة المبادرة والاشتداد في السرعة ، وهي في الخير ممدوحة وفي الشرّ مذمومة ، والمسارعة إلى الخيرات هي المبادرة إليها . وإنّما أمر سبحانه

وتعالى بالمسارعة إليها بإطاعة الله تعالى والرسول، للتنبيه على ترك التسويف الذي يفوت به الأجر والحظ، وكثرة المثبطات ووسوسة الشيطان التي توهن العزائم.

ويمكن أن يكون قوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾** مبيّناً للمغفرة في هذه الآية الشريفة، كما أنّ قوله تعالى: **﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾** مبيّناً للمسارعة إلى الجنّة.

وكيف كان، فإنّ أسباب المغفرة والدخول في الجنّة معروفة مذكورة في القرآن الكريم والسنّة الشريفة، كما أنّ أسباب الدخول في النار كذلك.

قوله تعالى: **﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾**.

العرض خلاف الطول، وهو أقصر الامتدادين عادةً، ويكنّى به عن السعة، واستعماله في ذلك شائع، يُقال: بلاد عريضة، أي واسعة، ومنه قولهم: أعرض في المكارم إذا توسّع فيها، وفي الحديث عنه صلى الله عليه وآله: «لقد ذهبتم فيها عريضة»، أي الأرض الواسعة، وقد قال صلى الله عليه وآله ذلك عندما هرب جماعة يوم أُحد فراراً من الزحف.

ومن ذلك يظهر أنّه لا وجه لما ذكره بعض من أنّه إذا كان العرض كذلك فأين الطول وما مقداره، مع أنّه لا يجري ذلك إذا فرضنا كرويّة الجنّة.

ويمكن أن لا يكون التعبير كنائياً، بل كان على الحقيقة، إمّا بناءً على عدم تناهي الأبعاد، كما عن جمع من الفلاسفة، فالأمر واضح. وإمّا بناءً على التناهي كما عن بعض، فلا ريب في أنّه على فرض صحّته إنّما هو في الدُّنيا، وأمّا في الآخرة فهي غير متناهية من جميع الجهات، زماناً ومكاناً، وسعة ونعمة، وغير ذلك.

وقد ذكر المفسِّرون في معنى العرض في المقام بما لا يرجع إلى محصل.

ونقل عن أبي مسلم بن بحر: أنّ المراد من العرض في الآية الشريفة هو من عرضك الشيء على البيع والمقايضة، أي لو عرضت الجنّة بالسماوات والأرض لكانتا ثمناً.

وهذا تأويل باطل.

وكيف كان، فالآية الشريفة ترمز إلى معنى جميل، ترغّب المخاطبين إلى المراد بأُسلوب لطيف وجار على ما يتصوّره الناس من التمثيل بالموجود في الخارج، وتبيِّن بلوغ الجنّة في السعة بحيث لا يمكن أن يحدّها حدّ وهمي، وهذا ممّا يوجب اطمئنان الإنسان بأنّ له ما تشتهيه النفس من جميع الجهات، ففي بعض الأحاديث القدسية: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»، وهذا هو شأن النِّعمة التي أُعدت من غير المتناهي من كلّ جهة إلى المنعم عليه المتناهي من كلّ جهة، وهذه هي الحياة الكاملة الأبدية التي لا ينبغي للإنسان إلّا السعي في دركها.

قوله تعالى: ﴿**أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾.

الإعداد: التهيئة، وهو إمّا علمي أو خارجي، في هذه النشأة أو في نشأة أُخرى أو في عالم الملكوت الذي يكون كالصورة والمرآة لهذا العالم بجميع جزئياته وكلّياته، ويمكن أن يُعبَّر عنه بعالم المثال الخارجي، وهو موجود بوجود روحاني معنوي، ودخله سيِّد الأنبياء ﷺ في معراجه واطّلع على خصوصيّاته، فيكون الإعداد مطابقاً للوجود العلمي الأزلي، والوجود الخارجي في الدُّنيا والوجود الأُخروي في ما لا يزال.

والتقوى هي سبب معدّ للجنّة، فتكون حقيقة التقوى منزلة من العلم الأزلي مثّل بالوجود المثالي، ثمّ نزلت إلى هذا العالم وستعود إلى المحل الذي أعدّته لنفسها، كما أنّ حقيقة العصيان والطغيان والكفر كذلك، ولكلّ منها مظاهر خاصّة تناسب عالم ظهورها، ويمكن التمثيل له في هذا العالم أيضاً، فإنّ بعض الأراضي لا قابلية لها إلّا لزراعة مثل الزعفران، وقطعة أُخرى لا تصلح إلّا أن تكون سبخة يعلوها الملح. وذلك كلّه بنحو الاقتضاء لا العلّية التامّة، ومن ذلك يعلم المراد من قولهم عليهم السلام: «كلّ ما هناك لا يعلم إلّا بما هنا»، أو: «إنّ الدُّنيا مزرعة الآخرة».

وإنّما أتى عزّ وجلّ الفعل مجهولاً، للإشارة إلى أنّ لفعل الفاعل دخلاً في الإعداد، وأُضيفت الجنّة إلى المتّقين، لبيان أنّ الوصف ـ وهو التقوى ـ علّة لهذا الإعداد.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: **﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾**[1]. ولعلّ الاختلاف في التعبير بالمسارعة والمسابقة، لأجل أنّ المسارعة تكليف للجميع من غير اختصاص بفرد، والمسابقة تكليف فردى بأن يتسابق كلّ فرد فرداً آخر حين المسارعة، فتكون المسابقة أخصّ من المسارعة، ويكون المراد بالجنّة في آية المسابقة جنّة خاصّة، عرضها كعرض السماء والأرض، فإنّ لله تعالى جنّات كثيرة، بل غير متناهية.

كما أنّ المراد بالجنّة في آية المسارعة الجنس التي يكون عرضها السماوات والأرض، ويصحّ أن يُراد بالسماء في آية المسابقة الجنس، فيتّحد مفاد الآيتين حينئذٍ.

ثم إنّه تعالى ذكر المتّقين في المقام لغرض الأوصاف التي وصفهم بها، وهي أوصاف جامعة لمكارم الأخلاق وهي تفيد المجتمع كما تفيد الأفراد، أُمروا

---

١ . سورة الحديد: الآية ٢١.

بالتحلّي بها لغاية تهذيبهم وتكميلهم، وقد نزلت هذه الآيات بعد غزوة أُحد، وقد جرى على المسلمين ما جرى، كما صدر منهم ما صدر، فاستلزم ذلك تنبيه المؤمنين وتهذيبهم وإعدادهم لما ستجري عليهم من الحوادث.

وقد وصف عزّ وجلّ المتّقين بأوصاف خمسة، وهي:

قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ**﴾.

السراء: من السرور، وهو الرخاء والفضل، والضرّاء من الضرر، وهو الشدّة والعسر والضيق. أي الذين ينفقون لوجه الله تعالى في حالة الرخاء والسرور، وحالة الشدّة والضيق والعسر.

وظاهر الآية الشريفة أنّ السرّاء والضرّاء حالتان للمنفق، ويحتمل أن تكونا حالتين للإنفاق في حالة الرخاء والسرور، وحالتي الضيق والشدّة، فمن الأوّل الإنفاق في التوسعة على العيال، ومن الثاني الإنفاق لرفع ما يضطرّون اليه.

وإنّما حذف عزّ وجلّ متعلّق الإنفاق ليشمل القليل والكثير، وكلّ ما يصلح للإنفاق، سواء كان مالاً أو غيره.

وقد بدأ سبحانه وتعالى من بين الأوصاف بالإنفاق مقابلة للربا الذي نهى عنه عزّ وجلّ في الآية السابقة، الماحق لكلّ فضل وفضيلة، ولأنّ الإنفاق في الحاليتن يكشف عن محبّة المنفق لله تعالى وتقواه، لأنّه أنفق أحبّ الاشياء لنفسه. ولأنّ الإنفاق أنفع للناس من سائر الصفات، فإنّ فيه يظهر التعاون بين أفراد المجتمع، وبه ترفع المشكلات وتنحل المعضلات، ويخفّف من هموم الفقراء، ويبعث في نفوسهم الأمل ويشدّهم مع سائر أفراد المجتمع.

قوله تعالى: ﴿**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ**﴾.

وصف ثان، ومادّة (كظم) تدلّ على الحبس والإمساك، ومنه الحديث: «إذا

تثاءب أحدكم فليكظم ما استطاع»، أي يحبسه مهما أمكن، ويُقال: كظم البعير، أي أمسك عن الجرة، وكظم القربة شدّ رأسها عند الامتلاء. والغيظ شدّة الغضب وفوران الدم للانتقام.

قوله تعالى: ﴿وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ﴾.

وصف ثالث، وهو من أجلّ مكارم أخلاق الله تعالى، فإنّ بعفوه يتمّ تدبير نظام العالم. ومن أسمائه تعالى العفوّ، وهو المبالغة في العفو الذي هو التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه، وأصله المحو الطمس، والعفو عن الناس هو ترك مؤاخذتهم مع القدرة عليها والتجاوز عن عقوبة مَن استحقّها، وهو أقرب للتقوى، وفي الحديث: «سلوا الله العفو والعافية والمعافاة»، أمّا العفو فمحو الذنوب، والعافية أن تسلم من الأسقام والبلايا وهي الصحّة، والمعافاة هي صرف أذى الناس عنك وأذاك عنهم، ويغنيك عنهم ويغنيهم عنك، وإنّما حذف المتعلّق ليشمل كلّ ما يدخل تحت حقّه.

وهذا الوصف يكشف عن كرم المتّصف به وحسن سريرته وضبط نفس الأمّارة تحت إرادته وحكمته، فتكون مرتبة هذا الوصف أعلى من مرتبة كظم الغيظ، فإنّ الشخص قد يكظم غيظه ولكن على حقد وضغينة، والعفو دليل على انتفائهما.

قوله تعالى: ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾.

وصف رابع، وهو الاحسان الذي له المرتبة الأعلى من بين جميع ما سبق، بل هو أكرم المكارم، ولعلّه لأجل ذلك لم يعطفه على ما سبق.

والإحسان: صفة كريمة تتّصف بها النفس يكشف بها كظم الغيظ والعفو عن الناس، فإنّ هذه نعوت معدّة لكسب الإحسان والتحلّي به، والإحسان هو جعل

الأشياء في موضعها، وإتيان الأعمال على الوجه اللائق بها، وبالإحسان يتمّ الإنفاق الذي لابدّ أن يعرى عن جميع ما يشينه ويكمل كظم الغيظ والعفو عن الناس، ولذلك كان للمحسنين أجرٌ عظيم ومنزلة كبيرة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1]، ويكفي في منزلة هذا الوصف أنّ الله يحبّ المحسنين ويثيبهم على إحسانهم، وكفى بذلك فخراً وفوزاً.

قوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾**.

وصف خامس، وهو أعظم آية في القرآن الكريم في تهييج رجاء العبد، وفيها التنويه بمقام العفو والإحسان، وتذكّر المتّقين بعدم اليأس لو صدر منهم ذنب، فإنّه بعد أن ذكر أوصاف المتّقين ـ من كظم الغيظ والعفو والإحسان ـ عقبه سبحانه بأعظم ما منَّ به على العباد، وهو العفو عن المذنبين والإحسان بهم، تعليماً لهم وتنويهاً لمقامهما، وإعلاماً بأنّ الإنسان لا يخلو عن الذنب إلّا أن يكون معصوماً بعصمة الله تعالى، فهو محتاج إلى العفو والإحسان، فتكون الجملة معطوفة على المتّقين، (وأُولئك) في الآية التالية إشارة إلى الجميع.

والفاحشة من الفحش، وهو مجاوزة الحدّ في السوء، فتكون الفاحشة كلّ ما اشتدّ قبحه من الذنوب والمعاصي، وشاع استعماله في الزنا باعتبار أنّه أظهر أفراد الفحشاء؛ وكلّ خصلة قبيحة فهي فاحشة من الأقوال والأفعال، وفي الحديث: «أنّ الله لا يحب الفحش والتفاحش».

والمراد بها في الآية الشريفة ـ بقرينة المقابلة للظلم ـ المعصية الفاحشة في قبحها، سواء كانت مقتصرة على النفس، كترك الصلاة ونحوه، أو متعدّية إلى الغير، كالقتل والغيبة ونحوهما. والظلم ما دون ذلك، كما يصحّ أن يكون الفرق بينهما

---

١. سورة العنكبوت: الآية ٦٩.

كالفرق بين الكبيرة والصغيرة.

قوله تعالى: ﴿ذَكَرُوا اللهَ﴾.

أي: تذكّروا عظمة الله تعالى وآياته الموجبتين للخشية منه، وأنّه مرجعهم في كلّ خوف ورجاء، بعد أن أغفلهم الشيطان وأنساهم ذكر ربِّهم حين الذنب، فيسرعون إلى الاستغفار وطلب المغفرة.

والمراد بذكر الله هو الذكر الحقيقي الذي يكون داعياً إلى ترك الذنب واستشعار الخوف والرجوع إليه تعالى، لا مجرّد الذكر اللفظي مع البقاء على الذنب، فإنّه حينئذٍ يكون كالمستهزئ به تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾.

أي: حين ما ذكروا الله وتذكّروا جلاله وكبريائه أحبّوا التقرّب إليه بعد أن انصرف عنهم طائف الشيطان، فتابوا إليه طالبين المغفرة منه عزّ وجلّ لجميع ذنوبهم.

والآية الشريفة في مقام التمييز بين مَن يفعل المعاصي محادة وعناداً ولجاجاً، فإنّه بعيد عن الاستغفار ولا يوفّق إليه أبداً. وبين مَن تذكّر الله تعالى حين المعصية وارتدع عنها خوفاً، فتاب إليه تعالى وطلب المغفرة منه، فإنّ لهم مقاماً معلوماً.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ﴾.

بشارة عظيمة، وتطييب للنفوس، وتشويق إلى التوبة والاستغفار، وتنبيه للمذنبين بالالتجاء إلى الله تعالى وعدم اليأس منه عزّ وجلّ، فإنّه لا منجى من الذنوب ولا ملجأ في الغفران إلّا إلى الله تعالى، وهذا ممّا يؤكّد الفزع والرجوع إليه عزّ وجلّ.

والآية المباركة ـ بأُسلوبها البديع وخطابها البليغ ـ تؤثّر في المخاطبين أبلغ التأثير، وينبّه الضمير الانساني الذي تأثّر بارتكاب الذنوب والمعاصي بالرجوع إلى الله والإنابة إليه، لإزالة ما يوجب ضلاله وإغوائه.

وفي هذا الخطاب وجوه من الدلالة على المعنى المراد؛ كإظهار اسم الجلالة، وإسناد المغفرة إلى ذاته المقدّسة المستجمعة لجميع الصفات الكمالية، ودلالة ذلك على الغفران الواسع وانحصاره فيه عزّ وجلّ، لأنّه المسلّط على ذلك كلّه، فإنّ مَن بيده أصل الخلق وتدبير شؤونهم، يكون مسلّطاً على الغفران بالأولى، وليس لغيره هذا الحقّ، وهذا ما يدلّ عليه الحصر المستفاد من النفي والإثبات.

وفيه الإنكار على مَن يطلب المغفرة من الأوثان أو الأفراد الذين لم يأذن لهم الله تعالى بالاستشفاع لديه في غفران الذنوب بالخصوص.

ويؤكّد ذلك ورود الخطاب على هيئة الإنشاء دون الإخبار.

وفي ذكر الجمع المحلّى باللام الدال على العموم، إعلان بأنّ الله جلّ شأنه يغفر جميع الذنوب، صغائرها وكبائرها، فيكون المذنب بعد الاستغفار والتوبة عنده كمَن لا ذنب له، كما في الحديث.

ثمّ إنّ مجيء هذا الخطاب بعد ذكر الفاحشة وظلم النفس، فيه الدلالة على سعة غفران الله تعالى وعدم مبالاته فيه، فإنّ الذنوب مهما كبرت وجلّت، ولكن عفوه وغفرانه أجلّ وأعظم وأكبر.

قوله تعالى: ﴿**وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾.

الإصرار على الشيء: المداومة عليه وملازمته، وأكثر ما يستعمل في الشرّ والذنوب، وفي الحديث: «ويلٌ للمصرّين الذين يصرّون على ما فعلوه وهم

يعلمون»، وقد تقدّم اشتقاق هذه الكلمة في قوله تعالى: ﴿**كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ**﴾[١].

«وهم يعلمون» حال من فاعل الإصرار ومتعلّق به.

والمعنى: أنّهم لم يداوموا على الذي فعلوه من الذنوب والمعاصي، وهم عالمون بقبحها وبالنهي عنها والوعيد عليها.

وإنّما قيّد الإصرار على الفعل بالمعصية، لبيان أنّ مجرّد الإصرار على المعصية مع الجهل بها لا يكون إصراراً شرعاً، كما يبيّنه قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ**﴾[٢].

والآية الشريفة ترشد الناس إلى ترك الإصرار في المعاصي، لأنّه يوجب عدم المبالاة بحرمات الله تعالى والاستكبار عليه والاستهانة بأحكامه المقدّسة، ويجعل النفس ميّالة إلى الطغيان والخروج عن الطاعة، فتنتفي العبودية وتخرج عن الفطرة المستقيمة، فلا ينفع حينئذٍ ذكر الله تعالى الذي كان يمنع عن المعصية والإقامة على الذنب.

قوله تعالى: ﴿**أُوْلَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا**﴾.

وعدٌ منه عزّ وجلّ للمتّقين الموصوفين بما تقدّم من الأوصاف، وبيان للأجر الجزيل والثواب الكبير المعدّ لهم، وهو المغفرة والجنّات العظيمة التي تجري من تحتها الأنهار زيادة في بهجتها، ولتماميّة النِّعمة أنّهم خالدون فيها لا يشوبها نقص.

ويمكن أن يكون ما ورد في هذه الآية المباركة هو نفس ما ذكره عزّ وجلّ

---

١ . سورة آل عمران: الآية ١١٧.

٢ . سورة النساء: الآية ١٧.

في الآية السابقة من الأمر بالمسارعة إلى المغفرة وجنّة عرضها السماوات والأرض ، فتكون تلك الأوصاف من المعدّات والأسباب للمغفرة والدخول في الجنّة ، وتكون هذه الجنّات ضمن تلك الجنّة الفسيحة .

وقد أضاف سبحانه وتعالى الجزاء إلى ضمير «هم» تشريفاً ، وفي ذكر الربّ المضاف إلى «هم» ، لبيان العلّة في نيلهم لذلك الجزاء العظيم وتربيته تعالى المعنوية لهم .

قوله تعالى : ﴿وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ .

تأكيد للوعد الجميل وتشويق لهم الى العمل ، أي تلك المغفرة والجنّات إنّما تكون على تلك الأعمال الحسنة التي تعدّ النفس إعداداً صالحاً ، وتهيّئوها لنيل تلك المراتب العالية .

والخطاب على إيجازه يشمل على وجوه من الدلالات المحسّنة ، الدالّة على عظمة الموضوع والاهتمام به ، وتهييج الشوق والمسارعة إلى نيله .

منها : إقامة الأجر مقام الجزاء ، إعلاماً بإنجاز الوعد وتحقّقه ، ممّا يزيد في شوق العامل وتنشيطه للعمل ، فكان العامل يستحقّ ذلك .

ومنها :ذكر الجمع المحلّى باللام وإقامته مقام الضمير تأكيداً ، وللدلالة على حصول المطلوب .

ومنها : إتيان هذه الجملة بعد ذكر الجزاء وتفصيله لبيان الاهتمام بالوعد ، والتأكيد على المسارعة لدركه .

قوله تعالى : ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ .

أمر بالاعتبار بما جرى على الأمم الغابرة والنظر في ما بقي من آثارهم ، زيادة في التحريض على العمل والاستعداد لنيل الكمال ، وتشويقاً للجزاء الذي

أعدّه الله تعالى للعاملين، وتنبيهاً للمؤمنين على عدم الغفلة، وتذكيراً لمَن خالف الرسول الكريم ﷺ، وتسلية للمؤمنين، وتوبيخاً لمن أعرض عن آيات الله تعالى وأحكامه المقدّسة وغفل عن الاستكمال، وتشنيعاً على من أدرج نفسه في عِداد المكذِّبين بعد إتمام الحجّة، التي يكون منها الرجوع إلى أحوال الماضين والسير في الأرض والنظر في منا خلفته تلك الأُمم من الآثار، فقد خلت عن أصحابها بعدما كانت قصوراً شاهقة، أو عروشاً جمعت كلّ أسباب البهجة والسرور، وقد ابتهج ساكنوها وعمّارها مدّة فيها، أوكنوزاً امتلأت بكلّ أسباب العيش الهنيء، أو ذخائر عظيمة لم تدخل في الحسبان، وقد جرت عادته عزّ وجلّ أنّه يرجع المخاطبين ـ بعد سرد جملة من الحوادث وبيان الأحكام الفردية والاجتماعية ـ إلى سنن الأُمم الغابرة، والأمر بالاعتبار بها والنظر في آثارهم لمزيد التنبيه، والاستفادة من تجاربهم ولئلا تتكرّر ما جرى عليهم على هذه الأمة، وأن يسلكوا الطريق المستقيم الذي سلكه الصالحون منهم، والإعراض عن سبل المكذِّبين لئلا يدخلوا في زمرتهم فينالوا جزاءهم، وقد جعل القرآن الكريم هذا الأمر من سبل إتمام الحجّة على العباد.

و(خلت) بمعنى مضت، و(السنن) جمع سُنّة؛ وهي الطريق المعبّدة المسلوكة، وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم في ما يقرب من سبعة عشر موضعاً:

قال تعالى: **﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾**[1].

وقال تعالى: **﴿وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾**[2].

---

١. سورة الأنفال: الآية ٣٨.

٢. سورة الحجر: الآية ١٣.

والنظر في سنن الماضين من سبل الرشاد ، وفيها وجوه من الحكمة ، منها الاعتبار بها ، وإتمام الحجّة على اللاحقين ، وتسلية لما يجري عليهم ، والاستفادة من تجاربهم وغير ذلك ، ولذا اهتمّ بها عزّ وجلّ فذكرها في مواضع متعدِّدة .

وبالجملة : فهو إرشاد إلهي .

والمراد بها في المقام منهاج الماضين وما جرى عليهم، سواء كان سنّة المؤمنين الصادقين المجاهدين في سبيل الله تعالى، والعاملين المستعدِّين للقائه والدار الآخرة ، ما كابدوا من عتاة زمانهم وجبابرتهم وصعوبة العيش ، فرضوا بما قسمه الله لهم وصبروا وآثروا الآخرة على الحياة الدُّنيا الفانية ، وسنّة الكاذبين الكافرين الذين آثروا الحياة الدُّنيا على الآخرة ونعيمها ، لانهماكم في الضلال والشهوات مع وضوح الحجّة ومعرفة البيِّنات ، والأمر بالسير في الأرض لزيادة الاعتبار من آثار الماضين والتبصّر منها ، ويدخل في السير في الأرض السير في حالات أهل الأرض من خلال التأريخ والحوادث الواقعة فيهم .

قوله تعالى : ﴿فَانْظُروا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ .

المراد بالنظر هو التأمّل والتبصّر بأنّه كيف كان علاقة المكذِّبين مع المؤمنين ، وما جرى من الصراع بين الحقّ والباطل ، وما آل أمر المؤمنين إليه ، وعاقبة أمر المكذِّبين وما حلَّ بهم من العذاب والهلاك بسوء أعمالهم ، فإنّ النظر في ذلك كلّه يزيد المعرفة ويوجب التسلية بما يجري على المؤمنين ، ويفيد العظة والاعتبار . والتوبيخ للمكذِّبين الكافرين .

قوله تعالى : ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ﴾ .

الإشارة راجعة إلى ما ورد في الآيات السابقة من ذكر غزوة أُحد والمضامين العالية التي احتوتها تلك الآيات ، والتقسيم باعتبار حالات الناس

ومدى تأثّرهم بالقرآن الكريم، فبعضهم يكون القرآن بالنسبة اليه بلاغاً وبـياناً، والبعض الآخر يكون هدىً وموصلاً له إلى الهداية وموعظة تدعوه إلى الاتّعاظ والاعتبار وزيادة الإيمان وثباته، كلّ ذلك لابدّ أن يكون للذين أعـدّوا أنـفسهم لقبول الهداية والاتّعاظ، وهم المتّقون الذيـن يـتأثّرون بـالبيان ويـنتفعون مـنه ويهتدون بهداه ويتّعظون بمواعظه دون سواهم، وقد تقدّم نظير ذلك في أوّل سورة البقرة، فراجع.

***

بحوث المقام

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على أُمور:

الأوّل: قد جمعت الآيات المباركة المتقدِّمة وجوه البرّ ومكارم الأخلاق التي لابدّ من التحلّي بها، ولا يسع لأحدٍ الإعراض عنها، فإنّها فاتحة الكمالات وجامعة للخيرات، وهي من المكارم الفردية والاجتماعية، بها يعيش الفرد حياة سعيدة خالية عن ما ينغصه من الكدورات والشرور. وبها يصلح المجتمع.

ومن هذه الآيات الشريفة نستفيد المنهج الاخلاقي في الإسلام، فإنّا ذكرنا في أحد مباحثنا الأخلاقية: أنّ المنهج الأخلاقي في الإسلام يختلف عن المناهج الأُخرى في الأُصول والأُسلوب والطريقة، وأنّ الإسلام ينظر إلى التقوى والعمل أوّلاً وبالذات، وأنّه السبيل الوحيد لنيل الكمال والوصول إلى الغاية، وهذه الآيات تبيِّن المنهج العملي، ونظير هذه الآيات:

قوله تعالى: **﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾**[1]، فراجع ما ذكرناه هناك.

الثاني: إنّما قدَّم عزّ وجلّ المغفرة على الجنّة؛ لأنّ المغفرة سبب للدخول فيها، وكلّ سبب مقدّم على المسبّب، مع أنّ الجنّة دار طهر لا يصلح لدخول غير

---

١ . سورة البقرة: الآية ١٧٧.

المطهّرين فيها، وبالمغفرة يطهر المذنب فيصلح للدخول فيها.

الثالث: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾، أنّ التقوى هي السبب في إعداد الجنّة وتهيئتها للمتّقين وحضورها لهم.

الرابع: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ**﴾، كمال الجنّة من جميع الجهات وتماميّة النعمة فيها، فإنّ الجنّة التي تكون سعتها كذلك، فلابدّ أن تكون محفوفة بجميع موجبات البهجة والسرور، وفيها الحياة الكاملة كما قال عزّ وجلّ: ﴿**وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ**﴾[1].

الخامس: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾، أنّ كلّ وصف سابق معدّ للوصف اللاحق، فإنّ الإنفاق يوجب ترويض النفس المُحبّة للأموال والملذّات والسيطرة عليها، فتستعدّ لكظم الغيظ، وهذا موجب للعفو عن الناس، وهو موجب لمزيد الإحسان.

السادس: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**ذَكَرُوا اللهَ**﴾، أنّ ذكر الله تعالى هو السبب في انقلاع العبد عن المعصية، والانزجار عن الذنوب، وعدم العود إليها، والتوبة إلى الله تعالى، وطلب المغفرة منه عزّ وجلّ، لأنّ غفران الذنوب تحت سلطته عزّ وجلّ، وأنّ الإصرار على المعصية يسلب التوفيق عن تذكّر الله تعالى، وهم يعلمون بأنّ الإصرار يكون كذلك، ويوجب التجرّي على الله تعالى والاستكبار عليه وعدم المبالاة بحرماته، وتزول عنه حالة الندم والخوف عن نفسه.

السابع: إنّما جعل عزّ وجلّ قصص الماضين ـ سواء الصالحين منهم أم الظالمين ـ خاتمة لتلك التعاليم الإسلاميّة، عبرة للاحقين ودستوراً للعمل ومنهاجاً

---

١ . سورة العنكبوت: الآية ٦٤.

في سيرهم وسلوكهم، مضافاً إلى كونها مواعظ يتّعظ بها المتعلّمون، ويصلح بها الفاسد.

***

بحث روائي:

في «المجمع»: عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه سئل إذا كانت عرضها السماوات والأرض فأين تكون النار؟ فقال صلى الله عليه وآله: «سبحان الله إذا جاء النهار فأين الليل».

أقول: روى السيوطي أيضاً في «الدر المنثور» عن التنوخي في كتاب هرقل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله مثل ذلك، ويمكن أن يكون هذا الجواب منه صلى الله عليه وآله إقناعياً إسكاتياً. كما يمكن أن يكون على وجه التحقيق، بأن نقول إنّ خلق النار تبع لخلق الجنّة، فهي لا تنفكّ عنها، كما أنّ خلق الليل لا ينفكّ عن خلق النهار، وأمّا وجه التبعيّة، فلقوله تعالى: ﴿**وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً**﴾[1]، و«سبقت رحمته غضبه».

وفي «الخصال»، عن أمير المؤمنين عليه السلام في قوله تعالى: ﴿**أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾، قال عليه السلام: «إنّكم لن تنالوها إلّا بالتقوىٰ».

أقول: لما تقدّم من أنّ التقوى سبب لحصول الجنّة فلا يعقل نيلها إلّا بالتقوى، ولابدّ من تعميم التقوى إلى التوبة والاستغفار، كما في صدر الآية الشريفة.

وفي «الكافي»، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال:

«ما من عبد كظم غيظاً إلّا زاده عزّاً في الدّنيا والآخرة، قال الله عزّ وجلّ: ﴿**وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾».

---

١. سورة غافر: الآية ٧.

أقول: وردت روايات كثيرة في شأن كظم الغيظ، سيأتي في المحل المناسب التعرّض لبعضها.

وفي «الكافي» أيضاً، عن الصادق عليه السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: عليكم بالعفو، فإنّه لا يزيد العبد إلّا عزّاً، فتعافوا يعزّكم الله».

أقول: لأنّ العفو من صفات الله تعالى، فيعزّ العبد العافي بعزّه، ويأتي في الموضع المناسب شرح ذلك.

وفي «المجمع» و«الإرشاد» للمفيد:

«أنّ جارية لعليّ بن الحسين عليه السلام جعلت تسكب عليه الماء ليتهيّأ للصلاة فسقط الابريق من يدها فشجّه فرفع رأسه إليها، فقالت له الجارية: إنّ الله تعالى يقول: **﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾**، قال لها: كظمت غيظي، قالت: **﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾**.قال: عفا الله عنك. قالت: **﴿وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾**، قال: اذهبي فأنتِ حرّة لوجه الله».

أقول: رواه السيوطي في «الدر المنثور» أيضاً عن البيهقي، والحديث يدلّ على أنّ الإحسان أمر زائد على اصل العفو، ومثل ذلك كثير في العالمين العاملين بعلمهم.

وفي «الكافي» و«تفسير العياشي»، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام في قوله تعالى: **﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا﴾**، قال عليه السلام: «الإصرار أن يذنب الذنب فلا يستغفر الله، ولا يحدث نفسه بتوبة، فذلك الإصرار».

أقول: الأحاديث في ذلك كثيرة، وقد تقدّم ما يشهد لذلك، وسيأتي ما يرتبط بذلك أيضاً.

وفي «تفسير العياشي» في حديث قال: «وفي كتاب الله نجاة من الرديء وبصيرة من العمى. وشفاء لما في الصدور في ما أمركم الله به من الاستغفار

والتوبة ، قال الله تعالى : **﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾**. وقال تعالى : **﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءاً أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرْ اللهَ يَجِدْ اللهَ غَفُوراً رَحِيماً﴾**، فهذا ما أمر الله به من الاستغفار واشترط معه التوبة والإقلاع عمّا حرّم الله ، فإنّه يقول : **﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾**، وبهذه الآية يستدلّ على أنّ الاستغفار لا يرفعه الله إلّا بالعمل الصالح والتوبة» .

أقول : تقدّم مكرّراً أنّ العمل الصالح من الإيمان ، فلا إيمان إلّا به .

وفي «المجالس» ، عن عبد الرحمٰن بن غنم الدوسي، في قوله تعالى : **﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾**، نزل في بهلول النباش وكان ينبش القبور ، فنبش قبر واحدة من بنات الأنصار فأخرجها ونزع أكفانها ـ وكانت بيضاء جميلة ـ فسوّل له الشيطان فزنى بها ثمّ ندم ، فجاء إلى النبيّ ﷺ فردّه ، ثمّ اعتزل الناس وانقطع عنهم يتعبّد ويتبتّل في بعض جبال المدينة ، حتّى قبل توبة ونزل فيه القرآن» .

وفي «أسباب النزول» للواحدي ، عن ابن عبّاس في رواية عطا، قال : «نزلت الآية وهي قوله تعالى : **﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾** في نبهان التمّار أتته امرأة حسناء تبتاع منه تمراً ، فضمّها إلى نفسه وقبّلها ، ثمّ ندم على ذلك ، فأتى النبيّ ﷺ وذكر ذلك له فنزلت هذه الآية» .

أقول : قد وردت روايات متعدّدة في شأن هذه الآية ، وهي على فرض صحّتها لا تكون مخصّصة للآية، بل هي بعمومها تشمل كلّ فاحشة تاب صاحبها عنها.

وفي «المجالس» عن الصادق عليه السلام، قال : «لمّا نزلت هذه الآية **﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً﴾**، صعد إبليس جبلاً بمكّة يُقال له ثور ، فصرخ بأعلى صوته بعفاريته فاجتمعوا إليه فقالوا له : يا سيّدنا لِمَ تدعونا ؟ قال : نزلت هذه الآية فمَن لها ؟ فقام عفريت من الشياطين فقال : أنا لها بكذا وكذا . فقال : لست لها . فقام آخر فقال مثل

ذلك . فقال : لست لها . فقال الوسواس الخنّاس : أنا لها . قال : بماذا ؟ قال : أعدهم وأُمنّيهم حتّى يواقعوا الخطيئة ، فإذا واقعوها أنسيتهم الاستغفار . فقال : أنت لها ، فوكّله بها إلى يوم القيامة» .

أقول : روي مثله من طرق الجمهور أيضاً .

***

بحث أخلاقي:

الإصرار على الذنب ـ سواء كمان صغيراً أم كبيراً ـ من القبائح العقلية التي يحكم العقل بقبحه وشناعته ، بل هو من أشدّ القبائح ، لأنّه يوجب شقاوة النفس والجرأة على الله تعالى ، وقد يصل إلى حدّ الاستهزاء بحرماته عزّ وجلّ ، وهو على حدّ الكفر . والإصرار على الذنب على أقسام :

الأوّل : إتيان الذنب ثمّ تكراره ، والبناء على إتيانه مكرّراً من دون تخلّل التوبة والاستغفار .

الثاني : إتيان الذنب والبناء على الإصرار والتكرار ، ولكن لم يتهيّأ له أسباب إتيانه مع السعي في مقدّمات الإتيان .

الثالث : نفس الصورة السابقة مع عدم السعي في المقدّمات .

الرابع : أن يأتي بالذنب وكان بانياً على الإتيان قلباً من دون صدور عمل خارجي منه أصلاً .

الخامس : أن يأتي بذنب ، ثمّ يتوب ثمّ يأتي به ثانياً .

وغير الأخير كلّه من الإصرار بحسب مراتبه . وأمّا الأخير فمقتضى قوله صلى الله عليه وآله : «لا كبيرة مع الاستغفار ولا صغيرة مع الإصرار» محو الأوّل وزواله بسبب التوبة ، فلا يتحقّق موضوع الإصرار حينئذٍ ، والإصرار كما يتحقّق بفعل المعصية يتحقّق بترك الواجب عصياناً أيضاً .

وظهر ممّا مرّ أنّ عقاب أصل المعصية شيء وعقاب الإصرار شيء آخر، فيتعدّد العقاب ولا موجب لتداخله، فإنّ تعدّد المنشأ والسبب يستلزم تعدّد المسبِّب لا محالة.

ثمّ إنّ الغفلة عن الله جل جلاله، وعدم الاعتقاد بحضوره تعالى هي من أشدّ الذنوب، والمداومة على هذه الحالة ذنب عظيم، بل هي أُمّ المفاسد ورأسها، والكتب الإلهيّة وأنبياء الله تعالى إنّما اهتمّوا لإزالة هذه الحالة وإرجاع العبد إلى الله تعالى، ويتحقّق التوجّه إليه عزّ وجلّ بإتيان الصلاة؛ فإنّها تنهى عن الفحشاء والمنكر، كما نطق به التنزيل.

***

بحث عرفاني:

لا ريب في أنّ عالم الدُّنيا متقوّم بالخيالات والأوهام والجهالات، والناس بعيدون عن الحقائق والواقعيات، وموجبات الإغراء بالشهوات كثيرة ومتعدّدة، والآيات الشريفة المتقدِّمة ترشد الإنسان إلى أهمّ الحقائق التي بها يستقيم الفرد وينتظم نظام المجتمع، وحقيقة هذه الآيات ترجع إلى التغافل عن ما يصيب الفرد من المكروه والأذى من الغير، وبذل أحبّ الأشياء لديه وهو المال والجاه، وترويض النفس وجعلها تحت إمارة العقل والحكمة، واعتبار الفرد نفسه من أفراد المجتمع وجزءاً لا يتجزّأ منه، بحيث يعتبر ما يكون كمالاً للمجتمع كمالاً له وما يُصيبهم من السوء يصيب نفسه.

وقد أكّد عزّ وجلّ إرساء قواعد العفو والمغفرة بين الناس، فإنّ كلّ فرد أحوج من غيره إلى العفو والمغفرة لما يصدر منه من الذنوب والمعاصي، فبالعفو عن إساءة الغير وبذل ما عنده إليه يدخل في زمرة مَن تخلّق بأخلاق الله تعالى، التي من أهمّها بالنسبة إلى الإنسان العفو والمغفرة، فإنّ الدُّنيا مزرعة الآخرة، فما

يزرع فيها يحصد في الآخرة، وقد فتح الله تعالى باب التوبة والرجوع إليه عزّ وجلّ بأي وجه أمكن، فإنّ لها جهتان؛ جهة تكوينية وهي تربية الإنسان، وجهة تشريعية وهي تكثير صفوف المتّقين، وقد اهتمّ به الله عزّ وجلّ اهتماماً بليغاً وأعلن في جميع الكتب السماوية ـ خصوصاً القرآن الكريم ـ بأنّه الغفور الرحيم، وجهر بقبول التوبة والدعوة بالرجوع إليه، وهذا هو عين ما يدعو إليه العقل المجرّد، فما ورد في تلك الآيات الشريفة كلّه من الأحكام العقلية النظامية، صدر عن خالق العقل وموجده.

***

الآية ١٣٩ ـ ١٤٨

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾.

الآيات الشريفة متّصلة بالآيات السابقة، وإنّها كالغاية وأصل المقصود للآيات المتقدّمة، التي اشتملت على بعض الحقائق التي نبّهت المؤمنين على ما

صدر منهم وما سيجري عليهم، وأمرتهم بالاستعداد التامّ له والتخلّق بمكارم الأخلاق، ففي هذه الآيات المباركة يرشد سبحانه وتعالى المؤمنين إلى التعاون والتعاضد أمام المصاعب وعدم الوهن والضعف فيهما، ونبّههم بأنّ ما يصيبهم من المكروه هو سنّة المجتمع البشري في هذه الأرض، وإنّما هي مداولة بين الناس.

ثمّ بيّن سبحانه وتعالى أنّ السعادة في الدارين لا يمكن الوصول إليها إلّا بالجهاد والصبر، وأمرهم بالإعراض عن الكافرين وترك الظلم، فإنّ الله لا يحبّ الظالمين.

وبيّن عزّ وجلّ أنّه لابدّ من الامتحان لتمييز المجاهد الصابر الصادق عن غيره، ففي هذه الآيات المباركة اجتمعت أُصول الكلام من الأمر والنهي والمدح والثناء والتوبيخ والإرشاد، وكفى بذلك دليلاً وهادياً.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾.

الوهن: هو ضعف خاص في الخَلق والخُلق، والمراد به في المقام الضعف في القتال أو في العزيمة، أو في الاهتمام في الجهاد في سبيل الله تعالى وإقامة الدِّين.

والحزن: خلاف الفرح، وهو ما يعرض الإنسان بفقد عزيز عليه أو ما يحبّه من مالٍ أو جاه.

أي: لا تهنوا أيُّها المسلمون ولا يظهر عليكم أثر الضعف والخوف، ولا تحزنوا على ما أصابكم، لأنّ الحزن إنّما يكون على ما فات من الإنسان بغير عوض، وأمّا أنتكم فستجدون عوض ما أصابكم بأحسن وجه، ومَن يُقتل منكم شهداء عند ربّهم يُرزقون، وهو ممّا يتمنّاه كلّ مؤمن، مع أنّ ما أصابكم إنّما هو أمرٌ

طبيعي يقتضيه سير القتال، وقد خلت من قبلكم السنن فاتّخذوها عبرة.

والآية المباركة ترشد إلى أهمّ الأُمور التي توجب الظفر، وهو الثبات والاستقامة وعدم المبالاة بما يصيب الإنسان في الجهاد في سبيل الله تعالى، وهو أمر فطري يحكم بحسنه العقل أيضاً، فلا فرق حينئذٍ بين أن تكون الجملة إنشائية أو خبرية محضة، لأنـّها في مقام بيان الواقع وإرشاد الناس إليه.

قوله تعالى: **﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾**.

تشويق إلى الجهاد والمثابرة، وبشارة بالغلبة، وتسلية للمؤمنين.

والجملة في موضع التعليل، أي مع أنـّكم الأعلون فلماذا يقع منكم الوهن والحزن، وفيه التوبيخ لما صدر منهم في يوم اُحد من الفشل والهزيمة مع أنـّهم ذاقوا حلاوة النصر أوّل الحرب، حيث هزموا المشركين وأثخنوا فيهم القتل، فما أصابكم كان من كسب أيديكم.

وقيل: إنّ الجملة ابتدائية، أي لا تهنوا ولا تحزنوا إن كنتم مؤمنين وأنتم الأعلون، فتكون متضمّنة للبشرى بالعلوّ مطلقاً حتّى في المستقبل.

والظاهر أنّ الجملة تتضمّن معنى أدق من ذلك، فإنّها تشير إلى العتاب والاحتجاج عليهم بأنّ الله تعالى بشّرهم بعلوّ أمر الدِّين والظفر على الأعداء، فلماذا هذا الوهن والحزن.

قوله تعالى: **﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾**.

إيماناً صادقاً، فإنّ مثل هذا الإيمان يستلزم الغلبة والظفر، ويوجب اطمئنان النفس، أي لا تهنوا في عزمكم ولا تحزنوا لما فاتكم من الخير أو ما أصابكم من القتل، إن كان فيكم الإيمان فإنّه جنّة واقية ويلازم الصبر والتقوى، وهما الموجبان للنصر والظفر.

وفي الآية الشريفة عتاب لهم بأنّ الإيمان فيهم لم يكن متّصفاً بما يوجب النصر. كما أنّ فيها تشويق للمؤمنين منهم بالجهاد وتنشيط لنفس المؤمن.

قوله تعالى: **﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾**.

المسّ هنا بمعنى الإصابة، عبّر به لتهوين المصاب. والقرح ـ بفتح القاف ـ الجرح وعض السلاح، وقرئ بضم القاف.

وقيل: إنّ القرح بالفتح مصدر، وبالضم اسم.

وقيل: إنّهما لغتان.

وذكر بعض اللّغويّين أنّ القرح بالفتح أثر الجرح من الخارج، وبالضم الأثر من الداخل كالبترة ونحوها.

والمراد به في المقام القتل والجروح.

والمعنى: أنّ ما أصابكم أيُّها المسلمون من الجراح والقتل في الحرب فقد أصاب المشركين مثل ما أصابكم.

والمستفاد من الآية الشريفة أنـّها في مقام التسلية ببيان أصل المثلية في الجراح والمصاب دون كمّيته وكيفيّته، فلا ينافي ذلك قوله تعالى: **﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾**[1]، مضافاً إلى أنـّه يمكن أن يكون المراد بالمثلين هو القتل والجرح والأسر في بدر واُحد.

واُسلوب الآية الشريفة يدلّ على تحضير الواقعة في ذهن المخاطب كأنّها ماثلة أمام عينه، تمسّه حرارتها، ويكابد آلامها، ولذا كان لمثل هذا الاُسلوب وقع كبير في تنشيط عزيمة القوم، وتشجيعهم على الإقدام والعمل، لأنّ إصاباتهم كإصابات العدوّ مع كمال استعداده في العدد والعدّة وشدّة نزاله في الحرب التي

١ . سورة آل عمران: الآية ١٦٥.

اشتملت على الكرّ والفرّ والإقدام والخذلان من كلا الجانبين، وهذا هو أمر طبيعي، فإنّما هي مداولة بين الناس، وقد جرت سنّته عزّ وجلّ على أن يجري الأُمور بأسبابها العادية وإن كان التقدير بيده تبارك وتعالى.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾.

حقيقة من الحقائق الواقعية نطق بها القرآن الكريم، وصارت مثلاً من الأمثال القرآنية التي يستعملها الناس من حين النزول.

والمراد من الظرف المظروف، أي ما يقع في الأيّام من الظفر والغلبة أو الحزن والسرور، كما أنّ المراد من (نداولها) نصرفها بين الناس.

وقد استفاد العلماء من الآية الشريفة قواعد كلّية في العلوم:

منها: ما استفاده العرفاء الشامخون من أنّه لا مؤثّر في الوجود إلّا الله تعالى، واستشهدوا له بهذه الآية المباركة، وبقوله تعالى: **﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾**[١].

وقوله تعالى: **﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾**[٢].

وبقوله تعالى: **﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ﴾**[٣]، إلى غير ذلك من الآيات الشريفة والأحاديث المقدّسة.

ومنها: ما استفاده الفلاسفة المتألّهون من أنّ مناط الحاجة الإمكان لا الحدوث، واستشهدوا له بالآية الشريفة أيضاً.

وبقوله تعالى: **﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾**[٤].

---

١ . سورة الشورى: الآية ١٢.

٢ . سورة المنافقون: الآية ٧.

٣ . سورة الأنعام: الآية ٥٩.

٤ . سورة الرحمٰن: الآية ٢٩.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[١].

ومنها: ما استشهد به بعضهم لمذهب الأدوار والأكوار، وهو مذهب قديم ومفاده أنّ الموجودات مطلقاً تتكرّر في الأدوار والأكوار بحسب حركات الأفلاك، ونسبوا ذلك إلى يوذاسف من حكماء اليونان، وردّه المحقّقون من الفلاسفة، وقال بعضهم في ذلك:

وما انقضى العام الربوبي اليوم كر أمثال الأجسام وأنفس أخر

لا ما مضى إلّا لدى يوذاسف والقول بالمحو والإثبات اصطفي

وأصل المذهب مبني على قدم الأفلاك وحركاتها، وأنّها الفاعلة والمؤثّرة في حدوث الكائنات مطلقاً، وكلّ ذلك باطل كما سيأتي في محلّه إن شاء الله تعالى.

وكيف كان، فالمراد بالأيّام هي حوادثها الواقعة فيها كما عرفت، وهي عطف بيان لـ«تلك» و«نداولها» خبر و«بين الناس» ظرف لـ«نداولها».

والمداولة: المداورة والتصريف، وجعل الشيء يتناوله واحد بعد آخر، قال الشاعر:

يرد المياه فلا يزال مداولاً في الناس بين تمثّل وسماع

ومداولة الأيّام سنّة تكوينيّة إلٰهية تابعة لمصالح عامّة ومنوطة بأسباب عادية، فقد تكون الدولة مرّة لفرد، ومرّة أُخرى لفرد آخر، وهي جارية في جميع الأُمم إلى أن يأتي أمر الله تعالى، وبها ينتظم النظام حتّى تظهر دولة الحقّ.

قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

بيان لوجه من وجوه الحكمة في إقامة السنّة الإلهية في الناس، وذكر

---

١. سورة المائدة: الآية ٦٤.

لإحدى العلل في ثبوت المداولة بينهم، والجملة معطوفة على محذوف إيماءً بأنّ الأسباب متعدّدة والمصالح كثيرة، وأنّ الذي ينفع المؤمنين هو ما يذكره عزّ وجلّ لعدم إمكان إحاطة العقول بجميع الجهات إلّا ما بيّنه تعالى. وقد ذكر عزّ وجلّ وجوهاً ثلاثة في المقام، وهي:

قوله تعالى: ﴿**وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾.

وقوله تعالى: ﴿**وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ**﴾.

وقوله تعالى: ﴿**وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾.

والمراد من قوله تعالى: ﴿**وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ مطابقة المعلوم الخارجي مع العلم الأزلي وظهوره ووقوعه في الخارج، لأنّ إرادته عزّ وجلّ بالعلم بشيء هي إرادة تحقّقه في الخارج على طبق السنّة الإلهية، وهي قانون الأسباب والمسبّبات، ومنها جريان المداولة بين الناس، ولابدّ من أُمور توجب تحقّق المعلوم بعد خفائه، فإنّ علم الله تعالى بما سواه ليس على نحو العلم الحصولي يؤخذ من انطباع الصورة نظير علومنا، بل هو أدقّ من العلم الحضوري للنفس بذاته، أي أنّ العلم بالحوادث والأشياء في الخارج عين وجودها فيه، وحينئذٍ يكون مراده عزّ وجلّ بالعلم بشيء تحقّقه في الخارج، كما عرفت.

ومبحث علم الباري عزّ وجلّ من أدقّ المباحث الكلامية، وسيأتي في الموضع المناسب تفصيل الكلام فيه إن شاء الله تعالى.

ويمكن أن يُقال في المقام على نحو الإيجاز: وهو أنّه يمكن فرض ذات قديمة تكون عين العلم بحقائق الممكنات من الجواهر والاعراض، والجزئيات والكلّيات، وهي عين جميع الكمالات الواقعيّة من الحكمة والتدبير والقيوميّة ونحو ذلك، ولابدّ أن يكون هذا المفروض متحقّقاً في الخارج وإلّا يلزم الخلف، وهو باطل، فالذات القديمة التي تكون كذلك منحصرة في الله تعالى، وقد تقدّم في

قوله تعالى: ﴿لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ﴾[١] بعض الكلام في مثل هذا الخطاب فراجع.

والمعنى: ليظهر الله تعالى إيمان المؤمنين وصدقهم وثباتهم، فيميّز المؤمن المجاهد الصابر من المنافق.

قوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾.

حكمة أُخرى في إقامة السنّة الالهية.

والشهداء: جمع الشهيد، بمعنى المقتول في سبيل الله تعالى، فيشمل شهداء بدر وأُحد وسائر غزوات الرسول الكريم ﷺ المباركة.

وإنّما عبّر سبحانه وتعالى بالاتّخاذ لكمال العناية لهم والتكريم بهم، فقد أحبّهم وارتضاهم فاتّخذهم شهداء، كما في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾[٢].

وذكر بعض المفسّرين أنّ المراد بالشهداء في المقام شهداء الأعمال، لعدم معهوديّة استعمال هذا اللفظ جمعاً للشهيد بمعنى المقتول في القرآن الكريم، ولأنّ الاتّخاذ لا يلائم الشهداء بمعنى المقتولين، ولأنّ قوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ قرينة على أنّ المراد بالشهداء هم شهداء الأعمال، أو مَن يصلح للشهادة على الأُمم يوم الحساب.

وفيه أوّلاً: أنّه خلاف سياق مثل هذه الآيات الشريفة، إذ لا ربط لقبول قول الشهداء في عِداد بيان خصوصيّات القتال والجهاد في سبيله.

وثانياً: إذا كانوا من الشهداء في الحقّ يكونون من الشهداء على الأعمال

---

١. سورة البقرة: الآية ١٤٣.

٢. سورة النساء: الآية ١٢٥.

أيضاً، لما ذكرنا سابقاً من الشهداء في سبيل الله لهم مقام الشهادة على الأعمال والشفاعة، لما ابتلوا بالصبر والإيثار ببذل النفس.

وثالثاً: أنّ قوله: ﴿**لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾ تفصيل بين الشهداء في الحقّ، فهم ممّن أحبّهم الله تعالى واتّخذهم وارتضاهم، وبين مَن قتل في غير الحقّ.

ورابعاً: أنّ استعمال الشهداء بمعنى المقتول في المعركة مطابق للقواعد العربية الفصيحة، فلا محذور في وروده في القرآن الكريم، فليكن المقام من ذلك.

قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾.

إرشاد للمؤمنين بترك الظلم وبيان لهم بأنّ حبّ الله تعالى منحصر بهم، ويمتنع تعلّقه بغيرهم لمكان ظلمهم وقبح أفعالهم، ولا يتعلّق حبّه تعالى بالقبيح.

والجملة معترضة بين وجوه العلل.

والآية المباركة تنبّه المؤمنين إلى مضمون قوله تعالى: ﴿**وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**﴾، فإنّ الأسباب والمقادير وإن اقتضت تسلّط الظالمين استدراجاً وابتلاءً للمؤمنين، ولكنّه تعالى لا يحبّ الظالمين ولا ينصرهم على الحقّ، ولا يتّخذهم شهداء.

وفي الآية الشريفة بشارة للمؤمنين بأنّه تعالى يحبّهم، وإنذار لأعدائهم بأنّه جلّت عظمته يبغضهم، لأنّهم غير ثابتين على الإيمان.

قوله تعالى: ﴿**وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾.

وجه ثالث من وجوه الحكمة التي اقتضت المداولة بين الناس، وقد ذكر سبحانه وتعالى اللام في «ليمحص» اهتماماً بهذه الحكمة؛ كما أنّ إظهار اسم الجلالة في موضع اسم الإشارة يقتضي ذلك أيضاً.

ومادّة (محص) تدلّ على الخلوص والتطهير من كلّ عيب، يُقال: محّص

الذهب بالنار، أي خلّصه ممّا يشوبه، وعن عليّ عليه السلام في ذكر فتنة قال: «يمحّص الناس فيها كما يمحّص ذهب المعدن»، أي يختبرون، كما يختبر الذهب ويخلص ذهب المعدن من التراب، وفي الدُّعاء: «اللَّهُمَّ محّص عنّا ذنوبنا»، أي خلّصنا من ذنوبنا، قال الشاعر:

حتّى بدت قمراؤه وتمحّصت ظلماؤه ورأى الطريق المبصر

أي تكشّفت وخلصت، ولكن في التمحّص معنى زائداً على التطهير والتكفير، وهو التطهير عن اختبار شديد وملازمة للبلاء.

والمعنى: أنّ من الحكمة في مداولة الأيّام ومن مصالحها، تخليص المؤمنين مع شدّة بلائهم وتطهيرهم عن شوائب الرذائل، كالنفاق والكفر ومفاسد الأخلاق والذنوب والمعاصي، فيتجلّى المؤمن بالتمحيص بأكمل وجه، خالصاً عن كلّ شين وعيب ورذيلة، وهذا هو التمحيص، فهو التطهير مع شدّة الاختبار والامتحان، كما يتمحّص الذهب بالنار عن كلّ شائبة.

وهذا التمحيص والاختبار بين الصحيح والفاسد من مدارك العقل السليم، وإنّ بعث الأنبياء وإنزال الكتب السماوية لم يكن إلّا لهذه الجهة، وهي دخيلة في تنظيم نظام الأحسن وبدونها يختلّ النظام.

قوله تعالى: ﴿**وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ**﴾.

بيان للطرف الذي قد خسر في التمحيص. والمحق هو الإزالة والتنقيص شيئاً فشيئاً، وقد تقدّم في قوله تعالى: ﴿**يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ**﴾[1] بعض الكلام، ولم يرد هذا اللفظ في القرآن الكريم إلّا في هذين الموضعين فقط، وفي الحديث: «ما محق الإسلام شيئاً ما محق الشح»، وعنه صلى الله عليه وآله: «الحلف منفقة للسلعة

---

١. سورة البقرة: الآية ٢٧٦.

وممحقة للبركة».

ومحق الكافرين إمّا بإذهاب شوكتهم أو إبطال حججهم، وإزالتهم وإفناؤهم شيئاً فشيئاً، فإنّ تمحيص المؤمن يستلزم إبادة آثار الكفر والشرك والنفاق والكيد شيئاً فشيئاً حتّى يضمحلوا.

وفي الآية المباركة بشارة عظيمة بغلبة المؤمنين، ونصرهم على الكافرين، وظهور دولة الحقّ.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾.

لوم وعتاب لما قد يصدر من المؤمنين، كما صدر عنهم في يوم بدر وأُحد من العُجب، وما يدور في سرائرهم من الظنون الباطنة التي قد توجب اختلال نظام الامتحان والاختبار، وفي ذلك بطلان نظام التشريع وبطلان الفطرة التي ابتني عليها الدِّين، وفساد للسنّة الإلهية التي جرى عليها نظام الأسباب والمسبّبات للعادة، فإنّ الله تعالى لم يخلق العالم عبثاً وجزافاً، ويبيّن تعالى في هذه الآيات حقيقة الحال ليبطل الظنون، فهذه الآية المباركة تبيّن الغاية من المداولة والنتيجة لما ورد في الآيات السابقة.

و«أم» منقطعة تفيد الإنكار، جيء بها لبيان العلّة فيما لقوه من المصاعب والمتاعب والشدائد، ولكنّه عزّ وجلّ ـ لطفاً بهم ـ جعل كلّ تلك الشدائد وسيلة للفوز وللوصول إلى المقام الأعلى، وتمحيصاً لهم. وفي الآية الشريفة جعل المسبّب موضع السبب.

والمعنى: أم حسبتم كما حسب بعض أهل الغرور من أنّهم على الحقّ ـ وهو لا يغلب ـ وأنّ الظفر والغلبة لا تفوتهم، وكذا الفوز بالسعادة الأُخروية والله تعالى ينكر ذلك عليهم ويبيّن أنّه حسبان محض.

قوله تعالى: ﴿**وَلَمَّا يَعْلَمْ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**﴾.

بيان لحقيقة من الحقائق الواقعيّة، وهي أنـّه لا يمكن الوصول إلى الهدف إلّا ببذل النفس والنفيس في طريق الوصول، فلابدّ من الامتحان والاختبار ليعلم الصابر المجاهد من غيره ويستبين المستحقّ لنيل الدرجات الرفيعة من غيره.

ومعنى لمّا يعلم: أنـّه لم يتحقّق معلومه الخارجي بعد كما تحقّق في علمه الأزلي، فالتعبير عن نفي المعلوم بنفي العلم، وهذا من مختصّات علم الباري جلّ شأنه، لأنّ نفي علمه يستلزم عدم وجود ذلك الشيء، لما تقدّم في الآيات السابقة من أنّ علمه عين ذاته ولا يعزب عن علمه شيء، قال تعالى: ﴿**وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ**﴾[1].

قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ**﴾.

ظاهر الخطاب أنـّه لطائفة من المؤمنين كانوا يتمنّون الشهادة في سبيل الله تعالى، ويؤيّد ذلك ما ورد في الحديث أنّ المؤمنين لمّا أخبرهم الله تعالى بالذي فعل بشهدائهم يوم بدر ومنازلهم في الجنّة رغبوا في ذلك وطلبوا منه عزّ وجلّ أن يرزقهم القتل في سبيله، فلمّا أراهم الله تعالى يوم اُحد إيّاه لم يثبتوا إلّا مَن شاء منهم.

والمراد من الموت هنا هو الشهادة في سبيل الله تعالى والجهاد مع أعدائه، ممّا يتمنّاه كلّ مؤمن، لا مطلق الموت فإنّ تمنّيه مكروه.

وفي الآية الشريفة عتاب لمَن كان يتمنّى القتل في سبيل الله تعالى ثمّ لم يثبت عليه، وتنبيه المؤمنين إلى ترك الغرور والتمنّي بما لا يقدرون على

---

١. سورة يونس: الآية ٦١.

الثبات عليه .

كما أنّ هذه الآية المباركة تعطي درساً للمؤمنين بأنّهم إذا تمنّوا خيراً لا سيما الجهاد والقتل في سبيل الله تعالى ، لابدّ من محاسبة أنفسهم وامتحان قلوبهم ، واختبار استعدادهم على الثبات والمثابرة ، وإلّا فإنّ تمنّي كلّ أمر من دون ملاحظة تلك الخصوصيّات إنّما يكون ضرباً من التخييل والوهم والغرور ، ولذا نرى أنّ كثيراً من المتمنّين لم يثبت على ما تمنّاه عند الامتحان في الفعل ومرحلة العمل ، لأنّه لم يصدر عن قدم راسخ وعزيمة قويمة .

وإنّما عقب سبحانه وتعالى الاختبار والتمحيص بهذه الآية الشريفة ، لبيان كيفيّة التمحيص والاختبار ، وما في هذه الآية إنّما هو مثال لهما وزيادة في الإيضاح .

والمراد من قوله تعالى ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾ : من قبل الامتحان بالعمل والاختبار بالإقدام على الفعل .

قوله تعالى : ﴿فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ .

الرؤية : الإحساس بالباصرة . والنظر هو المعاينة وهو غير الرؤية ، فإنّ الثانية متعدّية إلى المفعول بنفسها ، والنظر يتعدّى إلى المفعول بـ إلى .

والجملة تبيّن شدّة معاناتهم للحادثة والوقوع في الاختبار والامتحان ، فقد رأوا ما فيه الاختبار وتمعّنوا فيه ونظروا إلى جميع الخصوصيّات التي تمكّنهم الوصول إلى ما تمنّوه من الشهادة في سبيل الله تعالى .

وإنّما عبّر سبحانه بالرؤية مبالغة في مشاهدتهم له ، وتأكيداً لظهور الخصوصيّات لهم ومعاينتهم لها ، ولذا عبّر عزّ وجلّ بـ ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ .

قوله تعالى : ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ .

مثال آخر من الأمثلة القرآنية لاختبار الناس وتمحيص المؤمنين، ويبيّن سبحانه وتعالى في هذه الآية حقيقة من الحقائق الواقعية التي يشهد عليها البرهان ووجدان المتأمّلين من أفراد الإنسان، وهي أنّه متى ظهر في الدنيا مثال للعقل العملي والنظري ودعا الناس إليهما، فآمن به جمع ثمّ غاب عنهم، يكون أتباعه على قسمين؛ قسم استعدّت نفوسهم لنيل المعارف الإلهية وتمكّنت فيهم، فيكون حضوره وغيبته عندهم على حدٍّ سواء، بل لا يرون غيبته غيبة لحضور معارفه لديهم أبداً، ويرون أنّ العمل بها منشأ لسعادتهم الدنيوية والأُخروية، قال تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَى كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾**[1].

وقسم آخر يكون إيمانهم طمعاً في الحطام أو خوفاً من الحسام، فهم **﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ﴾**[2]، فلا محالة يميلون مع كلّ ريح بعد غيبته يميناً وشمالاً ويسعون وراء كلّ شهوة، قال تعالى: **﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً﴾**[3]، ولا اختصاص لمضمون هذه الآية الشريفة بأتباع سيّد المرسلين، بل هو متحقّق في أتباع كلّ نبيّ بعد ارتحاله، ولعلّ في قوله تعالى: **﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾** إشارة إلى ذلك، ويدلّ على ذلك الحديث المعروف بين الفريقين: «ستفترق أُمّتي بعدي ثلاث وسبعون فرقة».

وهذه الآية المباركة من ملاحم آيات القرآن الكريم، وقد أخبر سبحانه

---

١. سورة إبراهيم: الآية ٢٤ و ٢٥.

٢. سورة إبراهيم: الآية ٢٦.

٣. سورة مريم: الآية ٥٩.

وتعالى نبيّه الكريم تسليةً لقلب سيِّد الإنس والجان، وأنّ ما تحمّل به من الأذى والصعاب في سبيل الله تعالى محفوظ عنده عزّ وجلّ، وإن لم تعرف الأُمّة قدر نبيّها الكريمﷺ وفيها العتاب على مَن لم يثبت على الإيمان.

ومحمّد علم لنبيّنا الأعظمﷺ، وهو بمعنى مَن كثرت خصاله المحمودة، سمّاه به جدّه عبد المطّلب، وقال: «رجوت أن يُحمد في السماء والأرض»، ولم يسم به أحدٌ قبله، وهو مشتقّ من حمّد (المضاعف)، وفي هذا الاسم العظيم أسرار لا يعرفها إلّا الراسخون في العلم.

والمعنى: ليس محمّدﷺ إلّا بشراً رسولاً من الله مثل سائر الأنبياء التي مضت من قبله، بلّغوا رسالات ربّهم ولا يملكون من الأمر شيئاً، إذا دعاهم الله أجابوا، فمَن هداه الله عزّ وجلّ إلى الإيمان فإنّما اهتدى بهداه، فلا يضرّه موت النبيّ، فهو يبلِّغ عن الله تعالى ويدعو إليه، فالدِّين باق ببقاء الله تعالى وإن تبدّل المبلِّغون عنه تعالى، فلا يكون موت نبيّ موجباً للخروج عن طاعة الله تعالى ودينه.

قوله تعالى: **﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾**.

الهمزة للإنكار، والموت هو زهاق الروح، كما أنّ القتل كذلك، ولكن الأخير متضمّن لسبب الموت، ولعلّه في المقام باعتبار إشاعة قتلهﷺ في يوم أُحد، كما عرفت في البحث التأريخي.

وذكر موته باعتبار وقوعه عليهﷺ بعد ارتحاله عن هذا العالم، فالآية الشريفة تبيِّن جميع المحتملات، سواء كانت بإشاعة أم بوقوعه الخارجي حين ارتحاله، والأثر مترتّب على كلّ منهما.

قوله تعالى: **﴿انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾**.

كناية عن الخروج عن الطاعة والرجوع إلى الكفر، والتعبير بذلك إشارة إلى بقاء جميع رذائل الجاهلية وعدم رسوخ الدِّين في قلوبهم، وإلّا فلا معنى للانقلاب بعد معرفة الحقّ حقيقة. وفيه إيماء إلى أنّه إذا قتل أو مات ترجعون إلى الكفر وتكونوا محاربين مع الرسول.

قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئاً**﴾.

تقدّم أنّ المراد بالانقلاب على الأعقاب هو الرجوع عن الطاعة والكفر بالدِّين، وهذا الخطاب يختصّ بالرجوع السريع من دون توقّف، فكأنّما ركب الفرس في الرجوع إلى الوراء.

والمعنى: من يخرج عن طاعة الله تعالى ويكفر بالدِّين، فإنّه يضرّ نفسه بتعريضها للسخط والهلاك وحرمانها عن الكمال المعدّ لها، ولن يضرّ الله كفر الكافرين أبداً، لأنّه غنيّ عن العالمين، وهؤلاء هم الذين ذكرهم الشيطان في ما حكاه عزّ وجلّ عنه: ﴿**قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**﴾[١]، ويقابلهم من سيذكره تعالى بعد ذلك، الذين شكروا الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿**وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ**﴾.

بيان لنوع آخر مقابل لمَن ينقلب على عقبيه.

والشكر: هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه من لسانه وقلبه وجميع جوارحه في ما خلق لأجله، فهو إظهار النِّعمة بالعمل، ويقابله الكفر، ومقام الشكر من أعلى مقامات العارفين الشامخين، وأخصّ صفات المخلصين المتّقين، وقد تقدّم في سورة الفاتحة الفرق بين الحمد والمدح والشكر، فراجع.

---

١ . سورة الأعراف: الآية ١٦ و ١٧.

والشاكرون: هم الذين ثبتوا على الإيمان وأقاموا على طاعة الله عزّ وجلّ والإخلاص له، واستقرّ فيهم وصف الشكر، فهم في حالة ذكر الله تعالى بالقول والعمل؛ وهم الأقلّون الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿**وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾[1]، كما أنّهم هم المخلصون الذين لا مطمع للشيطان فيهم واستثناهم عن إغوائه؛ قال تعالى حكاية عنه: ﴿**قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾[2].

والآية الشريفة ترشد إلى أنّ في القوم من يثبت على دينه ويعمل على طبقه، فهو شاكر لله تعالى، ولا يختصّ مضمونها بعصر الرسالة، بل يجري في جميع الأُمّة، وإنّما لم يذكر سبحانه وتعالى جزاء الشاكرين تعظيماً له وإعلاماً بجلالة قدره.

قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ**﴾.

تثبيت لمضمون الآية المتقدِّمة، فإنّ موت الرسول ﷺ لم يكن جزافاً ولا يتحقّق بالإشاعة، ولا يمكن أن يكون سبباً للارتداد لو تحقّق، وتعريض بمَن كان يثبّط المؤمنين بالقعود عن القتال والجهاد في سبيل الله تعالى، كما حكى عنهم عزّ وجلّ في موضع آخر، قال سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا**﴾، وتسلية للمؤمنين بمَن قُتل منهم، وإرشاد للناس إلى أنّ الموت والحياة بيد الله تعالى وقدرته، لا يتحقّقان مصادفة من دون تقدير من الله عزّ وجلّ، وهذه هي سنّة محكمة، فلا وقع للجبن والخوف،

---

١. سورة سبأ: الآية ١٣.

٢. سورة ص: الآية ٨٢ و ٨٣.

ولا عذر للوهن والضعف والقعود عن الجهاد.

والمعنى: أنّه لم يثبت ولا هو ثابت لنفس أن تموت إلّا بمشيئة الله تعالى وتقديره، فهذه سنّة محكمة في خلقه ويجري عليها نظام الحياة.

قوله تعالى: **﴿كِتَاباً مُؤَجَّلاً﴾**.

تأكيد لمضمون ما قبله، والكتاب مصدر منصوب بفعل مقدّر من لفظه، أي كتبه الله تعالى كتاباً مقروناً بأجل معيّن معلوم حدوده غير قابل للتغيير والتبديل، كما قال تعالى: **﴿إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾**[1].

والآية المباركة تحرّض المؤمنين على الجهاد والتشجيع على لقاء العدو وترك الحذر والخوف، لأنّه لا يموت أحد قبل الوصول إلى أجله.

قوله تعالى: **﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾**.

بعدما ذكر سبحانه وتعالى خصائص الطائفتين، المنقلبتين على الأعقاب والباقين مع الرسول ﷺ والراسخين على دينهم، يبيّن جلّ شأنه في هذه الآية المباركة جزاء الطائفتين. فمنهم مَن يعمل للدنيا ويريد جزاء عمله في الدُّنيا، فالله تعالى لا يحرمه منها، ومنهم مَن يعمل للآخرة ولا يريد الجزاء إلّا فيها.

والمعنى: مَن يريد من الله بعلمه ثواب الدُّنيا والجزاء فيها فالله تعالى يؤتيه منها، ومَن يريد بعمله من الله ثواب الآخرة وما أعدّه الله تعالى لمَن يطلقها نؤته منها على قدر خلوصه وإخلاصه.

وفي الآية المباركة وعدٌ منجز منه عزّ وجلّ بالوفاء إن تحقّقت الشرائط فيهم، قال تعالى: **﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ**

---

١. سورة يونس: الآية ٤٩.

﴿فَأُوْلَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً﴾[1]، فلابدّ أن يقيّد المقام بهذه الآية الشريفة التي تكون تفسيراً لها.

قوله تعالى: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾.

بيان مستقلّ للتنويه بمقام الشاكرين ووفور جزائهم، ولبيان أنّ الشاكرين لم يكونوا يقصدون في أعمالهم إلّا وجه الله تعالى وشكره، ولا يمكن أن ينقطع الجزاء عنهم، ولذا لم يذكر سبحانه وتعالى كيفيّة الجزاء وكمّيته، لعدم التحديد في كلّ منهما، وللتعظيم والترغيب حتّى يذهب ذهن السامع أي مذهب ممكن.

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾.

ثناءٌ جميل على جميع السعداء الذين وفوا بعهدهم وثبتوا على الصراط المستقيم، وشيّدوا أركان التوحيد القويم. وبشارة هامّة لمَن استقام عن الطاعة لله عزّ وجلّ، وتشويق للمؤمنين بالإيتمام بالمتّقين الذين أبلوا البلاء الحسن في نصرة دين الله تعالى، والاعتبار بما جرى عليهم والاتّعاظ منهم، وتثبيت لما ورد في الآيات السابقة، فكأنّ الآية الشريفة خاتمة لجميع تلك الآيات، واشتملت على مضمونها، وتوبيخ لمن انهزم في اُحد، فإنّهم لم يستنّوا بسنّة المجاهدين الربّانيّين، وإنذار للذين جاهدوا مع سيِّد الأنبياء، وتحمّلوا أنواع البلاء والأذى، بأن لا يعجبوا بفعلهم، فإنّ سنّة مَن قبلهم كانت كذلك أيضاً.

وكأين: تفيد معنى كم الخبرية والتكثير، وقد استُعملت في القرآن الكريم في سبعة مواضع.

و(من) بيانية.

---

١. سورة الإسراء: الآية ١٨ و ١٩.

و(**ربيون**) هو المنسوب إلى الربّ، كما يُقال: ربّاني.

وقال في «الكشاف»: قرئ بالحركات الثلاث وإنّما كسرت الراء لتغيير النسب، فإنّ النسبة تكون معها تغييرات كثيرة في بناء الكلمة، وقد تقدّم في قوله تعالى: ﴿**وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ**﴾[1] معنى الكلمة.

وقيل: إنّ الكلمة مشتقّة من (ربة) بكسر الراء، أو ربَوة وهي الجماعة، ثمّ اختلفوا في عددها.

فقيل: إنّها الجموع الكثيرة، قيل: إنّها ألوف.

وقيل: إنّها عشرة آلاف.

وقيل: إنّها أُلوف الأُلوف، وقد وردت في القولين الاخيرين روايتان.

يمكن أن يكون المراد بذلك كمّية خاصّة اتّصفوا بالربّانية، فيختلف عددهم حسب اختلاف الأزمنة، فلا نزاع في البين.

وكيف كان، فنسبة الربّي إلى الربوة يحتاج إلى تصرّف زائد بقلب الواو ياءً، ثمّ حذف الياء، مع أنّ ظاهر الآية الشريفة التوبيخ لأصحاب النبيّ ﷺ المنهزمين في أُحد، فلو كان لمجرّد بيان العدد فلا يستفاد منه التوبيخ ولا موقع له، يُضاف إلى أنّه تعالى وصفهم بأوصاف حميدة وجليلة، ممّا يدلّ على عدم وجودها في كلّ أحد.

والمعنى: وكم من نبيّ قاتل معه في جهاده في إقامة الحقّ ونصرة دين الله تعالى مَن كان منتسباً إلى الربّ وتخلق بأخلاق الله تعالى وتربّى بتربيته الرسول الكريم والنبيّ العظيم فصبروا. فلماذا فررتم عن سيّد الأنبياء ﷺ ولم تصبروا ؟!! وقد وصف الله تعالى الربّيين بأوصاف تدلّ على جلالة قدرهم.

---

١ . سورة آل عمران: الآية ٧٩.

قوله تعالى : ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ .

وصف أوّل ، وهو عدم لحوق الوهن في عزائمهم بما أصابهم من الشدائد والأذى في الحرب ، والجهاد في سبيل الله تعالى ، أو ما عجز عن الجهاد عند قتل أنبيائهم أو شاع قتلهم ثبتوا على دينهم .

قوله تعالى : ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ .

وصف ثان . وهو عدم إصابة الضعف في أبدانهم ، وما فتروا لأنّهم لم يستسلموا للرعب والخوف وروعة الحرب وشدّتها ، ويمكن أن يكون المراد بالوهن الضعف للمجموع والضعف للآحاد .

قوله تعالى : ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ .

وصف ثالث .

والاستكانة : هي الخضوع والذلّة بحيث يؤثّر في نفوسهم ويوجب الرجوع عن الإيمان والانقلاب الى الكفر ، ويحتمل أن يكون كلّ وصف من الأوصاف المتقدّمة إشارة إلى طائفة من الطوائف التي كانت مع نبيّنا الأعظم ﷺ ، فالأوّل إشارة إلى الجماعة التي رجعت عن الحرب وولّوا الأدبار ، والثاني إشارة إلى الطائفة التي همّت بالفصل واستسلموا للرعب أو المال ، كالذين رجعوا عن فم الشعب ، والثالث هم المنافقون المرجفون الذين رجعوا عن نصرة رسول الله ﷺ .

قوله تعالى : ﴿وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ .

أي أنّ الربّيين مع مقاساتهم الأهوال وتوارد أنواع الشدائد عليهم صبروا ، وكفاهم فخراً أنّ الله يحب الصابرين فيوفيهم أجرهم بأحسن وجه ويعظم قدرهم ومنزلتهم ، وفي الآية الشريفة كمال الثناء عليهم وبيان وجه العلّة فيه .

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾.

بعدما بيَّن عزّ وجلّ أفعالهم وأحوالهم ذكر في هذه الآية الشريفة أقوالهم لتتمّ الحجّة على المؤمنين، فإنّ عليهم الاتّعاظ من أفعالهم وأقوالهم والاعتبار بها والاستنان بسنّتهم والاقتداء بهم، حتّى لا يتكرّر منهم الوهن والفشل في جنب الله تعالى ونصرة دينه.

والآية المباركة تبيِّن شدّة صلتهم بالله تعالىٰ وكمال خضوعهم له عزّ وجلّ، فقد كان قولهم مطابقاً لفعلهم ولم يختلفا.

وما كان قولهم في تلك الحال إلّا الاعتصام بالله تعالى قولاً، وطلب الغفران لذنوبهم التي توجب بُعدهم عنه تعالى، وقطع الفيض الربوبي.

قوله تعالى: ﴿وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾.

أي: تجاوزنا عن الحدود التي حدّدها الله تعالى لنا، فإنّ شدّة الحال قد توجب صدور بعض الهفوات والزلّات والتجاوز عن الحدّ.

وهذا الدُّعاء منهم يدلّ على استصغار عملهم، واعترافهم بالتقصير في مقام عبوديّتهم، وكمال انقطاعهم إليه تبارك وتعالى.

وإنّما قدّموا الدُّعاء بالمغفرة على غيره لإزالة الحجب عن وصول الفيض والعطف الربوبي، ولتقدّم التخلية على التحلية.

قوله تعالى: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾.

أي: لا تزلّ أقدامنا عن الصراط المستقيم، وفي جميع الأحوال لا سيما عند الجهاد والطاعة لئلا تضلّنا الأهوية ومضلّات الفتن.

قوله تعالى: ﴿وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

لتطهير الأرض من مآثمهم ومفاسد أخلاقهم ، فإنّ طهارتهم من الذنوب يستلزم النصرة على من يكون محاطاً بها .

وإنّما قدّم طلب الغفران والتوفيق ، لأنّ الدّعاء الصادر عن الخضوع والطهارة أقرب إلى الاستجابة .

قوله تعالى : ﴿فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا﴾ .

تعظيم لهم لما يترتّب على طاعتهم الثواب العظيم ، أي أعطاهم الله تعالى جزاءً لما قالوا ثواب الدُّنيا ، فأنعم عليهم أنواع النِّعم الدنيوية؛ كالنصر وحسن السمعة والسعادة الدائمية .

وترتّب الآية الشريفة على ما تقدّم من قبيل ترتّب المسبّب على السبب .

قوله تعالى : ﴿ وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ .

تفضيل لثواب الآخرة على ثواب الدُّنيا وارتفاع قدره ومنزلته وتوصيف ثواب الآخرة بالحسن ، لبيان أنّ ثواب الدُّنيا في مقابل ثواب الآخرة ضئيل جدّاً ، بل ليس فيه حسناً .

قوله تعالى : ﴿ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ .

أي جزاءً لإحسانهم والله يحب المحسنين ومحبة الله تعالى لعبده مبدأ كلّ خير وسعادة ، وفي الآية الشريفة الترغيب إلى تحصيل تلك المناقب والتحريض على الدخول في المحسنين .

***

بحوث المقام

بحث أدبي:

قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾، فيه وجوه من الإعراب:

فقيل: إنّه جملة حالية من فاعل الفعلين «لا تهنوا، ولا تحزنوا»، فتكون كالاحتجاج عليهم في النهي عن الوهن والحزن.

وقيل: إنّ الجملة ابتدائية، فتكون متضمِّنة للبشرى بالعلوّ.

وقيل: إنّها جملة حالية مطلقاً في جميع الحالات في علم الله تعالى، وبحسب علمكم بما وعده الله تعالى وبشّره لكم، كما عرفت.

والفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ﴾ لحكاية الحال واستمرار ذلك في المتقاتلين».

وتلك في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا﴾، اسم إشارة يُشار به إلى البعيد يفيد التفخيم والتعظيم، و«الأيّام» عطف و«نداولها» خبر، وقيل: اسم الإشارة مبتدأ و«الأيّام» خبره و«نداولها» في موضع نصب حال من «الأيّام»، وفعل المضارع دال على الاستمرار والتجدّد. واللام في «الأيّام» إمّا للعهد، أي: أوقات الظفر، أو للجنس، أي أيّام الدُّنيا وما يقع فيها من الحوادث.

واللام في قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ للعاقبة، أي: ولتكون العاقبة أن يتحقّق في الخارج المعلوم، وهو إيمان المؤمنين.

وقيل: للتعليل.

والجملة معطوفة على فعل آخر، أي ليظهر امركم وليعلم أو ليتميّز المؤمن من غيره وليعلم.

والالتفات إلى الغيبة في قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾، وإسناده إلى الاسم الظاهر لبيان أنّ كلّ صفة من صفاته المقدّسة الكمالية لها مجمع واحد وهو اسم الجلالة، ولإظهار المهابة والعظمة.

و«أم» في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ منقطعة.

وقيل: إنّها مقدرة بـ(بل) وهمزة الاستفهام الإنكاري.

ولكن الحقّ إنّ هذه الكلمة تفيد الإنكار، ولا يحتاج إلى التقدير.

وجملة: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمْ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا﴾ حال من «تدخلوا» مؤكّدة للإنكار، وكلمة «لمّا» تفيد النفي المستمرّ حتّى يتحقّق المعلوم في المقام.

وإنّما ذكر عزّ وجلّ «لمّا» دون «لم» لبيان أنّ الجهاد قد يتحقّق منهم في المستقبل.

والواو في قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ بمعنى مع، ويعلم منصوب بـ(أن) المضمرة، فيكون العلم الصابرين قيداً لا أثر العلم بالمجاهدين.

وقيل: إنّ الواو للاستيناف أو الواو للحال بتقدير وهو، و(يعلم) مرفوع على كلا التقديرين.

وتمنون في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ﴾، أصله تتمنّون فحذفت إحدى التائين.

و(كأيّن) قيل: إنّها مركّبة من كاف التشبيه وأي الموصولة ورسمت النون للمحافظة على التنوين في الأصل، وأنّها صارت بعد التركيب اسماً تفيد معنى (كم) الخبرية والتكثير، ومحلّها الابتداء وما بعدها تمييزها وخبرها.

ثمّ ذكروا أنّ (كم) و(كأين) متشابهتان في خمسة اُمور، هي: الإبهام، والبناء، ولزوم التصدير، وإفادة التكثير، والافتقار إلى التمييز.

وتخالف (كأين) (كم) في خمسة اُمور أيضاً: أنّها مركّبة وكم بسيطة ـ على

ما ذكره جمع ـ وأن تمييزها مجرور بـ من غالباً، وأنّها لا تقع مجرورة، وأن خبرها لا يقع مفرداً، وأنّها لا تقع استفهامية.

والصحيح أنّ (كأين) كلمة بسيطة لا أنّها مركّبة والنون أصلية، والمعروف أنّ فيها لغات أربع قرئ بها «كأين» بالتشديد وهذه القراءة معروفة ومرسومة في المصحف، و(كائن) مثل كاعن، و(كئن) مهموزاً مقصوراً مثل (كعن)، و(كأين) مثل كعين.

وقاتل في قوله تعالى: ﴿قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ﴾ خبر و«ربيون» فاعل.

وقيل: إنّ الفاعل ضمير يعود إلى النبيّ ﷺ و(معه ربيون) جملة حالية لقاتل.

وهو ضعيف؛ لأنّ الجملة الاسمية تحتاج في كونها حالاً إلى الرابط بالواو أو بها مع الضمير، ولا يصحّ الاكتفاء بالضمير وحده كما هو المعروف عندهم.

وقيل وجوه أُخرى في إعراب هذه الجملة.

وجملة: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا﴾ قولهم بالنصب خبراً لكان واسمها المصدر المتحصّل من أن وما بعدها. والاستثناء مفرّغ من أعمّ الأشياء.

وقيل (قولهم) بالرفع على أن يكون اسم كان والخبر أن وما في حيزها، أي: وما كان شيئاً إلاّ قولهم.

***

بحث دلالي:

تدلّ الآيات الشريفة على أُمور:

الأوّل: يدلّ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ أنّ الوهن والحزن في الحقّ قبيح عقلاً مع العلم بالعلو، فالنهي إرشادي لا أن يكون مولوياً، مع أنّ الحزن إنّما يكون على شيء قد خسره الإنسان وفات منه بدون عوض،

وأمّا العمل الذي يكون محفوظاً لديه عزّ وجلّ ويجزى عليه بأحسن وجه ، فلا وجه للحزن عليه .

وفي الآية الشريفة تأديب للمؤمنين في كيفيّة حزنهم ووهنهم .

الثاني : يدلّ قوله تعالى : ﴿**إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ على أنّ الانتهاء عن الوهن والحزن إنّما يكون على قدر الإيمان بالله تعالى ، لأنّه جُنّة واقعية تمنع المؤمنين عن الوقوع في المهالك .

وهذا الخطاب ينبّه الإنسان إلى محاسبة نفسه، والاستعداد للقاء الشدائد، وأخذ الحيطة في الاقتحام في المهالك، والنظر في مقدار الإيمان ومعرفة خصوصيّاته ، فإنّ الإمداد الإلهي والنصر إنّما يكون على قدر اللياقة .

الثالث : يستفاد من قوله تعالى : ﴿**إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ**﴾ ، أنّ القرح الذي أصابهم لم يكن نكاية ، والتعبير بالمسّ لتهوين المصاب ، والخطاب يفيد حضور مضمون الآية في أذهان المخاطبين واستمراره في جميع الأعصار .

ويمكن أن تكون تعقيب الآية الأُولى بهذه الآية لبيان أنّ سبب الوهن والحزن هو ما شاهدوه من القرح الذي أصابهم .

الرابع : يدلّ قوله تعالى : ﴿**وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**﴾ على أنّ الزمان يكون ظرفاً للأعمال ، وإنّما العبرة بالأعمال التي تقع فيه والتي لها الخلود ، وأنّ العاقبة مع المتّقين من الناس .

الخامس : الآيات الشريفة : ﴿**إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ**﴾ كلّها تبيّن الغرض ووجوه الحِكَم في حروب رسول الله ﷺ مع الأعداء ، وقد ذكر عزّ وجلّ في

الآيات السابقة بعض الوجوه، وذكر في هذه الآيات بعضها الآخر، وهي تحقّق سنّة الله تعالى وإقامتها في الناس، وتحقّق معلوم الله في إيمان المؤمنين وتمحيصهم واتّخاذ الشهداء، ومحق الكافرين. وهذه الوجوه يحكم بحسنها العقل السليم والفطرة المستقيمة، وسيأتي في الموضع المناسب تفصيل الكلام فيها إن شاء الله تعالى.

السادس: يدلّ قوله تعالى: **﴿وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾** على أنّ التخطّي عن الأحكام الإلهيّة والخروج عن طاعة الله عزّ وجلّ، وما ورد في الآيات السابقة ظلم، والله تعالى لا يحبّ الظالمين وكفى بذلك خزياً، ويستفاد منه أيضاً أنّ ذلك يوجب تسلّط الظالمين، فإنّ مقادير الأُمور ومجرى الأسباب العادية تقتضي استيلاء الظالمين لو تحقّقت المخالفة وتركت الطاعة.

السابع: يستفاد من قوله تعالى: **﴿وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾** أنّ تمحيص المؤمنين يستلزم محق الكافرين، فإنّ الله تعالى ينقص الكافرين شيئاً فشيئاً حتّى يفنيهم ويُقيم دولة الحقّ وتظهر كلمة الله ويستولي أهل الحقّ والعدل على الظلم والعدوان.

الثامن: يستفاد من إطلاق ما تقدّم من قوله تعالى: **﴿وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾** أنّ التمحيص كما يقع على الفرد يقع على المجتمع أيضاً، فإذا وقع على المؤمن اقتضى ظهور فضائله الكامنة، وإذا وقع على المجتمع يوجب تمييز المؤمن عن الكافر والمنافق.

وأمّا المحق، فإنّه يتحقّق بعد توارد الامتحانات الإلهيّة على الكافر التي توجب ظهور الخبائث الكامنة في الكافر وزوال الفضائل الظاهرية، فكان ذلك محقا تدريجيّاً حتّى ظهور دولة الحقّ التي تقضي على أصل الظلم والعدوان، قال تعالى: **﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾**، وإنّما قدَّم عزّ وجلّ التمحيص على

المحق ، لسبق رحمته على غضبه .

التاسع : يدلّ قوله تعالى : **﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ﴾** على أنّ دخول الجنّة إنّما يكون بالمجاهدة والصبر ، وبهذين العمادين انتظم النظام الأحسن وحفظ المجتمع الاسلامي واُقيمت وحدته وتحقّقت شوكته ، وأنّ الظفر والفوز في الدُّنيا والدخول في الجنّة في الآخرة ، لا يكون بالأماني والغرور ، بل بالمجاهدة والمكافحة والمصابرة .

والآية الشريفة تبيِّن حقيقة من الحقائق الواقعية التي لا يمكن التخلّف فيها ، وسنّة إلهيّة لا يدخل فيها التغيير والتبديل .

العاشر : يدلّ قوله تعالى : **﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾** ، على أنّه لابدّ للمؤمنين محاسبة أنفسهم وامتحان قلوبهم في كلّ ما يريدون الإقدام عليه ، ليختبروا مدى تحمّلهم المصاعب والشدائد ، وأنّ مجرّد التمنّي من دون عزيمة وعمل لا يوصل الإنسان إلى الواقع ، فلابدّ من الامتحان والاختبار حتّى ينال المقصود .

الحادي عشر : يستفاد من الشرط والجزاء في قوله تعالى : **﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾** ، أنّ إيمان بعض كان قائماً بوجود النبيّ ﷺ ويزول بزواله ، وأنّ موت النبيّ ﷺ أو قتله يقتضي ظهور الكفر الباطن عند جمع ويوجب تركهم القيام بالدين ، وأنّ إيمانهم كان ظاهرياً لأجل الثواب الدنيوي كما في بعض الأحاديث ، ولذا أكّد سبحانه على الشاكرين وكرّر ذكرهم وبيّن جزاءهم الأوفى ، ووعدهم الحسنى مقابلة لتلك الطائفة .

الثاني عشر : يستفاد من قوله تعالى : **﴿وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾** التنويه بمقام الشاكرين ، وهو يدلّ على وجود طائفة في مَن آمن بالنبيّ ﷺ قد استحكم فيهم الدِّين واستقاموا على الصراط المستقيم ، وأظهروا الشكر العملي ولم ينقلبوا على

أعقابهم؛ لأنّهم دخلوا في زمرة الشاكرين والذين استقرَّ فيهم الشكر وصار ملكة فيهم لا تفارقهم، ويدلّ على ذلك ذكر الوصف الذي يدلّ على الاستقرار وصيرورة المعنى ملكة في المتلبّس، بخلاف الفعل الذي يدلّ على مجرّد التلبّس، ولذا لم يرد في القرآن الكريم اسم الشاكرين على نحو التوصيف إلّا في هذين الموردين.

الثالث عشر: إطلاق قوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ**﴾، يشمل جميع النفوس نباتية كانت أو حيوانية، أو إنسانية، أو روحانية، فإنّ موت كلّ ذي نفس لا يكون إلّا بقضاء الله تعالى وقدره التفصيلي الإحاطي، وهذا هو المراد بالإذن، سواء كان بدون سبب اختياري من الغير أم كان كذلك، ولكن لابدّ من انتهاء كلّ ذلك إلى الحيّ القيوم، خصوصاً ما يتعلّق بالحياة مطلقاً.

ومن ذلك يعلم أنّه لا معنى للنزاع في القتل أو غيره ـ ممّا يوجب موت الإنسان ـ هل يكون هو الموت الطبيعي أو لا، فإنّ الموت سواء كان طبيعيّاً أم غير طبيعي متحقّق بزهاق الروح بلا إشكال. نعم مدّة العمر والأجل شيء آخر، وقال بعض المحقِّقين:

موتا طبيعياً غدى اخترامي ... قيس إلى كلية النظامي

يعني: كلّ موت اخترامي موت طبيعي إذا قيس الموت إلى كلّية النظام الأحسن، وأمّا إذا لوحظ الموت الاخترامي بنفسه لنفسه، فقد يكون مختلفاً مع الموت الطبيعي في الزمان والأجل.

الرابع عشر: تبيِّن الآيات الشريفة: ﴿**وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ**... إلى آخر الآيات﴾ حقيقة الطائفتين المتقدِّمتين؛ وهما المنقلبون على الأعقاب والمؤمنون الثابتون، فذكر عزّ وجلّ أنّ الأُولى عملت لأجل الدُّنيا وثوابها واستهانوا بالسنّة الإلهيّة في الموت والحياة واعتقدوا بطلان الملك الإلهي والتدبير الربّاني. وأمّا الطائفة الثانية، فقد وصفهم الله تعالى بأحسن الأوصاف وأعظمها،

ويكفي في فخرهم أنّه وصفهم بالشاكرين والمحسنين ، والله تعالى يحبّهما .

الخامس عشر : يستفاد من قوله تعالى : ﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ**﴾ ، جلالة قدرهم ورفعة منزلتهم ، فقد نعتهم عزّ وجلّ بنعوت تدلّ على كمالهم وتوجّههم إلى الله تعالى وطاعتهم له عزّ وجلّ واحترامهم للأنبياء ، وقد أحبّهم الله تعالى لجهتين :

تارةً : لأجل صبرهم .

وأُخرى : لأجل إحسانهم .

وهذا هو فضل عظيم وفخر كبير وفوز عظيم .

السادس عشر : تدلّ الآية الشريفة : ﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ**﴾ ، على أنّ جميع ما ورد فيها من مكارم الأخلاق وأفضل المناقب ، وأنّها من سُبل الإحسان ومَن اتّصف بها يدخل في زمرة المحسنين الذين يحبّهم الله تعالى .

ويستفاد منها أيضاً أنّه لابدّ للمؤمن من ملازمة الخضوع والخشوع وظهور آثارهما على الأقوال والأعمال حتّى يحبّهم الله تعالى .

السابع عشر : يدلّ قوله تعالى : ﴿**وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾ ، أنّ هدف كلّ مؤمن في جهاده وكفاحه هو النصرة على القوم الكافرين، وإخماد نارهم وإذهاب شوكتهم، وتطهير الأرض من مكائدهم ومفاسدهم وإحقاق الحقّ ، وهذا هو المحق الذي ذكره عزّ وجلّ في ما سلف من الآيات الشريفة ويطلبه المؤمنون في دعوتهم ، ولا معنى لحقّانية الحقّ في مقابل الباطل إلّا طلب النصرة عليه تكويناً واختياراً .

***

بحث عرفاني:

الاستقامة في الحقّ وبالحقّ من أبرز مقامات الأنبياء والمرسلين والأولياء

الصالحين والعرفاء الشامخين، وهي عبارة عن الصراط المستقيم، بل هي حقيقة الجنّة التي تظهر في الآخرة بأحسن مطلوب، ولا يمكن أن تحصل الاستقامة إلّا باختبار العبد وامتحانه وتمحيصه بأشدّ البلاء، لتظهر مكارم أخلاقه الكائنة في نفسه وإذهاب ما هو فاسد فيه، فلو لم يكن اختبار لما كان هذا الجزاء الجزيل ولا ترتّبت هذه الثمرات المطلوبة، وبعد ذلك للتأييدات السماوية دخل في البين على نحو الاقتضاء لا العلّية التامّة، وأسّ الاستقامة في الحقّ بالحقّ، وأساسها مبني على تجلّي عظمة الله تعالى في القلب واحتقار ما سواه، بحيث لم ير العبد شيئاً غيره جلّت عظمته، وكلّما اشتدّ ذلك في القلب وظهر أثره على الجوارح اشتدّت الاستقامة ورسخت في النفس، وحقيقة المجاهدات الشرعية سواء كانت نفسانية أم خارجية مع أعداء الله تعالى، لا تكون إلّا من سبل الاستقامة واستحكام حقيقة الشكر في النفس وظهور الخشوع والخضوع على الجوارح والجوانح، وهذا هو السرّ في تكرار «الشاكرين» في الآيات المتقدِّمة وذكر صفاتهم، وما يوجب رسوخ الشكر في النفس.

***

بحث روائي:

في «الدر المنثور»، عن ابن عبّاس في قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾، قال:

«انهزم أصحاب رسول الله ﷺ يوم أُحد فبينا هم كذلك إذ أقبل خالد بن الوليد بخيل المشركين يريد أن يعلو عليهم الجبل، فقال النبيّ ﷺ: اللّهُمَّ لا يعلّون علينا، اللّهُمَّ لا قوّة لنا إلّا بك، اللّهُمَّ ليس يعبدك بهذه البلدة غير هؤلاء النفر، فأنزل الله تعالى هذه الآيات وثاب نفر من المسلمين رماة فصعدوا الجبل ورموا خيل المشركين حتّى هزموهم، فذلك قوله تعالى: ﴿**إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾.

أقول: لا ريب في علوّ الإسلام مطلقاً حقيقة، فضلاً عن دعاء الرسول ﷺ.

وفي «تفسير العياشي»، عن زرارة، عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله تعالى: **﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾**، قال: «ما زال منذ خلق الله تعالى آدم دولة الله تعالى ودولة لإبليس، فإنّ دولة الله ما هو إلّا قائم واحد».

أقول: المراد بالقائم مَن يقوم بالحقّ وإحقاقه في مقابل الباطل. وأنّ المراد بالوحدة الوحدة النوعية لا الشخصية، فتنطبق على كلّ نبيّ في كلّ عصر، خصوصاً علىٰ سيِّدهم في عصر ظهوره، وعلى مَن سيظهر في دولة الحقّ.

وفي «تفسير العياشي» أيضاً، عن الوشا، عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: **﴿وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾**، قال: «والله لتمحصنّ، والله لتميزنّ، والله لتغربلنّ حتّى لا يبقى منكم إلّا ندر [الأبذر] ـ الحديث ـ».

أقول: الحديث مطابق للوجدان؛ لأنّ كلّ أحد إذا أراد أن يتّخذ صديقاً لنفسه، لا يتبادر إلى كلّ مَن يدّعي الصداقة إلّا بعد الامتحان والاختبار.

وفي «تفسير القمي»، في قوله تعالى: **﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمْ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾**، قال: «ولما ير لأنّه عزّ وجلّ قد علم قبل ذلك مَن يجاهد ومَن لا يجاهد، فأقام العلم مقام الرؤية، لأنّه يعاقب الناس بفعلهم لا بعلمه».

أقول: المراد بالرؤية ما ذكرنا من الوقوع الخارجي، فإنّ الرؤية لا تتعلّق إلّا بما هو واقع في الخارج.

وفي «تفسير القمي»، في قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾**، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام:

«إنّ المؤمنين لمّا أخبرهم الله تعالى بالذي فعل بشهدائهم يوم بدر ومنازلهم في الجنّة، رغبوا في ذلك فقالوا: اللّهُمَّ أرنا قتالاً نستشهد فيه، فأراهم الله إيّاه يوم

أُحد، فلم يثبتوا إلّا مَن شاء الله منهم، فذلك قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَتَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ﴾**».

أقول: هذا سيرة جميع الناس في كلّ عصر عندما يخبرون بالشهادة وفضلها ومناقبها فيتمنّونها، وفي مقام العمل يحجمون عنها.

وفي «تفسير القمي»، في قوله تعالى: **﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾**، قال:

«إنّ رسول الله ﷺ خرج يوم أُحد وعهد العاهد به على تلك الحال، فجعل الرجل يقول لمَن لقيه: إنّ رسول الله ﷺ قد قتل، النجا، فلمّا رجعوا إلى المدينة أنزل الله تعالى: **﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾**، قال عطية العوفي: لمّا كان يوم أُحد انهزم الناس فقال بعض الناس: قد أُصيب محمّد فاعطوهم بأيديكم فإنّما هم إخوانكم، وقال بعضهم: إن كان محمّد قد أُصيب ألا تمضون على ما مضى عليه نبيّكم حتّى تلحقوا به؟ فأنزل الله تعالى في ذلك **﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ** ـ إلى قوله تعالى ـ **وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ** ـ الآية».

أقول: الروايات في ذلك كثيرة، وجميعها من باب التطبيق.

وفي «أمالي الشيخ»، عن ابن عبّاس: «إنّ عليّاً عليه السلام كان يقول في حياة رسول الله ﷺ: إنّ الله عزّ وجلّ يقول: **﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾**، والله لا ننقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله، ولئن مات أو قُتل قاتلت عليه حتّى أموت، والله إنّي لأخوه وابن عمّه ووارثه فمَنْ أحقّ به منّي».

أقول: الأحاديث في ذلك كثيرة، والوجه في ذلك أنّ نبيّ كلّ زمان ـ خصوصاً سيّدهم ـ إنّما يكون مثالاً لله تعالى من حيث الأخلاق والأقوال، ولابدّ

وأن تكون أُمّته مثالاً للنبيّ من هذه الجهة حتّى تصبر مثالاً لأخـلاق الله تـعالى بواسطة النبيّ ، فكلّ مَن بقي على كونه مثالاً لنبيِّه فقد وفى بعهده وبقي على ملّته ولم يضرّه موت النبيّ أو قتله ، إذ لا فرق حينئذٍ لديه بين حياة النبيّ وموته؛ وكلّ مَن تخلّف عن ذلك فقد ارتدّ ورجع على عقبيه ، بلا فـرق بـين أنـحاء التـخلّف والرجوع ، فإنّ الكفر والارتداد ذو مراتب كثيرة ، كما تقدّم في هذا التفسير .

وفي «تفسير القمي» ، في قوله تعالى : **﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ﴾** ، الربّيون : الجموع الكثيرة ، والربوة : الواحدة عشرة آلاف .

وفي «المجمع» : «الربّيون عشرة آلاف ، وهو المروي عن أبي جعفر عليه السلام» .

وفي «تفسير العياشي» : «الربّيون أُلوف آلاف» .

أقول : تقدّم في التفسير ما يتعلّق بهذه الروايات .

***

الآية ١٤٩ ـ ١٥١

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾.

بعدما أمر عزّ وجلّ المؤمنين باتّباع الأنبياء وأنصاره المجاهدين الصابرين المكافحين في تثبيت دعائم الدِّين وأركان التوحيد، وبيّن ما لهم من الفضل العظيم والأجر الجزيل وحسن العاقبة، يبيِّن سبحانه وتعالى في هذه الآيات المباركة أصلاً من أُصول النظام الإسلامي وحقيقة من الحقائق الاجتماعية التي تحفظ وحدة الاجتماع، وهو الإيمان بالله العظيم والاعتقاد بأنّه مولى المؤمنين يكفيهم وينصرهم، وقد أمرهم بالإعراض عن الكافرين الذين ما برحوا في تثبيط عزيمة المؤمنين وإرجاعهم إلى الكفر والارتداد عن الإيمان، وقد نهاهم عزّ وجلّ عن متابعتهم، وبيَّن ما يترتّب عليها من الآثار السيِّئة وسوء العاقبة، وقد وعد سبحانه وتعالى المؤمنين بالنصر على الكافرين الذين أوعدهم سوء العاقبة.

والآيات المباركة من تتمّة الآيات النازلة في أُحد، حيث يذكر عزّ وجلّ بعض ما جرى في هذه الغزوة العظيمة التي قلّما اشتملت غزوة أُخرى مثلها من

الحقائق والتعليم.

وقد أمر سبحانه وتعالى في هذه الآيات بأن لا يطيعوا غير ربّهم، الذي هو مولاهم يكفيهم أُمورهم ويعينهم على مقاصدهم.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا**﴾.

خطاب إلى المؤمنين اعتناءً بشأنهم وتذكيراً بأنّ الإيمان الذي هم عليه ينافي طاعة غير ربّهم عزّ وجلّ، وإنّما ورد «إن» في قوله تعالى: ﴿**إِنْ تُطِيعُوا**﴾ إيذاناً بأنّ الإطاعة بعيدة الوقوع من المؤمنين.

والمراد بالطاعة إمّا العامّة في جميع الأُمور، أو في خصوص الجهاد، كما أنّ المراد بالذين كفروا هم الذين لم يؤمنوا بنبوّة نبيّنا الأعظم ﷺ، سواء كانوا من المشركين أم المنافقين الذين كفروا بقلوبهم وإن آمنوا بأفواهم.

ويستفاد من الاية الشريفة أنّ الكافرين كانوا يلقون على المؤمنين ما يوجب التنازع والتفرقة والاختلاف وما يثبطهم عن الجهاد في سبيل الله تعالى وقتال أعدائه عزّ وجلّ، ويدلّ عليه ما ورد في الآيات اللاحقة التي يحكم سبحانه وتعالى فيها بعض مكائدهم.

ويمكن أن يُقال: بأنّ ذلك من الأُمور الطبيعيّة في كلّ إجتماع مكوّن من طبقات أو مركّب من فرق مختلفة الأهواء، فإنّ كلّ فرقة تعين على الفرقة الأُخرى بكلّ ما يتاح لها من السُّبل قولاً أو فعلاً، وفي المجتمع الإسلامي المنافقون والمشركون وغيرهم ـ ممّن يجحد نبوّة محمّد ﷺ ـ كان لهم الدور الكبير في هذا الشأن، وقد حذّر الله عزّ وجلّ المؤمنين من طاعتهم في مواضع متعدِّدة من القرآن الكريم، وحكى تعالى بعض المصاديق إتماماً للتحذير، وليكون الزجر على أكمل الوجه.

قوله تعالى: ﴿**يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ**﴾.

الردّ على الأعقاب هو الرجوع إلى الوراء. ومادّة (عقب) تدلّ على التأخّر، سواء كان في الخير أم في الشرّ، زماناً أو شأناً، والأوّل كما في حديث الذكر الذي علّمه رسول الله ﷺ للزهراء عليها السلام: «معقبات لا يخيب قائلهن؛ أربع وثلاثون تكبيرة وأربع وثلاثون تحميدة وثلاث وثلاثون تسبيحة».

والثاني كما في الرواية: «ويل للأعقاب من النار».

والمعنى: أنّكم لو أطعتم الذين يرجعونكم إلى ما كنتم فيه من الكفر والضلال والشرك بالله تعالى، سواء كان الضلال والرجوع إلى الكفر دفعةً أم تدرّجاً. ومن ذلك إطاعتهم في ترك الجهاد، والقتال أو طلب الأمان منهم كما صدر عن بعض المؤمنين في غزوة أُحد عند ما غلبوا على أمرهم بادئ الأمر، فإنّه يقتضي تسلّط الكافرين على المؤمنين والميل إلى ولايتهم، وهو يوجب الردّ عن الإيمان.

ومضمون الآية الشريفة لا يختصّ بعصر نزول القرآن الكريم، بل هو حقيقة من الحقائق التي أكّد القرآن الكريم عليها بأساليب مختلفة، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ**﴾[1].

قوله تعالى: ﴿**فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ**﴾.

أي: فترجعون إلى ورائكم وأنتم خاسرون للدُّنيا والآخرة، وهو أعظم الخسران للإنسان.

قوله تعالى: ﴿**بَلِ اللهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ**﴾.

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٠٠.

إضراب عن تولّي الكافرين لأنّهم ليسوا أهلاً للطاعة . أي فلا تطيعوا الكفّار ، بل أطيعوا الله تعالى مولاكم وناصركم ، وقد وعدكم النصر وتولّي شؤونكم بعنايته الخاصّة ، قال تعالى : **﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾**[1] .

قوله تعالى : **﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ﴾** .

بيان لكونه خبر الناصرين ، ووعدٌ منه تعالى بنصر المؤمنين بالرعب وخذلان الكافرين .

والرعب : بسكون العين شدّة الخوف والفزع ، وهو ممّا اختصّ به ﷺ كما في الحديث المعروف : «ونصرت بالرعب مسيرة شهر»؛ فكان أعداءه قد أوقع الله تعالى في قلوبهم الخوف منه ، فإذا كان بينه وبينهم مسيرة شهر هابوه وفزعوا منه .

والمعنى : سنفرغ في قلوب الذين كفروا الرعب بسبب إشراكهم بالله العظيم . وإنّما عبّر سبحانه وتعالى بنون العظمة «سنلقي» ، والتفت في الكلام على طريق المهابة والكبرياء ، وأكّد عزّ وجلّ الإلقاء بالسين «سنلقي» ، اهتماماً بالموضوع .

وقد ذكر عزّ وجلّ من أفراد النصر إلقاء الرعب في قلوب الأعداء ، وهو ما وعده به عزّ وجلّ المؤمنين في مواضع مختلفة ، وأنّه من مختصّات خاتم النبيّين ﷺ كما تقدّم في الحديث ، وقد شهد به التأريخ في حروبه مع المشركين .

وإنّما ورد اسم الجلالة صريحاً لبيان أنّ هذا الاسم الجامع لجميع صفات الكمال ينافي اتّخاذ الشريك له ، ويشمل الشرك كلّ أنحائه في الذات والخلق والفعل وإسناد التأثير لغيره ، كالدهر والمادّة وغيرها .

قوله تعالى : **﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً﴾** .

---

١ . سورة الأنفال : الآية ٤٠ .

السلطان: هو الحجّة والبرهان، وإنّما عبّر تعالى به لإثبات التسلّط على الخصم، فيستفاد أنّ كلّ ما زعموه من الحجج في إثبات الشرك باطل وموهون.

والآية المباركة تنفي النزول والوجود معاً، فإنّه لا حجّة في ثبوت الشريك حتّى ينزلها.

قوله تعالى: ﴿**وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ**﴾.

المأوى: هو المكان الذي يأمن اليه ليستريح فيه ويحتمي به، وفي هذا التعبير تبكيت لهم بسوء العاقبة. أي إنّ مكانهم الذين يأوون إليه في الآخرة ليستراح فيه هو النار، لا مأوى لهم غيرها.

قوله تعالى: ﴿**وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ**﴾.

المثوى: هو المكان الذي يمكث فيه، وهو من ثويت على وزن مفعل قُلبت لامه ياءً، أي المكان الذي يؤوى إليه الظالمين هو بئس المكان الذي يمكثون فيه ولا يمكنهم مفارقته بسبب ظلمهم.

وإنّما وضع الظاهر موضع المضمر، ولبيان أنّ إيواءهم إنّما يكون أبدياً وهم خالدون فيه، كما أنّ في ذكر الظالمين بيان للعلّة في استحقاقهم هذا الجزاء، لأنّهم في إشراكهم ظالمون.

***

بحوث المقام

بحث دلالي:

الآية الشريفة تبيِّن جانباً آخر من الجوانب المتعدِّدة في غزوة أُحد، وهو إطاعة المنافقين والمشركين في شأن الجهاد وإقامة الدِّين، وترتيب الأثر على أقوالهم وأفعالهم، وقد حذَّر سبحانه وتعالى المؤمنين في مواضع متعدِّدة في القرآن الكريم وبيَّن الآثار السيِّئة التي تترتَّب عليه بأساليب مختلفة، فقد ذكر عزّ وجلّ في المقام من تلك الآثار السيِّئة الخسران في الدُّنيا والآخرة وهو معلوم؛ لأنّ في إطاعة الذين كفروا إذهاب شوكة المسلمين وحرمانهم ممّا أوعده الله تعالى لهم من النصر والسعادة، وتبديل الأمن إلى الخوف والامتهان والإذلال، وهذا هو الخسران في الدُّنيا، وأمّا الآخرة فلهم عذاب أليم وحرمان ممّا وعد الله المتّقين، وتتضمّن الآية الشريفة أهمّ التعاليم الإلهيّة للمؤمنين.

كما أنّ الآية الشريفة تبيِّن أنّ السبب في إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا هو الشرك، وهذا جار على طبق السنّة الإلهيّة في قانون الأسباب والمسبّبات، وكلّما تحقّق هذا السبب يتحقّق المسبّب، فلا اختصاص لذلك بالذين كفروا، بل يجرى في المؤمنين إذا هم أعرضوا عن الدِّين الحقّ، وهذا ما نراه من حال المؤمنين فإنّهم كانوا في أعزّ مقام وأحسن حال، ولكنّهم أصبحوا مرعوبين يخافون من كلّ أحد، مع أنّ الله تعالى وعدهم النصر وحسن العاقبة وهو يفي بعهده إن وفوا بعهدهم.

***

بحث روائي:

في «تفسير القمّي»، في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ**

كَفَرُوا... الآية﴾، عن علي عليه السلام : «يعني عبد الله ابن أُبيّ ، حيث خرج مع رسول الله صلى الله عليه وآله ثمّ رجع قال للمؤمنين يوم أُحد يوم الهزيمة : ارجعوا إلى إخوانكم وارجعوا إلى دينكم» .

أقول : الرواية من باب التطبيق .

وفي «الدر المنثور» في قوله تعالى : **﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾**، قال السدي : «لمّا ارتحل أبو سفيان والمشركون يوم أُحد متوجّهين إلى مكّة انطلقوا حتّى بلغوا بعض الطريق ، ثمّ إنّهم ندموا وقالوا : بئس ما صنعنا قتلناهم حتّى لم يبق منهم إلّا الرشيد تركناهم ، إرجعوا فاستأصلوهم ، فلمّا عزموا على ذلك ألقى الله تعالى في قلوبهم الرعب حتّى رجعوا عمّا عزموا وأنزل الله تعالى هذه الآية» .

أقول : تقدّم في التفسير ما يدلّ على ذلك .

***

الآية ١٥٢ ـ ١٥٥

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمْ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ للهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾.

لما وعد الله المؤمنين النصر والظفر على الأعداء وذكر سبحانه وتعالى ما يوجب نيل هذا الفيض الإلهي، وهو التقوى والصبر والثبات وشدّة العزيمة، يبيِّن عزّ وجلّ في هذه الآيات صدق وعده، كما يبيِّن السبب في الهزيمة التي لحقت بالمؤمنين، وهو عصيان أمر الرسول ﷺ والتنازع في شؤون الحرب، وعدم

الثبات والصدق في النيّة.

كما ذكر سبحانه وتعالى بعض خصوصيّات تلك الهزيمة التي كانت لها الأثر الكبير على المؤمنين، ووعد عزّ وجلّ بالعفو والمغفرة.

وهذه الآيات المباركة تبيِّن جانباً آخر من الجوانب المتعدِّدة في غزوة أُحد التي كانت درساً كبيراً للمؤمنين.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾.

مادّة (حسس) تدلّ على وصول شيء إلى الحاسة (أي الإدراك)، فإن كان بآفة فهو القتل وأمثاله وإلّا فهو من مجرّد الحس، ويستعمل هذه المادّة في القتل على سبيل الاستئصال كما يُقال: «حسوهم بالسيف حساً»، أي استأصلوهم قتلاً. والحسيس هو القتيل وزناً ومعنىً.

أي: لما وعدكم الله تعالى النصر، فقد وفىٰ بوعده وأظهر مصداقه لمّا وفيتم بالشروط وهي الصبر والتقوى والثبات كما عرفت، وكان هذا النصر أوّل الأمر في غزوة أُحد حين ظهروا على عدوّهم وقتلوهم قتلاً ذريعاً وأجلوهم من مواقعهم وهزموهم بإذن الله تعالى، إلّا أنّهم لم يستمرّوا على الشروط فكان الفشل والهزيمة والعتاب، كما حكى عنهم عزّ وجلّ في الآيات التالية.

وإنّما قيّد عزّ وجلّ القتل بإذنه لبيان أنّ ذلك من مصاديق الوعد الذي وعدهم به.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم﴾.

بيان بأنّ الوعد بالنصر كان مستمرّاً من الله تعالى إلى أن تحقّق منهم ما

أوجب انقطاع ذلك الفيض، وقد ذكر عزّ وجلّ أموراً ثلاثة وهي: الفشل، والتنازع في الأمر، وعصيان أمر الرسول الكريم ﷺ.

أمّا الفشل: فقد ظهر منهم عندما كرَّ عليهم المشركون بعد فرارهم والمؤمنون لم يقدروا أن يملكوا أنفسهم عن الغنيمة، فظهر الجبن والجور عليهم.

وأمّا التنازع: فقد حصل من الرماة عندما رأوا أنّ أصحاب الرسول ﷺ بدأوا بجمع الغنائم فتنازعوا بينهم في ترك المكان، حيث رغب أكثرهم في الغنيمة فقالوا: ما بقاؤنا هاهنا وقد انهزم المشركون، وقال الآخرون: لا نبرح من هذا المكان ولا نخالف أمر الرسول.

وأمّا العصيان: فقد كان في مخالفة أمر الرسول ﷺ بعدم ترك المكان مهما كان الأمر، كما أنّه حصل أيضاً بالفرار عن رسول الله ﷺ، كما يأتي في الآيات التالية.

و «حتّى» للغاية، و «إذا» بمعنى الوقت والحين لا الشرط، وقيل إنّها للشرط وقد حذف الجواب ليذهب ذهن المخاطب في تقديره كلّ مذهب.

قوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾.

أي: أنّ كلّ ذلك حصل منكم من بعدما رأيتم النصر وقتل المشركين وهزيمتهم. وفيه التنبيه على قبح ما صدر منهم، وعظم المعصية، وزيادة في التفريع، لأنّ الذي يرى توارد النِّعم عليه وإنجاز الوعد بالنسبة إليه، لابدّ أن يمتنع عن المعصية ولا يقدم على مخالفة المُنعم، وإلّا كان كفراناً وسبباً في سلب الإكرام والفيض عنه، وهذا ما جرى عليهم في اُحد.

قوله تعالى: ﴿ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾.

تفصيل بعد إجمال وبيان لسبب التنازع الذي حصل منهم في ترك المكان،

فإنّ مَن ترك فم الشعب وخالف أمر الرسولﷺ آثر الحياة الدُّنيا والغنيمة على طاعة الرسولﷺ والجهاد في سبيل الله، ومنهم من آثر الآخرة وامتثل أمر الرسولﷺ فثبت وجاهد حتّى استشهد.

قوله تعالى: **﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾**.

بيان للأثر الذي ترتّب على أفعالهم. والجملة عطف على «صدقكم الله»، أي أنّ الله تعالى صدقكم وعده وأيّدكم بالنصر ومنَّ عليكم بهزيمة الأعداء، ولكن صرفكم عن المشركين بسبب ما صدر منكم من الفشل والتنازع والعصيان، فكان ذلك طبق السنّة الإلهيّة من إيكال الأمر إلى الناس إذا صدر منهم العصيان. والصرف هو الكف.

والمعنى: ثمّ كفكم عن المشركين وكان ذلك بانهزامهم بعد الظفر على المشركين، وكان سبب ذلك ظهور الاختلاف في المسلمين بالفشل والتنازع والعصيان، وكلّ ذلك كان لأجل امتحانكم واختباركم ليظهر صبركم أو رسوخ إيمانكم، فيتميّز المؤمن عن المنافق، ليجزي الله تعالى المؤمنين بمراتب إيمانهم ويرفع درجات الصابرين المجاهدين.

قوله تعالى: **﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾**.

أي: ولقد عفا الله تعالى بفضله عنكم ببركة إيمانكم، أو كان هذا العفو بعد الاختبار والتمحيص. وقد ظهر أثر هذا العفو بعد ذلك عليهم وأنجز وعده لهم بالظفر على الأعداء بعد الهزيمة.

قوله تعالى: **﴿وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾**.

تقرير لمضمون ما قبله وتأكيد لإنجاز الوعد، فهو يتفضّل على المؤمنين

بأنحاء النِّعَم، فلا يذرهم على ما هم عليه من الضعف، ويأتي في الآيات اللاحقة بعض وجوه نِعَمه وتفضّله عليهم. وإنّما ذكر «المؤمنين» تشريفاً ولبيان العلّة في الفضل، وهي الإيمان، والتنوين في «فضل» للتفخيم.

قوله تعالى: **﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ﴾**.

بيان للصرف، أي صرفكم عنهم في الوقت الذي كنتم تنهزمون فيه.

والاصعاد: هو الدخول في الصعود الى الجبال والابتعاد عن المواقع، نظير انجد، وابهم.

وقيل: الاصعاد هو الدخول في السير في الأرض، قال الشاعر:

❊ يبارين الأعنّة مصعدات ❊

أي مقبلات ومتوجّهات نحوكم.

وقال بعضهم: صعد بمعنى ذهب أينما توجّه.

ومادّة (**لوي**) تدلّ على الميل والالتفات والإعراض، يُقال: مرّ لا يلوي على أحد، أي: لا يلتفت ولا يعطف أو لا ينتظر ولا يبالي.

وقال في «المجمع»: لا يستعمل إلّا في نفي، فلا يُقال: لويت على كذا.

والمعنى: أنّ الله تعالى صرفكم عن المشركين في الوقت الذي ابتعدتم عن مواقفكم منهزمين فراراً من القتل، غير ملتفتين إلى أحد سواء كان مؤمناً مسالماً أم عدوّاً محارباً، لشدّة الدهشة والخوف الذي وهمكم.

قوله تعالى: **﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾**.

الأُخرى مقابل الأُولى، وآخر القوم: الجماعة التي في آخرهم.

أي: والرسول ﷺ من ورائكم يناديكم إليه.

وهو يدلّ على إمعان القوم في الفرار وابتعادهم عن الرسول ﷺ حتّى كان

النداء والدّعاء في آخرهم، وهم لا يبالون إلى دعائه وندائه.

وقيل: إن «في أُخراكم» حال من الفاعل في «يدعوكم»، أي الرسول يدعوكم حال كونه في الجماعة التي ثبتت معه وهي في أُخراكم، وهم الذين وصفهم الله تعالى في الآيات السابقة بأنّهم من الشاكرين.

قوله تعالى: **﴿فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ﴾**.

مادّة (ثوب) تدل على رجوع الشيء إلى حالته الأُولى حقيقة أو اعتباراً، ويسمّى الثواب ثواباً لأنّه بمنزلة رجوع العمل إلى عامله، قال تعالى: **﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه﴾**[1]، وتستعمل في الخير والشرّ، وإن كان في الأوّل أكثر، قال تعالى: **﴿فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾**[2]، ومن الثاني قوله تعالى: **﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللهِ﴾**[3]، وكذا المقام.

والمعنى: أي رجع إليكم غمّاً مقابل غمّ أوقعتموه على المشركين، فيكون هذا مبيّناً لما تقدَّم في قوله تعالى: **﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾**، وهذه هي المداولة المذكورة في قوله تعالى: **﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾**، فيكون متعلِّق الغمّين متعدِّداً كما تقدّم في القرحين.

ويحتمل أن يكون متعلّقهما واحداً بالنسبة إلى المسلمين فقط، فالغمّ الأوّل إشراف المشركين، والغمّ الثاني وقوع الهزيمة، ويشهد له بعض الروايات.

ويحتمل وجه الثالث وهو أن يكون الغمّ الثاني مؤكّداً للغمّ الأوّل، أي: غمّاً

---

١. سورة الزلزلة: الآية ٧ و ٨.

٢. سورة آل عمران: الآية ١٤٨.

٣. سورة المائدة: الآية ٦٠.

متّصلاً وشديداً، ومنشأ الشدّة توارد الهموم عليهم، فالغمّ الأوّل هو غمّ الهزيمة، والثاني غمّ الندامة والحسرة، وذلك شائع في كلّ مقاتل انهزم حيث تتوارد عليه الغموم. وهناك وجوه أُخرى ذكرها المفسِّرون لا طائل في ذكرها والخدشة فيها.

وكيف كان، فيكون تفريع هذه الآية المباركة على الآية السابقة من قبيل ترتّب المسبّب على السبب، فإنّ الاختلاف، وعدم الاعتناء بقول الرسول صلى الله عليه وآله، اقتضى أن يقعوا في غمّ، ولكن الله سبحانه وتعالى تفضّل عليهم بأن جعل هذا الغمّ مقابل الغمّ الذي أوقعه على المشركين، فتكون هذه الجملة مبيِّنة لجهات فضله تعالى عليهم، كما بيّنه عزّ وجلّ في الآية اللاحقة أيضاً.

قوله تعالى: **﴿لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾**.

بيان لقوله تعالى: **﴿فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ﴾** وهو عدم الحزن على ما فاتكم من الظفر بعدوّكم والنصر التامّ عليه أو الغنيمة والغلبة.

قوله تعالى: **﴿وَلَا مَا أَصَابَكُمْ﴾**.

بسبب إثم المخالفة والعصيان، فإنّه كان لهما الأثر الكبير في الانكسار والهزيمة والخوف والرعب.

والمعنى: أنّ الله تعالى أثابكم غمّاً بغمّ، لأجل التسلية وعدم تراكم الغموم عليكم، ولأجل أن تذهلوا عن الحزن الذي أصابكم من الهزيمة وغلبة العدو، وهذه حكمة إلهية يختبر بها عبادة المؤمنين، ويعلّمهم الصبر في الشدائد ويرزقهم الثبات في الإيمان، وللتميز بين المؤمن والمنافق، ولتكميل الفضائل ومكارم الأخلاق، وهي سنّة إلهية، قال تعالى: **﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا**

فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.

أي: والله لا يخفى عليه أعمالكم ونيّاتكم، وهو محيط بكم وقادر على مجازاتكم.

والخبير: من أسماء الله الحسنى، وهو بمعنى العليم، ولكن العلم إذا أُضيف إلى الأُمور الخفيّة سُمِّي خُبرة، وكان صاحبها خبيراً.

وفي الآية المباركة الترغيب في الطاعة والزجر عن المعصية.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾.

الغمّ: معروف، وهو حالة تعرض على الإنسان عند المصائب والحزن، ومادّة غممّ تدلّ على الستر والخفاء، فكأنّ هذه الحالة تستر الفرح والسرور وتخفي أسارير الوجه وتضيّق الصدر.

والأمنة ـ بالتحريك ـ مصدر، كالمنعة، وهو بمعنى الأمن، وفي حديث نزول المسيح بعد ظهور الحجّة (عجّل الله تعالى فرجه الشريف): «وتقع الأمنة في الأرض»، أي تمتلئ الأرض بالأمن، فلا يخاف أحد من الناس والحيوان.

والنعاس ما يتقدّم على النوم من فتور ويظهر اثره على العين ابتداءً، وهو بدل اشتمال من أمنة الذي هو مفعول «أنزل»، وقيل غير ذلك في إعرابهما.

والغشيان: الإحاطة.

والمعنى: أنّ الله تبارك وتعالى ـ رأفةً بكم ـ أنزل عليكم من بعد الغمّ الذي أصابكم ما يشغلكم عن خوفكم ويغفلكم عن ذلك الغمّ، بأن سلّط عليكم النعاس الذى أصاب طائفة منكم وأحاط بهم، وكانت هذه الحالة بمنزلة الأمن لكم. وهذه

---

١. سورة الحديد: الآية ٢٢ و ٢٣.

الطائفة هي التي أصابها الغمّ الشديد وتراكم عليهم من عدّة وجوه؛ كالخوف من الله تعالى ، وغمّ المخالفة ، وغمّ الهزيمة ، وغمّ الندم على الذنب ، وكانت هذه نعمة كبرى عليهم وسكينة إلهية وعناية خاصّة بهم في هذه الحالة التي سلبت عنهم لبّهم وازداد غمّهم ، فكان النعاس لهم راحة للأجسام بعد الضعف والفتور ، واطمئنان للقلب الذي أصابه الغمّ ، والتسليم لقضاء الله وقدره . وهؤلاء هم الذين رجعوا إلى النبيّ ﷺ واحتفّوا به ونصروه .

قوله تعالى : ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ .

أي : وطائفة أُخرى مقابل الطائفة الأُولى ، الذين لم يكونوا أهلاً لهذه المنحة الربّانية واللّطف الإلهي بهم ، فلم يكن لهم همّ إلّا حفظ أنفسهم وحطام الدُّنيا ، فلم يهتمّوا بحفظ النبيّ ﷺ ودين الحقّ بشيء أصلاً . وإنّما كان شغلهم الشاغل أنفسهم لمّا اعتراهم الخوف ، وهم الضعفاء في الإيمان ، الذين لم يثقوا بوعد الله تعالى ولم يرسخ الإيمان في قلوبهم ، يميلون مع كلّ ريح . ولا تختصّ هذه الطائفة بخصوص المنافقين كما ذكره بعض المفسّرين ، بل يجري في كلّ مَن كان ضعيف الإيمان .

ويستفاد من الآية الشريفة شدّة الخوف واستيلائه عليهم ، بحيث سلب النعاس عنهم ، فلم يكن لهم همّ إلّا نجاة أنفسهم ، فيكون المراد بالنعاس في الآية السابقة النوم الطبيعي الذي يعرض على الإنسان ويوجب الراحة في الجملة له ، وكان ذلك بفضل الله تعالى عليهم والندم على ما فعلوه ، بحيث حصل لهم الطمأنينة بوعد الله عزّ وجلّ .

قوله تعالى : ﴿يَظُنُّونَ بِاللهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ .

بيان لقوله تعالى : ﴿أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ ، لأنّ شغل أهل الجاهلية لم يكن إلّا الاهتمام بالنفس وحفظها فقط ، فلا محالة تنتفي عنهم الثقة بالله تعالى ، وتعرض

جهات الخوف على النفس، فيظنّون بالله ظنّاً باطلاً كظنّ أهل الجاهلية، والمراد بالظنّ هنا الاعتقاد، وسيأتي في الآيات اللاحقة ذكر بعض ما اعتقدوه، كقوله تعالى ـ حكاية عنهم ـ: ﴿**لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا**﴾، وقوله تعالى: ﴿**هَلْ لَنَا مِنْ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ**﴾.

ومن الظنون الباطلة أنّ مَن آمن بالله تعالى لابدّ أن يحفظ من جميع أنواع البلايا ويسعد في الدُّنيا، لفرض أنّه على دين الحقّ وهو لا يُغلب.

وهذا الظنّ باطل؛ لأنّ الإيمان به تعالى لابدّ وأن يجري على المجرى الطبيعي، وقد حكى عزّ وجلّ في ما تقدّم من الآيات ابتلاء المؤمنين واختبارهم وتمحيصهم، ولا يخرج كلّ ذلك عن قانون الأسباب والمسبّبات.

نعم لله تعالى عنايات خاصّة لهم، يظهر أثرها بين حين وآخر حتّى تظهر دولة الحقّ.

قوله تعالى: ﴿**يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنْ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ**﴾.

بيان لظنّهم الباطل، وهذا القول سواء كان خطاباً للرسول ﷺ أم كان في ما بينهم، ويحتمل أن يكون القول بمعنى الاعتقاد، أي يتردّدون في اعتقادهم، وهو يكشف عن عدم ثبات الإيمان في قلوبهم وتشكيكهم في الدِّين واستحكام روح الشرك والكفر.

والاستفهام إنكاري، والمراد من الأمر إمّا الحقّ، أو النصر والظفر، أو أنّ الأمر هنا هو الأمر في قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ لَكَ مِنْ الْأَمْرِ شَيْءٌ**﴾، الذي يكشف سبحانه فيه حقيقة الدِّين، وهي أنّ العبد مطلقاً لا يملك من الأمر شيئاً سوى التسليم لأمر الله تعالى، وهو المؤثّر فقط، إلّا أنّه اقتضت حكمته أن تجري الأمور بأسبابها.

والمعنى: أنّهم يقولون ليس لنا من الحقّ أو النصر والظفر نصيب، والله تعالى لاينصر رسوله كما نصره في بدر. وذلك لأنّهم اعتقدوا أنّ الدِّين والنصر متلازمان، ولم يعلموا أنّ الله تعالى جعل الأمر مداولة بين الناس واختباراً للمؤمنين وتمحيصاً لهم.

قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ**﴾.

خطاب للرسول الكريم بالتبليغ لهم، لأنّه واسطة الفيض بأنّ أزمّة الأُمور كلّها بيده عزّ وجلّ، وتجري الأُمور وفق سنّة محكمة متقنة، بها انتظم نظام الدُّنيا والآخرة وسينصر الله تبارك وتعالى المؤمنين المتّقين على ما يشاء ويريد، دون ما يعتقدون.

قوله تعالى: ﴿**يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ**﴾.

تأكيد لظنّهم الباطل، وتوصيف لهم بأشدّ ممّا وصفهم أوّلاً، ولهم يضمرون أمراً لا يبدونه لك، لرسوخ النفاق والشقاق فيهم كما كانوا في الجاهلية.

أي: وإن أظهروا ظنّهم الباطل في صورة السؤال وكان ذلك كاشفاً عن شكّهم وعدم ثبات إيمانهم، إلّا أنّهم يضمرون في أنفسهم أكثر من ذلك، فهم يكذّبون الحقيقة وينكرون الحقّ ويكفرون بالدِّين، ولكنّهم لا يبدونه لك.

قوله تعالى: ﴿**يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا**﴾.

أي: يقولون في أنفسهم أو في ما بينهم أو يعتقدون ذلك دون أن يبدونه النبيّ، لأنّه يشتمل على الكفر، وهذا القول يحتوي على الإنكار في صورة البرهان بزعمهم، وهو: لو كان الأمر لنا كما وعد به رسول الله ﷺ لما وقع القتل فينا، وإنّما قالوا ذلك زعماً منهم بأنّهم مهما كانوا من أصحاب النبيّ ﷺ بأي اعتقاد كانوا،

ينصرهم الله تعالى، وهم غافلون عن حقيقة الدِّين، وقد أمر الله تعالى نبيّه الكريم ببيان الأمر لهم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾.

البروز: الظهور، والبراز: الصحراء والأرض المستوية. والمضاجع جمع المضجع، وهو في المقام المصرع الذي قدّر القتل فيه.

أي: قل لهم يا محمّد جواباً عمّا أخبره الله تعالى بما هو مكنون في قلوبهم، وما يعتقدونه أنّ القتل تابع للتقدير والقضاء ابتلاءً للمؤمنين وتمحيصاً لهم، وتمييزاً بين الصابر المجاهد والمنافق الكاذب، فإذا تعلّقت إرادته بموت أحدٍ لخرج بسبب من الأسباب من بيته إلى مضجعه فيلقى مصرعه من دون دخل إرادته، فيفوز السعيد ويشقى الشقي، ويستفاد من الآية الشريفة أُمور:

الأوّل: إبطال زعمهم بأنّ الحقّ لابدّ أن لا يغلب، وأنّ المؤمن لابدّ أن يكون حليفه النصر دائماً، فإنّ مقادير الأُمور وتدبيراتها كلّها بيد الله عزّ وجلّ، وأنّ النصر والظفر ـ كسائر الأُمور ـ إنّما تدخل تحت سنّة إلهية، وهي جريان الأُمور بأسبابها.

الثاني: أنّ مَن قتل في المعركة إنّما كان بتقدير الله تعالى وقضائه، وليس قتله كان لأجل عدم كونه على الحقّ وعدم الأمر له، بل لأنّ القضاء الإلهي إذا تعلّق بذلك فلا رادّ لقضائه ولا مناص من وقوعه، فلو لم يخرج أحد من بيته لبرز مَن تعلّق قضاؤه بمصرعه إلى مضجعه، بل لو لم يخرجوا إلى القتل وكتب الله عليهم القتل والموت، لماتوا وقتلوا وهم في بيوتهم، لفرض تعلّق القضاء والقدر بذلك.

الثالث: أنّ تلك سنّة إلهية محكمة تتعلّق بالإنسان، لأجل الاختيار والامتحان والتمحيص وتمييز الحقّ عن الباطل.

قوله تعالى : ﴿**وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ**﴾ .

بيان لإحدى وجوه الحكمة في ما حلّ بهم ، والواو هنا مقحمة ، ويحتمل أن يكون حرف عطف علىٰ غاية مقدّرة .

أي : أنّ كلّ ذلك يقع لأجل اختبار الله تعالى ما في قلوبكم بذلك ، وليظهر مكنونها من الطاعة والنفاق .

قوله تعالى : ﴿**وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ**﴾ .

أي : ولأجل تخليص ما فيها من سوء الاعتقاد ووساس الشيطان ويطهّرها من النفاق والشرك وتمييز المؤمن الصابر المجاهد الثابت ، وإظهار ما في قلبه من النيّات الحسنة ومكارم الصفات عن غيره .

قوله تعالى : ﴿**وَاللهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾ .

لإحاطته القيوميّة بجميع الممكنات ، إيجاداً وإبقاءً وإفناءً ، ولا يعقل تلك الإحاطة إلّا بالاحاطة العلمية . والله عليم بنيّاتهم ومكنونات ضمائرهم ، وفي الآية الشريفة التحذير عن سوء النيّة ومخالفة الفعل للنيّة .

قوله تعالى : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا**﴾ .

المراد من الذين تولّوا هم الذين انهزموا من المعركة وفرّوا من أماكنهم إلى الجبال وغيرها ، كما حكى عنهم عزّ وجلّ في الآيات السابقة : ﴿**إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ**﴾ .

والمراد بالجمعين : هما جمع المؤمنين وجمع المشركين لمّا التقيا في يوم أُحد .

والاستزلال: هو الوقوع في الزلل، الذي هو الخطيئة والانحراف، ويستفاد من هذه الكلمة هو الوقوع في الذنب تدريجاً، قال الراغب: «استجرهم الشيطان حتّى زلوا، فإنّ الخطيئة الصغيرة إذا ترخص الإنسان فيها تصير مسهلة لسبيل الشيطان على نفسه»، وفي الحديث: «فأزله الشيطان فلحق بالكفّار».

والمعنى: أنّ الذين انهزموا وولّوا الدبر من المعركة يوم التقى الجمعان في أُحد، إنّما أوقعهم الشيطان في تلك الخطيئة الكبيرة، وهي الهزيمة والإعراض عن الرسول الكريم ﷺ، بسبب انقيادهم للشيطان بما كسبوه من سوء النيّة والسيّئات التي سهّلت لهم الوقوع في الذنب الكبير، وكان ذلك سببا في تمكين الشيطان أن يغويهم ويزلّهم ويوقعهم في الهلكة. وذلك لأنّ الإنسان إذا اقترف الإثم والخطيئة تأثّرت نفسه وهانت عليها، فتميل إلى اكتساب الخطيئة وتندرج من الصغيرة إلى الكبيرة، فإنّ الذنب يجرّ الذنب ويدعوا إلى الخطيئة وارتكاب الآثام.

ومن ذلك يستفاد أنّ الباء في «ببعض ما كسبوا» هي للسببيّة، فيكون الكسب متقدّماً على الاستزلال والوقوع في الذنب العظيم، وهو التولّي.

وقيل: إنّ الباء للآلة، أي أنّ الزلل الذي أوقعهم الشيطان فيه ودعاهم إليه هو التولّي، فيتّحد ما كسبوا والتولّي.

ولكنّه بعيد عن ظاهر الآية الشريفة.

وممّا يهون الخطب أنّ التولّي لم يكن حدثاً آنيّاً، بل كانت له مقدّمات أوجبت هذه النتيجة المذلّة، وهذه المقدّمات هي بعض ما كسبوا، فحينئذٍ لا فرق بين أن تكون الباء للسببيّة أو للآلة.

وإنّما ذكر عزّ وجلّ بعض ما كسبوا دون الجميع؛ إمّا لأنّ في كسبهم ما هو طاعة لله عزّ وجلّ، أو لأنّ العقوبة إنّما كانت ببعض ما كسبوا دون الجميع ؛ فإنّها تستدعى أن تكون أكبر، إلّا أنّ الله تعالى منّ عليهم بالعفو عن كثير.

قوله تعالى : ﴿**وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ**﴾.

أي : لقد عفى عن جميع المؤمنين الذين حضروا في أُحد والمنهزمين ومَن تولّوا عن الجهاد ، ببركة الرسول الكريم وما أظهروه من الندم ، وإنّما كانت عقوبة الهزيمة للاختبار والتمحيص وتربيتهم عملياً .

قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ**﴾.

الجملة في موضع التعليل لما تقدّم ، أي : عفا عنهم لأنّه غفور لجميع الذنوب ومَن يحسن التوبة ، حليم لا يعجل بالعقوبة .

ثمّ إنّ المنساق من الآيات الشريفة أنّ هذه الطائفة هم ضعفاء المؤمنين الذين لم يثبت الإيمان في قلوبهم ولم يترسّخ الدِّين في نفوسهم ، فلم تطهر قلوبهم من رذائل الجاهلية ، فظنّوا بالله الظنون الباطلة ، وأبدوا بعض ما في صدورهم وأخفوا الكثير منه ، على ما حكى عنهم عزّ وجلّ . ولا يقدح أن يكون بعضهم من المنافقين الذين كانوا يتربّصون بالمؤمنين الدوائر ، وهم لا يعتقدون بالله العظيم ، لا أن يظنّون به الظنّ الباطل ، وسيذكرهم الله تعالى في الآيات التالية .

هذا ، ولكن المعروف بين جمهور المفسّرين أنّ المراد بهؤلاء هم المنافقون الذين كانت تهمّهم أنفسهم ويظنّون بالله ظنّ الجاهلية ، ويخفون ما في أنفسهم من الكفر ، ولكنّهم يعتذرون بألسنتهم عن أنفسهم ، احتجاجاً على النبيّ ﷺ .

وفيه : أنّ المنساق من الآيات المباركة غير هؤلاء ، فإنّ الخطاب للمؤمنين ، وإرجاعه إلى المنافقين يستلزم التفكيك في الآيات الشريفة ، وهذا ينافي بلاغة القرآن الكريم ، مضافاً إلى أنّ الكلام في المنافقين يأتي في ما بعد .

ولكن ذكرنا آنفاً أنّه لا ينافي أن يتّفق هؤلاء الذين وصفهم الله تعالى بأوصاف تدلّ على ضعف العقيدة والإيمان بالله تعالى مع المنافقين في بعض

الأقوال والأفعال.

ولا ينقضي العجب من بعض المفسِّرين حيث احتمل أن يكون الخطاب للمؤمنين، وأنّ الله تعالى يحكي عن كمال إيمانهم وثقتهم بأنّ الأُمور كلّها بيده عزّ وجلّ وتحت مشيئته، وأنّهم كانوا يظنّون أنّ النصر والظفر لهم كما كان في بدر.

وبطلان هذا الاحتمال أوضح من أن يخفى، فإنّه لو كان الأمر كذلك فكيف يجعله تعالى من الظنون الجاهلية التي ذكرها عزّ وجلّ في جملة من الآيات الشريفة؟! قال تعالى: **﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾**[1]، واحتمال ورود مثل هذه الآيات في المخلصين من المؤمنين ومَن رسخ الإيمان في قلوبهم، بعيد عن أدب القرآن بالنسبة إليهم.

***

١ . سورة الأنعام: الآية ١٤٨.

بحوث المقام

بحث دلالي:

يستفاد من الآيات الشريفة أُمور:

الأوّل: يدلّ قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ**﴾ أنّ الله تعالى وعد المؤمنين وعداً حسناً بالنصر والظفر، وقد تكرّر في القرآن الكريم ذكره، ووعد به النبيّ ﷺ أصحابه في عدّة مواطن، ولكن قرن هذا الوعد بشروط قد بيّن سبحانه وتعالى جملة منها في الآيات السابقة؛ وهي الطاعة والثبات، والصبر والاستقامة، فإذا تحقّقت تلك الشروط فلا محالة ينزل الفيض الإلهي والإمداد الربوبي، وعلى قدر الخلوص والإخلاص يتقدّر الجزاء والفيض، كما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿**مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ**﴾، ويؤكّد ذلك نصر المؤمنين وهزيمة المشركين أوّل الأمر وقتل المسلمين لهم قتلاً ذريعاً حتّى أجلوهم عن مواقعهم وأخرجوهم عن ميدان المعركة، وتوقّف الإمداد الربوبي عندما ظهر الفشل والعصيان. فظهر صدق وعده عزّ وجلّ، وتبيَّن أنّ الإمداد كان محدوداً بحدّ معيّن وهو تحقّق الشروط، وما عدى ذلك لا يستحقّون العناية الخاصّة، ويكفي ذلك عبرةً للمؤمنين ودرساً لهم يجعلونه محطّ نظرهم، وموعظة لهم يستفيدون منها في المواقع الحرجة إلى يوم الحشر.

الثاني: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ**﴾ كمال العناية بالمؤمنين، وأنّ الله تعالى قد أذن لهم بقتل المشركين وأمدّهم بعناياته الخاصّة مع قلّة عددهم وعدّتهم، ولم يكلهم إلى أنفسهم.

الثالث: يدلّ قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ**﴾، على أنّ العناية

الخاصّة التي منحها عزّ وجلّ لهم إنّما كانت لأجل غاية حميدة، وهي التربية، تربية حقيقيّة واقعيّة، فإنّ الإسلام قد اهتمّ بهذه الجهة اهتماماً بليغاً حتّى جعلها عزّ وجلّ من جملة غايات بعث الرسل والأنبياء، قال تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾**[1]، ومن سنن هذه التربية إسناد بعض الأُمور إليه عزّ وجلّ لأنّه تعالى وليّ المؤمنين يؤيّدهم بنصره، وإسناد بعضها الآخر إلى أنفسهم، قال تعالى: **﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾**، باعتبار تحقّق الأسباب الداعية إلى تحقّق المسبّبات من عند أنفسهم، فإنّ قانون الأسباب والمسبّبات يدعو إلى ذلك، ثمّ يأتي العفو والغفران، وهذه هي التربية العلمية، وفيها الفضل الكبير على المؤمنين، ولذا ختم عزّ وجلّ هذه الآيات بقوله: **﴿وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾**، وقد ظهر أثر هذه التربية في عدّة مواطن بعد اُحد، ونرجوا أن يهتمّ المسلمون لهذه الجهة حتّى يظهر أثر فضل الله عليهم.

الرابع: يدلّ قوله تعالى: **﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾**، على شدّة الابتلاء وعظم المعصية، فإنّهم بسبب الفشل والعصيان أعدّوا لأنفسهم هذه الهزيمة التي أثّرت في نفوسهم وكابدوا مرارتها برهة من الزمن وتعرّضوا للنكاية بها، ويستفاد من الآية الشريفة عظم الهزيمة، فقد تفرّقوا في كلّ وجه حتّى أنّهم خرجوا عن موقع القتال، لشدّة الدهشة والذعر الكبير الذي حلَّ بهم فلم يبالوا بالرسول ﷺ وهو واسطة الفيض، وكان يجب عليهم أن يتأسّوا به ﷺ ويبقوا معه في موقع القتال، وكان عليهم الصبر وفيهم واسطة الفيض.

وفي ذكر الرسول في الآية الشريفة كمال التقريع والعتاب لهم، ولذا كانت

---

١. سورة الجمعة: الآية ٢.

النكاية كثيرة، حيث جازاهم الله تعالى بالغمّ الشديد الذي بقي أثره في نفوسهم واستمرَّ زماناً، ويكفي في ذلك أنّه نزل فيهم التقريع والتوبيخ الربوبي ولم يأمنوا من العذاب بعدما كانوا مطمئنين منه، ويدلّ على ذلك قوله تعالى: **﴿وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾**، فإنّه يدلّ على اضطراب أحوالهم وعدم استقرارهم، فإنّهم كانوا يلتمسون الأعذار لما فعلوه، ولم يعاقبهم عزّ وجلّ لأنّ فيهم رسول الله ﷺ.

والآية المباركة تدلّ على أنّ عدم اعتنائهم بدعوة الرسول ﷺ إلى الثبات والمقاومة، لشيوع خبر قتله وانتشاره بينهم.

الخامس: يستفاد من قوله تعالى: **﴿فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ﴾** على أنّ للمعاصي والذنوب آثاراً خاصّة تؤثّر في النفس وتوجب الهموم والغموم، وإنّ لكلّ ذنب الأثر الخاصّ به، كما ستعرف.

السادس: يدلّ قوله تعالى: **﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاساً﴾** على أنّ نزول النعاس كان معجزة خاصّة للطائفة المؤمنة، وأنّ الله تعالى أظهر قدرته وعنايته بهم في إنزال ما يوجب السكون والطمأنينة والأمن، في حال تقتضي الحركة والاضطراب، ولا يتصوّر فيها السكون فضلاً عن النعاس. فالمعجزة تظهر في جعل الفائدة والأثر في الأمر المضاد لتلك الحالة ظاهراً.

ويمكن أن يكون المراد من النعاس حالة الراحة والاسترخاء والسكون الموجبة للأمن. والمعروف أنّه كان المؤمن منهم بعد إنزال النعاس ينام حتّى تحت تُرسه كأنّه آمن، بخلاف غيره فإنّه أهمّتهم أنفسهم فلم يكرمهم الله تعالى بهذه المَكرمة. ونظير هذه النعمة نزلت في غزوة بدر، قال تعالى: **﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ﴾**[1]، إلّا أنّ الفرق بينهما أن في أُحد كانوا أحوج إلى الأمن من يوم بدر، لشدّة الدهشة والذعر، فاقتضى تقديم الأمن في هذه الآية المباركة بخلاف غزوة

---

١. سورة الأنفال: الآية ١١.

بدر، فأبدل الله تعالى حالة الذعر والخوف إلى حالة الأمنة والطمأنينة.

السابع: ترشد الآية الكريمة ﴿**وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ**﴾ إلى أنّ في كلّ أُمّة طائفتان؛ الأقوياء في الإيمان، الثابتون فيه، المعتقدون بحدوده وأحكامه، العاملون بها، الذين قد فوّضوا أمرهم إلى الله تعالى فمنحهم سعادة الدُّنيا والآخرة. والطائفة الثانية هم الضعفاء في الإيمان، الذين يعتقدون أنّ مجرّد الانتساب إلى الدِّين وانتحال اسمه يكفي في فوزهم بكلّ ما وعده الله تعالى في الدُّنيا والآخرة، وقد جعلوا اسم الدِّين سبيلاً لنيل مقاصدهم، يستدرون به حيث ما درّت معايشهم، وإذا لم يسعدهم الحظ انقلبوا على أعقابهم، وقد وصفهم الله تعالى بأوصاف بعضها ترجع إلى عقيدتهم ونفوسهم المريضة، وهي الظنّ بالله تعالى الظنون الباطلة، كالشكّ وإضمار أنّ الله تعالى وكّل إليهم أمر النصر ووعدهم الظفر، وهو لا يرضى بظهور أعدائه. وقد أبطل سبحانه وتعالى مزاعمهم وأظهر عقائدهم الفاسدة، ولا تختصّ الآية المباركة بعصر النزول، بل إنّها جارية إلى يوم القيامة.

الثامن: يتضمّن قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ**﴾ دستوراً إلهيّاً وحقيقة من الحقائق الواقعية التي يشهدها الإنسان في الحياة، وهي إنّ كلّ أمر في هذا النظام الكياني يجري تحت إرادته ومشيئته ووفق قانون محكم وسنّة منتظمة، لا يمكن التخلّف عنها، فإنّ الله تعالى خالق كلّ شيء وبيده ملكوت كلّ شيء، وخلقه إنّما يكون تحت إرادة حكيمة ووفق تدبير ربوبي، والاعتقاد بهذا الأمر يخفّف عن الإنسان كثيراً من الهموم ويذلّل له جملة من الصعاب، وقد ذكر سبحانه وتعالى هذه الحقيقة في مواضع كثيرة من القرآن الكريم وجعلها من جملة الأُمور التي يجب على المؤمن الاعتقاد بها، وفي الآيات التالية يبيِّن عزّ وجلّ بعض مظاهر هذه الحقيقة.

التاسع: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**وَلِيَبْتَلِيَ اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا**

﴿فِي قُلُوبِكُمْ﴾، أنّ الابتلاء والاختبار والتمحيص من غايات قتل مَن يبرز إلى مضجعه بإرادة الله تعالى ومشيئته، فإنّ ذلك سنّة لا يمكن التخلّف عنها. وإنّ السعادة والشقاوة لا تظهران إلّا بهذه السنّة الإلهيّة، وقد ذكر عزّ وجلّ في المقام أنّ الابتلاء إنّما كان لإظهار ما في الصدور وتمحيص ما في القلوب.

وقد أطلق سبحانه في الآية المتقدِّمة: **﴿وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾**، لأنّ المقام إظهار لما في القلوب بعدما أن ظنّوا بالله الظنون الباطلة، وما أضمروا في أنفسهم أكثر ممّا أبدوه بأفواههم، بخلاف الآية المتقدِّمة.

ولا يدلّ قوله تعالى: **﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾** بشيء من الدلالات على الجبر كما يدّعيه بعض، فإنّه بمعزل عن ذلك، والآية المباركة في مقام بيان كون الأمر كلّه بيد الله تعالى، ولا ينافي ذلك تطبيقه على قانون الأسباب والمسبّبات.

العاشر: يدلّ قوله تعالى: **﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾**، على أنّ المصائب والمتاعب التي تعرض عليهم ـ سواء الفردية منها أو الاجتماعية ـ إنّما هي آثار طبيعيّة لبعض أعمالهم، وأنّ لكلّ ذنب أثره الخاص به وتترتّب عليه عقوبة خاصّة، وتترك الذنوب والمعاصي آثاراً خاصّة في النفس وتكدر صفائها، وهذا ما يؤكّده جلّ شأنه في القرآن الكريم، قال تعالى: **﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً﴾**[1]، وتوجب تلك الآثار بُعدها عن بارئها حسب كبر الذنب وصغره وشدّته وضعفه، إلّا إذا انمحت بالتوبة، فيعفو الله تعالى عنها ويمحي آثارها.

الحادي عشر: يستفاد من قوله تعالى: **﴿أَنَّ اللهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾**، أنّ الغفران سبب العفو، فإنّ الله تعالى يستر الذنب ظاهراً ثمّ يمحي أثره عن النفس، وهما

---

١ . سورة فاطر: الآية ٤٥.

يزيلان المانع ويرفعان المنافي المضادّ في رضوان الله تعالى، وإطلاق قوله سبحانه يشمل جميع الآثار الوضعية والتشريعية، أي يرفع العقاب وما يمنع السعادة، وسيأتي في الموضع المناسب تفصيل الكلام.

***

بحث روائي:

في «أسباب النزول» للواحدي، في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ صَدَقَكُمْ اللهُ وَعْدَهُ** ـ الآية ـ»، قال محمّد بن كعب القرظي: «لمّا رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة وقد أُصيبوا بما أُصيبوا يوم أُحد قال ناس من أصحابه: من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله تعالى نصره؟ فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿**وَلَقَدْ صَدَقَكُمْ اللهُ وَعْدَهُ** ـ إلى قوله جلّ شأنه ـ **مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ**﴾، يعني الرماة الذين فعلوا ما فعلوا يوم أُحد».

أقول: على فرض صحّة الرواية أنّها من باب التطبيق، والله العالم.

***

الآية ١٥٦ ـ ١٥٨

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنْ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

الآيات الشريفة تبيِّن جانب آخر من جوانب غزوة أُحد، وهو ما ظهر من بعضهم من الأسف والتحسّر على الذين قتلوا فيها، وكان ذلك مظهراً آخر من الظنون الباطلة التي حكى عزّ وجلّ عنها في الآيات السابقة، فقد ظنّوا أنّ رسول الله ﷺ هو الذي أوردهم إلى هذه المهلكة، وحذّرهم سبحانه وتعالى أنّ مثل هذا الظنّ الذي من وساوس الشيطان هو الذي استزلّهم وأوردهم المهالك وأفسد قلوبهم.

ويبيِّن سبحانه وتعالى أنّ الحياة والموت أمران طبيعيّان داخلان تحت إرادته ومشيئته والجميع يحشرون إليه تعالى، والغاية التي لابدّ للإنسان في كفاحه وجهاده من ابتغائها هي المغفرة والرحمة، وهي الخير الذي يبتغيه كلّ عاقل.

***

التفسير

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

بيان إلهي يرشد المؤمنين إلى التخلّي عن اتّخاذ الكافرين قدوة يحتذى بهم في الأقوال والأفعال والاعتقاد، فإنّ الكافر جاهل بحقيقة الدِّين، ولا يعتقد الاعتقاد الحقّ، فإنّ ممّا اعتقده أنّه ينسب الحوادث والظواهر الكونية إلى أسبابها العادية فقط وإلى الصدفة، دون الالتزام باستنادها إلى الله تعالى وتصرّفه في العالم، وأنّ الأُمور تجري بإرادته ومشيئته وتقديره وقضائه. ومن المعلوم أنّ الاعتقاد الباطل يفضي بصاحبه إلى الخسران والشقاوة، وقد نهى عزّ وجلّ المؤمنين أن يكونوا مثلهم في الجهل والخسران.

والمراد بالذين كفروا: كلّ مَن يعتقد خلاف الحقّ، سواء كان من المنافقين أم غيرهم.

وقيل: إنّ المراد بهم في المقام خصوص المنافقين.

ولكنّه تخصيص بلا دليل، مع أنّ الظاهر من الخطاب هو الأعمّ، وأمّا المنافقون فسيأتي ذكرهم في ما بعد، قال تعالى حكايةً عنهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾، ولكن قد يتّحد المنافقون مع الكافرين في كثير من الأُمور.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾.

بيان لمظهر من مظاهر الاعتقاد الباطل للكافرين. والضرب في الأرض كناية عن السعي إمّا للتجارة أو طلباً للمعاش أو لأغراض أُخرى، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾[1]، يُقال: «ضربت الطير»، ذهبت تبتغي الرزق، كما يقال: «ضرب يعسوب الدِّين بذنبه» أي

---

١. سورة النساء: الآية ١٠١.

أسرع الذهاب في الأرض فراراً من الفتن.

وغزىً: جمع غاز، كعاف وعفىً وشاهد وشهد وطالب وطلب. واللام في «لإخوانهم» للشأن، أي: في شأنهم، أو تعليلية، أي لأجلهم.

والمعنى: وقال الكافرون في شأن إخوانهم في الدِّين أو في النسب إذا ضربوا في الأرض سفراً عادياً أو كانوا غزاة فمات بعضهم أو قُتل.

وإنّما قال عزّ وجلّ: ﴿**إِذَا ضَرَبُوا**﴾ دون (اذ) حكاية للحال فيفرض وجود ذلك في النفس.

وبعبارة أُخرى: إنّ القضية حقيقيّة لا تتقيّد بزمن معيّن، و(إذ) يستعمل في الظرف إذا كان وقتاً شخصيّاً.

قوله تعالى: ﴿**لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا**﴾.

أي: كان من اعتقادهم الباطل أنّهم قالوا: لو كانوا مقيمين عندنا ولم يسافروا ولم يغزوا ما ماتوا وما قتلوا. وهذا من سوء الرأي، ويدلّ على جهل قائله بحقيقة الدِّين، فإنّ مقادير الأُمور تحت مشيئة الله تعالى وقضائه وقدره، كما بيَّن عزّ وجلّ ذلك في الآيات السابقة، قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ**﴾، وأنّ موت كلّ فرد إنّما يكون بإذن الله عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً**﴾[1]، وغير ذلك من الآيات الشريفة الدالّة على ذلك، وأنّ القضاء والقدر وإيكال الأمر إليهما أصل من أُصول الدِّين. ويكفي في بطلان قولهم ومخالفته للعقل أنّهم يعتقدون أنّ من مات أو قتل فقد ختم حياته وانتهى أمره، كما تدلّ عليه كلمة «لو» في قوله تعالى: ﴿**لَوْ كَانُوا**﴾ الدالّة على امتناع موتهم أو قتلهم عند حضورهم لديهم، ولكنّهم غافلون عن حقيقة الأمر.

---

١. سورة آل عمران: الآية ١٤٥.

قوله تعالى: ﴿لِيَجْعَلَ اللهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

أي: أنّ قولهم واعتقادهم إنّما يبعث في نفوسهم الحسرة، واللام للعاقبة.

يعني: تكون عاقبة اعتقادهم الحسرة والندامة، فيعذّبون بهما، والجملة من قبيل وضع الغاية موضع المغيّىٰ، فإنّهم يتألّمون كلّما يفكّرون في أمواتهم قتلاً أو غيره، ويتحسَّرون عليهم ويتأسّفون ويقولون: لماذا تركناهم يسافرون أو يغزون ولم ندفع عنهم السوء، فيزيدهم ضعفاً ويورثهم ندماً وحسرة.

قوله تعالى: ﴿وَاللهُ يُحْيِ وَيُمِيتُ﴾.

ردّ لمزاعمهم الباطلة، وبيان لحقيقة الأمر التي لابدّ من الاعتقاد بها، وهي أنّ الله تعالى بيده أمر الحياة والموت وهما من الأُمور المختصّة به عزّ وجلّ وحده، فيُحيي مَن يشاء من عباده ويُميت مَن يشاء بمقتضى قواعد وسنن خاصّة، لا يعلمها إلّا هو؛ لأنّ أسرار القضاء والقدر في التكوينيّات ممّا لا يمكن للعقل الإحاطة بها، فإذا تحقّق مؤثّرهما فلامحالة تقع الحياة أو الموت ولا رادّ لقضائه.

قوله تعالى: ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

أي: لا يخفى على الله تعالى ما تعملون، فلا تكونوا أيُّها المؤمنون مثل الذين كفروا في الاعتقاد والعمل، وفي الآية الشريفة كمال الترهيب عن المعصية والترغيب في الطاعة، والتهديد للمؤمنين عن المماثلة مع الكفّار، فليتّقوا الله في تركها. والآية المباركة صريحة في أنّ الله تعالى يعلم الجزئيات ويراها.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ﴾.

حكمة أُخرى من وجوه الحِكَم في النهي عن المماثلة للكفّار في الأقوال والأعمال والاعتقاد، وهي أنّ عمدة ما يبتغيه الإنسان في كفاحه في هذه الحياة

الدُّنيا هو ما يجمعه من المال والمتاع اللذين بهما يقضي مآربه ويحقِّق آماله ومقاصده ويمضي بهما شهواته، وما عند الله تعالى أعظم وأكبر من ذلك، وهو الخير الذي لابدّ من السعي في ابتغائه ونيله.

والسبيل الذي يصل الى الله عزّ وجلّ هو القتل في سبيل الله أو الموت في رضاء الله تعالى، كالموت على الإيمان والأعمال الصالحة، فإنّ ذلك هو الفوز العظيم، وما سواه ضئيل لابدّ أن لا يعتنى به.

قوله تعالى: **﴿لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾**.

أي: يكون أجركم على الله تعالى، وهو مغفرة من الله تمحى بها الذنوب، ورحمة ينال بها رضوان الله تعالى، وترتفع بها الدرجات، وهما خير ممّا يجمعه الإنسان من حطام الدُّنيا.

وإنّما قدّم القتل في سبيل الله على الموت، لأنّ القتل أقرب إلى المغفرة والرحمة، وللترغيب إليه، والتعريض بمَن كان يثبّط المؤمنين عنه، والردّ على الكفّار.

قوله تعالى: **﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ﴾**.

بيان للواقع الذي عليه الإنسان في الدُّنيا والآخرة، وهو أنّ أي فرد من أفراد الإنسان ـ بأي سبب كان هلاكه سواء كان بالموت أو القتل ـ لابدّ أن يُحشر إلى الله تعالى وحده، فيحاسبه على أعماله ويجازيه بها؛ إن خيراً فخير وإن شرّاً فشرّ، وعليه تعالى يقدّم الإنسان فيوفيهم أُجورهم، وعداً مؤكّداً عليه.

وإنّما قدّم الموت على القتل، لأنّ الأوّل أعمّ من الثاني وأكثر، فناسب الترتيب الطبيعي، بخلاف الآية السابقة.

***

بحوث المقام

بحث أدبي:

تقدّم أنّ «غزىً» جمع نادر في المعتل، وهو خبر (كانوا) منصوب بفتحة مقدّرة على الألف المنقلبة عن الواو المحذوفة لالتقاء الساكنين، لأنّ أصله (غزوا) فتحرّكت الواو وانفتح ما قبلها فقبلت ألفاً ثمّ حذفت، وقرئ بتخفيف الزاي.

وإنّما أتى عزّ وجلّ بجمع القلّة للإشارة إلى أنّه لابدّ من ترك ذلك والتقليل منه إذا لم يكن في سبيل الله تعالى.

والواو في قوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ يُحْيِ وَيُمِيتُ**﴾ للحال، كما أنّ اللام في قوله تعالى: ﴿**وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ**﴾ موطئة للقسم، وأنّ اللام في قوله تعالى: ﴿**لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ**﴾ واقعة في جواب القسم، وجواب الشرط محذوف لدلالة جواب القسم عليه.

والتنوين في «لمغفرة ورحمة» للتنكير، ولبيان عدم حدّ للمغفرة والرحمة، وليذهب ذهن المخاطب إلى أي مذهب ممكن.

وقرأ الجمهور (متم) بالكسر، من مات يمات، مثل خفتم، من خاف يخاف، وقرأ بعضهم بضم الميم من مات يموت، مثل: كنتم، من كان يكون.

***

بحث دلالي:

يستفاد من الآيات الشريفة أُمور:

الأوّل: الآية الشريفة: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا**﴾ تؤكّد مضمون الآيات السابقة، وتضع حدّاً فاصلاً بين الأقاويل الكاذبة، وما هو الحقّ، وتبيِّن للمؤمنين ما يجب الاعتقاد به، لا سيما في الظروف الصعبة التي لابدّ من أخذ الحيطة والحذر من المنافقين والتمسّك بتعاليم الإسلام، ولدفع كيدهم.

الثاني: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا**﴾، إنّما قالوا ذلك تثبيطاً لمن بقي من إخوانهم لئلا يلحقوا بالمؤمنين حتّى لا يصيبهم ما أصاب السابقين فيموتوا أو يُقتلوا، فهم كانوا يعتقدون امتناع موت إخوانهم أو قتلهم عند حضورهم لديهم، فكأنّهم العلّة في حفظهم، وهذا نحو من الشرك.

الثالث: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**لِيَجْعَلَ اللهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ**﴾، أنّ بعض الاعتقادات الفاسدة توجب الحسرة في الحال أو في المآل، ويمكن أن يكون إشارة إلى أنّ عمل المؤمنين بالتعاليم الإلهيّة والأحكام الشرعية يوجب الحسرة في قلوب الأعداء، لأنّهم يرون أنّ العمل بها لا يزيد المؤمنين إلّا ثباتاً وشدّة في جنب الله تعالى، وهذا ممّا يزيد في حزنهم وندامتهم، وهم يريدون عكس ذلك، فإنّ الإيمان لا يزيد صاحبه إلّا تسليماً وثباتاً واستقامةً وارتفاعاً لمقامهم.

الرابع: يستفاد من قوله تعالى: ﴿**وَاللهُ يُحْيِ وَيُمِيتُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾، أنّ جميع ما يحتمله الإنسان نافعاً في دفع المكروه عنه، هو من مجرّد الظنّ لا يغيّر الواقع عمّا هو عليه، وأنّ الأمر بيد الله تعالى يجريه بمقتضى قانون الأسباب والمسبّبات، والله يعلم ما في الضمائر، فقد يخيّب آمال الإنسان جزاءً لاعتقاده الفاسد، فلابدّ من تسليم الأمر إليه عزّ وجلّ وطلب العون منه.

الخامس: يستفاد من الترديد في قوله تعالى: ﴿**لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرَحْمَةٌ**﴾ اختلاف مقامات العاملين؛ فمنهم مَن يكون عمله هباءً منثوراً، لأجل شركه أو كفره، ومنهم مَن يعمل لثواب الدُّنيا، ومنهم مَن يعمل لثواب الآخرة بحسب مراتبه الكثيرة.

السادس: يستفاد من إطلاق قوله تعالى: ﴿**لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ**﴾، بروز الأعمال حينئذٍ، فيُحشر كلّ أحد مع عمله ويجازى به، كما مرّ.

***

بحث روائي:

في «تفسير العياشي»، عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: **﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أَوْ مُتُّمْ﴾**، قال عليه السلام: «يا جابر، أتدري ما سبيل الله؟ قال: لا أعلم إلّا أن أسمعه منك، قال عليه السلام: سبيل الله عليّ وذرّيته عليهم السلام، ومَن قتل في ولايتهم قتل في سبيل الله، ومَن مات في ولايتهم مات في سبيل الله».

أقول: هذا من باب التطبيق وذكر أحد المصاديق، لأنّه ورد من الموت في سبيل الله، الموت في طريق الحجّ والجهاد، كما ورد أيضاً في الموت في سبيل الله الموت في تعلّم الأحكام وتحصيلها، والموت في المشي الى الصلاة.

في «تفسير العياشي» أيضاً، عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: **﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ﴾**، وقد قال الله تعالى: **﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾**، فقال أبو جعفر عليه السلام: «قد فرّق الله بينهما، ثمّ قال: أكنت قاتلاً رجلاً لو قتل أخاك؟ قلت: نعم، قال عليه السلام: فلو مات موتاً كنت قاتلاً به؟ قلت: لا، قال عليه السلام: ألا ترى كيف فرّق بينهما؟!!».

أقول: لا ريب في اختلاف أصناف الموت وأنواعه، ولا ربط لأحد الأصناف والأنواع بالآخر، فذات الموت شيء والقتل شيء آخر، وإن كان الأخير سبباً له، وهو عليه السلام يبيّن منشأ الخلاف، والرواي تمسّك بذكر جنس الموت كما في قوله تعالى: **﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾**.

ويحتمل أن تكون هذه الرواية إشارة الى تعدّد الموت والقتل بحسب تعدّد العوالم، فمَن مات في هذا العالم يمكن أن يُقتل في عالم الرجعة، والعكس بالعكس، كما وردت به روايات متعدِّدة يأتي ذكرها في الآيات المناسبة لها إن شاء الله تعالى.

والحمد لله أوّلاً وآخراً

***

«الفهرس»

سورة آل عمران الآية ٦١ ـ ٦٣

سورة آل عمران الآية ٦٤ ـ ٦٨

بحوث المقام

سورة آل عمران الآية ٦٩ ـ ٧٤

بحوث المقام

سورة آل عمران الآية ٧٥ ـ ٧٨

بحوث المقام

سورة آل عمران الآية ٧٩ ـ ٨٠

بحوث المقام

سورة آل عمران الآية ٨١ ـ ٨٥

بحوث المقام

سورة آل عمران الآية ٩٣ ـ ٩٥

بحوث المقام

سورة آل عمران الآية ٩٦ ـ ٩٧

بحوث المقام

سورة آل عمران الآية ٩٨ ـ ١٠١

بحوث المقام

سورة آل عمران الآية ١٠٢ ـ ١٠٨

بحوث المقام

سورة آل عمران الآية ١٠٩ ـ ١١٢

سورة آل عمران الآية ١١٦ ـ ١١٧

بحوث المقام

سورة آل عمران الآية ١١٨ ـ ١٢٠

بحوث المقام

سورة آل عمران الآية ١٢١ ـ ١٢٩

بحوث المقام

سورة آل عمران الآية ١٣٠ ـ ١٣٢

بحوث المقام

سورة آل عمران الآية ١٣٣ ـ ١٣٨

سورة آل عمران الآية ١٣٩ ـ ١٤٨

بحوث المقام

سورة آل عمران الآية ١٤٩ ـ ١٥١

بحوث المقام

سورة آل عمران الآية ١٥٢ ـ ١٥٥

***